





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الموضع د ن / ر ٥



التفسير الوسيط  
للقرآن الكريم

تفسير  
سورة العنكبوت

دكتور  
محمد رشيد طنطاوي  
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة للدواف  
الطبعة الثانية

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله  
وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا تفسير مفصل لسورة آل عمران ، حاولت فيه أن أكشف  
عن بعض ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات قويمه ، وهدايات  
جامعة . وإرشادات حكيمه ، ووصايا جليله ، وآداب عالية ، وحجج باهرة .  
تقذف حقها على باطل الضالين فتدمنه ، فإذا هو زاهق ...

وقد رأيت من الخير-قبل أن أبدأ في تفسيرها أن أسوق كلمة بين يديها  
تكون بمثابة التعريف بها ، وبيان فضلها ، ومقاصدها الإجمالية ، والموضوعات  
التي اهتمت بالحديث عنها ...

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وثافما لعباده ، لأنه أكرم  
مسئول وأعظم مأمول .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

محمد سيد طنطاوي

القاهرة .. مصر الجديدة

٢٠ من رجب سنة ١٣٩٣ هـ

١٩ أغسطس سنة ١٩٧٣ م



## تعريفُ سورة آل عمران

سورة آل عمران هي السورة الثالثة في ترتيب المصحف ؛ إذ نسبها في الترتيب سورتا الفاتحة والبقرة .

وتبلغ آياتها مائتي آية . وهي مدنية باتفاق العلماء .

وسميت بسورة آل عمران ، لورود قصة آل عمران بها بصورة فيها شيء من التفصيل الذي لا يوجد في غيرها .

والمراد بآل عمران عيسى ، ويحيى ومريم ، وأمه . والمراد بعمران والده مريم أم عيسى - عليه السلام - .

وقد ذكر العلماء أسماء أخرى لهذه السورة منها :

أنها تسمى بسورة الزهراء ، لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتاب من شأن عيسى - عليه السلام - .

وتسمى بسورة الأمان ، لأن من تمسك بها أمن الغلط في شأنه .

وتسمى بسورة الكنز، لتضمنها الأسرار التي تتعلق بعيسى - عليه السلام - .

وتسمى بسورة المجادلة ، انزول أكثر من ثمانين آية منها في شأن مجادلة

الرسول - صلى الله عليه وسلم - لوفد نصارى نجران .

وتسمى بسورة طيبة ، لجمعها الكثير من أصناف الطيبين في قوله - تعالى -

« الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار . . . » .

قال القرطبي ما ملخصه : وهذه السورة وردت في فضلها آثار وأخبار . . .

فن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان الكلابي قال : سمعت

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : يؤتى بالقرآن يوم القيامة وبأهله

الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران - وضرب لها رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق - أى ضوء - أو كأنهما فرقان ، أى قطعتان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما ...

ثم قال : وصدر هذه السورة نزل بسبب وفد نجران ، وكانوا قد وفدوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأثر صلاة العصر ، عليهم ثياب الحبرات (١) . . .

فقال بعض الصحابة : ما رأينا وفداً مثلهم جمالا وجماله .

وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا في المسجد إلى المشرق . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : دعوم . ثم أقاموا بها أياماً يناظرون رسول - صلى الله عليه وسلم - في شأن عيسى ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرد عليهم بالبراهين الساطعة ونزل فيهم صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية ، إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المياهدة (٢) . . .

أما النصف الثاني من سورة آل عمران فقد كان نزول ما يقرب من ستين آية منه (٣) في أعقاب غزوة أحد .

هذا ، ونرى من الخير قبل أن نبدأ في تفسير هذه السورة الكريمة بالتفصيل أن قد ذكر على سبيل الإجمال ما اشتملت عليه من توجيهات سامية ، وآداب هالية ، وأحكام جليلة ، ونشريات قويمه . . .

إنك عندما تفتح كتاب الله - تعالى - وتطالع سورة آل عمران تراها

(١) الحبرات : جمع حبرة . وهي ثياب يمانية .

(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣ .

(٣) من الآية ١٢١ - ١٧٩ .

في مفتحتها تثبت أن المستحق للعبادة إنما هو الله وحده ، وتقيم البراهين الساطعة على ذلك . . .

« ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس ، وأنزل الفرقان .

ثم بعد أن مدحت أصحاب العقول السليمة لقوة إيمانهم ، وشدة إخلاصهم وكثرة نضرهم إلى خالقهم - سبحانه - وبشرتهم بحسن العاقبة . . . بعد أن فعلت ذلك ذمت الكافرين وتوعنتهم بسوء المصير فقالت : « إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار . . . »

ثم تحدثت عن الشهوات التي زينت للناس ، وبينت ما هو خير منها ، وصرحت بأن الدين الحق الذي ارتضاه الله لعباده هو دين الإسلام ، وأن أهل الكتاب ما تركوا الحق الذي جاءهم به محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا بسبب ما استولى على قلوبهم من بغي وجمود ، وأنهم بسبب ما ارتكبوه من كفر وجرائم في الدنيا ، سيكون حالهم يوم القيامة أسوأ حال وسيكون مصيرهم أشنع مصير ، فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . . .

ثم نعت السورة الكريمة المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء يلقون إليهم بالمودة ، وذكرتهم بأن الله - تعالى - لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأنه - سبحانه - سبحانه كل نفس بما كسبت ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . . .

فاذا ما طالعت - أيها القارئ الكريم - الربعين : الثالث والرابع منها ، وجدت فيهما حديثاً حكيمياً عن آل عمران .

فقد تحوت السورة الكريمة عما قالته امرأة عمران - أم مريم - عندما أحست بالحمل في بطنها ، وعما قالت عندما وضعت حملها ...

« قالت ربى إني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأُنثى ، وإني سميتها مريم . . . . . »

وتحدثت عن الدعوات الخاشعات التي تضرع بها زكريا إلى ربه ، سائلا لإياه الذرية الطيبة ، وكيف أن الله - تعالى - أجاب له دعاه فبشره ببجي مصدقا من الله وسيدا وحسورا ونبياً من الصالحين . . . . .

وتحدثت عن اصطفاء الله - تعالى - لمريم . وتبشيرها بعيسى - عليه السلام وتعجبها من أن يكون لها ولد دون أن يمسه بشر ، وكيف أن الله - تعالى - قد رد عليها بما يزيد عجبها .

قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر؟ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . . . . .

وتحدثت عن الصفات الكريمة : والمعجزات الباهرة التي منحها الله - تعالى - لعيسى - عليه السلام - وعن دعوته الناس إلى عبادة الله وحده ، وعن موقف أهدائه منه ، وعن صيانة الله له من مكرم وعن تشابهه عيسى وآدم في شأن خطمهما بدون أب . . . . . وكيف أن الله - تعالى - أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتحدى كل من يجادله بالباطل في شأن عيسى فقال :

« ذلك نتلوهُ عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فن حاجك فيه من بعد ما جاءك فن العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا هو القصص الحق ، وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم . . . . . »

ثم وجهت السورة الكريمة أربع نداءات إلى أهل الكتاب ، دعوتهم فيها إلى عبادة الله وحده . وإلى ترك الجدال الباطل في شأن أنبيائه ، ورميهم على كفرهم وعلى خلطهم الحق بالباطل .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بهماً أرباباً من دون الله ... » ، يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ...

« يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ، .  
يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعملون ،  
ثم واصلت السورة الكريمة في الربعين : الخامس والسادس منها حديثها عن أهل الكتاب ، فدحت الفلاة المؤمنة منهم ، وذمت من يستحق الذم منهم - وهم الأكثرون - وحكت بعض الرذائل التي عرفت عن أشرارهم وعلماهم .  
« وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

ثم بينت أن الله - تعالى - قد أخذ الميثاق على أنبيائه بأن يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأنهم قد أقرروا بذلك ، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يجابهه مخالفه بكلمة الحق التي جاء بها من عند الله ، وأن يخبرهم بأن من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه .

« قل آمننا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وهارون والنبيون من ربهم ؛ لانفراق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .

ثم سافت السورة الكريمة بعض الشبهات التي أثارها اليهود حول ما أحله الله وحرمه عليهم من الأطعمة ، وردت عليهم بما يفضحهم ويثبت كذبهم ، ووبختهم على كفرهم وعلى صدم الناس عن طريق الحق . . . وحذرت المؤمنين من مسالكهم الخبيثة التي يريدون من ورائها تفريق كلمتهم ، وفصم عرى أخوتهم بالاعتصام بحبل الله . وذكرتهم بنعمة الإيمان التي بسببها نالوا ما نالوا من الخير ، واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . . . . .

ثم بشرت السورة الكريمة المؤمنين بأنهم خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم هم الغالبون ما داموا معتصمين بدينهم . . . وذكرت بعض العقوبات التي عاقب الله - تعالى - بها اليهود بسبب كفرهم بآياته ، وقتلهم لأنبيائه ، وعصيانهم لأوامره . . . . . وأثبتت على من يستحق الثناء من أهل الكتاب فقالت : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خير أمة لهم ، منهم المؤمنون ، وأكثرهم العاصون إن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أينما تقفوا - إلا بحبل من الله وحبل من الناس - وبأذى بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ليسوا سواء . . . . .

وبعد أن أقامت السورة الكريمة - في عشرات الآيات منها - الأدلة الواضحة ، وسافت الحجج الساطعة على صحة دين الإسلام . . . انتقلت إلى الحديث عن معارك السيف والسنان التي دارت بين أهل الحق وأهل الباطل . . .

فتحدثت في الربع السابع والثامن والتاسع والعاشر منها عن غزوة أحد

وكان حديثها عن هذه الغزوة زاخرا بالتوجيهات الحكيمة والتربية القوية، والوصايا الحميدة، والعظومات الجليلة، والتشريعات السامية، والآداب العالية . .

كان حديثها عنها هاديا للمسلمين في كل زمان ومكان إلى الطريق الذي يصلهم إلى النصر ليسلكوه، وموضحا لهم طريق الفشل ليجتنبوه . . . .  
كان حديثها عنها يدعو المسلمين كافة إلى الاعتبار بأحداث الحياة، وكيف أنها تسير على سنن وقوانين عايننا أن نطلبها ونسلك السبيل إلى تعلمها، وأن أحداث الحياة ليت مجموعة من المصادقات المتوالية، أو التدفق العشوائي، وإنما للنصر قوانين، وللهزيمة قوانين . ومن الممكن أن ينهزم المسلمون في حرب ولو كان فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ما خالفوا عن أمره، وسلكوا غير سبيل النصر، وأن لهم النصر على عدوهم وإن فاقهم عدداً وعدة إذا ما استطاعوا أن يرتفعوا إلى ما فوق فاعلية عدوهم إيماناً وعلماً وتنظيماً . . . .<sup>(١)</sup>

لقد بدأت سورة آل عمران حديثها عن غزوة أحد بتذكير المؤمنين بما فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - قبل بدء المعركة من إعداد وتنظيم للصفوف، وبما هم به بعضهم من فشل، وبما تم لهم من نصر على أعدائهم في غزوة بدر . . . . استمع إلى القرآن وهو يحكى كل ذلك فيقول : « وإذا غدوت من أهلك تبسبى المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم . إذ همت طائفتان منكم أن نفسلا والله وليهما، وعلى الله فليتوكل المؤمنون، ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون . . . . . »

وفي هذا الربط بين الغزوتين تذكير للمؤمنين بأسباب انتصارهم في بدر

(١) من كتاب « دروس من غزوة أحد » ص ١١ للدكتور عبدالعزيز كامل .

وأسياب هزيمتهم في أحد ، حتى يسلكوا في مستقبل حياتهم السبيل التي توصلهم إلى الظفر ، ويهجروا الطريق أو تفوهم إلى الفشل .

ثم وجهت السورة فداء إلى المؤمنين نهتهم فيه عن التعامل بالرأيا ، وحثتهم على المسارعة إلى الأعمال الصالحة التي توصلهم إلى رضوان الله ، لأنه إذا كان أعداؤهم يجمعون المال من كل طريق لحربهم ، فعليهم هم أن يتحروا الحلال في جمعهم للمال ، وأن يتبعوا الوسائل الشريفة التي تبلغهم إلى غايتهم النبيلة ثم حضتهم على الاعتبار بسنن الله في خلقه ، وأمرتهم بالتجملد والصبر ، ونهتهم عن الوهن والضعف ، وبشرتهم بأنهم هم الأعلون ، وشجعتهم على مواصلة الجهاد في سبيل الله فإن العاقبة لهم ، وأخبرتهم بأن ما أصابهم من آلام وجراح في أحد ، قد أصيب أعداؤهم بمثلها ، وأن الأيام دول ، وأزهر بمتهم في أحد من ثمارها أنها ميزت قوى الإيمان من ضعيفه ، لأن المصائب كثيرا ما تكشف عن معادن النفوس ، وخفايا الصدور . . . .

قال - تعالى - « قد خلقت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، ولا تنهوا ولا تحزنوا واتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين . وليحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . . . . »

ثم بينت السورة السكرامة أن الأجمال بيد الله وحده ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم - رسول قد خلقت من قبله الرسل ، وسيدركه الموت كما أدركهم . وأن الاختيار من أتباع الرسل السابقين كانوا يقاثلون معهم بثبات وصبر من أجل إعلاء كلمة الله . . . فعلى المؤمنين في كل زمان ومكان أن يقدموا على الجهاد في سبيل الله بهزيمة صادقة ، وبنفوس مخلصه ، لأن الإقدام

لا ينقص شيئا من الحياة ، كما أن الإحجام لا يؤخرها ، فإذ كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا . . .

ثم حذرت السورة الكريمة المؤمنين من طاعة الكافرين ، لأن طاعتهم تفضي بهم إلى الخسران ، وبشرتهم بأن الله - تعالى - سيلقى الرعب في قلوب أعدائهم ، وأخبرتهم بأنه - سبحانه - قد صدق وعده معهم ، حيث مكثهم في أول معركة أحد من الانتصار على خصومهم ، وأنهم ما أصيبوا بما أصيبوا به في أحد إلا بسبب فشلهم وتنازعهم وتطلعتهم إلى الغنائم . ومخالفتهم لوصايا رسولهم - صلى الله عليه وسلم - . . .

قال - تعالى - ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسبوا أنهم يأذنون حتى إذا فعلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين . . .

ولقد ذكرت السورة الكريمة المؤمنين بما حدث من بعضهم من فرار عن المعركة حتى لا يعودوا إلى ذلك مرة أخرى فقالت :

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم . . . »  
ويبنت لهم كيف أن الله - تعالى - قد شملهم برحمته ، حيث أنزل عليهم النعاس في أعقاب المعركة ليكون أمانا لهم من الخوف ، وراحة لهم من الآلام التي أصابتهم . . . ، وكيف أنه - سبحانه - قد فضح المنافقين ، ورد على أقوالهم وأراجيفهم بما يدحضها ويبطلها . . .

قال - تعالى - « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة فاعسا يفشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية . يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، قل إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم

مالا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ما هنا ، قل لو كفتم في بيوتكم لهدى الذين كتب عليهم القتلى إلى مضاجعهم . . . . .  
 ثم وجهت السورة الكريمة حديثها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فوصفته بأكرم الصفات وأفضلها ، ونزهته عن كل قول أو فعل يتنافى مع منزلته الرفيعة . . . . . وأمرته باللين مع أتباعه وبالعفو عنهم وبالاستغفار لهم ، وبمشاورتهم في الأمر .

ثم عادت السورة الكريمة فأكرت للمؤمنين أن ما أصابهم في أحد كان سببه من عند أنفسهم ، فهم الذين خالفوا ما أمرهم به نبيهم - صلى الله عليه وسلم - . . . . .

قال - تعالى - : « أولما أصابتكم مصيبة تد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ، قل هو من عند أنفسكم . . . . »

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن غزوة أحد ببيان فضل الشهداء ، وما أعده الله لهم من ثواب جزيل ، وبالثناء على المؤمنين الصادقين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم الفرح . . . . . والذين لم يرهيبهم قول المرجفين : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » ، بل إن هذا القول زادهم إيمانا على إيمانهم ، وجعلهم يفرضون أمورهم إلى الله ويقولون : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

ولقد ذكر - سبحانه - أن حكمته قد إقتضت لأن يحدث ما حدث في أحد حتى يتميز الخبيث من الطيب فقال - تعالى - :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، فآمنوا بالله ورسوله وإن تؤمنوا وتتنقوا فإني لكم أجر عظيم » .

وبعد هذا الحديث الحكيم المستفيض عن غزوة أحد ، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن أهل الكتاب . فذكرت جانباً من رذائل اليهود ، الذين حكى الله - تعالى - عنهم قولهم : « إن الله فقير ونحن أغنياء » ، وأنهم قالوا : « لن نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار » .

وأنهم قد نقضوا عهدهم مع الله ؛ وباعوا دينهم بدنياهم الفانية .

وفد توعدهم الله - تعالى - على إرتكابهم لهذه الرذائل والمنكرات بالاعذاب الملبين ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفوسهم يظلمون .

ثم تحدثت السورة الكريمة في أواخرها عن صفات أولى الألباب ، وحكت عنهم ما كانوا يتضرعون به إلى الله من دعوات خاشعات ، وإبتهالات طيبات وكيف أنه - سبحانه - قد أجاب لهم دعاءهم ببركة قوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم .

وكانت الآية الخاتمة فيها تدعوا المؤمنين إلى الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله ، لأن المؤمن الذي تتوفر فيه هذه الصفات يكون أهلاً للفلاح في الدنيا والآخرة . قال - تعالى - :

« يا أيها الذين آمنوا صبروا واصبروا وربطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

هذا ، ونستطيع بعد هذا العرض الإجمالي لأهم المقاصد التي إشتملت عليها سورة آل عمران أن نستخلص ما يأتي :

أولاً : أن السورة الكريمة قد اهتمت بإثبات وجدانية الله - تعالى - وإقامة الأدلة الساطعة على ذلك ، وإثبات أن الحق الذي إرتضاه الله - تعالى - لعباده هو دين الإسلام ، أرسل به نبيه محمداً - عليه الصلاة والسلام - .

وقد ساقَت السورة الكريمة لإثبات هذه الحقائق آيات كثيرة منها قوله  
- تعالى - : : الله لا إله إلا هو الحي القيوم ...

وقوله - تعالى - : : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما  
بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام . .

وقوله - تعالى - : : قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم  
ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا . . . . . {

وقوله - تعالى - : : ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه . وهو في  
الآخرة من الخاسرين . . . . .

ثانياً : أن السورة الكريمة قد فصلت الحديث عن أحوال أهل الكتاب ،  
بأسلوب مقنع حكيم يحق الحق ويبطل الباطل .

فأنت إذا طالعها بتدبر تراها - تارة تتحدث عن المكفر الذي ارتكسوا  
فيه بسبب إختلافهم وبغيرهم ، وما إختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد  
ما جاءهم العلم بغيا بينهم . . . . .

وتارة تتحدث عن نبذهم لكتاب الله ونحاهم إلى غيره . و أم تر إلى  
الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى  
فريق منهم وهم معرضون . . . . .

وتارة توبخهم على كفرهم بآيات الله ، وعلى مجادلتهم بالباطل ، وعلى سوء  
أجوبهم مع الله - تعالى - وعلى تقضيمهم لعهودهم وموائيقهم ، وعلى كتمانهم لما أمرهم  
الله باظهاره من حقائق ...

وقد توعدتهم السورة الكريمة بسوء العذاب بسبب هذه الرذائل  
والمفكرات « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس  
ولا تكتمونه فنبدوه وراء ظهورهم وإشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون »

ونارة تحذر المؤمنين من شرورهم فتقول : « لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولنسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصيروا وتقفوا فإن ذلك من عزم الأمور . »

ولا تغفل السورة الكريمة عن مدح من يستحق المدح منهم ، لأن القرآن الكريم لا يذم إلا من يستحق الذم ، فقد قال - تعالى - « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . . . »

وقال - تعالى - « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً . . . »  
وقال - تعالى -

« منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون . . . »

هذا جانب من حديث سورة آل عمران عن أهل الكتاب ، وهو حديث يكشف عن حقيقتهم حتى يكون المؤمنون على بينة من أمرهم .

وقد تحدثت السورة - أيضا - عن المشركين وعن المنافقين إلا أن حديثها عن أهل الكتاب كان أكثر وأشمل .

ثالثا : أن السورة الكريمة قد اهتمت اهتماما بارزا بتربية المؤمنين تربية ينالون باتباعها النصر والسعادة في الدنيا والفوز والفلاح في الآخرة .

فقد وجهت إليهم سبع نداءات أمرتهم فيها بتقوى الله ، وبالصبر والمصابرة والمرابطة ، ونهتهم عن ضاعة الكافرين ، وعن التشبه بهم ، وعن اتخاذهم أولياء ، كما نهتهم عن تعاطي الربا وعن كل ما يقفاني مع آداب دينهم وتعاليمه . . . .

وهذه النداءات السبعة تراها في قوله - تعالى - :

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ..

يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا . .

يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد  
إيمانكم كافرين .

يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا  
خاسرين . .

يأيها الذين آمنوا لا تذكروا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا  
في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا :

يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا . .

يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة . . .

وبجانب هذه النداءات التي اشتملت على أسمى ألوان التريسة الفاضلة ،  
والتوجيه القويم . نرى السورة الكريمة تسوق لذومنين في آيات كثيرة منها  
ما يهديهم إلى الخير والرشاد ويبعدم عن الشر والفساد . فهي تحكي لهم ألوانا  
من الدعوات التي يتضرع بها الأخيار من الناس لكي يتأسوا بهم . وتبين لهم  
أن حب الشهوات طبيعة في الناس إلا أن العقلاء منهم يعملون حبهم لما يرضى  
الله فرق أي شيء آخر . وتحرضهم على الاعتصام بحبل الله ، وتحثهم على  
المسارعة إلى الأعمال الصالحة التي توصلهم إلى رضا الله .

إلى غير ذلك من التوجيهات الحكيمة التي زخرت بها سورة آل عمران  
والتي من شأنها أن تزيد المؤمنين إيمانا مع إيمانهم ، وأن تهديهم إلى الصراط  
المستقيم .

رابعا : أن السورة الكريمة عرضت أحداث غزوة أحد عرضا حكيما  
واخرا بالمعطات والعبر ، وفصلت الحديث عنها تفصيلا لا يوجد في غيرها من  
السور ، وسأقت ما دار فيها بأسلوب بليغ مؤثر يخاطب العقول والعواطف ،  
وبكفف عن خفايا القلوب ونوازعها ، وطوايا النفوس وخواطرها ، وبما لج  
الأخطاء التي وقع فيها بعض المسلمين حتى لا يعودوا لمثلها ، ويشجعهم على المضي

في طريق الجهاد حتى لا يؤثر ما حدث لهم في أحد في عزيمتهم ، ويبشروهم بأن  
الله - تعالى - قد عفا عن فر منهم ، ويزكركم بمظاهر فضل الله عليهم خلال  
المعركة وبعدها ، ويبصروهم بسنن الله التي لا تتخلف ، ويقوا ابنه التي لا تتبدل ،  
وبتعاليمه التي من سار عليها أفلح وانتصر ، ومن أعرض عنها خاب وخسر .  
« ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً . »

أما بعد :

فهذا عرض لإجمالي سورة آل عمران رأينا أن نسوقه قبل البدء في التفسير  
المفصل لآياتها ، ولعلنا بذلك نكون قد قدمنا ترفيهاً موجزاً نافعا عن هذه  
السورة الكريمة يعين على فهم بعض أسرارها ومقاصدها وتوجيهاتها .  
والله نسأل أن يهدينا جميعاً إلى صراطه المستقيم ، وأن يحنينا فتنة القول  
والعمل ؛ وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا خالصة لوجهه ونافعة لعباده .  
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

( تفسیر سورة آل عمران )

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

« اَلَمْ (۱) اَللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (۲) نَزَلَ عَلَیْكَ الْكِتَابَ  
لِتُحَقِّقَ بِمُصَدِّقٍ اِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ وَاَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْاِنْجِيلَ (۳) مِنْ  
قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَاَنْزَلَ الْفُرْقَانَ . اِنَّ الَّذِیْنَ كَفَرُوْا بِآیٰتِ اللّٰهِ  
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِیْدٌ ، وَاَللّٰهُ عَزِیْزٌ ذُو انتِقَامٍ (۴) اِنَّ اللّٰهَ لَا یَخْفَى عَلَیْهِ  
شَیْءٌ فِی الْاَرْضِ وَلَا فِی السَّمَاوٰتِ (۵) هُوَ الَّذِی یُصَوِّرُكُمْ فِی الْاَرْحَامِ  
كَيْفَ یَشَاءُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْعَزِیْزُ الْحَكِیْمُ (۶) » .

افتتحت سورة آل عمران ببعض حروف التهجى وهو قوله - تعالى - :

« اَلَمْ ، .

ويبلغ عدد السور القرآنية التي افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين

سورة .

وقد وقع خلاف بين العلماء في المعنى المقصود من حروف التهجى

التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن لإجمال اختلافهم في رأيين

رئيسين :

الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهي

من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .

والى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى إحدى الروايات عنه - كما ذهب

إليه الشعبي ، وسفيان الثورى وغيرهما من العلماء ، فقد أخرج ابن المنذر

وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال : « إن لكل كتاب سرا ،

وإن سر هذا القرآن فواتح السور ، : وروى عن ابن عباس أنه قال :  
« عجزت العلماء عن إدراكها ، . »

وعن علي بن أبي طالب أنه قال ، إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا  
الكتاب حروف التهجي ، وفي رواية أخرى للشعبي أنه قال : ( سر الله  
فلا تطلبوه ) :

ومن الإعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأي أنه إذا كان الخطاب بهذه  
القوائم غير مفهوم للناس ، لأنه من المتشابه فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب  
بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل التكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيبت عن ذلك بأن هذه الالفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس  
فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يفهم المراد بها ، وكذلك بعض  
الصحابة المقربين ، ولكن الذي ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه  
الحروف المقطعة في أوائل بعض السور . وهناك مناقشات للعلماء حول هذا  
الرأي لا مجال لذكرها هنا .

أما الرأي الثاني فيرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست  
من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه . وأصحاب الرأي قد اختلفوا فيما بينهم في  
تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتي :

١ - أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبي - صلى الله عليه وسلم -  
( من قرأ حم السجدة حفظه إلى أن يصبح ) . وبدليل إشتهار بعض  
السور بالتسمية بها ، كسورة ( ص ) . وسورة ( طس ) وسورة ( ق ) . الخ .  
ولا يخلو هذا القوا من ضعف لأنه لا يلزم من التسمية ببعضها أن تكون  
جميع الحروف المقطعة أسماء للسور التي بدئت بها . ولأن كثيرا من السور قد  
افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، فلو كانت أسماء للسور لم تكرر المعان  
مختلفة ، لأن الغرض من التسمية رفع الاشتباه .

٢ - وقيل : إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلا ، للدلالة على إنقضاء سورة وإبتداء أخرى .

٣ - وقيل : إنها حروف مقطعة بعضها من أسماء الله - تعالى - ، وبعضها من صفاته ، فثلا : ( ألم ) أصلها أنا الله أعلم .

٤ - وقيل : إنها اسم الله الأعظم . إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال . والله أعلم السبوح على في كتابه ( الإتيان ) إلى أكثر من عشرين قولاً .

٥ - ولعل أقرب الأقول إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في إفتتاح بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكان الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن تزونه مؤلفا من كلام هوجنس ما تؤلفون منه كلامكم . ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تغضون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاؤا مثله ، وأدعوا من شئتم من الخلق لكي يعاونكم في ذلك .

ومما يشهد لصحة هذا الرأي : أن الآيات التي تلي هذه الحروف المقطعة تحدث عن الكتاب المنزل ، وعن كونه معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - في أغلب المواضع .

وأنت ترى هذه الآيات كثيرا ما تصدر صراحة باسم الإشارة الذي يعود إلى القرآن كما في قوله - تعالى - : ( ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه . . . ) أو ضمنا كما في قوله - تعالى - : ( ألمص . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه . . . ) وأيضا فإن هذه السور التي افتتحت بالحروف المقطعة إذا ما تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية لإثبات صحة الرسالة المحمدية عن طريق هذا الكتاب الذي جعله الله - تعالى - معجزة لنبيه - صلى الله عليه وسلم -

هذه خلاصة موجزة لأراء العلماء في المراد بالحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية . ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع إلى ما كتبه العلماء في هذا الموضوع (١) .

ثم وصف - سبحانه - ذاته بما يليق به من جلال وكمال فقال : **و الله لا إله إلا هو الحى القيوم** .

ولفظ الجلالة ، الله ، يقول بعض العلماء : إن أصله إله ، دخلت عليه أداة التعريف ، أل ، وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله

قال القرطبي : قوله الله ، هذا الإسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها . حتى قال بعضهم : إنه اسم الله الأعظم ، ولم يتسم به غيره ، ولذلك لم يشن ولم يجمع . فالله اسم للوجود الحق الجامع لصفات الألوهية ، المنهوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقي ، لا إله إلا هو - سبحانه - ، (٢) .

ولفظ إله ، قالوا : إنه من إله أى عبد . فالإله على هذا المعنى هو المعبود وقيل هو من إله أى تخير . . . وذلك لأن العبد إذا تفكر في صفاته - تعالى - تخير فيها ، ولذا قيل : تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في الله ، (٣) .

و ، الحى ، أى : المتصف بالحياة التي لا يبدء ولا فناء لها .

و ، القيوم ، الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم ، والمعطى لهم ما به قوام حياتهم . وهو مبالغة في القيام . وأصله قيوم - بوزن فيعمل - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره .

والمعنى : الله - تعالى هو الإله الحق المتفرد بالألوهية التي لا يشارك فيها سواه . وهو المعبود الحق وكل معبود سواه فهو باطل ، وهو ذو الحياة

(١) راجع الإقتان في علوم القرآن للسيوطى جلد ٢١ طبعة مكتبة المشهد الحسينى

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٠٢

(٣) هـدات للقرآن الراغب الأصمهانى ص ٢١

الكاملة . وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم .

قال الألوسي : « ولفظ الجلالة « الله » مبتدأ . وما بعده خبر . والجملة مستأنفة . أي : هو المستحق للعبودية لا غيره . و « الحى القيوم » خبر بعد خبر ، أو خبر لمبتدأ محذوف أي : هو الحى القيوم . . . وأياً ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق العبودية به - سبحانه - أخرج الطبراني وابن مردويه من حديث أبي أمامة مرفوعاً أن اسم الله الأعظم في ثلاث سور . في سورة البقرة ، وآل عمران ، وطه .

وقال أبو أمامة : فالتستها فوجدت في البقرة « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » .

وفي آل عمران « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وفي طه « وعنت الوجوه للحى القيوم » (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه هو وحده المستحق للعبودية ، أتبع ذلك ببيان بعض مظاهر فضله ورحمته فقال : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه » . والكتاب - كما يقول الراغب - في الأصل مصدر ، ثم سمي المكتوب فيه كتاباً . والكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه . والكتب ضم أديم إلى أديم بالخطاطة ، وفي المعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط ، (٢) .

والمراد بالكتاب المنزل : القرآن الكريم . وفي التعبير عنه باسم الجنس إيدان بتفروقه على بقية أفراد الكتب المنزلة . فكأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل .

(١) تفسير الألوسي ج ٣ ص ٧٤ .

(٢) مفردات القرآن ص ٤٢٣ للراغب الأصفهاني بتصريف وتلخيص .

وعبر نزل - بصيغة التضعيف - الإشارة إلى أن نزول القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - كان منجها لم يكن دفعة واحدة ، ومن المعروف أن القرآن قد نزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - على حسب الوقائع والحوادث وغيرها في مدة تزيد على عشرين سنة .

وقد ذكر العلماء حكما كثيرة لنزول القرآن منجها منها : تثبيت فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتقوية قلبه ، ومنها : التدرج في تربية الأمة وتربية قومية سليمة ، ومنها : مساندة الحوادث في تجردها وتفريقها . ومنها تيسير حفظه وتسهيل فهمه ، ومنها : تثبيت قلوب المؤمنين وتسليةهم بعزيمة الصبر واليقين ومنها : الإجابة على أسئلة السائلين ، وبيان حكم الله - تعالى - فيما يحصل من قضايا ، ولقد أنظار المخطئين إلى ما وقعوا فيه من أخطاء ، وكشف حال الكافرين والمنافقين . ومنها : الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه من عند الله - تعالى - ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . فأنت تقرأ ما نزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - من قرآن في مكة ، وما نزل عليه في المدينة ، فترى الجميع يحكم المرء ، دقيق السبك ، رصين الأسلوب ، بليغ التراكيب ، فصيح الألفاظ .. بينما ترى كلام الأدباء والبلغاء يختلف في جودته من وقت إلى وقت ، ومن موضوع إلى موضوع ... (١) .

وقد بين - سبحانه - أن هذا القرآن قد نزل بمقتضى أمرين متصلا بهما :

أما أولها فهو قوله : « بالحق » ، وأما ثانيها فهو قوله : « مصدقا لما بين يديه ، أي : الله - عز وجل - الذي لا إله إلا هو ، والذي هو الحى القيوم ،

(١) إن شئت المزيد من المعرفة عن الحكم والأسرار في تنجيم القرآن فراجع - على سبيل المثال - كتاب « مناهل المرمان في علوم القرآن » ج ١ ص ٤٦ إلى ٥٦ للفضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني :

هو الذى نزل عليك يا محمد هذا القرآن تنزيلا ملتبسا بالحق ، ومصاحبا له ، ومقرنا به ، ومشتملا عليه ، فكل ما فيه من أوامر ، ونواه ، وقصص ، وأحكام ، وعقائد ، وآداب ، وشرائع وأخبار .. حق لا يحوم حوله باطل وصدق لا يتطرق إليه كذب .

وهو الذى جعل هذا الكتاب المنزل عليك موافقا ومؤيدا لما اشتملت عليه الكتب السماوية من الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، وإلى الوصايا والشرائع التى تسعد الناس فى كل زمان ومكان . وهذا يدل على أن الشرائع الإلهية واحدة فى جوهرها وأصولها ، قال - تعالى - : **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...** (١) .

وقوله ، بالحق ، متعلق بمحذوف فيكون فى محل نصب على الحال من الكتاب . وقوله ، مصدقا ، حال مؤكدة من الكتاب . أى نزله فى حال تصديقه الكتب -

وقائده تقييد التنزيل بهذه الحال حيث أهل الكتاب على الإيمان بالمنزل ، وتنبههم على وجوبه ؛ فإن الإيمان بالمصدق يوجب الإيمان بما يصدقه حتما .

قال الجبل : وقوله ، مصدقا لما بين يديه ، فيه نوع مجاز ؛ لأن ما بين يديه هو أمامه ، فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره . واللام فى ، لما ، لتقوية العامل . نحو قوله - تعالى - : **ففعال لما يريد .** وهذه العبارة أحسن من تعبير بعضهم بالزائدة ، (٢) .

(١) سورة اشورى . الآية ١٣

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٥

ثم أخير - سبحانه - عن بعض الكتب الأخرى التي أنزلها فقال :  
 « وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » .

والتوراة : اسم عبراني للكتاب الذي أنزله الله - تعالى - على موسى  
 - عليه السلام - ليكون شريعة له وقومه .

قال القرطبي ملاحظة : والتوراة معناها الضياء والنور . مشتقة من ورء ،  
 الزند وورء لغتان إذا خرجت ناره . . وقيل مأخوذة من التورية ، وهي  
 التعريض بالشيء والسكتان غيره : فكان أكثر التوراة معارض وتلويحات  
 من غير تصريح وإيضاح .

والجمهور على القول الأول لقوله - تعالى - : « ولقد آتينا موسى وهارون  
 الفرقان وضياء » وذكر أ المتقين ، يعني التوراة ، (١) .

والإنجيل : كلمة يونانية معناها البشارة ، وهي اسم للكتاب الذي أنزله الله  
 على عيسى .

قالوا : والإنجيل إفعيل من النجل وهو الأصل . يقال : لمن الله ناجليه  
 أى والديه . وقال قوم : الإنجيل مأخوذ من نجلت الشيء إذا استخرجته  
 وأظهرته ، ويقال للماء الذي يخرج من البئر : نجل : وقيل : هو من النجل  
 الذي هو سعة في العين . ومنه طعنة نجلاء أى واسعة . وسمى الإنجيل بذلك  
 لأنه سعة وفور وضياء أخرجه الله - تعالى - لبني إسرائيل على يد عيسى عليه  
 السلام (٢) .

وهذا الكلام الذي نقلناه عن القرطبي واللفخر الرازي هو قول لبعض

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٥

(٢) لتفسير الكبير للبخاري الرازي ج ٧ ص ١٧١ طبعة عبد الرحمن محمد سنة

العلماء الذين يرون أن لفظى التوراة والإنجيل يدخلهما الاشتقاق والتصريف .

وهناك فريق آخر من العلماء يرى أن هذين اللفظين لا يدخلهما الاشتقاق والتصريف لأنهما اسمان أعجميان لهذين الكتابين الشريفين .

قال الفخر الرازى بعد أن أورد كلاما طويلا يدل على عدم ارتضائه للمذهب الذى يرى أصحابه أن هذين اللفظين يدخلهما الاشتقاق والتصريف : « فالتوراة والإنجيل اسمان أعجميان : أحدهما بالعبرية ، والآخر بالسريانية ، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بتطبيقاتهما على أوزان لغة العرب ، فظهر أن الأولى بالعاقل أن كلا يلتفت إلى هذه المباحث ، (١) .

وقوله « من قبل ، متعلق بأنزل - و . هدى ، حال من التوراة والإنجيل ولم يشأنه مصدر . ويجوز أن يكون مفعولا لأجله والعامل فيه أنزل .

أى : وأنزل التوراة والإنجيل من قبل تنزيل القرآن لأجل هداية الناس الذين أنزلا عليهم إلى الحق الذى من جملة الإيمان بالنبي - صلى الله عليه وسلم - واتباعه حين يبعث ، لأنهما قد اشتملتا على البشارة به والحض على طاعته .

قالوا . فالمراد بالناس من عمل بالتوراة والإنجيل وهم بنو إسرائيل . ويحتمل أنه عام بحيث يشمل هذه الأمة وإن لم تكن متعبدين أى مكلفين ومأمورين بشرع من قبلنا ؛ لأن فيهما ما يفيد التوحيد وصفات البارى والبشارة بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ، (٢) .

قال الألوسى : وعبر فى جانب التوراة والإنجيل بقوله « أنزل ،

(١) تفسير الفخر الرازى - ٧ ص ٧١ .

(٢) تفسير الألوسى - ٢ ص ٧٦ .

للإشارة إلى أنهما لم يكن لهما سوى نزول واحد ، بخلاف القرآن فإن له نزولين : نزولا من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من سماء الدنيا جملة واحدة ، ونزولا من ذلك إليه - صلى الله عليه وسلم - منجها في ثلاث وعشرين سنة على المشهور ، ولهذا يقال فيه نزل وأنزل . . . . (١) .

هذا ، وليست التوراة التي بين أيدي اليهود اليوم هي التوراة التي أنزلها الله على موسى ، فقد بين القرآن في أكثر من آية أن بعض أهل الكتاب قد امتدت أيديهم الأئيمة إلى التوراة فحرفوا منها ما حرفوا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . . . . » .

وقوله تعالى - : « فيما نقصهم ميثاقهم لعنهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ، » .

ومن الأدلة على أن التوراة التي بين أيدي اليهود اليوم ليست هي التي أنزلها الله على موسى : انقطاع سندها ، واشتمالها على كثير من القصص والمعارف والمتناقضات التي تتزه الكتب السماوية عن ذكرها (٢) .

وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل ؛ إذ ليست هذه الأناجيل التي يقرؤها المسيحيون اليوم هي الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ، وإنما هي مؤلفات ألفت بعد عيسى - عليه السلام - ونسبت إلى بعض الحواريين من أصحابه : أما الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ، والذي وصفه الله بأنه هداية للناس فهو غير هذه الأناجيل (٣) .

(١) تفسير الآلوسي - ٣ ص ٧٦ .

(٢) راجع ما كتبناه في ذلك في كتابنا « بنوا إسرائيل في القرآن والسنة » - ١ -

من ص ٨٦ - ص ٩٣ .

(٣) راجع تاريخ الأناجيل في كتاب « محاضرات للتصنيف » لفضيلة استاذنا

المرحوم محمد أبو زهرة .

و الفرقان ، كل ما فرق به بين الحق والباطل ، والحلال والحرام . وهو مصدر فرق يفرق بين الشيئين فرقا وفرقانا .

١ - والمراد به عند أكثر المفسرين : الكتب السماوية التي سبق ذكرها وهي التوراة والإنجيل والقرآن . أي : أنزل بهذه الكتب ما يفرق به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والخير والشر ، وبذلك لا يكون لأحد عذر في جحودها والكفر بها .

وأعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيما سبق على طريق العطف بتكرير لفظ الإنزال ، تنزيلا للتغاير الوصفي منزلة للتغاير الذاتي .

٢ - وقال بعضهم المراد بالفرقان هنا القرآن . وإنما أعاده بهذا العنوان بعد ذكره باسم الجنس تعظيما لشأنه ، ورفعاً لمكانه ، ومدحاً له بكونه فارقا بين الحق والباطل ، والإشارة إلى الاتصال الكامل بين شرائع الله - تعالى - ، وأنه تتميم لما سبقه ، وأنه كال الشرائع كلها :

٣ - وقال بعضهم : المراد به جنس الكتب السماوية التي أنزلها الله - تعالى - على رسوله لهداية الناس وسعادتهم . وقد عبر عنها بالفرقان ليشمل هذا الوصف ما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التعميم بالتعميم ، إثر تخصيص مشاهيرها بالذكر .

وقد ذكر صاحب الكشاف هذه الأقوال وغيرها فقال : « فإن قلت : ما المراد بالفرقان ؟ قلت : جنس الكتب السماوية لأنها كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل . أو الكتب التي ذكرها . كأن قال بعد ذكر الكتب الثلاثة : وأنزل ما يفرق به بين الحق والباطل من كتبه ، أو من هذه الكتب . أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور . أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له من كونه فارقا بين الحق والباطل . . . » (١) .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٦ طبعة دار الكتاب العربي بيروت .

أما الفخر الرازي فإنه لم يرتض كل هذه الأقوال ، بل أتى برأى جديد فقال - ما ملخصه - :

٤ - « والمختار عندي أن المراد من هذا الفرقان : المعجزات التي قرنها الله - تعالى - بإنزال هذه الكتب ، وذلك لأنهم لما أتوا بهذه الكتب ، وأدعوا أنها كتب نازلة عليهم من عند الله ، افتتروا في إثبات هذه الدعوى إلى دليل حتى يحصل الفرق بين دعواهم وبين دعوى الكذابين ، فلما أظهر الله على وفق دعواهم تلك المعجزات ، حصلت المفارقة بين دعوى الصادق وبين دعوى الكاذب . فالمعجزة هي الفرقان . فلما ذكر الله أنه أنزل الكتاب بالحق ، وأنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل ذلك ، بين أنه - تعالى - أنزل معها ما هو الفرقان الحق ، وهو المعجز القاهر الذي يدل على صحتها ، ويفيد الفرق بينهما وبين سائر الكتب المختلفة . . . . . (١) » .

والذي نراه أقرب إلى القبول أن المراد بالفرقان هنا جنس الكتب السماوية لأنها جميعها فارقة بين الحق والباطل فيندرج تحتها القرآن وغيره من الكتب السماوية .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المنحرفين عن طريق الحق ، الكافرين بآيات الله ، فقال : « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام ، أي : إن الذين كفروا بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، وصدق رسوله فيما يبلغون عنه ، لهم عذاب شديد منه - سبحانه - بسبب كفرهم وجحودهم » والله عزيز ، أي منيع الجانب ، غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وفي قوله « والله عزيز » إشارة إلى القدرة التامة على العقاب . وفي قوله

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٧ ص ١٧٣ .

« ذو انتقام ، إشارة إلى كونه فاعلا للعقاب ، ينزله متى شاء ، وكيف شاء ، بمقتضى قدرته وحكمته وإرادته . والوصف الأول صفة للذات ، والثاني صفة للفعل .

ثم أخبر - سبحانه - عن شمول علمه لكل شيء فقال : « إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . » .

أى أنه - سبحانه - هو المطلع على كل صغير كبير ، وجليل وحقيق ، في هذا الكون . لأنه هو الخالق له ، والمهيمن على شئونه . وصدق - سبحانه - حيث يقول : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير . » .

وذكر - سبحانه - السماء والأرض ، الإشارة إلى أن علمه قد وسع كل شيء ، وسع السموات والأرض ، وليس الإنسان بالنسبة لهما إلا كائنات صغيرا فكيف لا يعلم - سبحانه - ما يسره هذا الإنسان وما يخفيه ؟

وفي تكرير حرف النهي « لا » ، تأكيد لنفي خفاء أى شيء عليه - سبحانه - . والآية الكريمة وعيد شديد للكافرين بآياته ، لأنه - سبحانه - هو العليم بما يسرونه وما يعلنونه ، وسيجازيهم بمقتضى علمه بما يستحقونه .

ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بشمول قدرته وعلمه فقال : « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . » .

وقوله « يصوركم » من التصوير وهو جعل الشيء على صورة لم يكن عليها . وهو مأخوذ من مادة صار إلى كذا بمعنى تحول إليه . أو من صاره إلى كذا بمعنى أماله وحوله .

واقه - تعالى - القادر على كل شيء . قد حكى لنا أطوار خلق الإنسان فى آيات متعددة منها قوله - تعالى - : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة

خلقنا الملقمة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين .

والأرحام : جمع رحم ، وهو مستودع النطفة في بطن المرأه ، ومكان تربية الجنين ونموه وتكوينه بالطريقة التي يشاؤها الله ، حتى يبرزه إلى الوجود بشراً سوياً .

والمعنى : الله الذي لا إله إلا هو ، والذي هو الحى القيوم ، هو الذى يصوركم فى أرحام أمهاتكم كيف يشاء ، بأن جعل بعضكم طويلاً وبعضكم قصيراً ، وهذا أبيض وذاك أسود ، وهذا ذكر وتلك أنثى ، فهو وحده القادر على تصوير خلقه بتلك الصور المختلفة المتفاوتة ، ومن كان شأنه كذلك . فهو المستحق للعبادة والخضوع . لا إله إلا هو ، العزيز ، الذى يقهر كل شئ بقوة وقدرته الحكيم ، فى كل شئونه وتصرفاته .

وهذه الآية السكرية فى مقام التعليل الآتية التى قبلها . لأن اتى قبلها بينت أن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، إذ هو المليم بما يسره الإنسان من كفر أو إيمان أو غيرهما . وهذه الآية تفيد أنه - سبحانه - يعلم أحوال الإنسان لا بعد لاستوائه بشراً سوياً ، بل يعلم أحواله وهو نطفه فى الأرحام . بل لأنه - سبحانه - يعلم أحواله قبل أن يسكن شئاً مذكوراً ، فهو - كما يقول القرطبي - العالم بما كان وما لا يكون .

ومن كان هذا شأنه فن الواجب على الذين أوجدتم - سبحانه - فى بطون أمهاتهم ، ورباهم ورعاهم وخلقهم خلقاً من بعد خلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

وقوله - تعالى - وكيف يشاء ، إخبار منه - سبحانه - بأن هذا التكوين والتصوير فى الأرحام تبع لمشيئته وقدرته ، وليس خاضعاً لقانون الأسباب والمسببات ، إذ هو القاع لما يريد . فن شاء هدايته هداة ، ومن شاء أضلاله أضله .

وذلك كيف ، فى موضع نصب على أنه حال ، وناصبه الفعل الذى بعده وهو

دعائه ، . ومفعول المشيئة محذوف والتقدير : هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء . تصويركم ، من ذكر وأنتى ، وجبل ودميم ، وغير ذلك من مظاهر التفاوت والاختلاف في الصور والأشكال والعقول والميول .

وقوله - تعالى - لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، تأكيد لما قبله ، من إنفراده بالالوهية ، وحقيقته المعبودية . بعد أن أقام الأدلة الساطعة على ذلك من كونه حيا قيوما ، منزلا للكتب الهادية للناس إلى الحق ، عالما بكل شيء ، مصورا خلقه وهم في أرحام أمهاتهم كيف يشاء . . . وكل ذى عقل سليم يتدبر هذه الآيات الكريمة ، يقبل على الإيمان بالحق بقوة وإخلاص ؛ ويسارع إلى العمل الصالح بقلب متيب . وفيه صادق .

هذا ، وقد ذكر كثير من المفسرين أن سورة آل عمران من مطلعها إلى بضع وثمانين آية منها قد نزل في وفد نصارى نجران الذين قدموا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - في السنة التاسعة من الهجرة ، ليناشره في شأن عيسى - عليه السلام - وقد رد عليهم - صلى الله عليه وسلم - بما يبطل أقوالهم التي تخالف الحق ، وأرشدهم إلى الطريق المستقيم وهو طريق الإسلام ، الذي إرضاه الله لعباده ديناً . وسنذكر قصة هذا الوفد عند تفصيلنا لآية المباهلة وهي قوله - تعالى - في هذه السورة ، فنحاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نقتل فنجمل لعنة الله على الكاذبين ، الآية ٦١ .

وبعد أقام - سبحانه - الأدلة الواضحة على أنه هو المستحق للعبادة . عقب ذلك ببيان أن القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه ، وبيان موقف الناس منهما فقال - تعالى - :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ

مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءُ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءُ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ،  
وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ  
إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) .

قوله - تعالى - : « محكمات ، من الأحكام - بكسر الهمزة - وهنّه  
المادة تستعمل في اللغة إيمان متعددة ، ترجع إلى شيء واحد هو المنع .  
يقال : أحكم الأمر أي أتقنه ومنعه عن الفساد . ويقال : أحكمه عن الشيء .  
أي رجعه عنه ومنعه منه . ويقال حكم نفسه وحكم الناس . أي منع نفسه  
ومنع الناس عما لا يليق . ويقال أحكم الفرس أي جعل له حكمة تمنعه من  
البلوغ والاضطراب ...

وقوله : « من أم الكتاب ، أي أصله الذي فيه عماد الدين وفرائضه  
وحدوده وما يحتاج إليه الناس في دنياهم وآخرتهم . وأم كل شيء :  
أصله وعماده .

قال ابن جرير : والعرب تسمى الأمر الجامع لمعظم الشيء أمثاله .  
فيسمون راية القوم التي تجتمعهم في العساكر أمهم . ويسمون المدير لمعظم  
أمر البلدة والقرية أمها ... (١)

وقوله « متشابهات ، من التشابه بمعنى أن يكون أحد الشئيين مشابها  
للآخر ومائلا ومشاكله مشاكلة تؤدي إلى الالتباس غالبا . يقال : أمور  
مشبهة ومشبهة - كمنظمة - أي مشكلة . ويقال : شبه عليه الأمر تشبيها :  
لبس عليه .

ولقد جاء في القرآن ما يدل على أنه كله محكم كما في قوله - تعالى -

(١) تفسير ابن جرير - ص ٣٠ ص ١٧٠ طبعة مع طبع الحلبي

( كتاب أحكمت آياته ... وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه كما في قوله -  
تعالى - راقه نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً . . . )

وجاء فيه ما يدل على أن بعضاً محكم وبعضه مشابهاً كما في الآية التي نحن  
بصدده تفسيرها . ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة ، لأن معنى إحكامه  
كله : أنه متقن متين لا يتطرق إليه خلل أو اضطراب . ومعنى كونه كله  
متشابهاً أنه يشبه بعضه بعضاً في بلاغته وفصاحته وإعجازته وهدايته . ومعنى  
أن بعضه محكم وبعضه متشابه . فسنبينه بعد سرد بعض الأقوال التي قالها  
العلماء في تحديد معنى كل منهما .

فنفهم من يرى أن المحكم هو الواضح الدلالة الذي لا يحتمل النسخ ،  
والمتشابه هو الخفي الذي لا يدرك معناه وهو ما استأثر الله بعلمه كقيام  
الساعة ، والروح .

ومنهم من يرى أن المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتاج إلى بيان . والمتشابه  
هو الذي لا يستقل بنفسه ، بل يحتاج إلى بيان ، فتارة يبين بكذا ، وتارة  
يبين بكذا ، لحصول الاختلاف في تأويله .

ومنهم من يرى أن المحكم هو الذي لا يحتمل في تأويله إلا وجهاً واحداً  
والمتشابه هو الذي يحتمل أوجهاً . ومنهم من يرى أن المحكم ما كانت دلالاته  
راجحة وهو النص والظاهر . أما المتشابه فهو ما كانت دلالاته غير راجحة ،  
وهو الجمل والمؤل والمشكل .

هذه بعض الأقوال في تحديد معنى المحكم والمتشابه (١) ، وقد إختار  
كثير من المحققين هذا القول الأخير .

ومعنى الآية الكريمة - بعد هذا التمهيد الموجز :

(١) إذ أردت المزيد فراجع الاتقان للسيوطي . وتفسير الألوسي ج ٣ ص ٨٠  
والسيد الفخر الرازي ج ٧ ص ١٨٧ .

الله - عز وجل - الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، والذى أنزل الكتب السماوية لهداية الناس ، والذى صورهم فى الأرحام كيف يشاء ، هو الذى أنزل عليك - يا محمد - هذا الكتاب الكريم الممجز العظيم الشأن ، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يجعل هذا الكتاب ، منه آيات محكمات ، أى واضحات الدلالة ، محكمات التراكيب ، جليات المعاني ، متقنات النظم والتعبير ، حاويات لكل ما يسمد الناس فى معاشهم ومعادهم ، يثبتات لا التباس فيها ولا اشقياء . -

وقوله ، هن أم الكتاب ، أى هذه الآيات المحكمات الواضحات الدلالة المانعات من الوقوع فى التباس لانكشاف معانيها لسلك ذى عقل سليم ، هن أصل الكتاب الذى يعول عليه فى معرفة الأحكام ، ويرجع إليه فى التمييز بين الحلال والحرام ، ويرد إليه ما تشابه من آياته ، وما استشكل من معانيها .

والجار والمجرور ، منه ، خبر مقدم ، وه آيات ، مبتدأ مؤخر ، و محكمات ، صفة لآيات . وقوله ، هن أم الكتاب ، صفة ثانية للآيات .

قال الجمل : وأخير بلفظ الواحد وهو ، أم ، عن الجمع وهو ، هن ، لأن الآيات كلها فى تكاملها واجتماعها كآلية الواحدة ، وكلام الله واحد . أو أن كل واحدة منهن أم الكتاب كما قال - تعالى - : وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، أى كل واحد منهما . أو لأنه مفرد واقع موقع الجمع . : (١) .

وقوله ، وأخر متشابهات ، أى ومنه آيات أخر متشابهات وذلك كالأيات التى تتحدث عن صفات الله - تعالى - مثل : الاستواء ، واليد والغضب ، ونحو ذلك من الآيات التى تحدث عن صفاته - سبحانه - ، وكالأيات التى

تحدث عن وقت الساعة ، وعن الروح ، وعن الجن والملائكة والحروف المقطعة في أوائل السور .

قال الشيخ الزرقاني ماملخصه : ومنشأ التشابه إجمالاً هو خفاء مراد الشارع من كلامه . أما تفصيلاً فذكر أن منه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ من جهة غرابته كلفظ الأب في قوله - تعالى - وفاكهة وأبا ، أو من جهة اشتراكه بين معان عدة كما في قوله - تعالى - فراع عليهم ضرباً باليمين ، أى فأقبل لإبراهيم على الأصنام بضرها بيمينه ، أو بقوة ، أو بسبب اليمين التى حلفها . ومن هذا النوع فواتح السور المبدوءة بحروف التهجى لأن التشابه والخفاء في المراد منها جاء من ناحية ألفاظها .

ومنه ما يرجع خفاؤه إلى المعنى ، ومثاله كل ما جاء في القرآن وصفاته - تعالى - أو لأهوال القيامة ، أو لنعيم الجنة ... فإن العقل البشرى لا يمكن أن يحيط بحقائق صفات الخالق ، ولا بأهوال يوم القيامة ، ولا بنعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ....

ثم قال - رحمه الله - : ويمكننا أن ننوع المتشابهات ثلاثة أنواع :

### النوع الأول :

ما لا يستطيع البشر جميعاً أن يصلوا إليه كالعلم بذات الله وحقائق صفاته ، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه مما استأثر الله بعلمه . . .

### النوع الثانى :

ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس . كالمتشابهات التى نشأ التشابه فيها من جهة الإجمال والبسط والترتيب . والأمثلة على ذلك كثيرة ، فنال التشابه بسبب الإجمال قوله - تعالى - .

« وإن خفتن ألا تقوموا فى اليتامى فأنكحوها ما طاب لهن من النساء .. فإن خفاء المراد فيه جاء من ناحية إيجازه : والأصل : وإن

خفتم إلا تقسطوا في اليتامى لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن ما طاب  
لكم من النساء .

النوع الثالث : ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم ، ولذلك أمثلة كثيرة  
من المعاني العالمة التي تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم  
لمكتاب الله ، (١) .

ثم بين - سبحانه - موقف الذين في قلوبهم مرض وانحراف عن الحق  
من مثابه القرآن فقال : فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه  
ابتغاء الفتنه وابتغاء تأويله ، فأجلله الكريمة تفصيل لإجمال اقتضاء الكلام  
السابق .

والزيغ - كما يقول القرطبي - الميل ، ومنه زاغت الشمس ، وزاغت  
الابصار . ويقال : زاغ يزيغ زيعا إذا ترك القصد ، ومنه قوله - تعالى - :  
فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، . وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق  
وجاهل وصاحب بدعة ، وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى  
تجران . . . . .

والابتغاء : الاجتهاد في الطلب . يقال : بغيت الشيء وابتغيته ، إذا طلبته  
بجد ونشاط .

والفتنة : من الفتن : وأصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من  
ردائه . والمراد بها هنا الإضلال وإثارة الشكوك حول الحق .

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن لفضيلة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ج ٢

والتأويل : يطلق بمعنى التفسير والتوضيح والبيان . ويطلق بمعنى حقيقة الشيء ، وما يشوب لإليه أمره . مأخوذ من الأوزر وهو الرجوع إلى الأصل . يقال : آل الأمر إلى كذا يشول أولا أي رجع وأولته إليه رجعت .

والمعنى لقد اقتضت حكمتنا - يا محمد - أن نزل عليك القرآن مشتملا على آيات محكمات من أم الكتاب ، وعلى آخر متشابهات . فأما الفاسقون الذين في قلوبهم انحراف عن طلب الحق ، وميل عن المنهج القويم . وانصراف عن القصد السوي ، فيتبعون ما تشابه منه ، أي : يتعلقون بذلك وحده ، ويعكفون على الخوض فيه ، ولا تتجه عقولهم إلى المحكم ليردوا المتشابه إليه . وإنما يلزمون الأخذ بالمتشابه كما يلزم التابع متبوعه ، لأنه يوافق اعوجاج قلوبهم ، وسوء نياتهم ، وتحكم أهوائهم وشهواتهم .

وقد بين - سبحانه - أن اتباع هؤلاء الزائفين للمتشابه إنما يقصدون من وراءه أمرين :

أولهما : ابتغاء الفتنة ، أي طلبا لفتنة المؤمنين في دينهم ، وتشكيكهم في عقيدتهم ، وإثارة الريب في قلوبهم بأوهام يلقونها حول المتشابه الذي جاء به القرآن ، بأن يقولوا - كما حكى القرآن عنهم - أننا متنا وكنا ترابا أننا لفي خلق جديد ، . وبأن يقولوا : كيف يكون نعيم الجنة ، وما حقيقة الروح ولماذا يعذبنا الله على أعمالنا مع أنه هو الخالق لكل شيء ، إلى غير ذلك من الشبهات الزائفة التي يثيرها الذين في قلوبهم زيغ طلبا لتشكيك المؤمنين في دينهم .

وثانيهما : . وابتغاء تأويله ، أي : ويتعلقون بالمتشابه ويتبعونه طلبا لتأويل آيات القرآن تأويلا باطلا ، وتفسيرها تفسيرا فاسدا بعيدا عن الحق زاعمين أن تفسيرهم هذا هو الحق بعينه ، لأنه يتفق مع أهوائهم وشهواتهم وميولهم الأثيمة .

وفي جعل قلوبهم مقرا للزيف مبالغة في عدوهم عن سنن الرشاد، وإصرارهم على الشر والفساد .

وفي تعليل الاتباع - كما يقول الألوسي - بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقيقة . إذان بأنهم ليسوا من أهل التأويل - في غير ولا نفي ولا قبيل ولا دبر - وأن ما يتبعونه ليس بتأويل أصلا لأنه تأويل غير صحيح قد يعتز صاحبه .

وقد ذم النبي - صلى الله عليه وسلم - هؤلاء الذين يتبعون ما تشابه من القرآن طلبا للفتنة والتأويل الباطل ، وحدث منهم في أحاديث كثيرة . ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية : هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات . . . إلخ الآية . . . قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذرهم (١) .

وقد استجاب الصحابة - رضي الله عنهم - لوصايا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فكانوا يتباعدون عن الذين في قلوبهم زيغ ، ويذرونهم ويكشفون عن باطلهم

قال القرطبي : حدثنا إسماعيل بن إسحاق الفاضل ، قال : أنبأنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن يزيد بن حازم . عن سليمان بن يسار أن صبيغ ابن عسل قدم المدينة فجعل يسأل عن من تشابه القرآن وعن أشياء . فبلغ ذلك عمر - رضي الله عنه - فبعث إليه عمر فأحضره وقد أعد له عراجين من عراجين النخل . فلما حضر قال له عمر : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ . فقال عمر . وأنا عبد الله عمر . ثم قام إليه فضرب رأسه بمرجون فشجه ، ثم

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ج ٦ ص ٤٢ طبعة مصطفى الحلبي سنة

تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه ، فقال حسبك يا أمير المؤمنين ! فقد وافقه ذهب ما كنت أجد في رأسي ، (١)

ثم بين - سبحانه - أن تأويل المتشابه مرده إلى الله - تعالى - ، وأن الراسخين في العلم يعلمون منه ما يوفقههم الله لمعرفته فقال : وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب . .

وقوله - تعالى - والراسخون في العلم ، من الرسوخ وهو الثبات والتذكر وأصله في الأجرام ، أن يرسخ الجبل والشجر في الأرض ، واستعمل في المعاني ومنه رسخ الإيمان في القلب . أي ثبت واستقر وتمسك .

والألباب ، جمع لب وهو - كما يقول الراغب - العقل الخالص من الشوائب وسمى بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه ، كاللباب والمب من الشيء ، وقيل هو ما زكى من العقل ، فكل لب عقل وليس كل عقل لباً ، ولهذا علق الله - تعالى - الأحكام التي لا تدركها إلا العقول الزكية بأولى الألباب (٢) .

قال الألوسي . وقوله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ، في موضع الحال من ضمير يتبعون باعتبار العلة الأخيرة . أي يتبعون المتشابه لا ابتغاء تأويله - تأويلاً فاسداً - والحال أن التأويل المطابق للواقع - كما يشمر به التعبير بالعلم والإضافة إلى الله تعالى - مخصوص به - سبحانه - . وبين وقفه - عز شأنه - من عبادة الراسخين في العلم . أي الذين ثبتوا وتمسكوا فيه . ولم يتزلزلوا في مزال الأقدام ، ومداحض الأفهام ، حيث إنهم بمعزل عن تلك الرتبة . هذا ما يقتضيه الظاهر في تفسير الراسخين ... ، (٣)

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٤ .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٦٤٤

(٣) تفسير الألوسي ج ٣ ص ٨٣

، وقوله . يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، جملة واضحة لحال الراسخين في العلم ، ومبينة لما هم عليه من قوة الإيمان وصدق اليقين .

أى يقول الراسخون في العلم عندما يقرءون ما يشابه من آيات القرآن آمنا به وصدقنا وأذعنا ، فنحن لا نشك في أن كلا من الآيات المتشابهة والآيات المحركة من عند الله وحده ، فهو الذى أنزلها على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بمقتضى حكمته ومشيبته .

وقوله ، وما يذكر إلا أولو الألباب ، معطوف على جملة ، يقولون . . . ، وقد ختم به - سبحانه - هذه الآية على سبيل المدح لهؤلاء الراسخين في العلم .

أى . وما يدرك هذه الحقائق الدينية ويعتبر بها ويتذكر ما اشتمل عليه القرآن من أحكام وآداب وهدايات وتشریعات إلا أصحاب العقول السليمة ، والألباب المستنيرة التى لا تتأثر بالأهواء والشهوات ، ولا تركز إلى البدع الزائفة ، والأفكار الفاسدة .

قال ابن كثير . وقوله - تعالى - « وما يعلم تأويله إلا الله » اختلف القراء في الوقف هنا . فقيل الوقف على لفظ الجلالة ، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال . التفسير على أربعة أحماء ، فتفسير لا يعذر أحد في فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها . وتفسير يعلمه الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله . . . وعن أبى مالك الأشعري أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول . لا أخاف على أمى إلا ثلاث خلال أن يكفر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا ، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذنه المؤمن يبتغى تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به . . . الآية ، وأن يزداد عليهم فيضيعوه ولا يسألون عنه .

وحكى ابن جرير أن قراءة عبد الله بن مسعود . إن تأويله إلا عند الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به . واختار هذا القول ابن جرير - وهو مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين وأتباعهم خصوصا أهل السنة .

ومنهم من يقف على قوله «والراسخون في العلم» وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا الخطاب بما لا يفهم بعيد. وقد روى عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعدون تأويله. وروى عن مجاهد أنه قال: والراسخون في العلم يعدون تأويله ويقولون آمنا به.

وفي الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا لابن عباس فقال: اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل . . .

والذي نراه أنه إذا فسر المتشابه بما استأثر الله - تعالى - بعلمه كقيام الساعة، وحقبة الروح، كان الوقف على لفظه الجلالة. وكانت الواو في قوله «والراسخون» للاستئناف. والراسخون مبتدأ، وجملة «يقولون» خبر عنه.

أى والراسخون في العلم يقولون آمنا به ويفوضون علمه إليه - سبحانه - ولا يقتحمون أسواره، كأهل الزبج والضلال الذين أولوه تأويلاً فاسداً . . . وإذا فسر المتشابه بما لا يقين معناه إلا بعد نظر دقيق بحيث يتناول المجمل ونحوه كان الوقف على لفظ العلم. وكانت الواو في قوله «والراسخون الراسخون للعطف».

أى، لا يعلم تأويل المتشابه تأويلاً حقاً سلبياً إلا الله والراسخون في العلم، أما أولئك الذين في قلوبهم زيغ فهم أبعد ما يكونون عن ذلك . . . ويجوز الوقف على هذا الرأى أيضاً على لفظه الجلالة، لأنه لا يعلم تأويل هذا المتشابه علماً كاملاً إلا الله. أولاً يعلم كنهه وحقيقته أحد سواه . . .

وإذا فسر المتشابه بما قام الدليل القاطع على أن ظاهره غير مراد، مع عدم قيام الدليل على تعيينه. كتشابه الصفات أو ما يسمى بآيات الصفات مثل قوله - تعالى - «الرحمن على العرش استوى». جاز الوقف والعطف عند من يؤولون هذه الصفات تأويلاً يليق بذاته - تعالى - . وهم جمهور علماء الخلف. ووجب الوقف على لفظه الجلالة عند من يفوضون معاني هذه المتشابهات إلى الله - تعالى - مع تنزيهه عن ظواهرها المستحيلة وهم جمهور علماء السلف وهذه المسألة من المسائل التي أفاض القول فيها الباحثون في علم الكلام . . .

هذا وقد ذكر العلماء حكما متعددة لاشتغال القرآن على المحكم والمتشابه ،  
منها : الابتلاء والاختبار ، لأن الراسخين في العلم سيقم مغزونه وإن لم يعرفوا  
تأويله ، ويخضعون لسلطان الربوبية . ويقرون بالعجز والقصور وفي ذلك  
غاية التربية ونهاية المصلحة . وأما الذين في قلوبهم زيغ فيؤولوه تأويلا باطلا  
طلبوا لإضلال الناس وتشكيكهم في دينهم .

ومنها : رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذي لا يطيق معرفة كل شيء ،  
فقد أخفى - سبحانه - على الناس معرفة وقت قيام الساعة كيلا يتكاسلوا  
ويقعدوا عن الاستعداد لها ، وكيلا يفتك بهم الخوف فيما لو أدركوا بالتحديد  
قرب قيامها .

ومنها - كما يقول الفخر الرازي - : أنه متى كانت المتشابهات موجودة  
كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب .  
ومنها : أن القرآن إذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى  
الاستعانة بدليل العقل ، وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد ، ويضل إلى ضياء  
الاستدلال واليقظة . أما لو كان كله محكما لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية ،  
نفيئذ يسقى في الجهل والتقليد . ومنها أن اشتغاله على المحكم والمتشابه يحمل  
الإنسان على تعلم علوم كثيرة كعلم اللغة والنحو وأصول الفقه وغير ذلك من  
أنواع العلوم . ومنها : أن القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام ،  
وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق ، فمن سمع من العوام  
في أول الأمر لإثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا ممتثل إليه ، ظن أن  
هذا عدم ونفى فوقع في التعطيل ، فكان الأصلاح أن يخاطبوا بالفاظ الله على  
بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه ، وبذلك يكون مخلوطا بما يدل على  
الحق الصريح ، فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر يكون من  
المتشابهات ، والقسم الثاني وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر هو  
المحكمات ، (١) .

(١) تفسير الكبير للفخر الرازي ج ٧ ص ١٨٤ . بتأخير بسير .

ومنها - كما يقول الجمل نقلا عن الخازن - : فإن قبل القرآن نزل لإرشاد الناس فهلا كان كله محكما ؟ فالجواب أنه نزل بالفاظ العرب وعلى أسلوبهم . وكلامهم على ضربين : الموجز الذي لا يخفى على سامع هذا هو الضرب الأول . والثاني المجاز والكمايات والإشارات والتلويحات وهذا هو المستحسن عندهم ، فأزل القرآن على ضربين ليتحقق عجزهم فكأنه قال : عارضوه بأبي الضربين شتم ، ولو نزل كله محكما لقالوا : هلا نزل بالضرب المستحسن عندنا ، (١) .

قال بعض العلماء : والذي يستخلص من مصادر الشريعة ومواردها ، أن الآيات المتشابهة لا يمكن أن يكون موضوعها حكما تسكيفا من الأحكام التي كلف عامة المسلمين أن يقوموا بها ، وأنه لا يمكن أن تكون آية من آيات الأحكام التكليفية قد انتقل النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الرفيق الأعلى دون أن يبينها ، ولا تشابه بينها بعد أن بينها السنة النبوية ، لأن الله - تعالى - يقول : « وأزلنا إليك الذكر لتبين الناس ما نزل إليهم » ، ولا شك أن من أول بيان ما نزل إليهم بيان الأحكام التكليفية .

لذلك نقول عازمين : إنه ليس في آيات الأحكام آية متشابهة ، وإن اشابه فهمها على بعض العقول ، لأنه لم يطلع على موضوعه ، فليس ذلك لأنها متشابهة في ذاتها ، بل لاشتباه عند من لا يعلم . واشتباه من لا يعلم لا يجعل آية في القرآن متشابهة ، (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - موقف الناس من محكم القرآن ومتشابهة ، شرع في بيان ما يتضرع به المؤمنون الصادقون الذين يؤمنون بكل ما أنزله الله - تعالى - فقال :

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) تفسير الآية السكرية لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو هرة بمجلة لواء الإسلام للعدد التاسع - السنة الثامنة .

« رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ (٩) » .

اشتملت هاتان الآيتان على دعوات طبيبات ، ويرى بعض العلماء أن هذه الدعوات من مقول الراسخين في العلم ، فهم يقولون : « آمنتنا به كل من عند ربنا » ويقولون أيضاً « ربنا لا تزغ قلوبنا . . . » . ويرى بعضهم أن هذا كلام جديد ، وهو تعلم من الله - تعالى - لعباده ليكثروا من التضرع إليه بهذه الدعوات وأمثالها

والزيف - كما أشرنا في الآية السابقة - الميل عن الاستقامة ، والانحراف عن الحق ، يقال : زاغ بزيف أى مال ومنه زاغت الشمس إذا مال .

والمعنى : نسألك يا ربنا ونضرع إليك ألا تميل قلوبنا عن الهدى بعد إذ ثبتنا عليه ومكنتنا منه . وأن تباعد بيننا وبين الزيف الذى لا يرضيك ، وبين الضلال الذى يفسد القلوب ، ويسمى البصائر . « وهب لنا من لدنك رحمة . أى وامنحنا من عندك ومن جنتك إنعاماً وإحساناً نشرح بهما صدورنا . وتصلح بهما أحوالنا . » إنك أنت الوهاب ، لا غير ، فأنت مالك الملك وأنت القائل « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يمك لها ، وما يمك فلا يرسل له من بعده . . » (١) .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد تضمنت - سؤال المؤمنين ربهم تثبيت الإيمان في قلوبهم ، ومنحهم المزيد من فضله وإنعامه وإحسانه .

قال الفخر الرازي - ما ملخصه - : وقال - سبحانه - «رحمة ، ايكون ذلك شاملا لجميع أنواعها التي تتناول حصول نور الإيمان والتوحيد والمعرفة في القلب ، وحصول الطاعة في الأعضاء والجوارح . وحصول سهولة أسباب المعيشة والأمن والصحة والكفاية في الدنيا ، وحصول سهولة سكرات الموت عند حضوره . وحصول سهولة السؤال في القبر ، وغفران السيئات والفوز بالجنات في الآخرة ، وقوله «من لدنك ، يتناول كل هذه الأقسام ، لأنه لما ثبت بالبراهين الباهرة أنه لا رحيم إلا هو أكد ذلك بقوله «من لدنك ، تنبيها للعقل والقلب والروح على أن هذا المقصود لا يحصل إلا منه - سبحانه - . . . ثم قال : «إنك أنت الوهاب ، كأن العبد يقول : إلهي هذا الذي طلبته منك في هذا الدعاء عظيم بالنسبة إلى ، حقير بالنسبة إلى كإل كرمك ، فأنت الوهاب الذي من هبتك حصلت حقائق الأشياء وذواتها وماهياتها ووجوداتها ، فكل ما سواك فن جودك وإحسانك فلا تخب رجاء هذا المسكين ، ولا ترد دعاءه واجعله أهلا لرحمتك . . . (١)

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير وغيره بعض الأحاديث النبوية عند تفسيرهم لهذه الآية ومن ذلك ما أخرجه أبو داود والنسائي وابن مردويه عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - كان إذا استيقظ من الليل قال : «لا إله إلا أنت سبحانه أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك . اللهم زدني علما ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، (٢) .

وروى الترمذي عن شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا كان عندك ؟

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي - ص ٧ ص ١٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٤٨ .

قالت : كان أكثر دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » فقلت : يا رسول الله ، ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ؟ قال : يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ ، فتلا معاذ - أحد رجال سند هذا الحديث - « ربنا لا نزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، (١) .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كثيراً ما يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . قلنا : يا رسول الله قد آذنا بك ، وصدقنا بما جئت به ، أفيخاف علينا ؟ قال : نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقليبها تبارك وتعالى ، .

ثم حكى - سبحانه - ضراعة أخرى تضرع بها المؤمنون إلى خالقهم فقال : « ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، .

أى : يا ربنا إنك جامع الناس : محسنهم ومسيئهم ، مؤمنهم وكافرهم ، ليوم لا شك في وقوعه وحصوله وهو يوم الحساب والجزاء ، لتجازى الذين أساؤا بما عملوا وتجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، فأنت - سبحانه - لم تخلق الخلق عبثاً . ولن تتركهم سدى ، وإنما خلقتهم لرسالة عظمت هي عبادتك وطاعتك ، فن استجاب لك تفضلت عليه بالثواب العظيم ، ومن أعرض عن طاعتك عاقبته بما يستحقه .

وقوله « إن الله لا يخلف الميعاد » تعابيل المضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب في وقوع يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب .

أى إنك يا مولانا لا تخلف ما أخبرت به عبادك من أن هناك يوماً لا شك في وقوعه ، تجازى فيه الناس على أعمالهم بمقتضى إرادتك ومشيتك .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٠ .

وفي هذه الآية الكريمة إشعار بأن نهاية أمل المؤمنين أن يظفروا بالجزاء الحسن من خالقهم يوم القيامة . لأنهم بعد أن تناولوه تثبيت الإيمان وسعة الرحمة . توجهوا إليه بالمقصود الأعظم وهو حسن الثواب يوم القيامة . فكأنهم قالوا - كما يقول الرازي - : ليس الغرض من تلك الدعوات ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها فانية ؛ وإنما الغرض الأعظم منه ما يتعلق بالآخرة فإننا نعلم أنك يا إلهنا جامع الناس للجزاء في يوم القيامة ، وقد علم أن وعدك لا يكون خلفاً . وكلامك لا يكون كذبا فن زاعغ قلبه بقى هنالك في العذاب أبد الآباء ، ومن أعطيته التوفيق والهداية والرحمة وجعلته من المؤمنين ، بقى هنالك في السعادة والكرامة أبد الآبدين . فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ما يتعلق بالآخرة (١٠) .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على دعوات كريمات بليغات ، من شأنها أن تسعد الناس في دينهم ودنياهم . والله نسأل أن ينفعنا بها إنه مجيب الدعاء ، وأرحم الراحمين .

وبعد هذا الدعاء الجامع الحكيم الذي حكاه الله - تعالى - عن عباده المؤمنين عقب ذلك بالحديث عن الكافرين . وعن أسباب كفرهم وغرورهم ، وعن سوء عاقبتهم فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبئسَ الْمَهَادِ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّعْتَانِ ، فَتَةَ تَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى

كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ ،  
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) .

الوقود - بفتح الواو - هو ما توقد به النار كالحطب وغيره . وأصله من  
 رقدت النار فقد إذا اشتعلت . والوقود - بضم الواو - هو المصدر عند أكثر  
 اللغويين .

والمعنى : إن الذين كفروا بالحق لما جاءهم وعموا وصرخوا عن الاستجابة  
 له ، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم يوم القيامة ، ولن تدفع عنهم شيئاً  
 من عذاب الله الذي استحقوه بسبب كفرهم ، وافتراءهم بكثرة المال ،  
 وعزة النفس ، وقوة العصبيّة وقد أكد - سبحانه - هذا الحكم رداً على مزاعمهم  
 الباطلة من أن ذلك سينفعهم فقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : نحن أكثر  
 أموالاً وأولاداً وما نحن بمؤمنين ، . فبين - سبحانه - أنه بسبب كفرهم  
 الذي أصروا عليه ، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم أي نفع من وفرع  
 عذاب الله عليهم .

ومن في قوله « من الله » لا ابتداء الغاية ، ود شيئاً ، منصوب على المصدرية .  
 أي شيئاً من الإغناء ، أو النفع ، لأن الذي ينفع الناس يوم القيامة إنما هو  
 إيمانهم وعملهم الصالح .

والإشارة في قوله « وأولئك هم وقود النار » لأولئك الكافرين الذين  
 غرهم بالله الغرور . أي : وأولئك الكافرون الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم  
 ولم يعيروا أسماءهم أي الثمن إلى الحق هم وقود النار أي حطبها . أي أن  
 النار يشتد اشتعالها فيهم حتى لمكانهم هم ما أتوا لى بها فقد وشتعل .

وجيء بالإشارة في قوله « وأولئك » لاستحضارهم في الأذهان حتى  
 لمكانهم بحيث يشار إليهم ، وللتنبية على أنهم أحرياء بما سيأتي من الخير وهو  
 قوله « هم وقود النار » . وكانت الإشارة للمعبد ، للإشعار بظنهم في الكفر ،  
 وإفهامهم فيه إلى منتهاه . ولذلك كانت العقوبة شديدة .

وقوله ، وأولئك ، مبتدأ ، وهم ضمير فصل والخبر قوله ، وقود النار ، والجملة مستأنفة مقررة لعدم الإغناء . وفي هذا التذييل تهديد شديد للكفار الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ببيان أن ما اغتروا به لن يحول بينهم وبين الخلود في النار .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : اعلم أن كمال العذاب هو أن يزول عن الانسان كل ما كان منتفعا به . ثم يجتمع عليه جميع الأسباب المؤلمة . أما الأول فهو المراد بقوله ، لن تفي عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وذلك لأن المرء عند الخطوب والنوائب في الدنيا يفرع إلى المال والولد . . . . . فبين الله - تعالى - أن صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا . ونظير هذه الآية قوله - تعالى - : يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، . وأما القسم الثاني من أسباب العذاب فهو أن يجتمع عليه الأسباب المؤلمة ، وإليه الإشارة بقوله : ، وأولئك هم رقد النار ، وهذا هو النهاية في العذاب ، فإنه لا عذاب أزيد من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها في الخطب اليابس ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أن حال الكافرين بالحق الذي جاءهم به النبي - صلى الله عليه وسلم - كحال الذين سبقوهم في الجحود والمعنادة فقال - تعالى - : كذاب آل فرعون والذين من قبلهم . . . . .

الدأب : أصله الدوام والاستمرار . يقال : دأب على كذا يداب دأبا ود با ودوبا ، إذا دوام عليه وجد فيه وتعب . ثم غلب استعماله في الحال والشأن والعادة ؛ لأن من يستمر في عمل أمدا طويلا يصير عادة من عاداته ، وحالا من أحواله . فهو من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم .

وآل فرعون : هم أعوانه ونصراؤه وأشياعه الذين استجبوا العمى على الهدى واستمروا على النفاق والضلال حتى صار ديننا لهم .

قال الراغب : الآل مقلوب عن الأهل . ويصغر على أهيل إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون المنكرات ودون الأزمنة والأمكنة . يقال آل فلان ولا يقال آل رجل . . . ولا يقال آل الخياط بل يضاف إلى الأشرف والأفضل ، فيقال آل الله وآل السلطان والأهل يضاف إلى الكل فيقال أهل الله وأهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا . . . (١) .

والمعنى : حال هؤلاء الكافرين الذين كرهوا الحق الذي جئت به - يا محمد - ولم يؤمنوا بك . حالهم في استحقاق العذاب ، كحال آل فرعون والذين من قبلهم من أهل الزيف والضلال ، كفروا بآيات الله ، وكذبوا بما جاءت به من هدايات ، فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله عزيز مقتدر حيث أهلهم بسبب ما ارتكبوه من ذنوب ، والله - تعالى - شديد العقاب لمن كفر بآياته .

والجار والمجرور وهو قوله «كذاب آل فرعون» ، في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف . أى شأن هؤلاء في تكذيبك يا محمد كشأن آل فرعون والذين من قبلهم في تكذيبهم لأنبيائهم .

والمقصود بآل فرعون هو وأعوانه وبهائنته لأن الآل يطلق على أشد الناس التصاقاً واختصاصاً بالمضاف إليه . والاختصاص هنا في المتابعة والتواطؤ على الكفر؛ ولأنه إذا وجد العناد في التابع فهو في الغالب في المتبوع أشدوا كبراً، ولأنهم هم الذين حرضوه على الشرور والآثام والطغيان ، فلقد حكى القرآن عنهم ذلك في قوله - تعالى - «وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهتك؟ قال : سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم . ولنا فوقهم قاهرون» (٢) .

وخص القرآن آل فرعون بالذكر من بين الذين سبقوهم في الكفر

(١) مفردات القرآن للراغب الأصبهاني ص ٣٠

(٢) سورة الأعراف الآية ١٢٧

لأن فرعون كان أشد الطغاة طغيانا ، وأكبرهم غرورا وبطارا ، وأكثرهم استهانة بقومه ، واحتقارا لعقولهم وكيانهم ، ألم يقل لهم - كما حكى القرآن - « أفأرأيكم إلا على ، (١) ألم يبلغ به غروره أن يقول لهم : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون (٢) ، ألم يقل لوزيره : « يا هامان ابني لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا ... » (٣) .

ولقد وصف الله - تعالى - قوم فرعون بهوان الشخصية ، وتفاهة العقل ، والخروج عن كل مكرمة فقال : « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ، (٤) ، لأن الأمة التي تترك الظالم وبطانته يعيشون في الأرض فسادا لا تستحق الحياة ، ولا يكون مصيرها إلا إلى التهاوسة والخسران .

وجملة « كذبوا بآياتنا » تفسير لصنيعهم الباطل ، ودأبهم على الفساد والضلال . والمراد بالآيات ما يعم المثلوث في كتب الله - تعالى - ، والبراهين والمعجزات الدالة على صدق الأنبياء فيما يبلغونه عن ربهم .

وفي إضافتها إلى الله - تعالى - تعظيم لها ، وتذنيه على قوة دلالتها على الحق والخير . وقوله « فأخدم الله بذنوبهم » يمان لما أصابهم بسبب كفرهم وتمكذبهم للحق ؛ وفي التعبير بالأخذ إشارة إلى شدة العقوبة ، فهو - سبحانه - قد أخذهم كما يؤخذ الأسير الذي لا يستطيع فككا كما من أسرهم .

والياء للسببية أي أخذهم بسبب ما اجترحوه من ذنوب . أو للملابسة والمصاحبة ، أي أخذهم وهم متلبسون بذنوبهم دون أن يتوبوا منها أو يقلعوا

(١) سورة المنازعات الآية ٢٤

(٢) سورة الأخراف الآية ٥١

(٣) سورة غافر الآية ٣٦

(٤) سورة الأخراف الآية ٥٣

إنها ، والجملة على الوجهين تدل على كمال عدل الله - تعالى - ، لأنه ما عاقبهم  
لا لأنهم استحقوا ذلك .

وأصل الذنب الأخذ بذنوب الشيء ، أى بمؤخرته . ثم أطلق على الجريمة  
لأن مرتكبها يعاقب بعدها .

وفى قوله : « والله شديد العقاب » ، إشارة إلى أن شدة العقاب سببها شدة  
الجريمة ، وتعليم للناس بأن كل فعل له جزاؤه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ،  
وتقرير وتأكيد لمضمون ما قبلها .

ثم أنذر الله - تعالى - الكافرين بسوء المصير ، وبشر المؤمنين بحسن  
العاقبة فقال - تعالى - : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم  
وبئس المهاد » .

وقد وردت روايات فى سبب نزول هذه الآية والتي بعدها من أشهرها :  
ما ذكره ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة أن رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - لما أصاب من قريش ما أصاب فى غزوة بدر ورجع إلى المدينة  
جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال : « يا معشر اليهود احذروا من الله مثل  
ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، فقد عرفتم أنى بنى مرسل  
تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم » فقالوا : يا محمد ، لا يفرئك أنك تتأت  
نقرأ من قريش كانوا أغماراً (١) لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة . إنك  
والله لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس . فأنزل الله - تعالى - ، « قل للذين كفروا  
ستغلبون ... إلى قوله - تعالى - « ليرة لأولى الأبصار » (٢) . والمعنى : قل  
يا محمد لهؤلاء اليهود وأمثالهم من المشركين الذين يدلون بقوتهم ، ويفترون  
بأموالهم وأولادهم وعصبيتهم . . . قل لهم ستغلبون وتمزقون فى الدنيا على

(١) الأغمار : جمع غمر - بضم الغين - وهو الجاهل الذى لم يجرب الأمور

(٢) تفسيران كثير ج ١ ص ٣٥١

أيدى المؤمنين ، وتحشرون يوم القيامة ثم تساقون إلى جهنم لتلقوا فيها مصيركم المؤلم ، وبئس المهاد ، أى بس المسكان الذى هيؤوه لأنفسهم فى الآخرة سبب سوء فعلهم . والمهاد : المسكان المهد الذى ينام عليه كالفرش .

وقد أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتولى الرد عليهم ، وأن يواجههم بهذا الخطاب المشتمل على التهديد والوعيد ، لأنهم كانوا يتفاخرون عليه بأموالهم وبقوتهم ، فسكان من المناسب أن يتولى - صلى الله عليه وسلم - الرد عليهم ، وأن يخبرهم بأن النصر سيكون له ولأصحابه ، وأن الدائرة ستدور عليهم .

وقوله «ستغلبون» إخبار عن أمر يحصل فى المستقبل ، وقد وقع كما أخبر به الله - تعالى - . فقد دارت الدائرة على اليهود من بنى قينقاع والنضير وقرظنة وغيرهم ، بعد بضع سنوات من الهجرة ، وتم فتح مكة فى السنة الثامنة بعد الهجرة . وقوله «وبئس المهاد» إما من تمام ما يقال لهم ، أو استئناف لتحويل شأن جهنم ، وتفطیح حال أهلها .

ثم ساق القرآن مثلاً مشاهداً يدل على نصر الله - تعالى - لأولياءه وخذلائه لأعدائه ، فقال : «قد كانت لكم آية فى فتنين الثقتان فتنة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم سلبهم رأى العين» . والمراد بالآية هنا - العلامة والبرهان والشاهد على صدق الشئ - المخبر عنه .

والفتنة - كما يقول القرطبي - الجماعة من الناس . وسميت الجماعة من الناس فتنة لأنها بقاء لإيها ، أى يرجع إليها فى وقت الشدة . ولا خلاف فى أن الإشارة بهاتين الفتنتين هى إلى يوم بدر . ثم قال : ويحتمل أن يكون المخاطب بهذه الآية جميع المؤمنين ، ويحتمل أن يخاطب بها جميع الكفار ، ويحتمل أن يخاطب بها يهود المدينة ؛ وبكل احتمال منها قد قال قوم . وفائدة الخطاب

للمؤمنين تثبيت النفوس وتشجيعها حتى يقبدموا على مثلهم وأمثالهم كما قد وقع (١) .

والمعنى : قد كان لكم أيها الناس علامة عظيمة ، ودلالة واضحة على أن الكافرين سيغلبون والمؤمنين سينصرون بما جرى في غزوة بدر ، فقد رأيتم كيف أن الله - تعالى - قد نصر المؤمنين مع قلة عددهم وعددهم ، وهزم الكافرين مع كثرة عددهم وعددهم . ولقد كان المؤمنون يرون أعدادهم أكثر منهم عددا أو عدة ومع ذلك لم يهابوهم ولم ينجسوا عن لقاءهم ، بل أقدموا على قتالهم بإيمان وشجاعة فرزقهم الله النصر على أعدادهم .

ووصف - سبحانه - الفئة المؤمنة بأنها تقاوت في سبيل الله ، على سبيل المدح لها ، والإعلاء من شأنها ، وبيان الغاية السامية التي من أجلها قاتلت ، ومن أجلها تم لها النصر فهي لم تقاوت لأجل عرض من أعراض الدنيا ، وإنما قاتلت لإعلاء كلمة الله ونصرة الحق .

ووصف الفئة الأخرى بأنها كافرة ، لأنها لم تؤمن بالحق ، ولم تتبع الطريق المستقيم ، بل كفرت بكل ما يصلحها في دينها ودنياها .

ولم يصفها بالقتال كما وصف الفئة المؤمنة ، إسقاطا لقتال تلك الفئة الكافرة عن درجة الاعتبار ، وإيذاننا بأن الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم عند لقاءهم للمؤمنين ، جعلهم بأنهم ليسوا أهلا لأن يوصفوا بالقتال .

هذا وللعلماء أقوال في المراد من قوله - تعالى - ديرونهم مثلهم رأى العين وقد أشار صاحب السكشاف إلى هذه الأقوال فقال . ديرونهم مثلهم ، أى : يرى المشركون المسلمين مثل عددهم المشركين أى قريبا من ألفين ، أو مثل عدد المسلمين أى ستمائة وثمانين وعشرين . أراهم الله إياهم مع قتلهم أضاعفهم ليها يوم ويحبسوا عن قتالهم ، وكان ذلك مددا لهم من الله كما أمدهم بالملائكة .

والدليل عليه قراءة نافع : ( ترونهم ) بالياء ، أى ترون يامشركى قريش المسلمين مثل فئتكم الكافرة ، أو مثلى أنفسهم . فإن قات : فهذا مناقض لقوله فى سورة الأنفال ( ويقللكم فى أعينهم ) ؟ قلت : فللأولأ فى أعينهم حتى لاجتروا عليهم ، فلما لا قوم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا فكان التقليل والتكثير فى حالين مختلفين ... وتقليلهم تارة وتكثيرهم تارة أخرى فى أعينهم أبلغ فى القدرة وإظهار الآيات . وقيل : يرى المسلمون المشركين مثل المسلمين على ما قرر عليه أمرهم من مقاومة الواحد الإثنين فى قوله ( فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ) . بعد ما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة فى قوله - تعالى - ( إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ... ) (١)

والذى نراه أن رأى الذى عبر عنه صاحب الكشاف بقوله : وقيل : ( يرى المسلمون المشركين مثل المسلمين ... الخ ، هذا رأى هو أقرب الأقوال إلى الصواب ، لأن المسلمين فى غزوة بدر كانوا أقل عددا وعدة من المشركين ولأن التعبير بقوله - تعالى - ( رأى العين ) يفيد أن رؤية هذه الكثرة من المشركين كانت رؤية بصرية بالمشاهدة ، وليست بالتقدير أو التخيل ، وهذا يتحقق فى رؤية المؤمنين للمشركين .

فإن قيل : إن المشركين فى بدر كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين تقريبا - كما حكى لنا التاريخ - ولم يكونوا مثلهم أى ضعفهم ؟

فالجواب على ذلك أن هذا التقدير للمشركين من جانب المؤمنين كان تقديرا تقريبا وليس تقديرا عدديا ، فثلاثة الأمثال قد ترى رأى العين مثلين أو نقول : إن المراد بكلمة مثلين مجرد التسكرار وليس المراد بها التقفية على الحقيقة ، كما فى قوله - تعالى - ( فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم إراجع

البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، فلما راد تكرار النظر مرة ومرات وليس التحديد بكرتين .

وقد رجح ابن جرير الطبري هذا الرأي ، فقد قال بعد سرده لجملة من أقوال العلماء : وأولى هذه القراءات بالصواب : قراءة من قرأ « يرونهم » بمعنى : وأخرى كإفراء يراهم المسلمون مثلهم ، بمعنى : مثل عدد المسلمين ، لتقليل آفة إياهم في أعينهم في حال ، فكان حرهم إياهم كذلك . . . ثم قال : وأما قوله : « رأى العين » فإنه مصدر رأيت . يقال رأيت رأيا ورؤية ، ويقال : هو من رأى العين ورأى العين - بالنصب والرفع - يراد حيث يقع عليه بصرى . . . فعنى ذلك : يرونهم حيث تلحقهم أبصارهم وتراهم عيونهم مثلهم ، (١) .

وقوله - تعالى - « قد كان لكم آية . الخ » من تمام القول المأمور به جى . به لتقرير وتحقيق ما قبله . و « كان » هنا ناقصة ، و « آية » إسمها وترك التأنيت في - كان - لوجود الفاصل بينها وبين إسمها ، ولأن المرفوع بها هو إسمها مجازى التأنيت أو باعتبار أن الآية برهان ودليل . وقوله « لكم » خير كان . وقوله « آية » خبر لمبتدأ محذوف أى . لإحداهما آية تقال في سبيل الله وقوله « وأخرى » نعت لمقدر أى وآية أخرى كإفراء . والجملة مستأنفة لتقرير ما في الفئتين من الآية ، ثم ختم - سبحانه - الآية السكينة بقوله « والله يؤيد بنصره من يشاء إن ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

أى : والله - تعالى - يؤيد بنصره من يشاء نصره وفوزه ، فهو القادر على أن يجعل الفئة القليلة تغلب الفئة الكبيرة ، لا راد لمشيئته ولا معقب لحسكه وإن الذين يفترون بقوتهم وحدها ، ويفترون بما بين أيديهم من أموال وعتاد ورجال ، ولا يعملون حسابا للقدر الذى يجزيه الله على حسب مشيئته وإرادته

(١) تفسير ابن جرير - ٢ - ص ١٩٨ - بتصرف وتلخيص .

هؤلاء الذين غرهم بالله الغرور ، تداهمهم الهزيمة من حيث لا يحتسبون ، وقد يفجؤهم الخسران والخذلان من الطريق الذي توهموا فيه الكسب والانتصار

لذا أمر الله - تعالى - عبادة بالاعتبار والاتعاظ فقال : (إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار . وإسم الإشارة (ذلك) يعود إلى المذكور الذي رأوه وشاهدوه وهو أن الفئة القليلة المؤمنة غلبت الفئة الكثيرة الكافرة .

والعبرة - الاعتبار والاتعاظ وأصله من العبور وهو النفور من أحد الجانبين إلى الآخر ، وسمى الاتعاظ عبرة ، لأن المعتبر المتعظ يعبر من الجهل إلى العلم . ومن الهلاك إلى النجاة .

أى : إن في ذلك الذى شاهده الناس وعابثوه من انتصار الفئة القليلة التى تقاوت فى سبيل الله ، على الفئة الكثيرة التى تقاوت فى سبيل الطاغوت ، لعبرة عظيمة ، ودلالة واضحة ، لأصحاب المدايك السليمة ، والعقول الواعية التى تفهم الأمور على حقيقتها ، وتؤمن بأن الله - تعالى - قادر على كل شئ . أما أصحاب القلوب المطموسة ، والنفوس المفرورة بقوتها ، فهى عن الاعتبار الاتعاظ بمنزل .

قال تفخر الرازى ما ملخصه : وأعلم أن العلماء ذكروا فى تفسير كون تلك الواقعة آية بينه وعبرة واضحة - وجوها منها : أن المسلمين كان قد اجتمع فيهم من أسباب الضعف عن المقاومة أمور منها قلة العدد ، وأنهم خرجوا غير قاصدين للحرب فلم يتأهبوا ، ومنها قلة السلاح ، ومنها أنها كانت لبثاء غارة فى الحرب لأنها أول غزوات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان قد حصل للمشركين أعداد هذه المعانى من الكثرة والتأهب وغير ذلك ومع هذا فقد انتصر المؤمنون ، ولما كان ذلك خارجا عن العادة كان معجزا (١) .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أُنذرت الكافرين بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم ، وسأقت لهم ما يؤيد ذلك من واقع مشاهدته ، وبشرت المؤمنين بنصر الله لهم ، وحشتم على الانعاط والاعتبار ، لأن من شأن المعتبرين أن يكونوا مراقبين لله - تعالى - ومنفذين لأوامره ، ومبتعدين عن نواهيه ، ومن كان كذلك كان الله معه بنصره وتأييده .

ثم بين - سبحانه - أم الشهوات التي يؤدي الانهماك في طلبها إلى الانحراف في التفكير ، وإلى عدم التبصر والاعتبار ، ودعا الناس إلى التزود من العمل الصالح الذي يفضي بهم إلى رضا - سبحانه - فقال :

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ (١٤) قُلْ أَوْبَتْكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ ، وَالصَّادِقِينَ ، وَالْقَائِتِينَ ، وَالْمُنْفِقِينَ ، وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) » .

فأنت ترى في هذه الآيات الكريمة بيانا حكيما من الله - تعالى - لأم متع الحياة الدنيا وشهواتها ، ولما هو خير من هذه المتع والشهوات ، مما اعده الله لعباده المتقين من جنات وخيرات .

وقوله « زين ، من الزين وهو تصيير الشيء زينا أى حسنا ، والزينة هي مافي الشيء من المحاسن التي ترغب الناظرين في اقتنائه .

قال الراغب: والزينة بالقول المجمل ثلاث: زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة . وزينة بدنية كالقوة وطول القامة ، وزينة خارجية كالمال والجاه . . . وقد نسب الله التزيين في مواضع إلى نفسه كما في قوله - تعالى -  
 « ولما سكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، ونسبه في مواضع إلى الشيطان كما قوله ، « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وذكره في مواضع غير مسمى فاعله كما في قوله - تعالى - « زين للناس حب الشهوات . . . » (١) .

والشّهوات جمع شهوة ، وهي ثوران النفس وميلها نحو الشيء المشتهى . والمراد بها هنا الأشياء المشتهاة من النساء والبغين . . . الخ وعبر عنها بالشهوات الإشارة - كما يقول الألوسي - إلى مراكز في الطباع من محبتها والحرص عليها حتى لا يكأنهم يشتهون اشتهاها ، كما قيل لمريض : ما تشتهي ؟ فقال : اشتهى أن اشتهى . أو تنبها على خستها ؛ لأن الشهوات خسيسة عند الحكماء والعقلاء في ذلك تنفير عنها وترغيب فيما عند الله . ثم قال : والتزيين للشهوات بطلق ويراد به خلق حبا في القلوب ، وهو بهذا المعنى مضاف إليه - تعالى - حقيقة ؛ لأنه لا خالق إلا هو . وبطلق ويراد به الحوض على تعاطي الشهوات المحظورة ، فتزيينها بالمعنى الثاني مضاف إلى الشيطان تنزيلا لوسوسته وتحسينه منزلة الأمر بها والحوض على تعاطيها (٢) .

ثم بين - سبحانه - أهم المشتبهات التي يحبها الناس ، وتهفو إليها قلوبهم ، وترغب فيها نفوسهم ، فأجملها في أمر رسته .

أما أولها : فقد عبر عنه القرآن بقوله : « من النساء » ، ولأنك أن المحبة بين الرجال والنساء شيء فطري في الطبيعة الإنسانية ، ويكفي أن الله - تعالى - تد قال في العلاقة بين الرجل والمرأة « من لباس لكم وأنتم لباس لمن » (٣)

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأزهري ص ٣١٨ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٣ ص ٩٩ ، بتلخيص .

(٣) -سورة البقرة الآية ١٨٧

وقال - تعالى في آية ثانية : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة (١) وإن بعض الرجال قد يستهين بكل شيء في سبيل الوصول إلى المرأة التي يهواها ويشتتها والامثال على ذلك كثيرة ولا مجال لذكرها هنا وصدق رسول الله حيث يقول : ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء (٢) ، ولذا قسم القرآن اشتهاؤهن على كل شهوة . و من ، في قوله : من النساء والبنين . . . بيانية ، وهي مع مجرورها في محل نصب على الحال من الشهوات . واكتفى القرآن بذكر محبة الرجل للمرأة مع أن المرأة كذلك تحب الرجل بفطرتها لأن ذكر محبة أحدهما للأخر يعنى عن ذكر الطرفين معا ؛ وما يستفاد بالإشارة يستغنى فيه عن العبارة خصوصا في هذا المجال الذي يحرص فيه القرآن على تربية الحياء والأدب في النفوس ، ولأن المرأة في هذا الباب يهمها أن تكون مطلوبة لاصالة ، حتى لو كانت محبتها للرجل أشد فإنها تحاول أن تنير فيه ما يجعله هو الذي يطلبها لاهى التي تطلبه . . .

وأما ثانی المشتهيات : فقد عبر عنه القرآن بقوله : والبنين ، جمع ابن ، وهو معطوف على ما قبله ، وقد ذكر حب البنين بعد حب النساء لأن البنين ثمرة حب النساء ، واكتفى بذكر البنين ، لأنهم موضع الفخر في العادة . وحب الأولاد طبيعة في النفس البشرية فهم ثمرات القلوب ، وقررة الاعين . ومهوى الأفتدة ، ومطمح الآمال ، ولقد تبنى الذرية جميع الناس حتى الأنبياء فهذا سيدنا إبراهيم يقول : رب هب لي من الصالحين ، وسيدنا زكريا يقول : رب لا تدركني فرداً وأنت خير الوارثين . .

(١) سورة الردم الآية ص ٢١

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح . باب ما يتقى من شؤون المرأة . ج ١ ص ١١

والإنسان في سبيل حبه لأولاده يضحي براحته ، وقد يجمع المال من أجلهم من حلال ومن حرام ، وقد يرتكب بعض الأعمال التي لا يردار تكافها لإرضاء لهم وقد يمتنع عن فعل أشياء هو يريد فعلها لأن مصلحتهم تقتضي ذلك .

وصدق الله إذا يقول : إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وصدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول : د الولد ثمرة القلب ، وإنه يجننة بمخلة عزنة ، أى أن الأبناء يجعلون آباءهم يجبنون خوفا من الموت لئلا يصيب أبناءهم اليتيم والآله ، ويجعلونهم يبخلون فلا ينفقون فيما ينبغي أن ينفق فيه لإشاراتهم بالمال ويجعلونهم يحزنون عليهم إن أصابهم مرض ونحوه .

أما الأمر الثالث من المشتميات : فقد عبر عند القرآن بقوله د والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، والقناطر جمع قنطار ، وهو مأخوذ من عقد الشيء وإحكامه ، تقول العرب : قنطرت الشيء إذا أحكمته ، ومنه سميت القنطرة لإحكامها .

قال الفخر الرازى : القنطار مال كثير يتوثق الإنسان به في دفع أصناف النوائب . وحكى أبو عبيدة عن العرب أنهم يقولون : لأنه وزن لا يحد . واعلم أن هذا هو الصحيح ، ومن الناس من حاول تحديده . فعن ابن عباس : القنطار ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم وهو مقدار الدية . . . ، (١) .

ولنظ د المقنطرة ، مأخوذ من القنطار ، ومن عادة العرب أن يصفوا الشيء بما يشق منه للمبالغة أى والقناطر المضاعفة المتكاثرة المجموعة قنطاراً قنطاراً ، كقولهم : دراهم مدرهمة ، وإبل مؤبلة .

وقوله د من الذهب والفضة ، بيان للقناطر ، وهو موضع الحال منها .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ج ٧ ص ٢١٠

والمراد أن الإنسان يحب للمال حبا شديداً . قال - تعالى - : وإنه أحب الخير الشديد ، وقال - تعالى - : وتأكلون التراث أكلاماً ، وتحبون المال حبا جما . .

وفي الحديث الشريف الذي رواه الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لو كان لابن آدم واديان من مال لا يفتنى ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب . . والآحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وقالت السيدة - عائشة - رضي الله عنها - : رأيت ذا المال مهيماً ، ورأيت ذا الفقر مهيناً . . وقالت : إن أحساب ذوى الدنيا بنيت على المال ، (١) . وإنما كان الذهب والفضة محبوبين ، لأنهما - كما يقول الرازي - جعلنا نمننا لجميع الأشياء ، فالكهما كالمالك لجميع الأشياء ، وصفة المالكية هي القدرة ، والقدرة صفة كمال ، والكمال محبوب لذاته ، فلما كان الذهب والفضة أكمل الوسائل إلى تحصيل هذا الكمال الذى هو محبوب لذاته - ومالا يوجد المحبوب إلا به فهو محبوب - لا جرم كانا محبوبين ، (٢) .

وأما المشتبهات الرابعة والخامسة والسادسة فتتجلى في قوله - تعالى - : والخيل المسومة والأنعام والحرث . .

ولفظ الخيل يرى سيبويه أنه اسم جمع لا واحده من لفظه ، بل مفردة فرس فهو نظير قوم ورهط ونساء . ويرى الاخفش أنه جمع تكدير وواحدة خائل ، فهو نظير راكب وركب ، وطائر وطير . وهو مشتق من الخيلاء لأنها تختال في مشيتها .

( ١ ) ( التاج الجامع للاصول في أدب الرسول - ص ٥٠ ص ١٦٢ للشيخ منصور على

ناصر .

( ٢ ) ( التفسير الكبير للفخر الرازي - ص ٧ ص ٢١١ )

( ٥ - سورة آل عمران )

والمسومة : أى الزاعية فى المروج والمرعى . يقال : سوم ماشيته إذا أرسلها فى المرعى . أو المظلمة الحسن : من السبى بمعنى الحسن . أو المعلمة ذات الفرة والتججيل من السمة بمعنى العلامة .

والخييل كانت وما زالت زينة محببة مرغوبة ، مهما تفنن البشر فى اختراع صنوف من المراكب برأ وبحراً وجواً . فمع وجود هذه المراكب المتنوعة مازال للخييل عشاقها الذين يعجبهم ما فيها من جمال وإطلاق وألفة ، ويقتنونها للركوب والمسابقات . . . . . والآعام : جمع نعم ، وهى الإبل والبقر والغنم ولا يقال للجنس الواحد منها نعم إلا الإبل خاصة فإنها غلبت عليها .

والآعام فيها زينة ، والإنسان فى حاجة شديدة إليها فى مركبه ومطعمه وغير ذلك . قال - تعالى - : والآعام خلقها لكم فيها دىء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ، (١) .

والحرث ، مصدر بمعنى المفعول أى المحرث . والمراد به المزروع سواء أكان حبوباً أم بفلاذ أم ثمرأ ، إذ من هذه الأشياء يتخذ الإنسان مطعمه وملبسه وأدوات زينته

تلك هى أم المشتيات فى هذه الحياة إلى نفس الإنسان قد جمعتها القرآن فى آية واحدة ، وقد اختصها - سبحانه - بالذكر لأنها أوضح من غيرها فى الاحتياج إليها والتلذذ بها ، ولأن فيها إشارة إلى أنواع المتع كلها سواء أكانت متعة جسدية أم روحية ، أم مالية ، أم غير ذلك من ألوان المتع ، ومن مستلزمات الحياة .

وقد ختم - سبحانه - الآية بقوله ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن الحساب ، . واسم الإشارة ، ذلك ، يعود إلى كل ما تقدم ذكره من الأمور الستة التي سبق الحديث عنها .

والمآب : مصدر ميمي بوزن مفعل ، من آب - كقال - إياباً وأوباً ومآباً .  
 إذا رجع . وأصله مأرب فقلت حركة الواو إلى الهمزة ثم قلبت الواو ألفاً مثل مثال .

أي ذلك المذكور من النساء والبنين وما عطف عليهما هو موضع الزينة ، ومطلب الناس الذي يستمتعون به ، ويرغبون فيه ، ويشتهونه اشتهاً عظيماً في حياتهم ، والله - تعالى - عنده المرجع الحسن وهو الجنة ، فهي الأحق بالرغبة فيها لبقائها دون المتع الفانية .

فأنت ترى أن الآية السكرية قد ذكرت المشتبهات التي جبل الإنسان على الميل إليها ، وصياغة الفعل للدجول ، زين للناس ، للإشارة إلى أن محبته هذه الأشياء واشتهاؤها مركز في الفطرة الإنسانية منذ أوجد الله الإنسان في هذه الحياة الدنيا .

وهذه المشتبهات ليست خبيثة في ذاتها ، ولا يقصد الإسلام إلى تخصيصها في ذاتها أو إلى التفرقة منها ، وإنما الإسلام يريد من أتباعه أن يقتصدوا في طلبها ، وأن يطلبوها من وجوهها المشروعة ، وأن يضعوها في مواضعها المشروعة ، وأن يشكروا الله عليها ، وألا يجعلوها غاية مقصدهم في هذه الحياة . إن الإسلام لا يجارب الفطرة الإنسانية التي تشتهى هذه الأشياء ، وإنما يهذبها ، ويضبطها ويرشدها إلى أن تضع هذه الأشياء في موضعها المناسب ، بحيث لا تطفئ على غيرها ولا تستعمل في غير ما خلقها الله من أجله ، وبذلك يسعد الإنسان في دينه ودنياه وآخرته .

وللامام ابن كثير كلام حسن عند تفسيره لهذه الآية فقد قال ماملخصه :  
 يخير الله - تعالى - عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين ، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد . . فأما إذا كان المقصد بهن

الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه كما وردت الأحاديث بذلك . . . وحب المال وكذلك تارة يكون للفخر والخيل والتكبر فيكون مذموماً ، وتارة يكون للنفقة في وجوه البر فيكون محموداً . . . وحب الخيل على ثلاثة أقسام ، تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها فهؤلاء يثابون . وتارة ترتبط فخر أو فؤاد لاهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر . وتارة ترتبط للتعفف وإقتناء نسلها ولم ينس صاحبها حق الله فيها فهذه لصاحبها ستر . وفي الحديث الشريف أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : خير مال المرء مهرة مأمورة أو سكة مأبورة ، والسكة النخيل المصطف ، والمأبورة الملقحة ، (١) وفي الصحيحين عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من مسلم غرس غرساً أو زرع زرعاً فبأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة ، (٢) . هذا ، وفي ختام الآية الكريمة بقوله ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المسآب ، إشارة إلى أن متع الدنيا مهما كثرت وتنوعت وتلذذ بها الإنسان فهي إلى زوال ، أما اللذائف الباقية الخالدة فهي التي أعدها الله - تعالى - لعبادة المتقين في الدار الآخرة ، ولذا قال - سبحانه - بعد ذلك ، قل أو نبشكم بغير من ذلكم ، .

أي قل يا محمد للناس الذين مالوا إلى شهوات الدنيا من النساء والبنين وغيرهما ، قل لهم ألا تحبون أن أخبركم بما هو خير من تلك المشتهيات الدنيوية؟ والاستفهام للتقرير ، والمراد به التحقيق والتثبت في نفوس المخاطبين ، أي تحقيق وتثبيت خيرية ما عند الله وأفضليته على شهوات الدنيا ، وحضهم على الاستجابة لما سيلقى عليهم .

وافتتح الكلام بكلمة ، قل ، للاهتمام بالمقول ، وتنبية السامعين إلى أن ما سيلقى عليهم أمر مهم ، وما يقوى هذا التنبية هنا : التعبير بقوله أو نبشكم

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥١ - بتصرف وتلخيص -

(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٦

لأن الإنبا، معناه الخبر العظيم الشأن ، والتعبير بقوله « ذلكم » لاشتماله على الإشارة التي للبعيد الدالة على عظم شأن ما سيخبرهم به . والتعبير بقوله « خير » الذي يدل على الأفضلية ، لأن نعم الآخرة خير محض ونعيم الدنيا مشوب بالشرور والأضرار . ثم بين - سبحانه - الخبر عنه بمسند أن مهده بتلك التنبهات التي تشوق إلى سماعه وتفرى بالاستجابة له فقال : « للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله » .

هذه هي اللذات والمتع التي أعدها الله - تعالى - لمن اتقاه ، أي أدى ما أمره به وابتعد عما نهاه عنه .

وأول هذه النعم : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ، أي بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، وفي هذه الجنات ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وقوله ، للذين اتقوا ، خير مقدم ، وقوله « جنات » مبتدأ مؤخر . وقوله « عند ربهم » ، في محل نصب على الحال من جنات . وقوله « تجري من تحتها الأنهار » ، صفة لجنات .

وعلى هذا يكون منتهى الاستفهام عند قوله « ذلكم » ، وهذا هو المشهور عند العلماء . ومنهم من يجعل الاستفهام منتهياً عند قوله « للذين اتقوا » ثم يبدأ فيقال : « عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار » . ومنهم من يجعل الاستفهام منتهياً عند قوله - تعالى - « عند ربهم » ، ثم يبدأ فيقال : « جنات تجري من تحتها الأنهار » .

قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من جعل الاستفهام منتهياً عند قوله - تعالى - « بخير من ذلكم » ، والخبر بعده مبتدأ عن له الجنات بقوله : « للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار » ،

فيكون مخرج ذلك مخرج الخير ، وهو لإبارة عن معنى الخبر الذي قال : أنبئكم به ، فلا يكون بالكلام حينئذ حاجة إلى ضمير ، (١) .

وثاني هذه النعم عبر عنه - سبحانه - بقوله « خالدين فيها ، أى أن هؤلاء الذين انقروا بهم خالدون في تلك الجنات التي فيها ما تشبه الآفئس وتلد الآفئس خلودا أبديا ، بخلاف أولئك المنعمين بنعم الدنيا فإن نعيمهم إلى فناء وزوال . وثالث هذه النعم قوله - تعالى - « وأزواج مطهرة » .

والأزواج : جمع زوجة وهى المرأة يختص بها الرجل . أى ولهم فى تلك الجنات أزواج مطهرة غاية التطهير من كل دنس وقدر حسى ومعنوى ، فقد وصف - سبحانه - هؤلاء الأزواج بصفة واحدة جامعة لسكل ما يتناهى للرجل فى المرأة .

ورابع هذه النعم قوله - تعالى - « ورضوان من الله » وهذه النعمة هى أعظم النعم وأجلها أى لهم رضا عظيم من خالق الخلق ، ومبدع الكون ، ومنشئ الوجود . وهو مصدر كالرضا ، ولكن يزيد عليه أنه الرضا العظيم ، لأن زيادة المبنى ، تدل على زيادة المعنى ، ولأن التنكير قصد به التفضيم والتعظيم .

وقوله « من الله » صفة لرضوان مؤكدة لها أفاده التتوين من الفخامة . روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن الله - عز وجل - يقول لأهل الجنة يوم القيامة : يا أهل الجنة فيقولون : ليك ربنا وسعديك . . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم نعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : ياربنا وأى شئ أفضل من ذلك ؟ فيقول : « أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » (٢) .

(١) تفسير ابن ج ٣ ص ٢٠٦ طبعة مصطفى الحلبي الطبعة الثانية سنة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق . باب صفة الجنة والنار ج ٩ ص ١٤٨ .

هذه هي اللذائذ والمتع والنعم التي أعدها الله - تعالى - لعباده المتقين .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله « والله بصير بالعباد » أي - سبحانه - علم بأحوال عباده ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم ، وسيجازي الذين أساؤا بما عملوا ، ويجازي الذين أحسنوا بالحسنى . ففي هذا التذييل وعد للمتقين ووعيد للسيئين .

ثم حكى - سبحانه - أقوال هؤلاء المتقين ومدحهم على إيمانهم وصلاتهم فقال - تعالى - : « الذين يقولون ربنا إننا آمننا فاغفر لنا ذنوبنا وقتنا عذاب النار ، أي أن هذه الجنات وغيرها من أنواع النعم قد أعدها الله - تعالى - هؤلاء المتقين الذين يضرعون إلى الله ملتجئين منه المغفرة فيقولون : يا ربنا إننا آمننا بك وصدقنا رسولك في كل ما جاء به من عندك ، فاغفر لنا ذنوبنا وتقصرنا في أمرنا فأنت الغفار الرحيم . . . وقتنا عذاب النار ، أي جنبنا هذا العذاب الأليم يا أرحم الراحمين .

وفي حكاية هذا القول عنهم بصيغة المضارعة ، يقولون ، إشعار بأنهم يجددون التوبة إلى الله دائماً لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وإحساسهم بأنهم مهما قدموا من طاعات فهي قليلة بجانب فضل الله عليهم ، ولذلك فهم يلتمسون منه السر والغفران ، والوقاية من النار ، وهذا شأن الأخيار من الناس .

وقوله - سبحانه - الذين يقولون . . . ، بدل أو عطف بيان من قوله « الذين اتقوا » ، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والجملة منهما جواب عن سؤال كأنه قيل : من أولئك المتقون؟ فقيل : هم الذين يقولون ربنا إننا آمننا . . . . ويجوز أن يكون في موضع نصب على المدح . ثم وصفهم - سبحانه - بخصائص صفات كريمة من شأنها أن تحمل العقلاء على التأسى بهم فقال : الصابرين والصادقين والقانتين ، والمنفقين والمستغفرين بالأسحار . . .

وفي كل صفة من صفاتهم دليل على قوة إيمانهم . وإذعانهم للحق حق الإذعان . فهم صابرون ، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس من أكبر

البراهين على سلامة اليقين . وقد حث القرآن أتباعه ، على التحلي بهذه الصفة في أكثر من سبعين موضعا . وهم صادقون ، والصدق من أكمل الصفات الإنسانية وأشرفها ، وقد أمر الله عباده أن يتحلوا به في كثير من آيات كتابه ، ومن ذلك قوله - تعالى - « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

وهم قانتون ، والقانت هو المداوم على طاعة الله - تعالى - غير متملل منها ولا متبرم بها ، ولا خارج على حدودها . فالقنوت يصور الإذعان المطلق لرب العالمين .

وهم منفقون أموالهم في طاعة الله - تعالى - وبالطريقة التي شرعها وأمر بها . وهم مستغفرون بالأسحار . أي يسألون الله - تعالى - أن يغفر لهم خطاياهم في كل وقت ، ولا سيما في الأسحار .

والأسحار جمع سحر وهو الوقت الذي يسكون قبل الفجر . روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ينزل ربنا - عز وجل - إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ، من ذا الذي يسألني فأعطيه ، من ذا الذي يستغفرنى فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر

وخص وقت الأسحار بالذكر لأن النفس تكون فيه أصنى ، والقلب فيه أجمع . ولأنه وقت يستلذ فيه الكثيرون النوم ، فإذا عرض المؤمن عن تلك اللذة وأقبل على ذكر الله كانت الطاعة أكل وأقرب إلى القبول ،

وهذا نرى أن الآيات الكريمة قد كشفت عن المشتبهات التي يميل إليها الناس في دنياهم بمقتضى فطرتهم ، وأرشدتهم إلى ما هو أسمى وأعلا وأبقى من ذلك ، وبشرتهم برضوان الله وجزائمه ، متى استقاموا على طريقه ، واستجابوا لتعاليمه . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وبعد أن بين - سبحانه - ما أعده للمتقين ، وذكر صفاتهم ، عقب ذلك ببيان أساس التقوى وهو عقيدة التوحيد ، وبيان أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله - تعالى - للناس ، وأن من يعارض في ذلك فمارسته داحضة وسيعاقبه الله بما يستحقه . استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول :

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنُبِيٍّ يَنْبَغُ لَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) » .

قال القرطبي : لما ظهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم بالمدينة - قام عليه جبران من أحبار أهل الشام فبا أبصرا المدينة قال أحدهما للآخر : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان ! فلما دخلا على النبي - صلى الله عليه وسلم - عرفاه بالصفة والنعمة ، فقالا له . أنت محمد ؟ قال نعم . قالوا : وأنت أحمد ؟ قال : نعم . قالوا : نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنَّا بك وصدقناك . فقال لهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : سلاني . فقالا : أخبرنا عن الأعظم شهادة في كتاب الله . فأقول الله تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، فأسلم الرجلان وصدقنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وقوله : تعالى - شهد الله ، أي بين وأعلم كما يقول : شهد فلان عند القاضي

إذا بين وأعلم لمن الحق أو على من هو قال الزجاج : الشاهد هو الذي يعلم الشيء ويبيته ، فقد دلنا الله على وحدانيته بما خلق وبين ، (١) .

والمعنى : أخبر الله - تعالى - عباده وأعلمهم بالآيات القرآنية التي أنزلها على نبيه . وبالآيات الكونية التي لا يقدر على خلقها أحد سواه ، وبغير ذلك من الأدلة القاطعة التي تشهد بواحدانيته ، وأنه لا معبود بحق سواه . وأنه هو المنفرد باللوهية لجميع الخلائق . وأن الجميع عبدة وفقراء لإله وهو الغنى عن كل ماعداه . وشهد بذلك الملائكة ، بأن أقروا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد فعبده حق العبادة ، وأطاعوه حق الطاعة ، وشهد بذلك أيضا د أولو العلم ، بأن اعترفوا له - سبحانه - بالوحدانية ، وصدقوا بما جاءهم به الرسول - عليه الصلاة والسلام - وبلغوا ذلك لغيرهم .

قال الزمخشري : شبهت دلالاته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره ، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية الكرسي وغيرهما . بشهادة الشاهد في البيان والكشف ، وكذلك إقرار الملائكة وأولى العلم بذلك واحتجاجهم عليه ، (٢) .

قالوا : وفي هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء . وقال في شرف العام لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، وقل رب زدني علما ، فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله نبيه أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم . وقال - صلى الله عليه وسلم - : إن العلماء ورثة الأنبياء ، وقال : العلماء أمناة الله على خلقه . وهذا شرف للعلماء عظيم . ومحل لهم في الدين خطير ، (٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٤١

(٢) تفسير الكشاف ج ٥ ص ٤٤٤

(٣) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٤١

والمراد بأولى العلم هنا جميع العلماء الذين سخروا ما أعطاهم الله من معارف في خدمة عقيدتهم ، وفيما ينفعهم وينفع غيرهم ، وأخلصوا لله في عبادتهم ، وصدقوا في أقوالهم وأفعالهم .

وقدم - سبحانه - الملائكة على أولى العلم ، لأن فيهم من هو واسطة لتوصيل العلم إلى ذويه ، ولأن علمهم كله ضروري بخلاف البشر فإن علمهم منه ما هو ضروري ، ومنه ما هو لاكتسابي .

وقوله - تعالى - : قائما بالقسط ، بيان لكيله - سبحانه - في أفعاله لإثبات كاله في ذاته والقسط : العدل . يقال قسط يقسط قسطا ، وأقسط لإقساطا فهو مقسط إذا عدل ومنه : إن الله يحب المقسطين ، . ويطلق القسط على الجور والفاعل قاسط ، ومنه : وأما القاسطون فكأنوا الجهنم خطبا ، .

أى : مقبلا للعدل في تدبير أمر خلقه ، وفي أحكامه . وفيما يقسم بينهم من الأرزاق والأجال ، وفيما يأمر به وينهى عنه ، وفي كل شأن من شؤنه .

قال الجمل ، وقائما ، منصوب على أنه حال من الضمير المنفصل لواقع بعد إلا ، فتكون الحال أيضا في حيز الشهادة ، فيكون المشهود به أمرين : الوجدانية والقيام بالقسط ، وهذا أحسن من جملة حالات الإسم الجميل لفاعل يشهد ، لأن عليه يكون المشهود به الوجدانية فقط . والحال ليست في حيز الشهادة (١)

وقوله : لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، تكرير للمشهود به للتأكيد والتعظيم وفيه إشارة إلى مزيد الاعتناء بمرئته أدلته لأن تثبیت المدعى إنما يكون بالدليل ، والاعتناء به يقتضى الاعتناء بأدائه .

العزيز الحكيم ، صفتان مقررتان لما وصف به ذاته من الوجدانية والعدل . أى لا إله في هذا الوجود يستحق العبادة بحق إلا الله ، العزيز ، الذى

لا يمتنع عليه شيء. أرادته ، الحكيم ، في تدبيره فلا يدخله خلل .  
قال ابن جرير: وإنما عني جل ثناؤه - بهذه الآية نفي ما أضافت النصارى  
الذين حاجوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عيسى من النبوة ، وما نسب  
إليه سائر أهل الشرك : من أن له شريكا ، وانتم اذمونه دونه أربابا ، فأخبرهم  
الله عن نفسه ، أنه الخالق كل ما سواه ، وأنه رب كل ما إنجذه كل كافر وكل  
مشرك ربا ، نه ، وأن ذلك مما يشهد به هو وملائمته - كنه وأهل العلم به من  
خلقة . فبدأ - جل ثناؤه - بنفسه تعظيما لنفسه ، وتنزيها لها عما نسب الذين  
ذكرنا أمرهم من أهل الشرك به ما نسبوا إليها ، كما سن لعبادته أن يبدؤوا في  
أمرهم بذكره قبل ذكر غيره مؤدبا خلقه بذلك ، (١)

هذا ، ومن الآثار التي وردت في فضل هذه الآية ما رواه الإمام أحمد عن  
الزبير بن العوام قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو بعرفة يقرأ  
هذه الآية ، شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم . . . الخ الآية  
فقال : وأنا على ذلك من الشاهدين يارب ، وقال غالب القطان : أتيت  
الكوفة في تجارة لي فنزلت قريبا من الأعمش فكنت أختلف إليه ، فقام في  
ليلة متجدا فمر بهذه الآية ، شهد الله أنه لا إله إلا هو . . . فقال : وأنا أشهد  
بما شهد الله به ، وأستودع الله هذه الشهادة وهي على وديعة ، وإن الدين عند  
الله الإسلام . . . فلهامرارا - فقلت . لقد سمع فيها شيئا فسألته في ذلك فقال :  
حدثني أبو وائل بن عبد الله قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يجاء  
بصاحبها يوم القيامة فيقول الله - تعالى - عبدى عهد لى وأنا أحق من وفى  
بالمهد أدخلوا عبدى الجنة ، (٢)

وقوله وإن الدين عند الله الإسلام ، جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى .  
وأصل الدين في اللغة الجزاء والحساب . يقال دنته بما صنع أى جازته على

(١) تفسير ابن جرير الطبرى ج ٣ ص ٢١٠ طبعة الحلبي .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٤

صنيعه «ومنه قولهم: كما تدن تدان أى كأنفعل نجازى . وفي الحديث «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» والمراد به هنا ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه من عقائد وتكاليف وتشريعات ، فيكون بمعنى الملة والشرع ،

أى : إن الشريعة المرصية عند الله - تعالى - هي الاسلام ، والاسلام في اللغة هو الاستسلام والانقياد يقال : أسلم أى أنقاد وإستسلم . وأسلم أمره لله سلمه إليه والمراد به هنا - كما قال ابن جرير : شهادة أن لا إله إلا الله ، والاقرار بما جاء من عند الله ، وهو دين الله الذى شرعه لنفسه وبعث به رسوله ودل عليه أوليائه ، لا يقبل غيره ولا يجزى بالاحسان إلا به (١) وهو الدين الحنيف الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن كثير : وقوله - تعالى - « إن الدين عند الله الإسلام » إخبار منه - تعالى - بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما يعظم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فن لقي الله - تعالى - بعد بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال - تعالى - ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه « الآية » . وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام ( إن الدين عند الله الإسلام ) (٢) .

وقوله : عند الله : ظرف العامل فيه لفظ الدين لما تضمنته من معنى الفعل ، أى الذى شرع عند الإسلام .

ويصح أن يكون صفة للذين فيكون متعلقاً بـذوف أى الكائن أو الثابت عند الله الإسلام وفى إضافة الدين إلى الله - تعالى - بقوله ( عند الله ) وإعتبار

(١) تفسير ابن جرير ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥٤

الإسلام وحده هو دين الله ، كما يدل على ذلك تعريف الطرفين ، إشعار بفضل الإسلام . لأن له ذلك الشرف الإضافي إلى خالق هذا الكون ومربيه ، فهو دين الله الذي شرعه لخلقه .

ثم بين - سبحانه - إن إختلاف أهل الكتاب في شأنه لدين الحق لم يكن عن جهل منهم بالحقائق وإنما كان سببه البغى والحسد وطلب الدنيا فقال - تعالى - وما اختلف الذين أتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، أى : وما كان خلاف الذين أتوا الكتاب من اليهود والنصارى فيما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا من بعد أن علموا بأن ما جاءهم به هو الحق الذى لا باطل معه ، فخلافهم لم يكن عن جهل منهم بأن ما جاءهم به هو الحق وإنما كان سببه البغى والحسد والظلم فيما بينهم .

وفى التعبير عنهم بأنهم « أتوا الكتاب » ، زيادة تقييح طم ، فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقيح وأخش ، إذ الكتاب مازل إلا لهدايتهم وسعادتهم ، فإذا تركوا بشارته وتوجيهاته ولاتبعوا أهواهم كان فعلهم هذا أشد قبحا وخشا .

وقوله « إلا من بعد ما جاءهم العلم » ، زيادة أخرى فى تقييح أفعالهم ، فإن الاختلاف بعد مجي العلم أزيد فى القبح والعناد .

والاستثناء من أهم الأحوال أو الأوقات . أى ما اختلفوا فى حال من الأحوال أوفى وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا الحق ، والعلم بالحق وحده لا يكتفى فى الإيمان به ، ولكنه يحتاج إلى جانب ذلك إلى قلب مؤمن متفتح لطلبه ، وكمن أناس يعرفون الحق معرفة قائمة ولكنهم يحاربونه ويحاربون أهله ، لأنهم يرون أن هذا الحق يتعارض مع أهوائهم وشهواتهم وصدق الله إذ يقول : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (١) .

فهم قد اختلفوا في الحق مع عليهم : أنه حق ، لأن العلم كالمطر ، لا يستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية ، وكذلك لا يستفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية ، والقلوب الواعية ، والأشدة المستقيمة .

وقوله : بغيا بينهم ، مفعول لأجله ، والعامل فيه اختلف أي ما اختلفوا إلا للبغى لا لغيره قال الفرطى : وفي الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلا بعد ما جاءهم العلم ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التهديد الشديد فقال : ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ، . أى : ومن يكفر بآيات الله الدالة على وحدانيته - سبحانه - ، فإن الله محص عليه أعماله في الدنيا وسيعاقبه بما يستحقه في الآخرة .

فقوله : فإن الله سريع الحساب ، قائم مقام جواب الشرط وعلة له ، أى : ومن يكفر بآيات الله فإنه - سبحانه - محاسبه ومعاقبه والله سريع الحساب .

وسرعة الحساب تدل على سرعة العقاب ، وعلى العلم الكامل والقدرة التامة فهو - سبحانه - لا يحتاج إلى شخص وبحسب ، لأنه لا يخفى عليه خافية .

ثم لقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - ما يرد به على أهل الكتاب إذا ما جادلوه أو خاصموه ليحسم الأمر معهم ومع غيرهم من المشركين وليبضى في طريقه الواضح المستقيم فقال - تعالى - : فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن .

وقوله : حاجوك ، من الحاجة وهي أن يتبادل المتجادلان الحججة . بأن

يقدم كل واحد حجته ويطلب من الآخر أن يرد عليهم، أو يقدم الحجّة على ما يدعيه ويزعمه الحق الذي لا شك فيه .

والمعنى : فإن جادلك - يا محمد - أهل الكتاب ومن اف لفهم بالأقاويل المزورة ، والمغالطات الباطلة ، بعد أن قامت الحجج على صدقك ، فلا تسرهم في لجساجتهم . ولا التفت إلى أكاذيبهم ، بل قل لهم : أسلمت وجهي لله ومن إتبعني ، أي أخلصت عبادتي لله وحده ، وأطعته وأتقنت له ، وكذلك من إتبعني وآمن بي قد أسلم وجهه لله وأخلص له العبادة .

والمراد بالوجه هنا الذات ، وعبر بالوجه عن سائر الذات ، لأنه أشرف أعضاء الشخص ، ولأنه هو الذي تتكون به المواجهة ، وهو مجمع محاسن الجسم . فالتعبير به عن الجسم كله تعبير بجزء له شأن خاص وتم به إرادة الكل .

و من ، في قوله ، ومن إتبعني ، في محل رفع عطفًا على الضمير المتصل في . أسلمت ، أي أسلمت أنا ومن إتبعني . وجاء العطف على الضمير المرفوع من غير تأكيد لوجود الفاصل بينهما .

وقوله ، وقل للذين أتوا الكتاب والأمين أسلمتم ، عطف على الجملة الشرطية ، والمراد بالأمين الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب .

والاستفهام في قوله ، أسلمتم ، للحض على أن يسلموا وجوههم لله ، ويتبعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما إتبعه المسلمون .

والمعنى : فإن جادلوك في الدين - يا محمد - بعد أن تبين لكل عاقل صدقك ، فقل لهمؤلاء المعاندين لاني أسلمت وجهي لله وكذلك أتباعي أسلموا وجوههم لله ، وقل للذين أتوا الكتاب والأمين أسلموا تسلموا فقد تبين لكم أني على حق ، ومن شأن العاقل أنه إذا تبين له الحق أن يدخلوا فيه وأن يترك العناد والمكابرة .

قال صاحب الكشاف : وقوله ، أسلمتم ، يعني أنه قد أتاكم من اليقينات

ما يوجب الإسلام ويقتضى - صوله لا محالة ، فهل أسلمتم أم أتمتم بعد على  
 كفركم وهذا كقولك لمن خصت له المسألة ، ولم تبق من طرق البيان طريقاً  
 إلا سلكته هل فهمتها لا أم لك ، ومنه قوله - تعالى - « فهل أتمتم منتهون ، بعد  
 ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر . وفي هذا الاستفهام إستقصار - أى عد  
 المخاطب قاصراً - وتعير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن المنصف إذا تجملت له  
 لوجه لم يتوقف في إذعانه للحق ... » (١) .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على إسلامهم من نتائج ، وما يترتب على  
 إعراضهم من ضرور تعود عليهم فقال : فإن أسلموا فقد إهتدوا ، وإن تولوا  
 فإنما عليك البلاغ وانه بصير بالعباد .

أى : فإن أسلموا وجوههم لله وصدقوا بما جاء به محمد - صلى الله عليه  
 وسلم - فقد إهتدوا إلى طريق الحق ، لأن هذا الإسلام هو الدين الذى  
 ارتضاه الله للناس . وإن أعرضوا عن هذا الطريق المستقيم ، فإن إعراضهم  
 لن يضرك - أي الرسول الكريم - لأن الذى عليك إنما هو تبليغ الناس  
 بما أمرك الله بتبليغه إياهم . وهو - سبحانه - بصير بخلقهم لا تخفى عليه خافية  
 من أقوالهم أو أفعالهم ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه .

وعبر بالماضى فى قوله « فقد إهتدوا » ، مبالغة فى الاخبار بوقوع الهدى لهم  
 بقوله « فإنما عليك البلاغ » ، قائم مقام جواب الشرط أى وإن تولوا لا يضرك  
 نوليهم شيئاً إذ ما عليك إلا البلاغ وقد أدبته على أكل وجهه وأبلغه .

وقوله ( والله بصير بالعباد ) تذييل فيه عزاء للنبي - صلى الله عليه وسلم -  
 عن كفرهم ، وإشارة إلى أحوالهم ، وإنذار بسوء مصيرهم ، لأنه - سبحانه -  
 عليهم بنفوس الناس جميعاً ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه ، وفيه كذلك  
 عهد للمؤمنين بحسن العاقبة ، وجزيل الثواب .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٤٧ .

قال ابن كثير: وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عبودية  
بعثته - صلى الله عليه وسلم - إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ،  
وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث . فن ذلك قوله - تعالى -  
( قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ، وقال - تعالى - ( تبارك الذي  
نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ) .

وفي الصحيحين وغيرهما ما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه - صلى الله  
عليه وسلم - بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم ، من  
عربهم وعجمهم ، كتابهم وأمهم إمتثالا لأمر الله له بذلك الفطن أبي هريرة  
عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد  
من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان  
من أهل النار .

وقال - صلى الله عليه وسلم - بعثت إلى الأحمر والأسود . وقال :  
( كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ) . وعن أنس -  
رضي الله عنه - أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي - صلى الله عليه وسلم - وضوءه  
ويبذره عليه فرض ، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم - فدخل عليه وأبوه  
قاعد عند رأسه ، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : ( يا فلان قل لا إله  
إلا الله ) فنظر إلى أبيه فسكت أبوه . فأعاد عليه النبي - صلى الله عليه وسلم -  
القول ، فنظر إلى أبيه ، فقال له أبوه : أدع أبا القاسم . فقال الغلام أشهد أن  
لا إله إلا الله وأنت رسول الله . فخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو  
يقول : الحمد لله الذي أخرجني من النار ) رواه البخاري في الصحيح . (١)  
غير ذلك من الآيات والأحاديث ( ١ ) .

وهذا نرى أن الآيات الكريمة قد بينت للناس في كل زمان ومكان أن دين  
الإسلام هو الدين الحق الذي أمرتضاه الله لعباده . وشهد بذلك خالق هذا الكون

- عز وجبل - وكفى بشهادته كما شهد بفك الملائكة المقربون ، والعلماء  
المخلصون ، كما بينت أن كثيرا من الذين أوتوا الكتاب يعلمون هذه الحقيقة  
ولكنهم يكتُمونها ظلما وبغيا ، كما بينت - أيضا - أن الذين يدخلون في هذا  
الدين يكفرون بدخولهم قبل إهدوا إلى الطريق للقويم ، وأن الذين يمرضون  
عنه سيعاقبون بما يستحقونه بسبب هذا الإعراض عن الحق المبين .

ثم انتقل القرآن إلى سرد بعض الرذائل التي عرف بها اليهود وعرف بها  
أسلافهم ، وبين سوء مصيرهم ومصير كل من يفعل فعلهم فقال - تعالى - - :

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ،  
وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)  
أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَأْوَاهُمُ مِنَ  
نَّاصِرِينَ (٢٢) » .

فانت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء المارقين بصفات ينفر  
منها كل عاقل وصفهم أولا بأنهم : ( يكفرون بآيات الله ) أي لا يكتفون  
بالكفر بالله - تعالى - ، بل يكفرون بالآيات المثبتة لوحده فيته ، وبالرسول  
الذين جاءهم بالهدى والحق .

ووصفهم ثانيا بأنهم ( يقتلون النبيين بغير حق ) وقتل النبيين بغير حق  
فمثل معروف عن اليهود ، فهم الذين قتلوا زكريا - عليه السلام - لأنه حاول  
أن يخلص ابنه يحيى - عليه السلام - من القتل ، وقتلوا يحيى لأنه لم يوافقهم في  
أهوائهم وحاولوا قتل عيسى - عليه السلام - وليكن الله - تعالى - - نجاه من  
مكرهم ، وقتلوا غيرهم من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - (١) .

(١) راجع كتابنا « بنو إسرائيل في القرآن والسنة » ج ٢ ص ٤٤ .

فإن قيل إن اليهود ما قتلوا كل الأنبياء فلم أخبر القرآن عنهم أنهم يقتلون النبيين ولم يقل يقتلون بعض النبيين ؟

فالجواب أنهم يقتلهم لبعض النبيين فقد استهانوا بمقام النبوة ، ومن استهان بمقام النبوة يقتله لبعض الأنبياء فكأنه قد قتل الأنبياء جميعا ، ونظير هذا قوله - تعالى - : « من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ... » (١) .

وقيد القتل بأنه « بغير حق » ، مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبدا ، للتصريح بموضع الاستنكار ، لأن موضع الاستنكار هو اعتداؤهم على الحق بقتلهم للأنبياء ، وللإشارة إلى أنهم لتوغلهم في الظلم والعدوان قد صاروا أهداء للحق لا يألونه ولا تميل إليه نفوسهم ، وللتسجيل عليهم أن هذا القتل للأنبياء كان مخالفا لما في شريعتهم فإنها قد نهتهم عن قتلهم ، بل عن مخالفتهم . فهذا القيد من باب الاحتجاج عليهم بما نهت عنه شريعتهم لتخليد مذمتهم في كل زمان ومكان .

وقال - سبحانه - « بغير حق » بصيغة التنكير ، لعموم النفي ، بحيث يتناول الحق الثابت ، والحق المزعوم ، أي أنهم لم يكونوا معذورين بأى لون من ألوان العذر في هذا الاعتداء ، فقد أقدموا على ما أقدموا عليه وهم يعلمون أنهم على الباطل ، فكان فعلهم هذا إجراما في بواعثه وفي حقيقته ، وأفظح أنواع الإجرام في موضوعه .

وقوله « بغير حق » ، في موضع الحال المؤكدة لمضمون جملة « يقتلون النبيين » ، إذ لا يكون قتل النبيين إلا كذلك .

ووصفهم ثالثا بأنهم « يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس » .

والقسط : العدل يقال قسط يقسط ويقسط قسطا ، وأقسط إقسطا إذا عدل .

أى : لا يكتفون بقتل النبيين الذين جاءوا لهدايتهم وسعادتهم ، وإنما يقتلون مع ذلك الذين يأمرونهم بالعدل من مرشديهم ونصحائهم .

وفى قوله « من الناس ، إشارة إلى أنهم ليسوا بأنبياء ، بل من الناس غير المبشرين .

وفى قرآنهم بالأنبياء ، وإثبات أن الاعتداء عليهم قرين الاعتداء على الأنبياء ، إشارة إلى بيان علو منزلتهم ، وأنهم ورثتهم الذين يدعون بدعوتهم .

وعبر عن جرائمهم بصيغة الفعل المضارع - يكفرون ويقتلون - لاستحضار صورة أفعالهم الفضيحة في أذهان المخالين ، ولإفادة أن أفعالهم هذه متجددة كلما استطاعوا إليها سبيلا ، والإشعار بأن اليهود المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - كانوا راضين بفعل آباءهم وأسلافهم . ولقد حاول اليهود في العهد النبوي أن يقتلوا النبي - صلى الله عليه وسلم - ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم .

هذا ، وقد وردت آثار متعددة تصرح بأن اليهود قد دأبوا على قتل الأنبياء والمصلحين ، ومن ذلك ما جاء عن أبي عبيدة بن الجراح أنه قال : قلت يا رسول الله : أى الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتل نبيا ، أو قتل من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن الذين يكفرون بآيات الله . . . الآية . » ثم قال : يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام

مائة وسبعون رجلا منهم ، فأروا من قتلهم بالمعروف ونهوا عن المنكر  
قتلهم جميعا من آخر النهار في ذلك اليوم» (١) .

هذه بعض جرائمهم فإذا كانت نقيجتها ؟ كانت نقيجتها العذاب الاليم الذي  
أخبرهم الله به في قوله « فبشرهم بعذاب اليم » .

والجمللة الكريمة خبر إن ، وجاز دخول الفاء على خيرها لتضمن أسما  
وهو « الذين » معنى الشرط في العموم .

وحقيقة التبشير : الإخبار بما يظهر سرور المخبر - بفتح الباء - على  
بشرة وجهه ، وهو هنا متعمد في ضد حقيقته على سبيل التهكم بهم ، وذلك  
لأن هؤلاء المعتدين مع أنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه وأوليائه ، وفعلوا  
ما فعلوا من منكرات ، مع كل ذلك زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فساق  
لهم القرآن ما يخبرهم به على سبيل الاستهزاء بقولهم أن بشارتهم التي برقبونها  
بسبب كفرهم ودعواهم الباطلة هي : العذاب الاليم .

واستعمال اللفظ في ضده بعد عند علماء البيان من باب الاستعارة  
التهكمية ، لأن تشبيه الشيء بضده لا يروج في عقل العقلاء إلا على معنى التهكم  
والاستهزاء .

ثم أخير - سبحانه - بفساد أعمالهم في الدنيا والآخرة فقال : « أولئك  
الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة » .

والحبوط - كما يقول الراغب - من الحبط ، وهو أن تتكثر الدابة الأكل  
حتى تنتفخ بطنها ، وقد يؤدي إلى موتها .

والمراد بحبوط أعمالهم إزالة آثارها القافعة من ثواب في الآخرة وحياته  
طيبة في الدنيا ، لأنهم عملوا ما عملوا ولم لا يرجون لله وقارا .

وجىء بالإشارة في صدر الآية ، لتمييز أصحاب تلك الأفعال القبيحة  
أكل تمييز ، وللتنبية على أنهم أحقوا بما سيخبر به عنهم بعد اسم الإشارة .

وكانت الإشارة للبعد ، الإيذان ببعدهم عن الطريق القويم ، والخلق المستقيم ، وقوله « أولئك » مبتدأ ، والموصول وصلته خبره .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وسقطت عن حيز الاعتبار ، وختت عن الثمرة التي كانوا يؤملونها من ورائها ، بسبب إصرارهم باقته واعتدائهم على حرمانه .

وقوله « وما لهم من ناصرين ، نفي لسكل ما كانوا يتوهمونه من أسباب النصر ، وقد أكد هذا النفي بمن الزائدة .

أى ليس لهم من أحد ينصرهم من بأس الله وحقابه ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، لأنهم بسبب كفرهم وأفعالهم القبيحة صاروا مستحقين للعقاب ، وليس هناك من يدفعه عنهم .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصفهم بصفات ثلاث : بالكفر ، وقتل الأنبياء ، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس .

وتوعدهم - أيضا - بثلاثة أنواع من العقوبات : بالعذاب الآليم وحبوط أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وانتفاء من ينصرهم أو يدافع عنهم .  
وبذلك نرى الآيتين الكريمتين أسوقان أشد ألوان التهديد والوعيد لولا المعتدين ، بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة .

وبعد أن وصف القرآن هؤلاء المعاندين بالكفر وقتل الأنبياء والمصلحين وبين سوء مصيرهم ، أتبع ذلك ببيان رذيلة من أخش رذائلهم وهي أنهم يدعون إلى التحاكم إلى الكتاب الذي يزعمون أنهم يؤمنون به ، فيمتنعون عن ذلك غروراً وعناداً ، استمع إلى القرآن وهو يصور أحوالهم السيئة فيقول :

« أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِّنْهُمْ وَمُؤْمِنُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمْسَنَّا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّقْدُودَاتٍ ، وَفَرِّغْ مِنْهُمْ فِي دِينِهِمْ

مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ  
وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) .

أورد بعض المفسرين روايات في سبب نزول هذه الآيات :

منها، ما رواه البخارى عن عبد الله بن عمر أن اليهود جاءوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - برجل منهم وامرأة قد زنيا . فقال لهم : كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ قالوا : نحممهما - أى نجعل على وجوههما الفحم تنكيلا بهما - ونضربهما . فقال : لا تجدون فى التوراة الرجم ؟ فقالوا : لا نجد . فيها شيئا . فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم . فأتوا بالتوراة قائلوها إن كنتم صادقين . فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم . فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها . ولا يقرأ آية الرجم فنزع يده عن آية الرجم . فقال ما هذه ؟ - أى أن عبد الله بن سلام رفع يد القارىء عن آية الرجم وقال له ما هذه - فلما رأى اليهود ذلك قالوا : هى آية الرجم . فأمر بهما فرجما قريبا من حيث موضع الجنائز عند المسجد . . . (١) .

وقال ابن عباس : دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيت المدراس على جماعة من يهود - أى دخل عليهم فى المكان الذى يتدارسون فيه علومهم - فدعاهم إلى الله : فقال له بعضهم : على أى دين أنت يا محمد ؟ فقال : لى على ملة إبراهيم ودينه . فقالوا : فإن إبراهيم كان يهوديا ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم : فهلما إلى التوراة فهى بيننا وبينكم ، فإبوا عليه فأنزل الله هذه الآيات .

وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوة محمد

- صلى الله عليه وسلم - فقال لهم : هلموا إلى التوراة ففيها صفتي فأبوا ، (١) .  
قال ابن جرير ما ملخصه : وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب  
أن يقال : إن الله - تعالى - قد أخبر عن طائفة من اليهود المعاصرين للنبي  
- صلى الله عليه وسلم - أنهم دعوا إلى التوراة للتحاكم لئليها في بعض ما تنازعوا  
فيه مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأبوا ، ويجوز أن يكون هذا التنازع  
في أمر نبوته ، أو في أمر إبراهيم ودينه ، أو في حد من الحدود ، فإن كل ذلك  
ما تنازعوا فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ... ، (٢)

وكان ابن جرير - رحمه الله - يريد أن يقول : إن الآيات الكريمة تنسج  
لمكل ما تنازعوا فيه مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما دعاهم إلى أن  
يحكم التوراة بينه وبينهم في شأن هذا التنازع أبوا وأعرضوا ، وهو رأي حسن .

والاستفهام في قوله : ألم تر ... ، للتعجب من شأنهم ومن سوء صنيعهم  
حيث دعوا إلى كتابهم ليحكم بينهم فامتنعوا عن ذلك لأنهم كانوا - كما يقول  
الألوسي - ، إذا غضتهم الحجة فروا إلى الضجة وأعرضوا عن المحجة ، ثم قال :

و د من ، إما للتبويض وإما للبيان على معنى د نصيبا ، هو الكتاب أو نصيبا  
منه ، لأن الوصول إلى كنه كلامه - سبحانه - متعذر ، فإن جعل بيانا كان  
المراد إزال الكتاب عليهم . وإن جعل تبعيضا كان المراد هدايتهم إلى فهم  
ما فيه ، وعلى التقديرين اللام في د الكتاب ، للمهد . والمراد به التوراة ، (٣) .

والمعنى : قد علمت أيها العاقل حال أولئك الأحمق من اليهود الذين أعطوا  
قسطا من معرفة كتابهم ، والذين دعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى  
التحاكم إلى التوراة التي هي كتابهم فيما حدث بينهم وبينه من نزاع فأبوا أن

(١) تفسير القرطبي - ٤ ص ٥

(٢) تفسير ابن جرير - ٣ ص ٢١٨

(٣) تفسير الألوسي ج ٣ ص ١١٠

يستجيبوا للدعوة ، وأعرضوا عنها كما هو شأنهم ودأبهم في الإعراض عن الحق والصواب .

وعرف المتحدث عنهم - وهم أحبار اليهود - بطريق الموصولية ، لأن في الصلة ما يزيد التعجب من حالهم ، لأن كونهم على علم من الكتاب قليل أو كثير من شأنه أن يصدم عما أخبر به عنهم لو كانوا يعقلون .

وجملة « يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » مستأنفة مبينة لمحل التعجب ، أو حال من الذين أتوا نصيباً من الكتاب ،

والمراد بكتاب الله : التوراة ، لأن سبب النزول يؤيد ذلك ، ولأن التعجب من حالهم يسكون أشد إذا كان إعراضهم إنما هو عن كتابهم . وقيل المراد به القرآن .

وقوله « ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون معطوف على قوله « يدعون » ، وجاء لمطف بتم للإشعار بالفارق الشاسع بين ما قاموا به من إعراض عن الحق ، وبين ما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، فإن علمهم بالكتاب كان يقتضى أن يتبعوا وأن يعملوا بأحكامه ، ولكنهم أبوا ذلك لفساد نفوسهم .

وقوله « منهم » جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لفريق .

ولنما قال « فريق منهم » ليخرج القلة التي أسلمت من علماء اليهود كمبدأه بن سلام ، وهذا من إنصاف القرآن في أحكامه ، واحتراسه في سوق الحقائق فهو لا يلقى الأحكام على الجميع جزافاً ، وإنما يحدث هذه الأحكام بحيث يدين المتهم ، ويرى ساحة البرى .

وقوله « وهم معرضون » ، حال من فريق ، أى ثم يتولى فريق منهم عن سماع الحق والالتقياد لأحكامه ، وينفر منها نفوراً شديداً ، والحال أنهم قوم دينهم الإعراض والانصراف عن الحق .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التي صرفتهم عن الحق فقال : « ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات » .

وَأَسْمَ الْإِشَارَةِ ذَلِكَ، يَعُودُ إِلَى الذِّكْرِ مِنْ تَوَالِيهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ مَجْلَسِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعَنْ سَمَاعِهِمْ لِلْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ .

والمس : اتصال أحد الشبثين بالآخر على وجه الاحساس والاصابة والمراد من النار : نار الآخرة .

والمُرَاد من المعدودات : المحصورات القليلات . يقال شيء معدود ، أى قليل ، وشيء غير معدود أى كثير . قههم يزعمون أن النار لن تمسهم إلا مدة يسيرة قد تكون سبعة أيام ، وقد تكون أربعين يوماً ، وبعدها يخرجون إلى الجنة .

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : إن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً في النار ، وإنما هي سبعة أيام . وفي رواية عنه أنه قال في قوله - تعالى - « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . » ، ذلك أعداء الله اليهود ، قالوا : لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم ، الأيام التي أصبنا فيها العجل أربعين يوماً . فإذا انقضت عنا تلك الأيام انقطع عنا العذاب والقسم ، (١) .

أى ذلك التولى والإعراض عن الحق الذى صدر عن كثير من أحبار اليهود وعوامهم ، سيده أنهم سهلوا على أنفسهم أمر العقاب ، وتوهموا أنهم لن يعذبوا عذاباً طويلاً ، بل النار ستمسهم أياماً قليلة ثم بعد ذلك يخرجون منها ، لأنهم أبناء الله وأحباؤه ، ولأن آباءهم سيشفعون لهم فى زعمهم .

ثم قال - تعالى - « وغرم فى دينهم ما كانوا يفترون . » .

وقوله « وغرم » من القرور وهو كل ما يغر الانسان ويخذه من مال أو جاه أو شهوة أو غير ذلك من الأشياء التي تفر الانسان وتخذه وتجعله غافلاً عن اتباع الحق .

والمعنى : أنهم سهلوا على أنفسهم الخطوب ، ولم يبالوا بالمعاصي والذنوب وأنهم طعموا في غير مطمع ، وأصاب موضع الغرة والغفلة منهم في دينهم ما كانوا يفترضونه من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات . والغرور أكبر شيء يبعد الإنسان عن حسن الاستعداد لما يجب عليه نحو دينه ودنياه .

ثم حكى القرآن ما سيكون عليه حالهم من عذاب وحسرة بأسلوب مؤثر فقال : فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظنون . .

فلاستفهام هنا للاستعظام والتهويل والرد على مزاعمهم الباطلة .

وكيف في موضع نصب على الحال، والعامل فيه محذوف أى فكيف تسكون حالهم ، أو كيف يصنعون . ويجوز أن تسكون خبرا لمبتدأ محذوف أى : فكيف حالهم .

قال الفخر الرازى : أما قوله ، فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ، فالمعنى أنه لما حكى عنهم إغترارهم بما هم عليه من الجهل بين أنه سيحسب يوم يزول فيه ذلك الجهل ، وينكشف فيه ذلك الغرور فقال : فكيف إذا جمعناهم . . . ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فكيف صورتهم وحالهم ، ويحذف الحال كثيراً مع كيف ، لدلالته عليها تقول : كنت أكرهه وهو لم يزرني ، فكيف لو زارني ، أى كيف حاله إذا زارني . وأهل أن هذا الحذف يوجب مزيد البلاغة لما فيه من تحريك النفس على استحضار كل نوع من أنواع السكرامة في قول القائل : لو زارني ، وكل نوع من أنواع العذاب في هذه الآية (١) .

والمعنى : فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم لجزاء يوم لا ريب في مجبه

وحصوله ، واضمحلت عنهم تلك الزخارف التي أدعواها في الدنيا ، ووفيت كل نفس ما كسبت ، من خير أو شر ، وهم لا يظلمون ، شيئا . بل يجازى كل إنسان على حسب عمله ، لا شك أنهم في هذا اليوم الهائل الشديد سيفاجئون بنهب غرورهم ، وبفساد تصورهم ، وأنهم سيقعون في العذاب الأليم الذي لا حيلة لهم في دفعه ، ولا مخلص لهم من ذوقه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم (١) .

قال الزمخشري : روى أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار . راية اليهود ، فيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد ، ثم يأمرهم إلى النار ، (٢) . وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد وبخت أحبار اليهود الذين يعرضون عن الحق توبيخا شديدا . وأبطلت أكاذيبهم وغرورهم . وردت عليهم بما يفضحهم ويخزيهم ، وصورت حالهم يوم القيامة تصويرا مؤثرا هائلا يهتز له القلوب ، وترتجف منه الأفئدة ، ويحمل العقلاء على التزود من التقوى والعمل الصالح حتى يفوزوا برضا الله .

وبعد هذا الحديث البليغ المؤثر عن المرضين عن الحق ، وعن دعاوهم السكاذبة ، وعن سوء مصيرهم ، يأمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - كما يأمر كل مؤمن ، أن يتوجه إليه بالضراعة ، وأن يخلص له العبادة . وأن يعترف له بالقدرة على كل شيء . وبالعدالة القائمة على الحكمة والعلم فيقول :

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ

(١) سورة الشعراء . الايتان ٨٨ ، ٨٩

(٢) تفسير السكاذاف ج ١ ص ٤٩

الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ  
بِقَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) .

قال القرطبي : قال ابن عباس وأنس بن مالك : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ووعد أمته ملك فارس والروم ، قال المتلفعون واليهود : هيات هيات من ابن محمد ملك فارس والروم ! وم أعز وأمنع من ذلك ، لم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم . فأنزل الله هذه الآية ... (١) .

والأمر بقوله « قل ، للهي - صلى الله عليه وسلم - وليكل من يتأني له الخطاب من المؤمنين .

وكلمة « اللهم ، يرى الجليل وسيدويه أن أصلها يا الله ، فلما استعملت دون حرف النداء الذي هو « يا ، جعلوا هذه الميم المشددة التي في آخرها عوضا عن حرف النداء ، وهذا التعويض من خصائص الاسم الجليل ، كما اختص بجواز الجمع فيه بين « يا ، و « آل ، ، و « بقطع همزته ، ودخول تاء القسم عليه .

وقال الفراء والكوفيون : إن الميم المشددة في آخر الكلمة هي « أم ، بمعنى قصد « أي أفصدهك يا مولاي بضراعتي ، وأنت صاحب الملك والسلطان . ولسكن بعض النحويين كالزجاج لم يرتض قول الكوفيين والفراء ، وقال : إن معنى القصد «أبى بمجرد الإلتجاء والدعاء . و « المالك ، هو القادر المتصرف في شئون هذا الكون كيف يشاء ، وهذا الوصف على الحقيقة لا يكون إلا قهوب العالمين .

والمعنى : قل أيها المخاطب على سبيل التعميم لربك ، والشكر له ، والتوكل عليه ، والضراعة إليه ، قل : يا الله يا مالك الملك أنت وحدك صاحب السلطان

المطلق في هذا الوجود ، بحيث تتصرف فيه كيف تشاء ، إجماداً وإعدالاً .  
وإحياء وإماتة ، وتعذيباً وإثابة ، من غير أن ينازعك في ذلك أى منازع .

فكان في هذه الجملة الكريمة : قل اللهم مالك الملك ، دعاءين خاشعين :  
أما الدعاء الأول فهو بلفظ الجلالة المعبر عنه بقوله ، اللهم ، أى يا الله ، وفي  
هذا النداء كل معاني العبودية والتزيه والتقديس والخضوع . وأما الدعاء الثاني  
فمزمع المعبر عنه بقوله ، مالك الملك ، أى يا مالك الملك ، وفي هذا النداء كل معاني  
الإحساس بالربوبية ، والضعف أمام قدرة الله وسلطانه .

فقوله ، مالك ، منصوب بحرف النداء المحذوف . كما في قوله ، قل اللهم  
فاطر السموات والأرض ، أى يا فاطر السموات والأرض .

ثم فصل - سبحانه - بعض مظاهر خلقه التي تدل على أنه هو مالك الملك على  
الحقيقة ، فقال - تعالى - : توئى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء .

أى : أنت وحدك الذى تعطى الملك من تشاء إعطائه من عبادك ، وتنزعه  
من تشاء ، تنزعه مبهم ، فأنت المتصرف فى شئون خلقك ، لا راد لقضائك  
ولا معقب لحركتك .

وهو بالإيتام الذى هو مجرد الإعطاء دون التخليك المؤذن بثبوت المالكية،  
للتبعية على أن المالكية على الحقيقة إنما هى مختصة بالله رب العالمين ، أما ما يعطيه  
لغيره من ملك فهو عارية مستردة . وهو شئ مرزائل لا يدوم .

والتعبير عن إزالة الملك بقوله ، وتنزع الملك ممن تشاء ، يشعر بأنه  
- سبحانه - فى قدرته أن يسلب هذا العطاء من أى مخلوق مهما بلغت سعة ملكه،  
وهما اشتدت قوته ؛ وذلك لأن لفظ تنزع يدل على أن المنزوع منه الشئ  
كان متمسكاً به ، فسلبه الله منه بتمتضى قدرته وحكمته .

والمراد بالملك هنا السلطان ، وقيل النبوة ، وقيل غير ذلك .

قال الفخر الرازى : وقوله ، توئى الملك من تشاء ، محمول على جميع أنواع

الملك فيدخل فيه ملك النبوة . وملك العقل ، والصحة والأخلاق الحسنة .  
وملك النفاذ والقدرة ، وملك المحبة ، وملك الأموال ، وذلك لأن اللفظ عام  
فالتخصيص من غير دليل لا يجوز ، (١) .

ومفعول المشيئة في الجملتين محذوف أى : توتى الملك من تشاء إبتاه  
وتنزعه من تشاء تنزعه منه .

أما الأمر الثانى الذى يدل على أنه - سبحانه - هو مالك الملك على الحقيقة ،  
فهو قوله : وتعرض من تشاء وتذل من تشاء . . .

العزة - كما يقول الراغب - حالة مانعة للإنسان من أن يغلب ، من قوهم :  
أرض عزاز : أى صلابة ، وتعزز اللحم : اشتد وعز ، كأنه حصل فى عزاز  
يصعب الوصول إليه . . . والعزير الذى يقهر ولا يقهر .

وتذل ، من الذل : وهو ما كان عن قهر ، يقال : ذل بذل ذلاً إذا قهر  
وغلب ، (٢) والعزة صفة نفسية يحس بها المؤمن الصادق فى إيمانه ؛ لأنه يشعر  
دائماً بأنه عبد الله - تعالى - وحده وليس عبداً لأحد سواه ، قال - تعالى -  
« وثقه العزة ورسوله وللمؤمنين ، فالؤمنون الصادقون أعزاء ولو كانوا  
فى المال والجاه فقراء . أما الكافرون فهم أذلاء ، لأنهم خضعوا لغير الله  
الواحد القهار .

والمعنى : أنت يا الله يامالك الملك ، أنت وحدك الذى توتى الملك لمن تشاء  
أن توتيه له ، وتنزعه ممن تريد تنزعه منه . وأنت وحدك الذى تعرض من تشاء  
لِعزازه بالنصر والتوفيق ، وتذل من تشاء لإذلاله بالهزيمة والخذلان .

ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التسليم المطلق من المؤمنين لذاته فقال - تعالى - :  
« بيدك الخير إنك على كل شئ قدير . »

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ٧ ؛ طيبة عبد الرحمن محمد .

(٢) مرددات القرآن للراغب الأصفهاني ج ١٨١ ص ٣٣٣

أى : أنت وحدك الذى تملك الخير كله ، وتصرف فيه حسب إرادتك ومشيئتك ، لأنك على كل شيء قدير .

وأل فى الخير الاستغراق الشامل ، إذ كل خير فهو بيده - سبحانه - وقدرته ، وتقديم الجار والمجرور ، بيدك ، لإفادة الاختصاص ، أى بيدك وحدك على الحقيقة لا بيد غيرك . وجملته : إنك على كل شيء قدير ، تعليلية . قال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف قال : بيدك الخير ، فذكر الخير دون الشر ؟ قلت : لأن الكلام إنما وقع فى الخير الذى يسوقه إلى المؤمنين وهو الذى أنكرته الكفرة فقال بيدك الخير ، تؤتيه أuyaامك على رغم من أعدائك ، ولأن أفعال الله - تعالى - من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة . فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه . (١)

ثم ذكر - سبحانه - مظهرا حسيا من مظاهر قدرته الباهرة فقال : توج الليل فى النهار وتوج النهار فى الليل ، .

الولوج فى الأصل : الدخول ، والإيلاج الإدخال . يقال : ولج فلان منزله إذا دخله ، فهو يلججه ولجا وولوجا . وأولجته أنا إذا أدخلته . ثم استعير لزيادة زمان النهار فى الليل وعكسه ، بحسب المطالع والمغرب .

أى أنت يا الله يا مالك الملك ، أنت الذى بقدرتك أن تدخل طائفة من الليل فى النهار فيقصر الليل ويزيد النهار ، وتدخل طائفة من النهار فى الليل ، فيقصر النهار ويزيد الليل ، وأنت وحدك الذى بقدرتك أن تجعلهما متعاقبين بأن تأتى بالليل رويدا رويدا فى أعقاب النهار ، وتأتى بالنهار شيئا فشيئا فى أعقاب الليل . وفى كل ذلك دليل على سعة قدرتك ، وواسع رحمتك ، وتذكر واعتبار لأولى الألباب .

ثم ذكر - سبحانه - مظهرا حيا آخر من مظاهر قدرته فقال : يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، .

(١) تفسير الكشاف - ص ١٠٠

قال الفخر الرازي : ذكر المفسرون فيه وجوها أحدها : يخرج المؤمن من الكافر كما إبراهيم من آزر ، والكافر من المؤمن مثل كنعان من نوح . والثاني يخرج الحيوان - وهو حى - من النطفة ، - وهو ميتة - ، - والدجاجة - وهي حية - من البيضة أو العكس ، والثالث : يخرج السنبلة من الحبة وبالعكس ، وتدخل من النواة وبالعكس . ثم قال : والكلمة محتمة للكل : أما الكافر والإيمان فقال - تعالى - ، أو من كان ميتا فأحييناه ، يريد كان كافرا فهديناه ، فجعل الموت كحياة والحياة لإيماننا ، وسمى لإخراج النبات من الأرض لحياة ، وجعل ما قبل ذلك ميتة فقال : ويحيى الأرض بعد موتها . وقال : فسقناه إلى بلد ميت فأحييناه به الأرض بعد موتها ، وقال : كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم (١) .

وفي الحق - إن المتدبر في هذا السكون وما يعترى سكانه من موت وحياة ، ليشهد ويدعن بأن لهذا الكون خالقا قادرا هو الله الواحد القهار .

ثم ختم - سبحانه - مظاهر قدرته ورحمته بقوله : وترزق من تشاء بغير حساب ، - والرزق - كما يقول الراغب - يقال للعطاء الجارى تارة دنيويا كان أو آخرويا ، وللنصيب تارة ، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة أخرى ، يقال : أعطى السلطان رزق الجند ، ورزقت عيالا - قال - تعالى - . وأنفقوا مما رزقناكم من نبل أن يأتي أحدكم الموت . . . أى من المال والجاه والعلم . . . (٢) .

أى أنت يا الله يا مالك الملك ، أنت وحرك الذى ترزق من تشاء أن ترزقه بغير حساب أى رزقا واسما عظيما ، لأنك أنت صاحب الجود والكرم ، ولذلك ليس معك شريك في حسابك ، بل أنت المعطى بدون محاسب ، وبدون محاسبة من تعطيه ، ولأن خزائن ملكك لا ينقصها العطاء مهما كثرت .

(١) تفسير الفخر الرازي - ٨ ص ١٠ بتصرف يسير

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصمغاني ص ١٩٤ .

ومن كانت هذه صفاته ، وتلك بعض مظاهر قدرته : من إيتاء الملك لمن يشاء ونزعه ممن يشاء ، وإيلاج الليل في النهار ؛ والنهار في الليل ، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي ، كان من حقه أن يفرد بالعبادة والخضوع ، إلا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

قال ابن كثير : روى الطبراني عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب في هذه الآية : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، (١) .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكرمتين قد وصفتا الخالق - عز وجل - بما هو أهله ، من قدرة تامة وسلطان فائذ ، ورحمة واسعة ، وهذا الوصف من شأنه أن يحمل كل عاقل على إخلاص العبادة له -- سبحانه -- ، وعلى الاستجابة لسكل ما أمر به أو نهى عنه رغبة في ثوابه ، ورهبة من عقابه .

وبعد أن بين - سبحانه - أنه هو وحده مالك الملك ، وأنه على كل شيء قدير ، عقب ذلك بنهي المؤمنين عن موالاته أعدائه بسبب قرابة أو صداقة أو نحوهما . فقال - تعالى - :

« لَا يَتَّخِذَ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ، إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) » .

أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات :

منها أن جماعة من اليهود كانوا يصادقون جماعة من الأنصار ليقتنومهم عن دينهم . فقال رفاعة بن المنذر ، وعبد الله بن جبير ، وسعيد بن خيشمة لأوائك النفر من الأنصار : « اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا ملازمتهم ومباغظتهم لئلا

يفتخركم عن دينكم ، فإني أولئك النفر لإلما باطنهم وملازمهم ، فأنزله  
- تعالى - هذه الآية ، (١) .

وقوله ، أولياء ، جمع ولي ، والولاء والتوالى - كما يقول الراغب : أن  
يحصل شيان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ؛ ويستعار ذلك للقرب  
من حيث المسكان ، ومن حيث النسبة ، ومن حيث الدين ، ومن حيث الصداقة  
والنصرة والاعتقاد .

والولاية - بكسر الواو - النصرة - والولاية - بفتحها - تولى الأمر ، وقبل  
هما بمعنى واحد ... ، (٢) .

و د لا ، ناهية . والفعل ، يتخذ ، مجزوم بها ، وهو متعد لمفعولين أولهما  
الكافرين ، وثانيهما أولياء .

والمعنى : لا يحل للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء . ونصراً ، بل عليهم  
أن يراعوا ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين ، وأن يقدموها على ما بينهم وبين  
الكفار من قرابة أو صداقة أو غير ذلك من ألوان الصلات ، لأن في تقديم  
مصلحة الكافرين على مصلحة المؤمنين تقديماً للكفر على الإيمان ، ومن شأن  
المؤمن الصادق في إيمانه أن لا يصدر منه ذلك .

وقد ورد مثل هذا النهى في كثير من الآيات ، ومن ذلك قوله - تعالى -  
« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » ، (٣) .  
وقوله - تعالى - « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ،  
بعضهم أولياء بعض ، ومن يتوهم منكم فإنه منهم ... » ، (٤) .

قال الألوسى : وقوله « من دون المؤمنين » حال من الفاعل ، أى متجاوزين  
المؤمنين إلى الكافرين إستقلالاً أو اشتراكاً ، ولا مفهوم لهذا الظرف ، إما  
لأنه ورد في قوم بأعيانهم والوا الكفار دون المؤمنين فهو لبيان الواقع ،

(١) تفسير الألوسى ج ٣ ص ١٢٠

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٥٣٣

(٣) سورة المتحنة الآية ١ (٤) سورة المائدة الآية ٥١

أو لأن ذكره الإشارة إلى أن الحقيق بالموالاة هم المؤمنون ، وفي موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفار .. ، (١) .

قالوا : والموالاة الممنوعة هي التي يكون فيها خذلان الدين أو إيذاء لأهله أو إضاعة لمصالحهم . وأما ما عدا ذلك كالتجارة وغيرها من ضروب المعاملات الدنيوية فلا تدخل في ذلك النهي ، لأنها ليست معاملة فيها أذى للإسلام والمسلمين ، (٢) .

وكرر - سبحانه - لفظ المؤمنين ، بأداة التعريف أل ، الإشارة إلى أن الثاني هو عين الأول ، وفي ذلك إشعار بأن المؤمنين الذين يتخذون الكافرين أولياء ونصراء ، يتركون أنفسهم ويهملون ، ويتخذون من عدوهم نهاية لها .

ثم قال - تعالى - ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، أي : ومن يتخذ الكافرين أولياء وأنصاراً من دون المؤمنين ، فإنه في هذه الحالة يكون بعيداً عن ولاية الله ، ومنسلخاً منها رأياً ، وليس بينه وبين الله صلة تذكر فاسم الإشارة ، ذلك ، يعود على الانحياز المفهوم من الفعل يتخذ .

والتنوين في شيء ، للتخصيص أي ليس في شيء . يصح أن يطلق عليه إسم الولاية ، لأن موالاة الولي وموالاة عدوه متناقضان كما قال الشاعر .

تود عدوى ثم تزعم أنني صديقك ليس الفوك عنك بعازب (٣)  
 و ، من ، شرطية ، و ، يفعل ، فعل الشرط ، وجوابه ، فليس من الله في شيء . واسمه ضمير يعود على ، من ، وقوله ، في شيء ، خيرهما . أي : فليس الموالي في شيء كأن من الله - تعالى - . والجملة معترضة بين المستثنى والمستثنى منه .

وقال - سبحانه - ، فليس من الله ، ولم يقل ، فليس من ولاية الله ،

(٢) تفسير المنار ج ٣ ص ٢٧٨ .

(١) تفسير الألوسي ج ٣ ص ١٢٠ .

(٣) التذوق للحق . والمعازب البعيد

للإشعار بأن من إختار مناصرة المشركين ومواليتهم فقد ترك ذات الله - تعالى - ، وكان مؤثرا اقوة الكفار على قوة العزيز الجبار ، فهو في هذمه الحالة يعاند الله نفسه .

ثم إستثنى - سبحانه - من أحوال النهى حال التقية فقال : ( إلا أن تتقوا منهم تقاة ) وقوله : ( تتقوا ) من الإلتقاء بمعنى تجنب المكروه . وحديث بن لتضمينه معنى تخافوا و ( تقاة ) مصدر تقيته - كرميته - بمعنى إلتقيته ووزنه فعلة ، ويجمع على تقي ، كرطوبة ورطب . وأصل تقاة : وقية من الوقاية . فأبدلت الواو المضمومة تاء والياء ألفا لتحركها وإفتتاح ما قبلها .

والاستثناء مفرغ من عموم الأحوال ، والتقدير : لا تتخذوا أيها المؤمنون الكافرين أولياء في أى حال من الأحوال إلا في حال إلتقائكم منهم أى إلا أن تتقوا منهم مخافة . أو إلا أن تخافوا من جهتهم أمرأ يجب إلتقاؤه من الضرر في النفس أو المال أو المرض .

كان كان الكفار غالبين ظاهرين ، أو كنتم في قوم كفار فيرخص لكم في مداراتهم باللسان ؛ على ألا تنطوى قلوبكم على شئ - من مودتهم ، بل تدارونهم وأتم لهم كارهون . وألا تعملوا ما هو محرم كشرب الخمر ، أو لإطلاعهم على عورات المسلمين ، أو الأضياع إليهم في مجاعة بعض المسلمين ، وإذن فلا رخصة إلا في المداراة باللسان .

ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التهديد الشديد حيث قال - تعالى - ( ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ) .

والتحذير : هو التخويف لأجل الحذر واليقظة ، من أن يقع الانسان في قول أو عمل منهى عنه .

ونفسه : منصوب على نزع الخافض . والمصير : المرجع والمآل .

أى : ويحذركم الله - تعالى - من نفسه أى من عقابه وإنتقامه ، وإليه - سبحانه - مرجعكم ومصيركم فيحاسبكم على أعمالكم

وقوله ( ويحذركم الله نفسه . . . ) فيه ما فيه من التهديد والتخويف من موالاته الكافرين ، لأن التحذير من ذات الله ، يقتضى الخوف ووقوع الرهبة فى النفس من الذات العلية ، وذلك كما يقال : - والله المثل الأعلى - احذر الأسد فإن هذا القائل يريد أن ذات الأسد فى كل أحوالها مرهوبة ، ولأن كلمة ( نفس ) تقال لنا كيد التعبير عن الذات . أى أن التذير قد جاءكم من الله - تعالى - لامن غيره فعليكم أن تمتثلوا أمره . فإن إليه وحده المآل ، وإنتهاء أمر العباد ، وسيجازيهم على أعمالهم بما يستحقون ، فاحذروا التعرض لعقابه وقوله ( وإلى الله المصير ) تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومحقق لوقوعه .

هذا ، ولبعض العلماء كلام طويل عن التقية - وهى أن يظهر الانسان خلاف ما يبطن مخافة الأذى الشديد - فقد قال الألوسى ما ملخصه :

( وفى الآية دليل على مشروعية التقية ، وعرفوها بالمحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء .

والعدو قسمان : الأول : من كانت عداوته مبنية على إختلاف الدين كالكافر والمسلم .

والثانى : من كانت عداوته مبنية على أغراض دنيوية كالمال والمتاع والامارة ومن هنا صارت التقية قسمين : أما القسم الأول فالحكم الشرعى فيه أن كل مؤمن وقع فى محل لا يمكن له فيه أن يظهر دينه لتعرض المخالفين له بالعداوة فإنه يجب عليه أن يهاجر من ذلك المكان إلى مكان يستطيع فيه أن يظهر دينه ، إلا إذا كان ممن لهم عذر شرعى كالنساء والصبيان والمعزة فقد قال - تعالى - : ( إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والوالدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ) .

وإذا كان التخويف بالقتل ونحوه، جاز له المكث والمواقفة لهم ظاهراً بقدر الضرورة مع السعي في حيلة للخروج والفرار بدينه .  
 والمواقفة لهم حيثئذ رخصة ، وإظهار ما في قلبه عزيمه فلو مات مات شهيداً بدليل ما روى من أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال نعم ، نعم ، فقال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم . ثم دعا الثاني فقال له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال نعم . فقال له : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال أنى أصم . قالها ثلاثاً ، فغضب عنقه . فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أما هذا المقتول فقد مضى على صدقه وبقينه فمئيتاً له ، وأما الآخر فقد قبل رخصة الله فلا تبعه عليه ، .

وأما القسم الثاني وهو من كانت عداوته بسبب المال والإمارة وما إلى ذلك ، فقد اختلف في وجوب هجرة صاحبه ، فقال بعضهم يجب لأن الله قد نهى عن إضاعة المال . وقال آخرون لا يجب ، لأنها لمصلحة دنيوية ولا يعود على من تركها نقصان في الدين .

وعد قوله من باب التقية الجائزة مداراة الكفان والفسقة والظلمة ولأنه الكلام لهم والتبسم في وجوههم لسكف أذام ، وصيانة العرض منهم بشرط أن لا تكون هذه المداراة مخالفة لأصول الدين وتعاليمه . فإن كانت مخالفة لذلك فلا تجوز .

روى البخارى عن عائشة قالت : إستاذن وجل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا عنده فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : بنس أخو العشيبة . ثم أذن له فالان له القول . فقلت يا رسول الله قلت ما قلت ثم أنت له القول ؟ فقال : يا عائشة إن من شر الناس من يترك الناس إتقاء خشه ، .  
 إلى غير ذلك من الأحاديث . لكن لا تنبغى المداراة إلى حيث يخدش الدين ، ويرتكب المنكر ، ونسى الظنون ، (١) .

(١) تفسير الألوسى بتصرف والتخيس - ٣ ص ١٢١ .

ثم يبين - سبحانه - أنه علم بالظواهر والبواطن ، وأمر بأن يكثروا من العمل الصالح الذي ينفعهم يوم القيامة . وأن يلزموا طاعة الله ورسوله لكي يسعدوا في دينهم وديارهم ، وأن يراقبوا الله - تعالى - في أقوالهم وأعمالهم لأنه - سبحانه - لا تخفى عليه خافية فقال - تعالى - :

« قُلْ إِنْ تُخَفُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبَدُّوهُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ وَيَسْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَيَنِّيهِ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْمَآءِدِ (٣٠) قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) » .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، وقل لغيرهم ممن يوجه إليهم الخطاب قل لهم على سبيل الإرشاد والتحذير « إن تخفوا في صدوركم أو تبدوه ، من ولاية الكفار أو غيرها من الأقوال والأفعال ، يعلمه الله ، فيجازيكم عليه بما تستحقون .

وفي أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بتوجيه هذا القول إلى المخاطبين ترهيب لهم من الأمر وهو الله - تعالى - لأن هذا التنويع في الخطاب من شأنه أن يربو المهابة في القلوب . وذلك - والله المثل الأعلى - كأن يقول الملك للمخالفين من رعيتيه : أحدىكم من مخالفتي ، ثم يأمر أحد أصفياه بأن يكرر هذا التحذير وأن يبين لهم سوء عاقبة المخالفين .

وقوله « ويعلم ما في السموات وما في الأرض ، جملة ستأنفة وإست معطوفة على جواب الشرط وهو « يعلمه الله » ، وذلك لأن علمه - سبحانه -

بما في السموات والأرض ليس متوقفا على شرط فلذلك جيء به مستأنفا .  
وهذا من باب ذكر العام بعد الخاص وهو ما صدرتكم تأكيداً له وتقريراً .  
وقوله و الله على كل شيء قدير ، تذييل قصد به الإخبار بأنه مع علمه  
الواسع المحيط ، فهو ذو قدرة نافذة على كل شيء . وهذا لون من التهديد  
إلا أحد أمرين : الجهل بجرمة المجرم ، أو العجز عن تنفيذ وعيده ، فلما  
أعلمهم - سبحانه - بأنه محيط بكل شيء وقادر على كل شيء ، ثبت أنه -  
سبحانه - متمكن من تنفيذ وعيده .

قال صاحب الكشاف : وقوله و الله على كل شيء قدير ، أي هو قادر  
على عقوبتكم ، وهذا بيان لقوله ، ويحذركم الله نفسه ، لأن نفسه وهي ذاته  
المميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتي لا يختص بمعلوم دون معلوم ، فهي  
متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور ، فهي  
قادرة على المقدورات كلها ، فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر أحد على  
قبيح ولا يقصر عن واجب ، فإنه مطلع عليه لا محالة فلا حق به العقاب .  
ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الإطلاع على أحواله ، فوكل همه بما يورد  
ويصدر ، ونصب عليه عيوناً . وبث من يتجسس عن مواطن أموره : لأخذ  
حذره وتيقظ في أمره ، أوتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به ، فما بال من علم  
أن العالم بالذات - يعني أن علمه بذاته لا يعلم زائد على ذاته كعلم الحوادث  
وهذا عند المعتزلة - الذي يعلم السر وأخفى ، ميهن عليه وهو آمن . اللهم  
إننا نعوذ بك من اغترارنا بسترِكَ (١) .

ثم كرر - سبحانه - التحذير من الحساب يوم القيامة ، وما يقع فيه من  
أهوال ، ورجب المؤمنين في العدل الصالح فقال : « يوم تجد كل نفس ما عملت  
من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . »  
قال الألوسي :

الأمم : غاية الشيء ومنتهاه ؛ والفرق بينه وبين الأبد أن الأبد ممددة من الزمان غير محدودة ، والأمم مدة لها حد مجهول . والمراد هنا الغاية الطويلة ، وذهب بعضهم إلى أن المراد بالأمم البعيد المسافة البعيدة . وامله الأظهر ، فالتمنى هنا من قبيل التمنى في قوله - تعالى - : « يا ليت بيني وبينك بعد المشركين ، (١) » .

والمعنى : راقبوا ربكم أيها المؤمنون ، وتزودوا من العمل الصالح ، واذكروا « يوم تجرد كل نفس ما عملت ، في الدنيا ، من خير ، وإن كان مثقال ذرة » محضرا ، لديها ، مشاهدا في الصحف ؛ حتى ليكأنه قد أحضر من الدنيا إلى الآخر فيرى رأى العين « وما عملت من سوء ، تراه أيضا ظاهرا ثابتا مسجلا عليها ، وتتمنى لو أن بينها وبين هذا العمل السيء زمنا طويلا ، ومسافة بعيدة ، وذلك لأن الإنسان يتمنى دائما أن يكون بعيدا بعدا شامعا عن الشيء الخفيف المؤلم خصوصا في هذا اليوم المصيب وهو يوم القيامة .

وقوله « يوم » متعلق بمحذوف تقديره اذكروا ، وهو مفعول به لهذا المحذوف . و« تجرد » يجوز أن يكون متمديا لواحد فيكون بمعنى تصيب وتصادف ، ويكون « محضرا » على هذا منصوبا على الحال . قال الجمل : وهذا هو الظاهر . ويجوز أن يكون بمعنى تعلم فيتمدى لأثنين أولهما « ما عملت ، والثاني « محضرا » (٢) .

وقوله « وما عملت من سوء » معطوف على قوله « ما عملت من خير » . ويرى بعضهم أن « ما » في قوله « وما عملت من سوء » مبتدأ ، وخبرها جملة « تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » ، فيكون المعنى تجرد ما عملت من سوء وتمنى كل نفس أن يكون بينها وبينه أمدا بعيدا .

وأتى - سبحانه - بقوله « محضرا » في جانب الخير فقط مع أن عمل السوء أيضا يمكن محضرا ، الإشعار بسكون عمل الخير هو المراد بالذات .

(١) تفسير الآلوى - ج ٣ ص ١٢٧

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٥٩

وهو الذي يتمناه الإنسان ويرجو حصوله في هذا لما يترتب عليه من ثواب ،  
وأما عمل الشر فنتمنى كل نفس انترفته لو بعد عنها ولم تره بسبب ما يترتب  
عليه من عقاب .

وقوله - سبحانه - ويحذركم الله نفسه ، تكرير للتحذير الأول الذي  
جاء في قوله - تعالى - لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون  
المؤمنين . . . ، والسر في هذا التكرير زيادة التحذير من عقاب الله وانتقامه ،  
فإن تكرار التحذير من شأنه أن يفرس في القلوب التذكير والاعتبار والوجل .  
وقيل إن التحذير الأول ذكر للنهي عن موالاة الكافرين . والذي هنا  
ذكر للحث على عمل الخير والتنفير من عمل الشر .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : و الله روف بالعباد ، ومن مظاهر  
رأفته ورحمته أنه حذر عباده قبل أن يعاقبهم : وأنه ينفو عن كثير من ذنوب  
عباده ، وأنه فتح لهم باب التوبة حتى يقطعوا عن خطاياهم ، إلى غير ذلك من  
مظاهر رأفته ورحمته .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرشد الناس  
إلى الطريق الذي متى سلكوه كانوا أحقا بحبين لله ، وكانوا ممن يحبهم - سبحانه -  
فقال - تعالى - : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم  
ذنوبكم . . .

قال بعضهم : عن الحسن البصرى قال : قال قوم على عهد النبي - صلى الله  
عليه وسلم - يا محمد إنا نحب ربنا فأنزل الله الآية . وروى محمد بن إسحاق  
عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : نزلت في نصارى نجران وذلك أنهم  
قالوا : إنا نعظم المسيح ونعبده حبا لله ونعظمها له فأنزل الله هذه الآية  
ردا عليهم . . .

ومحبة العبادة - كما يقول الزمخشري - مجاز عن إرادة نفوسهم  
إختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها ومحبة الله عباده: أن يرضى عنهم  
ويحمد فعلمهم .

والمعنى: قل يا محمد للناس على سبيل الإرشاد والتبيين: إن كنتم تحبون  
الله حقاً كما تدعون . فاتبعوني ، فإن أتباعكم لي يؤدي إلى محبة الله لكم . وإلى  
غفرانه لذنوبكم ، وذلك لأن محبة الله ليست دعوى باللسان ، وإنما محبة الله  
تتحقق باتباع ما أمر به ، وإجتنب ما نهى عنه على لسان وسوله محمد - صلى  
الله عليه وسلم - الذي أرسله رحمة للعالمين .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : هذه الآية الكريمة حاكمة على كل  
من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، بأنه كاذب في نفس الأمر  
حتى يتبع الشرع المحمدي . والدين النبوي في كل أقواله وأعماله . كما ثبت في  
الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال :  
« من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ، » (١) .

وقوله « يحببكم الله » جواب الأمر . وهو قوله « فاتبعوني » ، وهذا رأى الخليل .  
ويرى أكثر المتأخرين من النحاة أن قوله « يحببكم الله » ، جواب لشرط  
مقدر دل عليه المقام والتقدير : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ، وإن اتبعتموني  
يحببكم الله . أي يمنحكم الثواب الجزيل ، والأجر العظيم ، والرضا الكبير .  
فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن أول علامات محبة العبد لله ،  
هي إتباع رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأن هذا الإتيان يؤدي إلى محبة  
الله - تعالى - لهذا العبد وإلى مغفرة ذنوبه .

ومحبة الله لعبده هي منتهى الأمانى ، وغاية الآمال . ولذا قال بعض الحكماء :  
« ليس الشأن أن يحب وإنما الشأن أن تحب » ،  
ومحبة الله إنما تنتمي بإخلاص العبادة له ، والوقوف عند حدوده ، والاستجابة

لتعاليم رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وكل من يدعى أنه محب لله وهو معرض عن أوامره ونواهيه فهو كاذب في دعواه كما قال الشاعر الصوفي :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه      هذا لعمرى في القياس بديع  
لو كان حبيك صادقاً لأطاعته      إن المحب لمن يحب مطيع .

ثم ختم - سبحانه - الآية بوصفين جليلين فقال : ( والله غفور رحيم ) أى أنه - سبحانه - كثير الغفران والرحمة لمن تقرب اليه بالطاعة ، واتبع رسوله فيما جاء به من عنده .

ثم كرر - سبحانه - الأمر لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يحض الناس على اتباع ما يسمعون فقال : ( قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول )

أى قل لهم يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا رسوله في جميع الأوامر والنواهي وإن من يدعى أنه مطيع لله دون أن يتبع رسوله فإنه يكون كاذباً في دعواه ولذا لم يقل - سبحانه - أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، للإشعار بأن الطاعة واحدة وأن طاعة الرسول طاعة لله - تعالى - كما قال - سبحانه - ، من يطع الرسول فقد أطاع الله (١) .

ثم ذكر - سبحانه - عاقبة العصاة المعاندين فقال : ( إن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ) أى : فإن أعرضوا عما تأمرهم به يا محمد ولم يستجيبوا لك ولما استمروا على كفرهم ، فإنهم لا يتألون بحبة الله ، لأنهم كافرون .

ففي هذه الجملة الكريمة دلالة على أن حبة الله لا يتأهلها إلا من يتبع الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه - سبحانه - نفى حبه عن الكافرين ، ونفى حبه عنهم فقد أثبت بفضه لهم ، ولأنه عبر عن تركهم لاتباع رسوله بالتولي - وهو أفحش أنواع الإعراض ، ومن أعرض عن طاعة رسول الله كان بعيداً عن حبة الله .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد سافت للناس من التوجيهات السماوية، والآداب العالمية، ما من شأنه أن يفرس في النفوس لإخلاص العبادة لله، والخشية من عقابه، والأمل ثوابه، وإيكاكار من العمل الصالح الذي يؤدي إلى رضا الله ومحبة.

وبعد هذا الحديث الحكيم المتنوع من أول السورة إلى هنا - عن وحدانية الله، وقرته النافذة وعلمه المحيط، وعن أحقيته للعبادة والخضوع، وعن الكتب السماوية وما اشتملت عليه من هدايات، وعن محكم القرآن ومشاهاه، وعن رعاية الله - تعالى - لعباده المؤمنين، وعن تهديد الكافرين بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم، وعن بيان السموات التي يميل الإنسان بطبعه إليها وعماهر أفضل منها، وعن دين الإسلام وأنه هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وعن بعض الرذائل التي عرفت عن أكثر أهل الكتاب، وعن حث الناس على مراقبة الله - تعالى - وإخلاص العبادة له حتى يكونوا ممن يحبهم ويحبونه فيمدوا في دينهم وديارهم وأخرتهم . . . بعد كل ذلك تحدث القرآن في أكثر من قرنين آية - عن اصطفاام الله من عباده . وعن جانب من قصة مريم، وقصة كريا وابنه يحيى - عليهما السلام . وعن قصة ولادة عيسى - عليه السلام - وما صاحبها من خرق للعادات، وما منحه - سبحانه - من معجزات، وعن حاجة الكافرين من أهل الكتاب في شأنه وكيف رد القرآن عليهم . . . استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتُ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّي إِنَّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ - وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي مَعْتَمِدَةٌ مَّرِيَمَ

وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا  
بِقَبُولِ حَسَنِ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا  
زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ۖ  
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) .

قوله ، واصطفي ، من الأصطفاء وهو الاختيار والإنتقاء وطلب الصقوة  
من كل شيء . . .

وقوله ، وآل إبراهيم ، الآل - كما يقول الراغب - مقلوب عن الأهل  
لأنه خص بالإضافة إلى عموم الناطقين ذرئ النسكرات ودون الأزمنة  
والأمكنة . يقال آل فلان ولا يقال آل رجل ولا آل زمان كذا أو موضع  
كذا . . . ويضاف إلى الأشرف الأفضل فيقال آل الله وآل السلطان ولا يقال  
آل الحجاج . . . ويستعمل الآل فيمن يختص بالإنسان اختصاصا ذاتيا إما  
بقرابة قرينة أو بموالاتة قال - تعالى - آل إبراهيم وآل عمران ، (١) .

والمعنى : إن الله - تعالى - قد اختار واصطفي آدم أب البشر ، بأن جعله  
خليفة في الأرض ، وعليه الأسماء كلها ، وآله ملائكته .

واصطفي ، فرحا ، لأنه - كما يقول الألوسي - آدم الأصغر ، والآب الثاني  
للبشرية ، وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله لقوله - سبحانه - وجعلنا  
ذريته هم الباقين ، (٢) .

واصطفي ، آل إبراهيم ، أي عشيرته وذريته قريبه وهم إسماعيل وإسحاق  
والأنبياء من أولادهما .

واصطفي ، آل عمران ، إذ جعل فيهم عيسى - عليه السلام - الذي آناه الله  
البيئات - وأيده بروح القدس .

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٠

(٢) تفسر الألوسي ج ٣ ص ١٧١

والمراد بعمران هذا والد مريم أم عيسى - عليه السلام - فهو عمران بن  
ياشم بن ميشا بن حزقيا . . . وينتهي نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - .  
وإن في ذلك التسلسل دليل على أن الله - تعالى - قد اقتضت حكمة أن  
يجعل في الإنسانية من يهديها إلى الصراط المستقيم ، فقد ابتدأت الهداية بآدم  
أبي البشر كما قال - تعالى - : « ثم اجتباها ربّه فتاب عليه وهدى » . ثم جاء من  
بعده بقرون لا يعلما إلا الله نوح - عليه السلام - فكث يدعو الناس إلى  
وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق ، ألف سنة إلا خمسين عاما ، . ثم جاء  
من بعد ذلك إبراهيم - عليه السلام - فدعا الناس إلى عبادة الله وحده ،  
فكان هو وآله صفوة الخلق ، وفيهم النبوة ، فن إسماعيل بن إبراهيم كان محمد -  
صلى الله عليه وسلم - الذي ختمت به الرسالات السماوية .

ومن إسحاق وبنيه كان عدد من الأنبياء كداود وسليمان وأيوب  
ويوسف وموسى وهارون . . . ومن فرع إسحاق كان آل عمران وهم  
ذريته وأقاربه كزكريا ويحيى وعيسى الذي كان آخر نبي من هذا الفرع .

وفي التعبير بالاصطفاء تنبيهه إلى أن آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران  
صفوة الخلق ، إذ أن الرسل والأنبياء جميعا من نسلهم .

وقوله « على العالمين » أي على عالمي زمانهم . أي أهل زمان كل واحد منهم .

ثم صرح « سبحانه » بعد ذلك بتسلسل هذه الصفوة الكريمة بعضها من  
بعض فقال : « ذرية بعضها من بعض » وأصل الذرية - كما يقول القرطبي -  
فعلية من الذر ، لأن الله - تعالى - أخرج الخلق من صلب آدم كالذر حين  
أشدهم على أنفسهم . وقيل مأخوذ من ذرأ الله الخلق بذروهم ذرأ خلقهم ،  
ومنه الذرية وهي نسل الثقلين . . . » (١) .

والمعنى : أن أولئك المصطفين الاختيار بعضهم من نسل بعض ، فهم

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٠٧

متصلو النسب ، فنوح من ذرية آدم . وآل إبراهيم من ذرية نوح ، وآل عمران من ذرية آل إبراهيم ، فهم جميعا سلسلة متصلة الخلفات في النسب ، والخصال الحميدة .

وقوله ذرية ، منصوب على الحال من آل إبراهيم وآل عمران . ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : و الله سميع عليم ، أي هو - سبحانه - سميع لأقوال عباده في شأن هؤلاء المصطفين الأخيار وفي شأن غيرهم ، عليم بأحوال خلقه علما تاما بحيث لا تخفى عليه خافية تصدر عنهم . والجملة الكريمة تذييل مقرر لمضمون ما قباها ، ومؤكد له .

ثم حكى - سبحانه - ما قالت له امرأة عمران عندما أحست بهلامات الحمل فقال - تعالى - : إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى ، والظرف ، إذ ، فى محل نصب على المفعولية بفعل محذوف منه والتقدير . أذكر لهم وقت قولها رب إنى نذرت . الخ . وقيل وهو متعلق بقوله و الله سميع عليم ، أى أنه - سبحانه - يعلم علم من يسمع فى الوقت الذى قالت فيه امرأة عمران ذلك القول .

وامرأة عمران هذه هى حنة ، بنت فاقوذا بن قنبل وهى أم مريم وجدة عيسى عليه السلام وعمران هذا هو زوجها ، وهو أبو مريم .

وقوله نذرت ، من النذر وهو التزام التقرب إلى الله - تعالى - بأمر من جنس العبادات التى شرعها - سبحانه - لعباده ليتقربوا بها إليه . وقوله محررا أى عتيقا مخلصا للعبادة ، متخليا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس . يقال : حررت العبد إذا خلصته من الرق . وحررت الكتاب إذا أصلحته ولم تبق فيه شيئا من وجوه الخطأ ، ورجل حر إذا كان خالصا لنفسه ليس لأحد عليه سلطان .

والمعنى : أذكر أيها العاقل لتعتير وتتعظ وقت أن لجأت لمرأة عمران لى ربها تدعوه بضراعة وخشوع فتقول : يا رب إنى نذرت لخدمة بيتك هذا الجنين الذى فى بطنى مخلصا لعبادتك متفرغا لطاعتك فتقبل منى هذا النذر

الخالص ، وتلك الذية الصادقة ، ( إنك أنت السميع ) لقولى ولأقوال خلقك  
( العليم ) بنيتى وبنوايا سائر عبادك .

فأنت ترى فى هذا الدعاء الخاشع الذى حكاه القرآن عن امرأة عمران أسمى  
ألوان الأدب والإخلاص ، فقد توجهت إلى ربها بأعز ما تملك وهو الجنين  
الذى فى بطنها ، ملتزمة منه - سبحانه - أن يقبل نذرها الذى وهبته لخدمة  
بيته والام فى قوله ( لك ) للتعليل أى نذرت لخدمة بيتك .

وقوله ( محررا ) حال من ( ما ) والعامل فيه ( نذرت ) .

قال بعضهم : ( وكان هذا النذر يلزم فى شريعتهم فكان المحرر عندهم  
إذا حرر جعل فى كنيسة يخدمها ولا يبرح مقبلا فيها حتى يبلغ الحلم ، ثم يتخير  
فإن أحب ذهب حيث شاء ، وإن اختار الإقامة لا يجوز له بعد ذلك الخروج .  
ولم يكن أحد من أنبياء بنى إسرائيل وعلماهم إلا ومن أولاده من حرر  
لخدمة بيت المقدس ولم يكن محررا إلا العليلان ، ولا تصلح الجارية لخدمة بيت  
المقدس لما يصيبها من الحيض والأذى ) (١) .

وجمله ( إنك أنت السميع العليم ) تعليلية لاستدعاء القبول ، من حيث  
أن عليه - سبحانه - بصحة نيته وإخلاصها مستدع لذلك تفضلا منه وكرما .  
ثم حكى - سبحانه - ما قالته بعد أن وضعت ما فى بطنها فقال - تعالى - :  
فلما وضعتها قالت : رب إنى وضعتها أنثى .

قالوا : إن هذا خير لا يقصد به الإخبار ، بل المقصود منه إظهار التحسر  
والتحزن والاعتذار ، فقد كانت امرأة عمران تتوقع أن يسكون ما فى بطنها  
ذكرا ، لأنه هو الذى يصلح لخدمة بيت الله والانقطاع للعبادة فيه ، لكنها  
حين وضعت حملها ووجدته أنثى قالت على سبيل الاعتذار عن الوفاء بنذرها  
رب إنى وضعتها أنثى ، والآنئى لا تصلح للهمة التى نذرت ما فى بطنها لها

وهي خدمة بيتك المقدس ، وأنت يا إلهي القدير على كل شيء ، فبقدرتك أن تخلق الذكور ، وبقدرتك أن تخلق الأنثى .

والضمير في قوله ، فلما وضعتهما ، يعود لما في بطنها . والتأنيث باعتبار حاله في الواقع ونفس الأمر وهو أنه أنثى .

وقوله ، أنتي ، منصوب على الحال من الضمير في ، وضعتهما ، وهي حال مؤكدة ، لأن كونها أنثى مفهوم من تأنيث الضمير فجاءت أنثى مؤكدة .

وقوله ، والله أعلم بما وضعت ، جملة معترضة سبقت للإيماء إلى تعظيم المولود الذي وضعته وتفخيم شأنه ، والإيشاعار بأن هذه الأنثى لا تصلح لما يصلح له الذكور من خدمة بيته ، أي والله - تعالى - أعلم منها ومن غيرها بما وضعت ، لأنه هو الذي خلق هذا المولود وجعله أنثى ، وهو العليم بما سيصير إليه أمر هذه الأنثى من فضل ، إذ منها سيكون عيسى - عليه السلام - ، وسيجملهما - سبحانه - آية ظاهرة دالة على كمال قدرته ، ونفوذ إرادته .

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب ( والله أعلم بما وضعت ) - بضم التاء - ، وعلى هذه القراءة لا تكون الجملة معترضة وإنما هي من تمة ما قالت ، ويكون في الكلام التغيرات من الخطاب إلى الإسم الظاهر وهو لفظ الجلالة إذ لو جرت على مقتضى قولها ( رب إنى وضعتهما ) لقالت : وأنت أعلم بما وضعت .

ويكون قولها هذا من تمة الاعتذار إلى الله - تعالى - حيث وضعت مولودا لا يصلح لما ندرته - في عرف قومه وتسليمة لنفسها ، أي ولعل لله - سرا وحكمه لا يعلمهما أحد سواه في جمل هذا المولود أنثى ، أو لعل هذه الأنثى تكون خيرا من الذكر .

وقوله - تعالى - ( وليس الذكر كالأنثى ) يحتمل أنه منه - سبحانه - وهو الظاهر - فتكون الجملة معترضة كسابقتها ، ويكون المعنى : وليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي ولدتها ، بل هذه الأنثى وإن كانت أفضل منه في العبادة

والمكانة إلا أنها لا تصلح عندم لسدانة بيت الله - تعالى - بسبب جريمة إختلاطها بالرجال ، وما يعترها من حيض وغير ذلك مما يعترى النساء .

ويحتمل أنه من كلامها الذي حكاه الله - تعالى - عنها فلا تكون الجملة معترضة ويكون المعنى : وليس الذكر الذي طلبته كالأثني التي وضعتها ، بل هو خير منها لأنه هو الذي يصلح لسدانة بيتك وخدمته ، ومع هذا فأنا في كتبها الخاليتين راضية بقضائك ، مستسلمة لإرادتك .

ثم حكى - سبحانه - أيضا بعض ما قالته بعد ولادتها فقالت : وإني سميتها مريم ، وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

قالوا : إن كلمة مريم معناها في لغتهم العابدة أرادت بهذه التسمية التقرب إلى الله ، والالتباس منه أن يهضمها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها .

ومعنى « أعيدنها بك » أمنعها وأجيرها بحفظك . مأخوذ من العود ، وهو أن تلجئ إلى غيرك وتتعلق به . يقال : عاذ فلان إذا إستجار به ، ومنه العوذة ، وهي التيممة والرقية .

والشيطان في لغة العرب : كل متعرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء . وهو مشتق من شطن إذا بعد ، فهو بعيد بطبعه عن كل خير .

والرجيم : فعيل بمعنى مفعول . أي : أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير . وقيل رجيم بمعنى راجم لأنه يرمي الناس أبالوساوس والشورور .

والمعنى : وإني يا خالقي مع حبي لأن يكون المولود ذكراً لتتبعها له خدمة بيتك ، فقد رضيت بما وهبت لي وإني قد سميت هذه الأثني التي أعطيتني إياها مريم . أي العابدة الخادمة لك ، وإني أحسنها وأجيرها بكفالتك لها ولذريتها من الشيطان الرجيم ، الذي يزين للناس الشرور والمساوي .

قال القرطبي : وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من مولود يولد إلا نحسه الشيطان فيستعمل صارخاً من نحسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه .

ثم قال أبو هريرة: لإقرءوا إن شئتم: وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . .

قال علماؤنا: فأفاد هذا الحديث أن الله - تعالى - إستجاب دعاء أم مريم . . . ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال المنخوس فإن ذلك ظن فاسد ، فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأقواع الإفساد والإغواء ، ومع ذلك عظمهم الله مما يرومه الشيطان كما قال - تعالى - إن عبادي ليس عليهم سلطان . . . ، (١) .

وقوله: « وإني سميتها مريم . . » معطوف على « إني وضعتها أنثى » وما بينهما لإعراض . وهذا على قراءة الجمهور التي جاءت بتسكين التاء في « وضعت » في قوله - تعالى - « وانه أعلم بما وضعت » :

وأما على قراءة غير الجمهور والتي جاءت بضم التاء في قوله . . « وضعت » فيكون أيضا معطوفاً على « إني وضعتها أنثى » ويكون هذا القول وما عطف عليه في محل نصب بالقول ، والتقدير : قالت : إني وضعتها أنثى ، وقالت : الله أعلم بما وضعت ، وقالت : ليس الذكر كالأنثى ، وقالت : إني سميتها مريم .

وأني في قوله: « وإني أعيدنها » بخبر إن فعلا مضارعاً للدلالة على طلبها لاستمرار الاستعاذة دون إنقطاعها ، بخلاف « وضعتها وسميتها » حيث أتى بالخبرين ماضيين لانقطاعهما .

وقوله: « وذريتها » معطوف على الضمير المنصوب في أعيدنها . وفي التنصيص على إعادتها وإعادة ذريتها من الشيطان الرجيم ، رمز إلى طلب بقائها على قيد الحياة حتى تكبر وتمكون منها الذرية الصالحة .

تلك هي بعض الكلمات الطيبات ، والدعوات الخاشعات ، التي توجهت

بها امرأة عمران إلى ربها عندما أحست بالحمل في بطنها ، وعندما وضعت حملها ، حكاهما القرآن بأسلوبه البليغ المؤثر . فإذا كانت فتيجتها ؟ كانت فتيجتها أن أجاب الله دعاءها وقبل تضرعها ، وقد حكى - سبحانه - ذلك بقوله : « فقبلها ربها بقبول حسن وأثبتها نباتا حسنا . »

والفداء في قوله : « فقبلها » ، تفريع على الدعاء مؤذن بسرعة الإجابة ، والضمير يعود إلى مريم . والتقبل - كما يقول الراغب - قبول الشيء على وجه يقتضى ثوابا كالهدي ونحوها .

وإنما قال - سبحانه - « فقبلها ربها بقبول » ولم يقل بتقبل : للجمع بين الأمرين : التقبل الذي هو الترقى في القبول ، والقبول الذي يقتضى الرضا والإنابة ، (١) .

والمعنى : أن الله - تعالى - تقبل مريم قبولا مباركا ، وخرق بها عادة قومها . فرضى أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته كالذكور ، مع كونها أنثى وفا . بنذر الأم التقية التي قالت « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا . » « وأثبتها نباتا حسنا ، أى ورباها تربية حسنة ، وصانها من كل سوء ، فكان حالها كحال النبات الذى ينمو فى الأرض الصالحة حتى يؤتى ثماره الطيبة .

وهكذا قبض الله - تعالى - لمريم كل ألوان السعادة الحقيقية ، فقبلها لخدمة بيته مع أنها أنثى ، وأنشأها تنشئة حسنة بعيدة عن كل نقص خلقى أو خلقى ، وهيا لها وسائل العيش الطيب من حيث لا تتحسب ، فقد قال - تعالى - : « وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . »

قوله ، وكفلها زكريا ، أى ضمها إلى زكريا ، لأن الكفالة فى أصل معناها الضم . أى ضمها الله - تعالى - إليه وجعله كافلا لها وضاءا لمصالحها .  
 وقرئ ، وكفلها ، بتخفيف الفاء ، ورفع زكريا ، على أنه فاعل . وعلى هذه القراءة تنطق كلمة زكريا بالمد قبل الهمزة فقط أى زكريا ، .  
 أما على القراءة الأولى فيجوز فى زكريا المد والقصر .

وزكريا هو أحد أنبياء بنى إسرائيل وينتمى نسبه الى سليمان بن داود - عليهما السلام - وكان متزوجا بخالة مريم ، وقيل كان متزوجا بأختها .  
 وكانت كفالته لها نتيجة اقتراع بينه وبين من رغبوا فى كفالتها من سدنة بيت المقدس ، يدل على ذلك قوله - تعالى - : ذلك من أبناء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . .

قال صاحب الكشاف : روى أن (حنة) حين ولدت مريم ، لفتها فى خرقه وحملتها إلى المسجد ، ووضعها عند الأحبار وهم فى بيت المقدس ، فقالت لهم : دونكم هـ - هذه النذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قريبانهم . .

فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ، عندى خالتها . فقالوا : لا ، حتى نقترع عليهم . فأنطلقوا إلى نهر وألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم فتكفلها (١) .

وقوله : ( كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ) بيان لكفالة الله - تعالى - لرزقها ورضاه عنها ، ورعايته لها .

والمحراب الموضع العالى الشريف ، والمراد به الغرفة التى كانت تتخذها مريم مكانا لعبادتها فى المسجد . سمي بذلك لأنه مكان محاربة الشيطان والهوى

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٥٧ بتلخيص يسير .

قال الآلوسى ماملخصه : والمحراب - على ماروى عن ابن عباس - غرفة بنيت لها في بيت المقدس ، وكانت لا يصعد إليها إلا بسلم . وقيل المراد به المسجد إذ قد كانت مساجد تسمى المحارب . وقيل المراد به أشرف مواضع المسجد ومقدمها وهو مقام الإمام من المسجد . وأصله مفعال : صيغة بالغة - كطعان - فسمى به المسكن ، لأن المحاربين نفوسهم كثيرون فيه وذكما ، ظرف على أن دعا ، مصدرية ، والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها الوقت ، والعائد محذوف والعامل فيها جوابها .

والمعنى : كل زمان دخل عليها أو كل وقت دخل عليها فيه ، ووجد عندها رزقا ، أى أصاب ولقى بحضرتها ذلك أو وجد ذلك كأننا بحضرتها . أخرجه ابن جرير عن الربيع قال : لأنه كان لا يدخل أحد سوى زكريا فكان يجده عندها فأكمة الصيف في الشتاء ، وفاكمة الشتاء في الصيف ، والتنوين في رزقا ، للتعظيم . . . (١) .

وهذا دليل على قدرة الله - سبحانه - على كل شيء ، وعلى رعايته لمريم ، فقد رزقها - سبحانه - من حيث لا تحسب ، ودليل على وقوع الكرامة لأوليائه - تعالى - .

ولقد كان وجود هذا الرزق عند مريم دون أن يعرف زكريا - عليه السلام - مصدره . مع أنه لا يدخل عليه أحد سواه ، كان ذلك محل عجبه ، لذا حكى القرآن عنه أنه : قال يا مريم أتى لك هذا ، أى : من أين لك هذا الرزق العظيم الذى لا أعرف سببه ومصدره . وه أنى ، هنا بمعنى من أين .

والجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فاذا قال زكريا عند مهاجرة هذا الرزق ؟ فكان الأجواب : قال يا مريم من أين لك هذا . ولقد كانت إجابة مريم على زكريا تدل على قوة إيمانها ، وصفاء نفسها .

فقد أجابته بقولها - كما حكى القرآن عنها - وقالت هو من عند الله ، أرى :  
قالت له إن هذا الرزق من عند الله - تعالى - فهو الذي رزقني إياه وساقه  
إلى بقدرته النافذة .

وقوله - تعالى - وإن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، جملة تعليلية .  
أى إن الله - تعالى - يرزق يشاء . أن يرزق رزقا واسعا عظيما لا يحده حد ،  
ولا تجرى عليه الأعداد التي تنتهى ، فهو - سبحانه - لا يحاسبه محاسب ،  
ولا تنقص خزائنه من أى عطاء مهما كثر وعظم .

وهذه الجملة الكريمة يحتمل أنها من كلام الله - تعالى - فتكون مستأنفة ،  
ويحتمل أنها من كلامها الذى حكاه القرآن عنها ، فتكون تعليلية فى محل نصب  
داخلة تحت القول .

هذا ، وفى تلك الآيات التى حكاهها القرآن عن مريم وأما نرى كيف  
يعمل الإيمان عمله فى القلوب فينقيها ويصفيها ويحرقها من رِق العبودية لغير  
الله الواحد القهار ، وكيف أن الله - تعالى - يتقبل دعاء عباده الصالحين ، وينبتهم  
نباتا حسنا ، ويرعاهم برعايته . ويرزقهم من حيث لا يحتسبون .

ولقد كان مارآه زكريا - عليه السلام - من أحوال مريم من الأسباب  
التي جعلته - وهو الشيخ الهرم - يتضرع إلى الله أن يرزقه الذرية الصالحة ،  
وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال - تعالى - :

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً  
طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي  
فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُدْشِرُكَ بِبَيْحِي مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا  
وَحْصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبُّ أُنْثَىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ،  
وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَنَا رَئِي عَاقِرٌ ؟ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَقُولُ مَا يَشَاءُ (٤٠) »

قَالَ رَبُّ اجْمَلْ لِي آيَةَ قَالَ آيَتِكَ أَلَّا تَكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ، وَاذْكَرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١) .

قوله - تعالى - : هنالك دعا زكريا ربه . . . . . كلام مستأنف ، وقصة مستقلة ، سبقت في تضاعيف قصة مريم وأنها لما بينهما من قوة الارتباط ، وشدة الاشتباك ، مع ما في إرادتها من تقرير ما سبقت له قصة مريم وأنها من بيان اصطفاة آل عمران .

و : هنا ، ظرف يشار به إلى المكان القريب كما في قوله - تعالى - : إنا همنا قاعدون ، وتدخل عليه اللام والكاف : هنالك ، أو الكاف وحدها ، هناك ، فيكون للبعيد . وقد يشار به للزمان إتساعا .

والمعنى في ذلك المكان الطاهر الذى كان يلتقى فيه زكريا بمريم ، ويرى من شأنها ما يرى من فضائل وغرائب ، تحركت في نفس زكريا عاطفة الأبوة وهو الشيخ للكبير الذى وهن عظمه وإشتعل رأسه شيئا ، وبلغ من الكبر ضيقاً - فدعا الله - تعالى - بقلب سليم ، وبنفس صافية ، وبجوارح خاشعة ، أن يرزقه الذرية الصالحة . ولقد حكى القرآن دعاءه بأسلوبه المؤثر فقال :

« قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ » .

أى ، قال زكريا مناجياً ربه : يارب أنت الذى خلقتنى ، وأنت الذى لا يقف أمام قدرتك شئ ، وأنت الذى جعلتنى أرى أحوال مريم ما يشهد بقدرتك النافذة ، وفضلك العميم . فهب لى يا خالقى من عندك ذرية صالحة تقر بها حيفى ، وتكون خلفاً من بهدى ، لأنك سميع الدعاء ، - أى لأنك عليم بدعائى علم من يسمع قريب الإجابة لمن يدعوك . فأز أجبت لى سؤالى فيفضلك ، وإن لم تجبه فيبعدك وحكمتك . فأنت ترى فى هذا الدعاء الذى صدر عن زكريا - عليه السلام - أسمى ألوان الأدب والخشوع والإنابة ، فقد رفع أكف الضراعة فى مكان مقدس طاهر ، وفى التعبير بقوله دعا ربه إشارة إلى تسليمه لله وإلى شعوره

بقدره الله على كل شيء ، فهو الذي خلقه ورباه وتولاه برعايته في كل أدوار حياته .

وفي قوله ذهب لي من لدنك ، إشعار بأنه يريد من خالقه - عز وجل - أن يعطيه هذه الذرية بلا سبب عادي ، ولكن بإرادته وقدرته لأنه لو كان الأمر في هذا العطاء يعود إلى الأسباب والمسببات العادية لكان الحصول على الذرية مستبعداً ، إذ هو قد بلغ من الكبر عتياً، وزوجته قد تجاوزت السن التي يحصل فيها الإجاب في المادة .

أي ذهب لي من عندك لا من عندي ، لأن الأسباب عندي أصبحت مستبعدة . وفي تقييد الذرية بكونها طيبة ، إشارة إلى أن زكريا لقوة إيمانه ، رفقاء سريرة ، وحسن صلته بربه ، لا يريد ذرية فحسب ، وإنما يريد ذرية سالحة يرجى منها الخير في الدنيا والآخرة .

وجملة ذلك سميع الدعاء ، تمليلية ، أي اني ما التجات اليك يا إلهي إلا لأنك مجيب للدعاء غير مخيب للرجاء <sup>١</sup>

قال القرطبي ما ملخصه: ذلك هذه الآية على طلب الولد وهي سنة المرسلين والصديقين ، قال الله - تعالى - : **واقعد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ، ...** وقد ترجم البخاري على هذا باب طلب الولد ، وقال النبي - صلى الله عليه وسلم لأبي طلحة حين مات إبنته **دأعرسنم الليلة ، قال نعم قال : بارك الله اكما في غابر ليلتكما ، فقال رجل من الأنصار . فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن ، ...** والأخبار في هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد لما يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد مماته .

قال - صلى الله عليه وسلم - **إذا مات أحدكم إنقطع عمله إلا من ثلاث :** فذكر منها **أولاد صالح يدعو له ، ولولم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية (١)**

هذا ، وقد حكى لنا القرآن في سورة مريم دعاء زكريا بصورة أكثر تفصيلا فقال : « ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا . وإنى أخفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا . برئتى وبرت من آل يعقوب واجعله رب رضيا . »

هذا هو دعاء زكريا حكاه الله - تعالى - فى أكثر من موضع فى كتابه الكريم ، فإذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع ، والتضرع الخالص ؟ لقد كانت نتيجته الإجابة من الله - تعالى - لعبده زكريا ، فقد قال - تعالى - : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بهحيمى ، »

أى : فنادت الملائكة زكريا - عليه السلام - وهو قائم يصلى فى المحراب ، يتأجج ربه ، ويسبح بحمده ، بأن الله قد إستجاب دعائك ، ويبشرك بغلام اسمه يحيى ، لىكى تقر به عينك ويسر به قلبك ..

والتعبير بالفاء فى قوله « فنادته » يشعر بأن الله - تعالى - فضلامته وكرما - قد إستجاب لزكريا دعاءه بعد فترة قليلة من هذا الدعاء الخاشع ، إذ الفاء تفيد التعقيب .

ويرى فريق من المفسرين أن الذى ناداه هو جبريل وحده ، ومن الجائر فى العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع .

قال ابن جرير : كما يقال فى الكلام : خرج فلان على بغال البريد ، وإنما ركب بغلا واحدا ، وركب السفن ، وإنما ركب سفينة واحدة ، وكما يقال : بمن سمعت هذا ؟ فيقال : من الناس . وإنما سمعه من رجل واحد ، وقد قيل : إن من قوله - تعالى - ( الذين قال لهم للناس إن الناس قد جمعوا لكم . . . ) والقائل كان فيما ذكر واحد . . . (١) . ويرى فريق آخر منهم أن الذى نادى زكريا وبشره بمولوده يحيى ، جمع من الملائكة لأن الآية صريحة فى أن هذا النداء قد صدر

من جمع لا من واحد ، ولأن صدوره من جمع يناسب هذه البشارة العظيمة ، فقد جرت العادة في أمثال هذه البشارات العظيمة أن يقوم بها جمع لا واحد ، ولا شك أن حالة زكريا وحالة زوجته تستدعيان عددا من المبشرين لإدخال السرور على هذين الشخصين اللذين كادا يفقدان الأمل في إنجاب الذرية .

وقد رجح هذا الإتجاه ابن جرير فقال: (وأما الصواب من القول في تأويله فإن يقال : إن الله - جل ثناؤه - أخبر أن الملائكة نادته ، والظاهر من ذلك أنها جماعة من الملائكة دون الواحد . وجبريل واحد ، فلا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل في لسان العرب دون الأقل ما وجد إلى ذلك سبيلا ، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد ، فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفي من الكلام والمعاني (١) .

وقوله ( وهو قائم ) جملة حالية من مفعول النداء ، و ( يصلي ) حال من المستكن في قائم أو حال أخرى من مفعول النداء . على القول بجواز تعدد الحال . وقوله ( في المحراب ) متعلق يصلي . والمراد بالمحراب هنا المسجد ، أو المكان الذي يقف فيه الإمام في مقدمة المسجد .

وقرأ جمهور القراء ( أن الله يبشرك ) - بفتح همزة أن - على أنه في محل جر بباء محذوفه . أى : نادته الملائكة بأن الله يبشرك بيهيى .

وقرأ ابن عامر وهمزة : ( إن الله يبشرك ) - بكسر الهمزة - على تضمين النداء معنى القول ، أى : قالت الملائكة إن الله يبشرك بيهيى .

وقوله ( بيهيى ) متعلق ببشرك ، وفي الكلام مضاف أى يبشرك بولادة يحيى ، لأن الذوات ليست متعلقا للبشارة .

وفي إقتران التبشير بالتسميه بيهيى ، إشعار بأن ذلك المولود سيهيى اسمه

وذكره بعد موته ، وبذلك تتحقق الإجابة لدعاء زكريا تحقفا تاما ، فقد حكى القرآن عنه في سورة مريم أنه قال : « يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » قال الجمل : و « يحيى » فيه قولان : أحدهما هو المشهور عند أهل التفسير أنه منقول من الفعل المضارع ، وقد سموا بالأفعال كثيرا نحو يعيش ويعمر ... وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعلية ووزن الفعل ، نحو يزيد ويذكر وتغلب . والثاني أنه أعجمي لا اشتقاق له ، وهذا هو الظاهر ، فامتناعه للعلية والعجمة ... (١)

ثم وصف الله - تعالى - يحيى - عليه السلام - بأربع صفات كريمة فقال :  
« مصدقا بكلمة من الله - وسيدا . وحسورا ، ونبيا من الصالحين » .

فالصفة الأولى من صفات يحيى - عليه السلام - أنه كان « مصدقا بكلمة من الله » ، وللعلماء في تفسير هذه الجملة الكريمة لإتجاهان . أما الإتجاه الأول فيرى أصحابه - وهم جمهور العلماء - أن المراد بكلمة الله هو عيسى - عليه السلام - لأنه كان يسمى بذلك أى أن يحيى كان مصدقا بعيسى ومؤمنا بأنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه .

وقد كان يحيى معاصرا لعيسى . وكانت بينهما قرابة قوية إذ أن والده يحيى كانت أختا لأم مريم وقيل إن أم يحيى كانت أختا لمريم .

وأما الإتجاه الثانى فيرى أصحابه أن المراد بكلمة الله كتابه ، أى أن يحيى من صفاته الطيبة أنه كان مصدقا بكتاب الله وبكلامه ، وذلك لأن الكلمة قد تطلق ويراد منها الكلام . والعرب تقول أفعد فلان كلمة أى قصيدة ، وقال كلمة أى خطبة .

ويبدو لنا أن الإتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لأن القرآن قد وصف عيسى بأنه كلمة الله فى أكثر من موضع فيه ومن ذلك قوله - تعالى - « يا أهل

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٦٧ .

الكتاب لا تغلو في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلته الفاها إلى مريم وروح منه فأمنوا بالله ورسوله . . . وقوله - تعالى - يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم . . . ولأن في التعبير عن عيسى الذي صدقه يحيى - بأنه كلمة من الله . إشعاراً بأن ولادتهما متقاربة من حيث الزمن ، وإيماء إلى أن زكريا - عليه السلام - قد أوتى علماً بأن المسيح عنده قريب ، وأن يحيى - عليه السلام - سيعيش حتى يدرك عيسى .

وقوله « مصدقا ، منصوب على الحال المقدره من يحيى ، أى على الحال التى سيكون عليها فى المستقبل ، والمراد بهذا التصديق الإيمان بهيسى - كما سبق أن أشرنا - . قبل : هو أول من آمن بهيسى وصدق أنه كلمة الله وروح منه (١) .

و « من » فى قوله « من الله ، للإبتداء . والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة ، أى مصدقا بكلمة كائنه من الله - تعالى - .

والصفة الثانية من صفات يحيى غير عنها القرآن بقوله « سيدا ، والسيد - كما يقول القرطبي - الذى يسود قومه وينتهى إلى قوله . وأصله سيود يقال : فلان أسود من فلان على وزن أفعل من السيادة ، ففيه دلالة على تسمية الإنسان سيداً . وفى الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لبنى قريظة - عندما دخل سعد بن معاذ - « قوموا إلى سيدكم ، وفى الصحيحين أنه قال فى الحسن ( إن ابني هذا سيد ولعل الله يصالح به بين قمتين عظيمتين من المسلمين ) (٢) .

والمراد أن يحيى - عليه السلام - من صفاته أنه سيكون سيداً ، أى يفوق غيره فى الشرف والتقوى وعفة النفس ، بأن يذكرن ما لى كالمها ، ومسيطر على أهواتها .

(١) تفسير الآوسى ج ٣ ص ١٤٧

(٢) تفسير القرطبي - بتصريف يعير - ج ٤ ص ٧٧

والصفحة الثالثة : من صفاته غير عنها القرآن بقوله . ( وحصورا ) وأصل  
 لصر . المتنع والحبس . يقال حصرتني الشيء وأحصرتني إذا حبسني ...  
 والمراد أن يحيى - عليه السلام - من صفاته أنه سيكون حابسا نفسه عن  
 شهوات ، حتى لقد قيل عنه إنه امتنع عن الزواج وهو قادر على ذلك زهادة  
 واستوفافا ، وليس صحيحا ما قيل من أنه كان لا يأتي النساء لعدم قدرته  
 ل ذلك .

وقال ابن كثير : وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء : اعلم أن ثناء الله  
 لي يحيى بأنه كان (حصورا) معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتيها كأنه  
 تصور عنها . وقيل : مانعا نفسه من الشهوات ، وقيل ليست له شهوة في النساء  
 قد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها  
 موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفافة من الله - تعالى - كيحيى - عليه  
 سلام - ثم هي في حق من قدر عليه وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه :  
 رجة عليا وهي درجة نبينا - صلى الله عليه وسلم الذي لم تشغله كثرتن عن  
 بادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وهدايتن هن . . . والمقصود أن  
 دح يحيى بأنه حصور ليس معناه أنه لا يأتي النساء ، بل معناه أنه معصوم من  
 فواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الخلال وغشيانهن  
 لإيلاذن . بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال :  
 هب لي من لدنك ذرية طيبة كأنه قال ولدا له ذرية ونسل وعقب (١).

أما الوصف الرابع من أوصاف يحيى - عليه السلام - فهو قوله - تعالى -  
 ونبيا من الصالحين ) وفي هذا الوصف بشارة ثانية لزكريا بأن ابنه سيكون  
 ن الأنبياء الذي اصطفاه الله لتبليغ دعوته إلى الناس ، وهذه البشارة أسمى  
 أعلى من الأولى التي أخبره الله فيها بولادة يحيى ، لأن النبوة منزلة لا تعد لها  
 زلة في الشرف والفضل .

(١) تفسير ابن كثير بتعريف يسير ج ١ ص ٣٦١

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما قاله زكريا بعد أن سأقت له الملائكة تلك البشارات السارة فقال - تعالى - : « قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ، أنى هنا بمعنى كيف . و « عاقر ، أى عقيم لا تلد لكبير سنها من العقر وهو العقم . يقال عقرت المرأة تعقر عقرأ وعقرأ فهى عاقر إذا بلغت سن اليأس من الولادة .

أى قال زكريا عنى سبيل التعجب بعد أن نادته الملائكة وبشرته بما بشرته به . يارب كيف يكون لى غلام والحال أننى قد أدر كنى الكبر الكامل الذى أضعفى ، وفوق ذلك فإن امرأتى عاقرأى عقيم لا تلد لشيخوختها وبلوغها العمر الذى ينقطع معه السن ؟

قل بعضهم : ولما قال ذلك استفهاماً عن كيفية حدوث الحمل . أو استبعاداً من حيث العادة . أو استعظماً ، وتعجباً من قدرة الله - تعالى - لا استبعاداً أو إنكاراً فلا يرد . كيف قال زكريا ذلك ولم يكن شاكافى قدرة الله - تعالى - (١) .  
والجمله الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل . فإذا قال زكريا عندما بشرته الملائكة ؟ فكان الجواب قال رب أنى يكون لى غلام ...  
وقد خاطب زكريا به مع أن النداء له صدر من الملائكة . للإشعار بالمبالغة فى التضرع وأنه قد طرح الوسائط واتجه إلى خالقه مباشرة يشكره ويظهر التعجب من قدرته لأنه سبحانه - أعطاه ما لم يجز العادة به .

قال الآلوسى : وقوله « يكون ، يجوز أن تكون من كان التامة فيكون فاعلها هو قوله « غلام ، ويكون الظرف « أنى ، والجار والمجرور ، لى ، متعلقان بها . ويجوز أن تكون من كان الناقصة و « لى ، متعلق بمحذوف وقع حالاً لأنه لو تأخر لكان صفة . وفى الخبر حينئذ وجهان : أحدهما « أنى ، لأنها بمعنى كيف أو من أين والثانى الخبر الجار و « أنى ، منصوب ، لى الظرفية ، (٢) :

(١) حاشية الجمل على الجلايين ج ١ ص ٢٦٨

(٢) تهـ - ير الآلوسى ج ٢ ص ١٤٨ .

وقوله قد بلغنى الكبر ، جملة حالية من ياء المتكلم ، أى أصابنى الكبر  
أدركنى فأضعفنى وأفقدنى قوتى .

والكبر مصدر ، كبر الرجل إذا أسن . وقد قال زكريا ، وقد بلغنى الكبر ،  
لم يقل وقد بلغت الكبر للإشارة إلى أن الكبر قد تأهبه ولازمه حتى أصابه  
الضعف والآلام والأسقام .

وقوله و امرأتى عاقرة ، جملة حالية أيضا إما من ياء دلى ، أو ياء وبلغنى ،  
فأنت ترى أن زكريا - عليه السلام - قد أظهر التعجب عندما بشرته  
بملائكة بعلامه يحيى ، لأنه كان شيخا مسنا ، ولأن امرأته كانت عقيمة لا تلد  
ما لكبر سنهما - أيضا - وإما لأنها من الأصل كانت على غير استعداد  
لحمل والإنجاب .

قال ابن عباس : كان زكريا يوم بشر به يحيى ابن عشرين ومائة سنة . وكانت  
مرأته بنت ثمان وتسعين سنة (١) .

ثم حكى القرآن أن الله - تعالى - قد رد على زكريا بما يزيل عجزه ويمنع  
حيرته فقال - تعالى - قال كذلك الله يفعل ما يشاء . .

أى قال - سبحانه - : مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى رأيت  
من أن يكون لك غلام وأنت شيخ كبير وأمرأتك عاقرة مثل ذلك الفعل  
يفعل الله ما يشاء أن يفعله ، لأنه - سبحانه - هو خالق الأسباب والمسببات ،  
ولا يعجزه شئ . فى هذا الكون ، وبقدرته أن يغير ما جرت به العادات بين الناس .  
فالجملة الكريمة بجانب تضمها لإقناع زكريا وإزالة عجزه ، تتضمن أيضا  
تقرير قضية عامة ، وهى أن الله - تعالى - يفعل ما يشاء أن يفعله بدون تقييد  
بالأسباب والمسببات والعادات ، فهو الفعال لما يريد .

ثم حكى القرآن أن زكريا - لشدة لطفته على تحقق البشارة - سأل ربه  
أن يجعل له علامة تكون دليلا على تحقيق الحمل عند زوجته فقال - تعالى - :  
« قال رب اجعل لى آية ، .

أى قال زكريا منا جبار به : يا رب إننى أسألك أن تجعل لى وآية ، أى علامة تدلنى على حصول الحمل عند زوجى : لا بادر لى القيام بشكر هذه النعمة شكراً جزيلاً ، ولا قوم بحقها حق القيام .

وقد أجابه - سبحانه - إلى طلبه فقال : **د قال آيتك ألا تكلم للناس ثلاثة أيام إلا رمزا .**

أى قال الله - تعالى - لعبده زكريا : آيتك أى علامتك ألا تقدر على كلام الناس من غير آفة فى لسانك لمدة ثلاثة أيام إلا رمزا ، أى إلا عن طريق الإيحاء والإشارة .

وأصل الرمز الحركة . يقال أرتمز أى تحرك ، ومنه قيل للبحر الراموز . وفعله من باب نصر وضرب . ثم أطلق الرمز على الإيحاء بالشفقتين أو بالحاجبين وهى الإشارة باليدين ، وهو المراد هنا .

قال صاحب الكشاف : قال الله - تعالى - لزكريا آيتك ألا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام : وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة ، مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله ، ولذلك قال : **وذاك ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار ، يعنى فى أيام عجزك عن تكليم الناس وهى من الآيات الباهرة ، فإن قلت : لم حبس لسانه عن كلام الناس ؟ قلت : ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره ، توفر منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها الذى طلب الآية من أجله ، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له : آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر . وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنزها عنه ، إلا رمزا ، أى إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما (٥) .**

وعلى رأى صاحب الكشاف يسكون احتباس لسان زكريا عن كلام الناس اضطراريا وليس عن اختيار منه .

ويمكن أن يقال : إن المراد بقوله - تعالى - ، قال آيتك ألا تكلم الناس  
ثلاثة أيام إلا رمزا . . . ، أن ذكرها - عليه السلام - عند ما طاب آية يعرف بها  
زوجته قد حملت بهذا الغلام الذي بشره الله به ، أخيره - سبحانه - أن العلامة  
من ذلك أن بوفى إلى خلوص نفسه من شواغل الدنيا حتى أنه ليجد نفسه  
نجاها لإنجائها كلياً إلى ذكر الله وتمجيده وتسيبته ، دون أن يكون عنده أى  
رفع إلى كلام الناس أو مخالطهم مع قدرته على ذلك ، وعلى هذا يكون  
انصراف ذكرها - عليه السلام - عن كلام الناس اختيارياً وليس إضطرارياً  
يرى صاحب الكشاف .

ثم أمره الله - تعالى - بالإكثار من ذكره وتسيبته فقال : « واذكر  
بك كثيراً وسميحاً بالعشى والإبكار » .

و«عشى» جمع عشية وقيل : هو واحد ، وذلك من حين نزول الشمس  
إلى أن تغيب وأما «الإبكار» ، فصدر أبكر يبكر إذا خرج للأمر في أول  
لنهار . . . ومنه الباكورة لأول الثمرة . والمراد به هنا الوقت الذى يكون من  
طلوع الفجر إلى الضحى .

أى عليك أن تتكثر من ذكر الله - تعالى - ومن تسيبته في أول نهار  
وفي آخره وفي كل وقت لاسيما في تلك الأيام الثلاثة شكر الله - تعالى - على  
ما أعطاك من نعم جليلة لا تحصى ، فقد وهبك الذرية بعد أن بلغت من الكبر  
متياً ، وجعل هذا المولود من أنبياء الله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته .

وفي هذا الأمر الإلهى لذكرها حصص لكل عاقل على الإكثار من ذكر  
الله ومن تسيبته وتمجيده لأن ذكر الله به تطمئن القلوب ، وتسكن النفوس  
وتفعل الخطايا والذنوب وبكفى للدلالة على فضل الذكر أن الله - تعالى - أمر به  
حتى في حالة الحرب فقال : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا  
الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقنا لنا جانباً من قصة زكريا عليه السلام - فيه الكثير من العبر والعظات لقوم يعقلون .

وبعد أن بين - سبحانه - ما يدل على مظاهر قدرته في ولادة يحيى - عليه السلام حيث وهبه لوالديه بعد أن بلغا مبلغاً كبيراً من العمر يستبعد معه في العادة الإنجاب ... بعد أن بين كل ذلك ساق قصة أخرى أدل على قدرة الله ونفاذ إرادته من قصة ولادة يحيى ، وهذه القصة هي قصة ولادة عيسى - عليه السلام - من غير أب . وقد مهد القرآن لولادة عيسى ببيان أن الله - تعالى - قد اصطفى مريم وطهرها من كل فاحشة ، وفضلها على نساء زمانها ، وصاحبها من كل ما يهدس المرءة والشرف . استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكي ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول :

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَنَّمْهُمْ آيَهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بَكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ؟ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) » .

وقوله - تعالى - « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ ..... الخ ، معطوف

على قوله « إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى . . الخ ، عطف القصة على القصة ، فإن الله - تعالى - بعد أن ذكر ما قالته امرأة عمران عندما أحست بالحمل ، وبعد ولادتها لمريم . وما كان من شأنها وتربيتها وكفالتها بعد أن ذكر ذلك ، بين - سبحانه - ما كان من أمر مريم بعد أن بلغت رشدها واكتملت تكويرها . وجاء بقصة ذكرى بين قصة الأم وابنتها لما بينهما من مناسبات إذ أن دعاء ذكرى ربه ، كان سببه ما رآه من إكرامه - سبحانه - لمريم ولأن الشكل لبيان اصطفاة آل عمران .

والمعنى ، واذكر يا محمد للناس وقت أن قالت الملائكة لمريم - التى تقبلها ربهما بقبول حسن وأثبتها نبأنا حسنا - يا مريم . إن الله اصطفاك ، أى اختارك واجتباك لطاعته ، وقبلك لخدمة بيته ، وطهرتك ، من الأدناس والأقذار ، ومن كل ما يتنافى مع الخلق الحميد ، والطمع السليم ، واصطفاك على نساء العالمين ، بأن وهب لك عيسى من أب دون أن يمسك بشر ، وجعلك أنت وهـ آية للعالمين .

فألمك ترى أن الله - تعالى - قد مدح مريم بدعاظيما بأن شهد لها بالاصطفاء والطهر والمحبة ، وأكد هذا الخبر للاعتناء بشأنه ، والتنويه بقدره .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : والاصطفاء الأول إشارة إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة فى أول عمرها بأن قبل الله - تعالى - تحريها أى خدمتها لبيته - مع أنها أتت ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث ؛ وبأن فرغها لمبادته وخصها فى هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والمعصية ، وبأن كفها أمر معبشتها فكان يأتيها رزقها من عند الله . . . وأما الإصطفاء الثانى فالمراد به أنه - تعالى - وهب لها عيسى - عليه السلام من غير أب ، وجعلها وابنها آية للعالمين ، (١) .

ولا شك أن ولادتها لعيسى من غير أب ودون أن يمسه بشر ، هو أمر  
اختصت به مريم ولم تشاركها فيه امرأة قط في أى زمان أو مكان . فهى أفضل  
النساء من هذه الحيثية .

أما من حيث قوة الإيمان ، وصلاح الأعمال ، فبجوز أن يحمل اصطفاؤها  
على نساء العالمين على معنى تفضيلها على عالمى زمانها من النساء . وبمضمون يرى  
أفضليتها على جميع النساء فى سائر الأعصار .

هذا وقد أورد ابن كثير عددا من الأحاديث التى وردت فى فضل مريم  
وفى فضل غيرها من النساء ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن على بن أبى طالب  
أنه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : خير نساءها  
مريم بنت عمران ، وخير نساءها خديجة بنت خويلد ، . وروى الترمذى عن  
أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : حسبك من نساء العالمين  
مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت  
مزامح امرأة فرعون ، وأخرج البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال :  
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : د كل من الرجال كثير ولم يكمل  
من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة  
على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام (١) .

وقول الملائكة لمريم : إن الله اصطفاك وطهرك ... إلخ ، الراجع أنهم  
قالوه لها مشافهة . لأن هذا ما يدل عليه ظاهر الآية ، وإليه ذهب صاحب  
الكشاف فقد قال : روى أنهم كلوها شفاها معجزة لذكريا ، أو إرهابا  
لنبوة عيسى - عليه السلام - ، (٢) .

وقال الجمل قوله : د وإذ قالت الملائكة ... أى مشافهة لها بالكلام . وهذا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٣ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦١ .

من باب التربية الروحية والتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها بعد  
التربية الجسمانية اللائقة بحال صغرها، (١).

وقيل كان خطابهم لها بالإلهام أو بالرؤيا الصادقة في النوم .

والأول أولى لأنه هو الظاهر من الآية . ولأنه الموافق لأقوال جمهور  
المفسرين ، ولأنه قد جاء صريحاً في آيات أخرى أن الملك قد تمثل لها بشراً  
سويًا وكلها ، وذلك في قوله - تعالى - في سورة مريم : « واذكر في الكتاب  
مريم إذ اتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا  
إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت  
تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . . »

قال الألوسي : واستدل بهذه الآية من ذهب إلى نبوة مريم ؛ لأن تسلم  
الملائكة بقتضيتها ، ومنعها اللقائي وغيره من العلماء ، لأن الملائكة قد كلوا  
من لبس بني إجماعاً . فقد جاء في الحديث الشريف أنهم كلوا رجلاً خرج  
لزيارة أخ له في الله ، وأخبروه بأن الله يحب كما أحب هو أخاه ، ولم يقل  
أحد بنبوته - فكلام الملائكة لمريم لا يقتضي نبوتها وهو الصحيح - ، (٢) .

ثم حكى القرآن أن الملائكة أمرت مريم بأن تسكث من عبادة الله - تعالى -  
ومن المداومة على طاعته شكرًا له فقال - تعالى - :

« يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ، . »

الفتوت : لزوم الطاعة والاستمرار عليها ، مع استشعار الخشوع  
والخضوع لله رب العالمين .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) تفسير الألوسي بتصرف - بير - ج ٣ ص ١٥٤ .

أى : قالت الملائكة أيضا لمريم : يا مريم أخلصى العبادة لله وحده وداوى عليها ، وأكثرى من السجود لله ومن الركوع مع الراكعين ، فإن ملازمة الطاعات والصلوات من شأنها أن تحفظ النعم وأن تزيد الإنسان قربا وحبا من خالقه - عز وجل - .

فآية التكريمة دعوة قوية من الله - تعالى - لمريم وللعباد جميعا ، بالمحافظة على العبادات ولا سيما الصلاة فى جماعة .

قال صاحب الكشاف : أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود ؛ لكونهما من هيئة الصلاة وأركانها ، ثم قيل لها « واركعى مع الراكعين » بمعنى ولتكن صلاتك مع المسلمين أى فى الجماعة ، أو انظمى نفسك فى جملة المسلمين وكونى معهم فى عدادهم ولا تكونى فى عداد غيرهم (١) .

فأنت ترى فى هاتين الآيتين أسى ألوان المدح والتكريم والتعظيم لمريم البتول ، فلقد أخبر - سبحانه - باصطفائها صغيرة وكبيرة ، وبطهرها من كل سوء ، والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى ، وذلك لما لا يبر مولد عيسى - عليه السلام - من خوارق ، هذه الخوارق جعلت اليهود يفترون الكذب على مريم ، ويتهمونها زورا وبهتانا بما هى بريئة منه ، ثم بعد ذلك يأمرها - سبحانه - بمداومة الطاعة والعبادة والخضوع لله رب العالمين .

وبذلك يتبين لكل ذى عقل سليم أن الإسلام الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الدين الحق ، لأنه قد قال القول الحق فى شأن مريم وابنها عيسى - عليه السلام - أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد اختلفوا فى شأنهما اختلافا عظيما أدى بهم إلى الضلال والخصران .

ثم بين - سبحانه - أن ما جاء به القرآن فى شأن مريم - بل وفى كل شأن

من الشئون - هو الحق الذي لا يحوم حوله باطل ، وهو من أنباء الغيب التي لا يعلمها أحد سواه فقال - تعالى - :

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، » .

واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى ما تقدم الحديث عنه من قصة امرأ عمران وقصة زكريا وغير ذلك من الأخبار البديعة .

والأنباء : جمع نبأ ، وهو الخبر العظيم الشأن .

والغيب : مصدر غاب ، وهو الأمر المغيب المستور الذي لا يعلم إلا من قبل الله - تعالى - .

ونوحيه : من الإيحاء وهو إلقاء المعنى إلى الغير على وجه خفي ، ويكون بمعنى إرسال الملك إلى الأنبياء . وبمعنى الإلهام .

أى : ذلك القصاص الحكيم الذي قصصناه عليك يا محمد ، فيما يتعلق بما قالته امرأة عمران وما قاله زكريا ، وما قالته الملائكة لمريم ، وفيما يتعلق بغير ذلك من شئون ، ذلك القصاص الحكيم هو من أنباء الغيب التي لا يعلمها أحد سوى الله - عز وجل - ، وقد أخبرناك بها لتكون دليلاً على صدقك فيما تبلغه عن ربك ، ولتكون عبرة وذكرى لقوم يعقلون .

وقوله « ذلك » مبتدأ وخبره قوله - تعالى - « من أنباء الغيب » ، والجملة مستأنفة لا عمل لها من الأعراب . وقوله « نوحيه إليك » جملة مستقلة مبينة للأولى . والضمير في « نوحيه » يعود إلى الغيب أي الأمر والشأن أنا نوحى إليك الغيب ونعلمك به ، ونظارك على قصص من تقدمك مع عدم مدارستك لأهل العلم والأخبار .

ولذا قال - تعالى - « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » . والآلام جمع قلم وهي التي كانوا يكتبون بها التوراة وقيل المراد بها السهام .

أى : وما كنت - يا محمد - لديهم أى عندكم معاينة لفعلهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم ، إذ يلقون أقلامهم ، التى جمعوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون فيما بينهم بسببها تنافسا فى كفالتها .

وقد سبق أن ذكرنا ما قاله صاحب الكشاف من أن أم مريم بعد أن ولدتها أمها خرجت بها إلى بيت المقدس فوضعها عند الأجرار وقالت لهم : دونكم هذه النذيرة !! فقالوا : هذه ابنة إمامنا عمران - وكان فى حياته يؤمهم فى الصلاة - ، فقال لهم زكريا : ادفوها إلى فأنا أحق بها منكم فإن خالتها عندى . فقالوا لا حتى تقترع عليها ، فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم ، فتولى كفالتها زكريا - عليه السلام - (١) فالضمير فى قوله ، لديهم ، يعود على المتنازعين فى كفالة مريم لأن السياق قد دل عليهم .

والمقصود من هذه الجملة الكريمة ، وما كنت لديهم إذ يلقون . . الخ ، تحقيق كون الإخبار بما ذكر إنما هو عن وحى من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن معاصراً لهؤلاء الذين تحدث القرآن عنهم ، ولم يقرأ أخبارهم فى كتاب من الكتب ، ومع ذلك فقد أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أهل الكتاب وغيرهم بالحق الذى لا يستطيعون تكذيبه إلا على سبيل الحسد والجحود ، فثبت أن القرآن من عند الله - تعالى - ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

ثم حكى - سبحانه - ما قالته الملائكة لمريم على سبيل تبشيرها بعيسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم . .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٥٧ بتصرف يسير .

وهذه الجملة السكريمة بدل اشتغال من جملة « وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك .. الخ ، قالوا : ولا يضر الفصل إذ الجملة الفاعلة بين البدل والمبدل منه اعتراض جيء به تقريراً لما سبق ، وتفيها على استقلاله .

والظرف « إذ » معمول محذوف تقديره اذكر ، أي اذكر وقت أن قالت الملائكة لمريم إن الله يبشرك بكلمة منه ...

وقوله يبشرك « بكلمة منه » أي يبشرك بمولود يحصل بكلمة منه - سبحانه - وسمي هذا المولود كلمة لأنه وجد بكلمة **كن** فهو من باب إضلاق السبب على المسبب .

والمراد أنه وجد من غير واسطة أب ؛ لأن غيره إن وجد بتلك الكلمة لسكنه بواسطة أب ، أي أنه - سبحانه - إذا كان قد خلق الناس بطريق التناسل من ذكر وأنثى وأخرج الأولاد من أصلاب الآباء ؛ فإن عيسى - عليه السلام - لم يكن كذلك ، بل خلقه الله - تعالى - خلقاً آخر ، خلقه « بكلمة منه » ، وهي « كن » ، فكان كما أراد الله و « من » ، في قوله « منه » ، لا ابتداء الغاية ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة : أي بكلمة كائنة منه .

فالمراد بقوله « كلمة » ، أي يبشرك بولد حي يسرى عليه حكم الأحياء اسمه المسيح عيسى ابن مريم وعلى هذا التأويل سار كثير من المفسرين .

ورجع ابن جرير أن معنى « بكلمة منه » ، يبشرك منه سبحانه - فقد قال : وقوله « بكلمة منه » ، يعني برسالة من الله وخير من عنده . وهو من قول القائل : ألق إلى فلان كلمة سرني بها بمعنى أخبرني خبراً فرحت به ... فتأويل الكلام : وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم : يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده ، هي ولدك اسمه المسيح عيسى ابن مريم ... (١) .

وعلى كلا التأويلين ففي التعبير عن عيسى - عليه السلام - بأنه كلمة من الله

تـكريم له وتـشريف م وقوله ، اسمه المسيح ، مبتدأ أو خبر ، والجملة نعت .  
والضمير في قوله ، اسمه ، يعود إلى كلمة . وجاء من ذكر أرواية المعنى لانتساب  
أن بيانا أن المراد بها عند كثير من المفسرين الولد .

والمسيح : لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق ، وأصله  
مشيخاً بالعبرانية ومعناه المبارك . وقد حكى الله - تعالى أنه قال عن نفسه  
: إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني  
بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وقيل المسيح فعل بمعنى فاعل ، للمبالغة في مسحه  
الأرض بالسياحة للعبادة . أو مسحه ذا العاهة لبراً . أو بمعنى مفعول أى  
مسوح لأن الله مسحه بالطهر من الذنوب .

وعيسى . اسم لهذا الإسم الكريم ، وهو اسم ينبيء عن البياض  
والصفاء والنقاء .

قال الراغب : عيسى اسم علم ، وإذا جعل عربياً أمكن أن يكون من  
قولهم بعير أعى وفاقة عيساء وجمعها عيس وهى أبل بيض يعترى بياضها  
بعض الظلمة .. (١) ، أى فيها أغبرار قليل يعطى بياضها صفاء ونقاء وجمالاً .

وابن مريم : هو كنيته ، وهو للإشارة إلى أن نسبة ثابت لأمه لا لأحد  
سواها ، وليس ابناً لله - تعالى - كما قال الضالون .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل عيسى ابن مريم والخطاب لمريم ؟  
قلت : لأن الأبناء ينسبون إلا الآباء لا إلى الأمهات ، فاعلمت بنفسه إليها  
أنه يولد من غير أب فلا ينب إلا إلى أمه . وبذلك فضلت واصطفقت على نساء  
العالمين . فإن قلت لم ذكر ضمير الكلمة ؟ قلت لأن المسمى بها مذكر . فإن  
قلت : لم قيل اسمه المسيح عيسى ابن مريم وهذه ثلاثة أشياء : الإسم منها عيسى  
وأما المسيح والابن فلقب وصفة ؟ قلت : الاسم المسمى علامة يعرف بها ويتميز

من غيره ، فكأنه قيل : الذي يعرف به وبتميز من سواه بمجموع هذه الثلاثة ، (١) .

والمعنى الإجمالى للجملة الكريمة : اذكر يا محمد وقت أن قالت الملائكة لمريم : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه أى بمولود يحصل بكلمة منه بلا واسطة أب هذا المولود العجيب اسمه الذى يميزه لقباً المسيح ويميزه عدلاً عيسى ويميزه كنية ابن مريم .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد عرف هذا المولود العظيم بتعريف واحد جمع ثلاثة أمور كل واحد منها يشير إلى معنى كريم قد تحقق فى هذا النبي العظيم ومجموع هذه الأمور لا يشاركه فيها أحد من البشر ثم بعد ذلك وصفه - سبحانه - بأربعة أوصاف تدل على فضله وعلو منزلته فقال - تعالى - : **دوجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهدي وكهلا ومن الصالحين .** أما الصفة الأولى فهى قوله - تعالى - : **دوجيها فى الدنيا والآخرة دأى ذاجاه وشرف ومنزلة عالية . يقال وجه الرجل يوجه - من باب ظرف - وجاهة فهو وجيه** إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس . واشتقاقه من الوجه لانه أشرف الأعضاء ، ولأنه هو الذى يواجه الإنسان به غيره .

**وعيسى - عليه السلام - شهد الله - تعالى - له - وكفى باقعه شهيدا شهد له بالوجاهة وسمو المنزلة فى الدنيا والآخرة لما له من آثار عظيمة فى هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ودعوتهم إلى وحدانية الله وإلى مكارم الاخلاق ، وإقامة التوراة بعد أن اختلفوا فيها .**

والصفة الثانية من صفاته أنه **د من المقربين ، أى أنه من المقربين عند الله - تعالى -** ويألها من صفة عظيمة هى منتهى ما نتطاع لإليه النفوس وتمتدوا القلوب . وأما الصفة الثالثة من صفات عيسى - عليه السلام فهى قوله - تعالى - ، **ويكلم الناس فى المهدي وكهلا ، وهذه الجملة معطوفة على قوله دوجيها ، وعطف الفعل**

على الإسم لتأويله به جازر والتقدير وجيها ومكلما ، والمهد : اسم لمضجع  
الطفل أى المـسكان الذى يهبأ له وهو فى الرضاعة والسكهل : هو الشخص الذى  
اجتمعت قوته وكمل شبابه . وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا  
قوى وتم .

والمراد أن عيسى - عليه السلام - بكلم الناس فى حال كونه صغيراً قبل  
أوان الكلام ، كما يكلمهم فى حال كهولته واكتمال شبابه : فهو - عليه السلام -  
يكلمهم بكلام الأنبياء من غير تفاوت بين حالتي الطفولة والسكولة ، وذلك  
لأحدى معجزاته - عليه السلام - وقد حكى القرآن فى سورة مريم ما - كـلم  
به عيسى - عليه السلام - وهو طفل صغير فقال - تعالى - : فأشارت إليه  
قالوا كيف نمكلم من كان فى المهد صبياً . قال إني عبد الله آتاني الكتاب  
وجعلني نبياً . وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت  
حياً . وبرأ بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام على يوم ولدت ويوم  
أموت ويوم أبعث حياً .

أما الصفة الرابعة من صفاته - عليه السلام - فهى قوله - تعالى - : ومن  
الصالحين ، أى من عباد الله الصالحين لخل رسالته وتبليغها للناس ، أو من  
الذين يصلحون ولا يفسدون ، ويطيعون الله - تعالى - ولا يعصونه ، قالوا :  
ولا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً ؛ لأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان  
فى جميع الأفعال والتروك مواظباً على المنهج الأصلى ، وذلك يتناول جميع  
المقامات فى الدين والدنيا فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح ، ولذا قال  
سليمان - عليه السلام - بعد النبوة : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت  
على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه . وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ،  
فلما عدد - سبحانه - صفات عيسى أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع  
الدرجات ، (١) .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٢٧٢ .

تلك هي البشارات التي بشرت بها الملائكة مريم ، وتلك هي بعض صفات مولودها ، فإذا كان موقفها من ذلك ؟

لقد حكي القرآن أن موقفها كان يدل على بالغ عجبها ، وشدة تأثرها فقال - تعالى - : « قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ، . . . »

أى : قالت مريم على سبيل التعجب والاستغراب : يارب كيف يكون لى ولد والحال أنى لم يمسسنى بشر ، أى نلت بذات زوج ، ولم يحصل منى قط ما يكون بين الرجل والمرأة مما يتسبب عنه وجود الولد .

والجملة الكريمة مستأنفة إستئنافاً بيانياً ، كأنه قيل فإذا كان منها بعد أن قال لها الملائكة ذلك ؟ فكان الجواب : قالت رب أنى يكون ولد ... الخ .

وصدرت إجابتها بالتداوة - تعالى - بالإشعار بكمال تسليمها للقدرة الإلهية ، وأن استغرابها وتمعجها إنما هو من الكيفية لا إنكاراً لقدرة الله - تعالى - . . . وجملة « ولم يمسسنى بشر » حالية عقيقة لما مر ومقوية له .

والمسيس يحتمل أن يكون كناية عن المباشرة التي تقع بين الرجل والمرأة والتي يترتب عليها وجود النسل إذا شاء الله ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد به حقيقة وهو أنها لم يلمسها رجل ، لأنها كانت معتكفة فى بيت الله ومنصرفة لعبادته ، ولم يلمس جسمها رجل من غير محارمها قط . وبذلك ينتفى بالأولى ما هو أبلغ من مجرد اللمس . فوضع عجبها واستنكارها إنما هو وجود ولد منها مع أنها لم يمسسها بشر .

وهنا يحكى القرآن أن الله - تعالى - قد أزال عجبها واستنكارها بقوله : « قال كذلك الله خلق ما يشاء . . . »

أى قال الله - تعالى - لها بلا واسطة أو بواسطة ملائكته : كهذا الخلق الذى تجدينه ، بأن يكون لك ولد من غير أن يمسسك بشر وهو لإبداع ، يخلق الله - تعالى - ويبدع ما يشاء ويريد لإبداعه لاراد المشيئة ، ولا معقب لحبكه . وبعضهم يجعل الوقف على « كذلك ، فتكون خيراً المبتدأ محذوف أى قال

- سبحانه - في إجابته على مريم : الأمر كذلك أي يأتي الولد منك على الحالة التي أنت عليها، لأن الله - تعالى - يخلق ما يشاء أربطه بدون احتياج إلى وجود الأسباب والمسببات لأنه هو خالق كل شيء ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

وصرح ههنا بقوله ، يخلق ما يشاء ، ولم يقل ، يفعل ، كما في قصة زكريا ، لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسهما بشر أبدع وأغرب من ولادة عجز عاقر من شيخ كبير ، فكان الخلق المعنى عن الاختراع أنسب بهذا المقام عن مطلق الفعل .

ثم أكد - سبحانه - عظيم قدرته ، ونفاذ إرادته بقوله ، إذا قضى أمراً فإننا يقول له كن فيكون ، .

وقضى هنا بمعنى أراد أي : إذا أراد - سبحانه - شيئاً ، فإنما يقول لهذا الشيء كن فيكون من غير تأخر ومن غير وجود أسباب . فهو كقوله - تعالى - وما أمرنا إلا واحدة كلعج بالبصر ، أي لما أمر مرة واحدة لا تثنية فيها فيكون ذلك الشيء مريعا كلعج بالبصر .

قال الألوسي : وقوله إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، هذا عند الأكثرين تمثيل لتأثير قدرته في مرادها بأمر المطاع للطبيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاوله عمل وإستعمال آلة . فالممثل الشيء المكون بسرعة من غير عمل وآلة ، والممثل به أمر المطاع المأمور مطيع على الفور ، وهذا اللفظ مستعار لذلك منه .

وأنت تعلم أنه يجوز فيه أن يكون حقيقة ، بأن يراد تعلق الكلام النفسي بالشيء الحادث على أن كيفية الخلق على هذا الوجه .

وعلى كلا التقديرين فالمراد من هذا الجواب بيان أن الله - تعالى - لا يعجزه أن يخلق ولداً من غير أب ، لأنه أمر ممكن في نفسه فيصح أن يكون متعلق الإرادة والقدرة ... (١)

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكمت لنا بعض الإشارات التي بشرت بها الملائكة مريم وبعض الصفات التي وصف الله - تعالى - بها عيسى، وبينت جانباً من مظاهر قدرة الله - تعالى - ونفاذ إرادته، وفي ذلك ما فيه من العظات والعبر لأولى الألباب .

ثم واصل القرآن حديثه عن صفات عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته فقال - تعالى - :

« وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالتَّانِجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفِخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأَنْتُمْ كَمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلٍ لَكُمْ بِبَعْضِ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١) » .

فأنت ترى في هذه الآيات الكريمة بيانا حكيما عن طبيعة رسالة عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته التي أكرمها الله - تعالى - بها .

وقوله - تعالى - : « وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالتَّانِجِيلَ » معطوف على « يبشرك » أي : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه . . . وإن الله يعلم ذلك المولود المعبر عنه بالكلمة الكتاب وقرأ بعضهم « ويعلمه الكتاب . . . » وعلى هذه القراءة تكون هذه الجملة معمولة لقول محذوف من كلام الملائكة أي ، ويقول الله - تعالى - ويعلمه . . . ، وتكون في المعنى معطوفة على الحال وهي قوله « وجيها » ، فيكأنه قال : وجيها ومعلما .

وعلى كلتا القراءتين يجوز أن تكون الجملة مستأنفة ، سبقت تطييباً للقلب  
مريم ، وإراحة لما أهمها من خوف الملامة حين علمت أنها تلد من غير أن  
يمسها بشر .

ولقد حكى القرآن عنها في سورة مريم قولها بتحسر وألم عندما جاءها  
المخاض « ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » .

والمراد بالكتاب الكتابة والخط ، فإن عيسى - عليه السلام - قد بعثه  
الله - تعالى - في أمة ارتقت فيها ألوان العلم والمعرفة ، فأكرمه الله بأن جعله  
يفوق غيره في هذه النواحي . وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية .

قال الفخر الرازي : والأقرب عندي أن يقال : المراد من الكتاب تعليم  
الخط والكتابة ، ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق ، لأن كمال  
الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، وبمجموعها هو المسمى  
بالحكمة . ثم بعد أن صار عالماً بالخط والكتابة ومحيطاً بالعلوم العقلية  
والشرعية يعلّمه التوراة . وإنما أخرج تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة ،  
لأن التوراة كتاب إلهي ، وفيه أسرار عظيمة . والإنسان مالم يتعلم العلوم  
الكثيرة لا يمكنه أن يخوض في البحث عن أسرار الكتب الإلهية . ثم قال في  
المرتبة الرابعة والإنجيل . وإنما أخرج ذكر الإنجيل عن التوراة ؛ لأن من تعلم  
الخط ، ثم تعلم علوم الحق ، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذي نزل على من قبله  
من الأنبياء ، فقد عظمت درجته في العلم ، فإذا أنزل الله عليه بعد ذلك كتاباً  
آخر وأوقفه على أسرار ذلك هو العناية القصوى والمرتبة العليا في العلم والفهم  
والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية ، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية (١) .

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى علم الرسالة التي هيأها لعيسى - عليه السلام -  
عقب ذلك ببيان القوم الذين أرسل إليهم فقال - تعالى - : « ورسولا  
إلى بني إسرائيل ، أي أن الله - تعالى - سيجعل عيسى - عليه السلام -

رسولا إلى بني إسرائيل لكي يهديهم إلى الصراط المستقيم ، ولكي يبشروهم برسول يأتي من بعده هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، ألا وهو محمد - صلى الله عليه وسلم .

وخص بني إسرائيل بالذكر مع أن رسالة عيسى كانت إليهم وإلى من عليها من الرومان ، لأن بني إسرائيل خرج عيسى من بينهم فهو منهم ، ولأنهم هم الذين كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية ، وكانت دعوته بينهم وانبعث منهم إلى غيرهم . فكان تخصيصهم بالذكر فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وفيه توبيخ لهم ، لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء ، ومع ذلك فقد كفر كثير منهم بعيسى وبغيره من رسل الله ، بل لم يكفروا بالكفر وإنما أذوا أولئك الرسل الكرام وقتلوا فريقا منهم .

وقوله «رسولا ...» منصوب بمضمر يقود إليه المعنى ، معطوف على «ويعلمه» أي يعلمه ويجعله رسولا إلى بني إسرائيل .

وقوله «أني قد جئتكم بأية من ربكم» معمول لقوله «رسولا» لما فيه من معنى النطق . كأنه قيل : ورسولا ناطقا بأني قد جئتكم يا بني إسرائيل بأية من ربكم .

والباء للدلبسة ، وهي مع مدخولها في محل الحال وقوله «من ربكم» متعلق بمحذوف صفة لآية . والمراد بالآية هنا المعجزات التي أكرمها الله بها . أي : أن الله - تعالى - قد علم عيسى - عليه السلام - الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولا إلى بني إسرائيل نخبرا لإبائهم يأتي رسول الله إليكم حال كونى ملتبسا بجمي . بالمعجزات الدالة على صدقى ، وهذه المعجزات ليست من عندى وإنما هي من عند ربكم .

ثم ذكر - سبحانه - خمسة أنواع من معجزات عيسى - عليه السلام - أما المعجزة الأولى فغير عنها بقوله : «أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله» .

قال الآلوسی : وقوله ، أنى أخلق لكم ... الخ ، بدل من قوله ، أنى تد جنتكم ، أو من ، آية ، أو منصوب على المفعولية المحذوف أى أعنى أنى أخلق لكم ... أو مرفوع على أنه خبر لمقدر أى أنى قد جنتكم بآية من ربكم هى أنى أخلق لكم ... وقرأ نافع بكسر الهمزة على الاستئناف والمراد بالخلق التصوير والابراز على مقدار معين لا الإيجاد من العدم . . . (١)

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قد حكى الله - تعالى - عنه أنه قال لبنى إسرائيل : لقد أرسلنى الله إليكم لأبلغكم دعوته ، ولأمركم بإخلاص العبادة له ، وقد أعطانى - سبحانه - من المعجزات ما يقنعكم بصدقى فيما أبلغه عزربى ، ومن بين هذه المعجزات أنى أقدر على أن أصور لكم من الطين شيئاً صورته مثل صورة للطير ، فأنفخ فى ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير فيكون طيراً حقيقياً ذا حياة بإذن الله أى بأمره وإرادته .

فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على ثلاثة أعمال : فثنتان منهما لعيسى وهما تصوير الطين كهيئة الطير ثم النفخ فيه . أما الثالث فهو من صنع الله - تعالى - وحده ، ألا وهو خلق الحياة فى هذه الصورة التى صورها عيسى ونفخ فيها . وهذا يدل دلالة واضحة على أنه ليس فى عيسى ألوهية ولا أى معنى من معانيها ، ولذا حكى الله تعالى - عنه أنه قال : « يا ذن الله » .

أى أنى ما فعلت الذى فعلته إلا بإذن الله وأمره وإرادته وتيسيره . واللام فى قوله ، لكم ، للتعايل أى أصور لأجل هدايتكم وتصديقكم بى . والكاف فى قوله « كهيئة الطير » بمعنى مثل وهى نعت للمفعول المحذوف أى أخلق شيئاً مثل هيئة الطير . والهيئة هى الصورة والكمية .

والضمير فى قوله ، فأنفخ فيه ، يعود إلى هذا المفعول المحذوف وقوله « يا ذن الله » متعلق بيبكون ، وجىء به لإظهار العبودية ، ونفى توهم أن يكون عيسى أو غيره شربكاً لله فى خلق الكائنات .

وأما النوع الثاني والثالث والرابع من المعجزات فقد حكاها القرآن في قوله - تعالى - : « وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله » ، وقوله « وأبرىء » ، أى أشفى يقال : برأ المريض بيراً أو يبرؤ براء وبروا ، إذا شفى من مرضه .

والأكمه : هو الذى يولد أعمى . يقال كره يكمه كرها إذا ولد أعمى ، فهو أكمه وامرأة كهما . .

والأبرص : هو الذى يكون فى جلده بياض مشوب بحمرة ، وهو مرض من الأمراض المنفردة التى عجز الأطباء عن شفائها .

والمعنى : أن عيسى .. عليه السلام - قال أقوم به : ومن المعجزات التى تدل على صدقى أنى أشفى وأعيد الإبصار لى من ولد أعمى ، وأعيد الشفاء لى من أصيب بمرض البرص ، وأعيد الحياة لى زممات ، ولا أفعل كل ذلك بقدرتى وعلى وإنما أفعله بإذن الله وبارادته وأمره .

وخص إبراهيم الأكمه والأبرص بالذكر ، لأنهما مرضان عضالان لم يصل للطب لى الآن لى طريق للشفاء منهما ، فإذا أجرى الله - تعالى - على يد عيسى الشفاء منهما ، كان ذلك دليلاً على أن من وراء الأسباب والمسببات خالقاً مختاراً لا يعجزه شىء ، وعلى أن الأسباب ليست مؤثرة بذاتها فى الإيجاد أو الإعدام وإنما المؤثر هو الله - تعالى - .

وقوله « وأحيى الموتى بإذن الله » ، يدل دلالة قاطعة على أن الأسباب تتدرج من الصعب لى الأصعب ، فإن لما لاشك فيه أن لإحياء الموتى خارق للأموور العادية ، وأنها ليست هى المؤثرة وإنما الخالق المكون هو المؤثر ، وأن الأشياء لم تخلق بالعلية - كما يقول الماديون - وإنما خلقت بالإرادة المختارة والقدرة المبدعة المنشئة المسكونة ، وهى إرادة خالق الكون وقدرته سبحانه .

وقيد ما يقوم به من إبراء وإحياء بأنه بإذن الله : للتنبيه على أن ما يفعله من خوارق إنما هو بأمر الله وتيسيره وإرادته .

وقد ذكر المفسرون أن إبراهيم عيسى للأكمة والأبرص وإحياءه للوثى كان عن طريق الدعاء ، وكان دعاؤه يا حي يا قيوم ، وذكروا من بين من أحياهم سام ابن نوح (١) ...

قال ابن كثير : بعث الله كل نبي بمعجزة تناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى السحر وتمظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام . وأما عيسى فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علوم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجراد ، أو على مداواة الأكمة والأبرص ؟ وكذلك محمد - صلى الله عليه وسلم - بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء فأناهم بكتاب من الله لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله ما استطاعوا أبداً ، وما ذلك إلا لأن كلام الرب لا يشبه كلام الخلق (٢) ...

وأما المعجزة الخامسة فقد حكاها القرآن في قوله - تعالى - : « وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم » .

وقوله - تعالى - « وأنبئكم » من الإنباء وهو الإخبار بالخبر العظيم الشأن . وقوله « تدخرون » من الإدخار وهو إيراد الشيء لوقت الحاجة إليه . يقال : دخرت ، وأدخرته ، إذا أعددت له للعقبى . وأصله « تدخرون » بالذال المعجمة - من ادخرت الشيء - بوزن افتمل - فأبدلت اثناء ذالاً ثم أبدلت الذال دالاً وأدغمت .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قد قال لقومه بني إسرائيل : وإن من

(١) تفسير الألوسي ج ٣ ص ١٦٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٥ - تلخيص يسير - .

معجزاتي تدل على صدق فيما أبلغه عن ربي أني أخبركم بالشئ الذى تأكلونه وبالشئ الذى تخبثونه فى بيوتكم لوقت حاجتكم إليه .

قال القرطبي : وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا : أخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما تدخر للفرد ؛ فأخبرهم فقال : يا فلان أنت أكلت كذا وكذا ، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا فذلك قوله : « وأنبئكم ، (١) » .

و « ما » فى الموضوعين موصولة ، أو زكرة موصوفة ، والعايد محذوف أى بما تأكلونه وتدخرونه .

ولا شك أن إخبار عيسى - عليه السلام - لقومه بالشئ الذى يأكلونه وبالشئ الذى يدخرونه يدل على صدقه ؛ لأن هذا الإخبار النبوي بمالم يعاينه دليل على أن الله - تعالى - قد أعطاه علم ما أخبر به .

ثم ختم الله - تعالى - هذه الآية بقوله : « إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

أى إن فى ذلك المذكور من المعجزات التى أجزاها الله - تعالى - على يد عيسى - عليه السلام - لدلالة واضحة ، وعلامة بينة ، تشهد بصدق فيما يبلغه عن ربه ، إن كنتم يابنى إسرائيل عن يصدق بآيات الله ويدعن لها .

فاسم الإشارة « ذلك » يعود إلى ما سبق ذكره من معجزات عيسى - عليه السلام - وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن كنتم مؤمنين أنتقمتم بهذه الآيات وأذعنتم للحق الذى جئتكم به من عند الله .

وبعد أن حكى القرآن المعجزات الباهرة التى أيد الله بها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك بالإشارة إلى طيبة رسالته فقال - تعالى - « ومصد

لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون .

وقوله - تعالى - ومصداقاً لما بين يدي من التوراة ، عطف على المضمرة الذي تعلق به قوله - تعالى - د آية ، أى قد جئتكم بحتجا أو ملتبساً بآية من ربكم ، ومصداقاً لما بين يدي وجوز أن يكون منصوباً بفعل دل عليه ، قد جئتكم . . ، أى وجئتكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة . ومعنى تصديقه - عليه السلام - للتوراة الإيمان بأن جميع ما فيها حكمة وصواب ، وأن كتابه يدعو إلى الإيمان بها .

والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لبني إسرائيل : إن الله - تعالى - قد أرسلني إليكم لهدايتكم وقد جئتكم بالمعجزات التي أثبت صدق ، وجئتكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ، أى مقرر لها ومؤمناً بها .

ومعنى ما بين يدي ما تقدم قبلي ، لأن المتقدم السابق يمشى بين يدي الجاني فهو هنا تمثيل لحالة السبق ، وإن كان بين عيسى - عليه السلام - وبين نزول التوراة أزمان طويلة ، لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئه فكانها لم تسبقه بزمن طويل . ويستعمل بين يدي كذا في معنى الحاضر للمشاهد كما في قوله - تعالى - د يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم . .

وقوله د ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم ، معمول لمقدر بعد الواو ، أى : وجئتكم لأجل بعض الأشياء التي كانت محرمة عليكم في شريعة موسى - عليه السلام - فهو من عطف الجملة على الجملة .

أى أن شريعة عيسى جاءت متممة لشريعة موسى وإنسخة لبعض أحكامها ، فلقد حرم الله - تعالى - على بني إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم وبغيتهم كما جاء في قوله - تعالى - د فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . . ، فجاءت شريعة عيسى - عليه السلام - لتحل لهم بعض ما حرمه الله عليهم بسبب ظلمهم وبغورهم .

قال ابن كثير : فيه دلالة على أن عيسى - عليه السلام - نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين . ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئاً ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطأوا فكشف لهم عن خطئهم كما قال في الآية الأخرى ، ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ، (١) .

قالوا : ومن الأظعمة التي أحلها عيسى لبنى إسرائيل بعد أن كانت محرمة عليهم في شريعة موسى : لحوم الإبل والشحوم وبعض الأسماك والطيور (٢) .

وقوله : وجئتكم بآية من ربكم فانقروا الله وأطيعوا ، تحريض لهم على الاستجابة لما يدعوهم إليه .

قال الفخر الرازي : وإنما أعاد قوله - تعالى - وجئتكم بآية من ربكم ، لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسير ، فأعاد ذكر المعجزات ليكون كلامه ناجماً في قلوبهم ، ومؤثراً في طباعهم . ثم خوفهم فقال : فانقروا الله وأطيعوا ، لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله فبين أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعوني فيما أمركم به عن ربي ، (٣) .

ثم حكى القرآن أن عيسى - عليه السلام - قد قرر أن هذه المعجزات الباهرة لن تخرجه عن أن يكون عبد الله ومخلوقه ، وأن من الواجب على الناس أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً فقال : إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، أي قال عيسى - عليه السلام - داعياً قومه إلى عبادة الله - تعالى - هو الذي خلقتني وخلقكم ، وهو الذي رباني ورباكم ، ومادام الأمر كذلك فأخلصوا له العبادة ، فإن عبادته - سبحانه - وطاعته هي الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا التباس .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٥

(٢) تفسير الألوسي ج ٢ ص ١٧١

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ٦٣

وبذلك تكوّن الآيات الكريمة قد بينت لنا بعض المعجزات التي أكرم الله بها عيسى - عليه السلام - كما حكّت لنا بعض التوجهات القسومية ، والإرشادات الحكيمة التي نصح بها قومه لكي يسعدوا في دنياهم وآخرتهم .

والآن ينساق الذهن إلى سؤال هو : ماذا كان موقف بنى إسرائيل منه بعد أن جاءهم بما جاءهم به من بينات وهدايات ؟

لقد حكى القرآن أن موقف أكثرهم منه كان موقف الكافر به الجاحد لرسالته فقال - تعالى - :

« فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَا لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) » .

فقرله - تعالى - ، فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله ، شروع في بيان مآل أحواله - عليه السلام - ، وفي بيان موقف قومه منه ، بعد أن بين - سبحانه - قبل ذلك بعض صفاته ومعجزاته وخصائص رسالته .

وأحس : بمعنى علم ووجد وعرف . والإحساس : الإدراك ببعض الحواس الخمس وهي الذوق والشم واللمس والسمع والبصر . يقال أحس الشيء ، علمه بالحواس . وأحس بالشيء شعر به بحاسته والمراد أن عيسى عليه السلام - علم من بنى لإسرائيل الكفر علماً لا شبهة فيه .

وإن أنصار جمع نصير مثل شريف وأنصار .

والمعنى أن عيسى - عليه السلام - قد جاء لقومه بالمعجزات الباهرات التي تشهد بصدقه في دعوته ولكنه لم يجد منهم أذناً واعية ، فلما رأى تصميمهم على باطلهم ، وأحس منهم الكفر أي علمه يقيناً وتحققه ما يدرك بالحواس ، قال على سبيل التبليغ وطلب النصرة : من أنصاري إلى الله . أي من أعواني في الدعوة إلى الله والتبشير بدينه حتى أبلغ ما كلفني بتبليغه .

قال ابن كثير : وذلك كما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر ، هل من رجل يؤويني وينصرنى حتى أبلغ كلام ربي فإن قرىبنا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي ، فقيض الله له الأنصار فأوروه ونصروه ومنعوه من الأسود والأحمر ، (١) .

والفاء في قوله « فلما » تؤذن بالتعقيب على الآيات الباهرة . أي أنهم بعد أن رأوا ما رأوا من معجزات عيسى لم يمتثلوا له ولم يتدبروا عاقبة أمرهم بل كذبوه على الفور ، وحاولوا قتله تخلصاً منه واستمروا على كفرهم . والتعبير بأحس - كما أشرنا من قبل - يشعر بأنه علم منهم الكفر علماً

لاشبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس

والمقول لهم « من أنصاري إلى الله » هم الحواريون كما يشير إليه قوله - تعالى - في سورة الصف : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ، وقيل المقول لهم جميع أفراد قومه .

وقوله ، منهم ، متعلق بأحس . ومن لا ابتداء الغاية أى ابتداء الإحساس من جهتهم . أو متعلق بمحذوف على أنه حال من الكافر أى أحس الكافر حال كونه صادرا منهم . وقوله ، إلى الله ، متعلق بمحذوف على أنه حال من الياء فى أنصارى . أى من أنصارى حال كونى ذاهبا إلى الله أى ملتجئا إليه وشارعا فى نصرته دينه .

وفى قوله ، من أنصارى إلى الله ، حض لهم على المسارعة إلى نصرته الحق ، لأنهم لا ينصرونه من أجل متعة زائلة ، وإنما هم ينصرونه لأنه يدافع عن دين الله وبشر به ، ومن نصر دين الله ، نصره الله - تعالى - .

والآية الكريمة تشير إلى أن الكافرين كانوا هم الكثرة البائرة من بنى إسرائيل ، بدليل أنه - سبحانه - نسب الكفر إليهم فى قوله ، فلما أحس عيسى منهم الكفر ، وذلك لا يكون إلا إذا كان الكافرون هم الكثرة الظاهرة ، والمؤمنون هم القلة غير الظاهرة حتى لسكان عيسى بقوله ، من أنصارى إلى الله ، يبحث عنهم من بين تلك الجموع الكثيرة من الكافرين . وهنا يحكى القرآن أن المؤمنين الصادقين - مع قاتمهم - لم يتقاعسوا عن تلبية نداء عيسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : قال الحواريون نحن أنصار الله آمننا بالله واشهد بأنا مسلمون ، والحواريون جمع حوارى وم أنصار عيسى الذين آمنوا به وصدقوه ، وأخلصوا له ولازموه ، وكانوا عونا له فى الدعوة إلى الحق .

يقال فلان حوارى فلان أى خاصته من أصحابه ، ومنه قول النبي - صلى الله عليه وسلم - فى الزبير بن العوام : لا يكلمني حوارى وحوارى الزبير ، .

وأصل مادة حور ، : هى شدة البياض ، أو الخالص من البياض ، ولذلك قلوا فى خالص لباب الدنيق الحوارى . وقالوا فى النساء البيض : الحواريات والحواريات ...

وقد سمي الله - تعالى - أصفياء عيسى وأنصاره بالحواريين ، لأنهم أخلصوا

فه - تعالى - فياتهم ، وطهرت سرايرهم من النفاق والغش ، فصاروا في  
نقائهم وصفائهم كالشيء الأبيض الخالص البياض .

والمعنى : أن - عيسى عليه السلام - لما أحس الكفر من يني إسرائيل  
قال لهم من أنصاري إلى الله ؟ فأجابوه الخواريون الذين آمنوا به وصدقوه  
وباعوا نفوسهم لله - تعالى - : نحن أنصار الله الذين تبحث عنهم ، ونحن  
الذين سنقف إلى جانبك لنصرة الحق ، فقد آمننا بالله إيمانا عميقا ، ونريدك  
أن تشهد على إيماننا هذا ، وأن تشهد لنا يا عيسى بأنا مسلمون حين تشهد  
الرسول لأقربائهم وعليهم .

فأنت ترى أن الخواريين لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم ، قد لبوا دعوة  
هيسى - عليه السلام - في طلب النصرة دون أن يخشوا أحدا إلا الله .

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : نحن أنصار الله ، إشعار بأنهم  
ما وقفوا بجانب عيسى إلا نصرة لدين الله ، ودفاعا عن الحق الذي أنزله على  
وسوله عيسى .

وقولهم : آمننا بالله ، جملة في معنى العلة للنصرة أي نحن أنصار الله يا عيسى  
لأننا آمننا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن  
له كفوا أحد ، وأنه هو الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء .

وقولهم : واشهد بأنا مسلمون ، معطوف على آمننا . والشهادة هنا بمعنى  
العلم المنتبذ من المماينة والمشاهدة . فهم يعلمون من عيسى - عليه السلام -  
أن يكون شاهدا لهم يوم القيامة بأنهم أسلموا وجرهم لله وأخلصوا له العبادة  
وأقوالهم هذه التي حكها القرآن عنهم تدل على أنهم كانوا في الدرجة العليا  
من قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، وبقاء السريرة .

ثم حكى القرآن عنهم أنهم قتلوا - أيضا - : ربنا آمننا بما أنزلت ، علم  
أنبيائك من كتب ، واتبعنا الرسول ، أي امتثلنا ما أتى به منك لإيئادنا كتب  
مع الشاهدين ، أي فاكثبنا بفضلك ورحمتك مع الشاهدين بوحدا فيك العالمين  
بشريعتك المستحقين لرضاك ورحمتك .

فهم قد صدروا ضراعتهم إلى الله - تعالى - بالاعتراف الكامل بربوبيته ، ثم أعلنوا لإيمانهم به وبما أنزله على أنبيائه ، ثم أقرروا بانبايعهم لرسوله والأخذ بسنته ، ثم التمسوا منه - سبحانه - بعد ذلك أن يجعلهم من عباده الذين رضوا عنهم وأرضاهم .

وهذا يدل على أنهم في نهاية الأدب مع الله - تعالى - ، وعلى أنهم في أسنى مراتب الإيمان . قال بعض العلماء : وكان عدد هؤلاء الجواريين ثنى عشر رجلا آمنوا بعيسى وصدقوه ولازموه في دعوة إلى الحق .

ثم حكى سبحانه - ما كان من بنى إسرائيل فقال : « ومكروا ومكر الله ووقع خير الماكرين ، والمسكر : التدبير المحكم ، أو صرف غيرك عما يريد بهيلة . وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الخير والجميل .

والمعنى : أن أولئك اليهود الذين أحس عيسى منهم الكفر دبروا له القتل غيلة ، واتخذوا كل الوسائل لتنفيذ مآربهم الذميمة . فأحبط الله - تعالى - مكرهم ، وأبطل تدبيرهم ، بأن نجى فيه عيسى - عليه السلام - من شرورهم . ووقع خير الماكرين ، أي أقوام مكررا وأنفذهم كيدا ، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعروا المعاقب .

ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر قدرته ، ورعايته لعبده عيسى - عليه السلام - وخذلانه لأعدائه فقال - تعالى - « إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ... » .

وللعلماء في تفسير هذه الآية الكريمة أقوال كثيرة أشهرها قولان : أما القول الأول - وهو قول جمهور العلماء - فيرى أصحابه أن معنى « إني متوفيك ورافعك إلى » أي قابضك من الأرض ورافعك إلى السماء بجسدك وروحك لتستوفى حظك من الحياة هناك .

وأصحاب هذا الرأي لا يفسرون الترفي بالموت وإنما يقولون : إن التوفى في اللغة معناه أخذ الشيء تاما وافيا . فعنى « متوفيك ، آخذك وافيا بروحك

وجسدك ومعنى د ورافعك إلى ، ورافعك إلى محل كرامتي في السماء  
فالعطف للتفسير . يقال : وفيت فلاناً ما حقه أى أعطيته إياه وإفيا ، فاستوفاه  
وتوفاه أى أخذه كاملاً .

قال القرطبي : قال الحسن وابن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك  
إلى السماء من غير موت ، مثل توفيت مالى من فلان أى قبضته ، (١) .

أما القول الثانى - وهو قول قلة من العلماء - فيرى أصحابه أن معنى د إلى  
متوفيك ورافعك إلى ، أى : بميتك ورافع منزلتك وروحك إلى محل كرامتي  
ومقر ملائكتي كما ترفع أرواح الأنبياء إليه - سبحانه - .

فأنت ترى أن أصحاب هذا الرأى يفسرون التوفى بالإماتة ، ويقولون إن  
هذا التفسير هو الظاهر من معنى التوفى ويفسرون د ورافعك إلى ، بمعنى رفع  
الروح إلى السماء .

أى أن الله - تعالى - قد توفى عيسى كما يتوفى الأنفس كلها ، ورفع روحه  
إليه كما يرفع أرواح النبيين .

والذى تسكن إليه النفس هو القول الأول لأمر :

أولها : أن قوله - تعالى - فى سورة النساء د وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله  
إليه ... (٢) ، يفيد أن الرفع كان بجسم عيسى وروحه ، لأن الإضراب مقابل  
للقتل والصلب الذى أرادوه وزعموا حصوله ، ولا يصح مقابلاً لها رفعه  
بالروح ، لأن الرفع بالروح يجوز أن يجتمع معهما . ومادام الرفع بالروح  
لا يصح مقابلاً لها إذن يكون المتعين أن المقابل لها هو الرفع بالجسد والروح  
ثانيتها : أن هناك أحاديث متعددة ، بلغت فى قوتها مبلغ التواتر المعنوى

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٠٠ .

(٢) تفسير الإيتان ج ١ ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

- كما يقول ابن كثير - قد وردت في شأن نزول عيسى إلى الأرض في آخر الزمان ليلها عدلاً كما ملئت جوراً ، وإيكون حاكماً بشريفة محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً يقتل الذجال ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ، ويفيض المال وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين » (١) .

وظاهر هذا الحديث وما يشابهه من الأحاديث الصحيحة في شأن نزول عيسى ، يفيد أن نزوله يكون بروحه وجسده كما رفعه الله إليه بروحه وجسده ثالثاً : أن هذا القول هو قول جمهور العلماء ، وهو القول الذي يتناسب مع ما أكرم الله - تعالى - به عيسى - عليه السلام - من كرامات ومعجزات .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وجمهور العلماء على أن عيسى رفع حياً من غير موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء . والخصوصية له - عليه السلام - هي في رفعه بجسده وبقائه فيها إلى الأمد المقدر له . ولا يصح أن يحمل التوفى على الإمامة لأن إمامة عيسى في وقت حصار أعدائه ليس فيها ما يسوغ الإمتنان بها ورفعها إلى السماء جثة هامة سخف من القول . وقد نزه الله السماء أن تكون قبوراً لجثث الموتى . وإن كان الرفع بالروح فقط فأى مزيه لعيسى في ذلك على سائر الأنبياء والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة . فالحق أنه - عليه السلام - رفع إلى السماء حياً بجسده . وكما كان - عليه السلام - في مبدأ خلقه آية للناس ومعجزة ظاهرة ، كانت في نهاية أمره آية ومعجزة باهرة . والمعجزات بأسرها فوق قدرة البشر ومدارك العقول ، وهي من متعلقات القدرة الإلهية ومن الأدلة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٧٨

(٢) صفوة البيان لمعاني القرآن ج ١٠٩ ، ٢١٣ ، فضيلة الأستاذ حسين محمد مخلوف

هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين أقوالاً أخرى للعلماء في معنى هذه الآية الكريمة ترى من الخير عدم ذكر ما أضفها وخوف الإحالة (١) .

ومعنى الآية الكريمة : وأذكر أيها الخطاب لتعتهر وتتهظ وقت أن قال الله - تعالى - لتبته عيسى : : لأنني متوفيك ، أي آخذك وأقيا بروحك وجسدك من الأرض ، ورافلك إلى ، أي ورافلك إلى محل كرامتي في السماء لتستوفي حظك من الحياة هناك إلى أن أذان لك بالزول إلى الأرض .

، ومطهرك من الذين كفروا ، بإبعادك عنهم ، وبإبجانك عما يبتوه لك من هكرسى ، وبتهربتك مما أشاعوه عنك وعن أمك من أكاذيب وأباطيل .  
، وجاعل الذين إنبتعوك ، وهم المسلمون الذين آمنوا بك وصدقوك ، وصدقوا بكل نبي بعثه الله - تعالى - بدون تفرقة أنبيائه ورسله .

، فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، أي جاعل هؤلاء المؤمنين فوق الذين كفروا بك وبغيرك من الرسل إلى يوم القيامة .

أي فوقهم بحجتهم ، وبسلامة اعتقادهم ، وبقرتهم المادية والروحية إلى يوم القيامة .

فالمراد بأنبتع عيسى هم الذين أخلاهوا الله - تعالى - عبادتهم ، وأقروا بوحدانيته - سبحانه - ، وبزهوا عيسى عن أن يكون ابن الله أو ثالث ثلاثة أو غير ذلك من الأفاويل الباطلة .

والمراد بالفوقية ما يتناول الناحيتين الروحية والمادية ، أي هم فوقهم بقوة إيمانهم ، وحسن إدراكهم ، وسلامه عقولهم . وهم فوقهم كذلك بتشجاعتهم وحسن احذم لأسباب إلى شرعها الله - تعالى - . كوسائر المنصر والفوزولدا قال صاحب الكشاف قوله : فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .

(١) تفسير راجع تفسير الأوسى ج ٤ ، ص ١٧٩ . وتفسير الفخر الرازي ج ٨

أى يعلمونهم بالحجة وفى أكثر الأحوال بها وبالسيوف . ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه فى أصل الإسلام . إن اختلفت الشرائع ، دون الذين كذبوه والذين كذبوا عليه من اليهود والنصارى ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ، .

أى : ثم إلى الله مرجعكم ومصيركم أيها الناس فيتولى - سبحانه - الحكم العادل بينكم فيما كنتم تختلفون فيه فى دينكم من شئون دينية أو دنيوية .

ثم فصل سبحانه - هذا الحكم الذى سيحكم به على عباده يوم القيامة فقال : « فأما الذين كفروا ، وبما يجب الإيمان به ، فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة ، .

أى فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا بإيقاع العداوة والبغضاء والحروب بينهم ، وبما يشبه ذلك من هزائم وأمراض وشقاء نفس لا يعلم مقدار ألمه إلا الله - تعالى - وأما فى الآخرة فيساقون إلى عذاب النار وبئس القرار .

وقد أكد - سبحانه - شدة هذا العذاب بعدة تأكيدات منها نسبة العذاب إليه - سبحانه - وهو القوى القهار الغالب على كل شيء ، ومنها التأكيد بالمصدر ومنها الوصف بالشدة ، ومنها الإخبار بأنه لا ناصر لهم ينصرهم من هذا العذاب الشديد فى قوله - تعالى - « وما لهم من ناصرين ، أى ليس لهم من ناصر أيا كان هذا الناصر ، وأيا كانت نصرته ولو كانت نصرته ضئيلة لا وزنها ولا قيمة .

هذا هو جزاء الكافرين ، وأما جزاء المؤمنين فقد بينه - سبحانه - بقوله : « وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفىهم أجورهم ، .

أى فيعطونهم - سبحانه - بفضلهم وإحسانه بسبب إيمانهم وعملهم الصالح

أجورهم كاملة غير منقوصة ، من ثواب جزيل ، وجنات تجري من تحتها الأنهار وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله أكبر من كل ذلك .

ففي هذه الجملة الكريمة بشارة عظمى للمؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريقه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : و الله لا يحب الظالمين ، .

أى أنه - سبحانه - عادل في أحكامه ، وبكره الظالم والظالمين الذين لا يضمنون الأمور في مواضعها .

ومن أخش أنواع الظلم ما تقوله أهل الكتاب على عيسى - عليه السلام - ، فقد زعم بعضهم أنه ابن الله ، وزعم فريق آخر أنه ثالث ثلاثة ، وافترى عليه اليهود وعلى أمه مريم البتول المفتريات التي برأهما الله - تعالى - منها .

أما الذين آمنوا فقد قالوا في عيسى وأمه قولا كريما ، ولذلك كافأهم الله - تعالى - بما يستحقون من ثواب .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكمت لنا جانبنا من فضائل عيسى - عليه السلام - ، وبيّنت للناس جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين حتى يشوبوا إلى رشدهم ويسلكوا الطريق القويم .

وبعد أن حكى الله - تعالى - في الآيات السابقة ولادة عيسى - عليه السلام - وما أجراه على يديه من معجزات ، وما أكرمه به من مكرمات ، وكيف كان موقف بنى إسرائيل منه ، وكيف أبطل الله مكرم وخيب سعيهم ، إذ رفعه إليه وطهره من أقوالهم الباطلة وأفعالهم الأثيمة ، وتوعد أعداءه بالعذاب الشديد ، ووعد أتباعه بالثواب الجزيل . . . بعد أن حكى القرآن كل ذلك ختم حديثه عن عيسى - عليه السلام - ببيان حقيقة تكوينه ، وبإزالة وجه الغرابة في ولادته ، وبتبيين النبي - صلى الله عليه وسلم - الرد الصحيح على كل مجادل في شأن عيسى - عليه السلام - استمع إلى القرآن وهو يصور كل ذلك بأسلوبه المعجز فيقول :

« ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) إِنْ مَثَلَ عَيْسَىٰ  
عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ  
مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ  
مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَمَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا  
وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنْ هَذَا هُوَ  
الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢)  
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) » .

وقوله - تعالى - ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ، اسم  
الإشارة فيه وهو ، ذلك ، مشار به إلى المذكور من قصة آل عمران ، وقصة  
مريم وأما ، وقصة زكريا وندائه لربه ، وقصة عيسى وما أجراه الله - تعالى -  
على يديه من معجزات وما خصه به من كرامات ....

أى ذلك القصة الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد ، نتلوه عليك ، أى  
نقصه عليك متتابعا بعده نلوه بعض من غير أن يكون لك إطلاع سابق عليه .  
فأنت لم تكن معاصرا لهؤلاء الذين ذكرنا لك قصصهم وأحوالهم ، وهذان  
أكبر الأدلة على صدقك فيما تبلغه عن ربك .

وقوله ، ذلك ، مبتدأ ، وقوله ، نتلوه عليك ، . . . خبره .

وقوله ، من الآيات ، حال من الضمير المنصوب فى ، نتلوه ، .

والمراد بالآيات الحجج الدالة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - .  
وقوله ، والذكر الحكيم ، أى القرآن المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين  
يديه ولا من خلفه ، والمشمول على الحكم التى من شأنها أن تهدى الناس إلى  
ما يسعدهم متى اتبعوها . وقيل المراد بالذكر الحكيم اللوح المحفوظ الذى  
نقلت منه جميع الكتب المنزلة على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

ثم بين - سبحانه - أن خلق عيسى من غير أب ليس مستبعدا على

الله - تعالى - ، فقد خلق آدم كذلك فقال - « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

والمثل هنا : يعنى الصفة والحال العجيبة الشأن ، ومحل التمثيل كون كليهما قد خاق بدون أب ، والشئ قد يشبه بالشئ متى اجتمعا ولو في وصف واحد .

والمعنى : إن شأن عيسى وحاله الغريبة ، عند الله ، أى في تقديره وحكمه ، كمثل آدم ، أى كصفته وحاله العجيبة في أن كليهما قد خلقه الله - تعالى - من غير أب ، ويزيد آدم على عيسى أنه خلق بدون أم - أيضا - .  
فالآية الكريمة تردرداً منطقياً حكماً يهدم زعم كل من قال بالوهية المسيح أو اعتبره ابن الله ...

وكان الآية الكريمة تقول لمن ادعى الوهية عيسى لأنه خلق من غير أب : أنه إذا كان وجود عيسى بدون أب يسوغ لكم أن تجعلوه لها أو ابن له : فأدلى بذلك ثم أولى آدم ، لأنه خلق من غير أب ولا أم . ومادام لم يدع أحد من الناس الوهية آدم لهذا السبب ، فبطل حينئذ القول بالوهية عيسى لانتهاب الأساس الذى قام عليه وهو خلقه من غير أب .

ولأنه إذا كان الله - تعالى - قادراً على أن يخلق إنساناً بدون أب ولا أم . فأولى ثم أولى أن يكون قادراً على خلق إنسان من غير أب فقط . ومن أم هى مريم التى تولاهما - سبحانه - برعايته وصيانتها لها من كل سوء وجعلها وعاء لهذا النبي الكريم عيسى - عليه السلام - .

قال صاحب الكشاف : وقوله « خلقه من تراب ، جملة مفسرة لما قبلها شبه عيسى آدم أى للأمر الذى لأجله كان ذلك التشبيه - أى خلق آدم من تراب ولم يكن نعمة أب ولا أم . وكذلك حال عيسى ، فإن قلت : كيف شبه به وقد وجد هو من غير أب ووجد آدم من غير أب وأم ؟ قلت : هو مثله في أحد الطرفين ، فلا يمنع اختصاصه بونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأن المماثلة مشاركة

في بعض الأوصاف ، ولأنه شبه به لأنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة ، وهما في ذلك نظيران ، ولأنه الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب ، فشبه الغرير بالأغرب ؛ ليكون أقطع للخصم ، وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيم هو أغرب مما استغربه ، (١) .

وقوله ( ثم قال له كن فيكون ) تصوير لخلق الله - تعالى - آدم من تراب أى أراد - سبحانه - أن يوجد آدم فصوره من طين ثم قال له حين صوره بشرا فصار كاملاً روحاً وجسداً كما أمر - سبحانه - .

فالمجلة الكريمة تصور نفاذ قدرة الله ، تصويراً بديعاً ، يدل على أنه - سبحانه - لا يمجزه شيء في هذا الـكون .

وعبر بصيغة المضارع المقترون بالفاء في « فيكون » دون الماضي بأن يقول « فكان » ، لأن التعبير بالمضارع فيه تصوير وإخصار للصورة الواقعة كما

وقعت ، ومن جهة أخرى فإن صيغة المضارع في هذا المقام تنبئ عما كان ، وتسمى إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله - تعالى - المستمر في المستقبل كما كان في الماضي .

ثم بين - سبحانه - أن ما أخبر به عباده في شأن عيسى وغيره هو الحق الذي لا يحوم حوله باطل فقال - تعالى - « الحق من ربك فلا تكن من الممترين » .

والامتراة : هو الشك الذي يدفع الإنسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق .

وهو - كما يقول الرازي - مأخوذ من قول العرب مريت الناقة والشاة إذا أردت حلبها ، فكان الشاك يجتذب بشكك مرء كاللبن الذي يجتذب عند الحلب . يقال : قد ماري فلان فلانا إذا جادله كأنه يستخرج غضبه (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٦٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ٨٠ .

والمعنى : هذا الذى أخبرناك عنه يا محمد من شأن عيسى ومن شأن غيره هو الحق الثابت اليقيني الذى لا مجال للشك فيه ، وما دام الأمر كذلك فأثبت على ما أنت عليه من حق ، ولا تكونن من الشاكين فى أى شىء مما أخبرناك به .

وقد أكد - سبحانه - أن ما أوحاه إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - هو الحق بثلاثة تأكيدات : أولها : بالتعريف فى كلمة الحق ، أى ما أخبرناك به هو الحق الثابت الذى لا يخالطه باطل . ثانياً : بكونه من عنده - سبحانه - ، وكل شىء من عنده فهو صدق لا ريب فيه . ثالثاً : بالنهى عن الامتراء والشك فى ذلك الحق ، لأن من شأن الأمور الثابتة أن يتقبلها العقلاء بإذعان وتسليم وبدون جدل أو امتراء .

قال الألوسى : وقوله « فلا تكونن من الممترين » ، خطاب له - صلى الله عليه وسلم - ولا يضر فيه استحالة وقوع الامتراء منه - عليه الصلاة والسلام - بل ذكروا فى هذا الأسلوب فائدتين :

إحداهما : أنه - صلى الله عليه وسلم - إذا سمع مثل هذا الخطاب تحركت منه الأريحية فيزداد فى الثبات على اليقين نورا على نور .

وثانيتها : أن السامع يتنبه بهذا الخطاب على أمر عظيم فينزع وينزجر عما يورث الامتراء ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - مع جلالاته التى لا تنصل إليها الأمانى - إذا خوطب بمثلها فما يظن بغيره ؟ فى ذلك ثبات له صلى الله عليه وسلم - ولطف بغيره ، (١) .

ثم لئن افقه تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذى يقطع لسان المجادلين بالباطل فى شأن عيسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : « فن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ... الخ » :

قال الفخر الرازى : اعلم أنه « سبحانه » ، بين فى أول هذه السورة وجودها

من الدلائل القاطعة على فساد قول النصارى بالزوجة والولد ، وأتبعها بذكر الجواب على جميع شبههم على سبيل الاستقصاء التام ، وختم الكلام بهذه النسكئة القاطعة لفساد كلامهم ، وهو أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم أن يكون ابنا لله . فكذلك لا يلزم من عدم الأب البشري لعيسى أن يكون ابنا لله ؛ ولما لم يبعد خلق آدم من التراب لم يبعد أيضا خلق عيسى من الدم الذي كان يجتمع في رحم أم عيسى . ومن أنصف وطلب الحق علم أن البيان قد بلغ إلى الغاية القصوى . فمعد ذلك - قال سبحانه - « فَنَحَاكُ ، بعد هذه الدلائل الواضحة واجوبات اللاحقة فاقطع الكلام معهم وعاملهم بما يعامل به المعاند ؛ وهو أن تدعوم إلى الملاعة ... » (١) .

والفاء في قوله « فَنَحَاكُ » للتفريع على قوله - تعالى - « الحق من ربك ... » وقوله « من » ، الراجع فيها أنها شرطية . وقوله « نَحَاكُ » من المحاجه وهي تبادل الحججه والمجادلة بين شخص وآخر .

والمعنى : فنجدالك وخاصك ، يا محمد ، من أهل الكتاب ، فيه ، أى فى شأن عيسى - عليه السلام - بأن زعموا أنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة أو غير ذلك من الأقاويل الكاذبة فى شأنه ،

وقوله « من بعد ما جاءك من العلم ، أى فنجدالك فى شأن عيسى من بعد الذى أنزلناه إليك وقصصناه عليك فى أمره ، فلا تبادل المجادلة ، فإنه معاند لا يقنعه الدليل مهما كان واضحا ، ولكن قلبه ولأمثاله من الضالين :

« تَعَالُوا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتل فمن جعل لعنة الله على الكاذبين » .

وقوله « تَعَالُوا ، اسم فعل أمر لطلب القدوم . وهو فى الأصل أمر من تعالى يتعالى « كترامى يتراى ، لذا قصد العلو . فكأنهم أرادوا به فى الأصل

أمرنا بالصعود إلى مكان عال تشريفا للدهم ، ثم شاع حتى صار المطلق  
الأمر بالقدوم أو الحضور .

وقوله « ثم نبهل » أى تقبّاهل وتلاعن . فالافتعال هنا بمعنى المفاعلة  
أى بأن نقول : بهله الله على الكاذب منا ومنكم . والبهلة والبهلة - بفتح الباء  
وضمها - اللعنة . يقال بهله الله بهله بهلا ، لعنه وأبعده من رحمته ، ثم شاعت  
في كل دعاء مجتهد فيه وإن لم يكن التعاما .

والمعنى : فإن جادلك أهل الكتاب في شأن عيسى من بعد أن أخبرك  
ربك بما هو الحق من أمر ، فقل لهم « تعالوا ، أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر  
يعرف فيه الحق من الباطل ، وهو أن ندعو نحن وأتمم الأبناء والنساء  
ثم نجتمع جميعا في مكان واحد ، ثم نتضرع إلى الله ونبتهل لآيه بأن يجعل  
لعنته على الكاذبين في دعواهم المنحرفين عن الحق في اعتقادهم .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد لعنت النبي - صلى الله عليه وسلم -  
الجواب الحاسم الذى يخسر السنة المجادلين في عيسى ، ويتحداهم - إن كانوا  
صادقين - أن يقبلوا هذه المباهلة ، وليكنهم فكصوا على أعقابهم فثبت  
كديهم وضلالهم .

وهذه الآية الكريمة تسمى بآية المباهلة ، وقد ذكر العلماء أنها نزلت الرد  
على نصارى نجران الذين جادلوا النبي - صلى الله عليه وسلم - في شأن  
عيسى - هليه السلام - .

قال ابن كثير ما ملخصه . وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول  
الضورة إلى هنا في وفد نصارى نجران حين قدموا المدينة ، فجلسوا يحاجون في  
غيبى ويزعمون فيه ما يزعمون من البتوة والالوهية ، فأزل صدر هذه السورة  
ردا عليهم . . . وكانوا ستين راكبا منهم ثلاثة لإيهم يؤولن أمرهم وهم :  
العاقب أميرهم واسمه عبد المسيح ، والسيد صاحب رحلمهم واسمه الأبهم ،

وأبو حارث بن علقمة أسقفهم وحبرهم . وفي القصة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما أتاه الخبر من الله - تعالى - ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاحظتهم . دعاهم إلى المباحلة فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا . . . ثم خلوا بالعاقب فقالوا . يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال . والله يا معشر النصارى لقد عرفتم إن محمداً النبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه مالا عن قوم نبياً قط . فيقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستتصال منكم إن فعلتم . . . . . فأتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا . يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، فلم يلاعنهم - صلى الله عليه وسلم - وأقرهم على خراج يؤدونه إليه .

وروى الحافظ ابن مردويه عن جابر قال : قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - فإعناه الغداة . قال : فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يحببا وأقرا له بالخراج .

قال . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . والذي بعثني بالحق لولا عنا لا مطر عليهم الوادي نارا .

ثم قال . وروى البخاري عن حذيفة قال . جاء العاقب والسيد صاحب نجران إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فو الله لئن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، ثم قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : إنا نعطيك ما سألتنا ، وأبعث معنا رجلاً أميناً . فقال : لا بعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين . فاستشرف لها أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح : فلما قام قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا أمين هذه الأمة (١) .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت ، ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليقين الكاذب منه ومن خصمه ، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه فما معنى ضم الأبناء والنساء ؟

قلت : ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحمالة ، واستيقانه بصدقه ، حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك ، ولم يقتصر على تعريض نفسه له ، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك نفسه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة . وخص الأبناء والنساء ، لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فرأهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل . ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظاهرين في الحروب لتمنعهم من الهرب . . . . وفي الآية دليل واضح على صحة نبوة النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه لم يرو أحد من مرافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك ، (١) .

ثم أكد - سبحانه - صدق ما أخبر به عن عيسى وغيره فقال : وإن هذا هو القصص الحق ، وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم .

أى ان الذى قصصناه عليك وأخبرناك به يا محمد من شأن عيسى ومن كل شأن من الشئون هو القصص الثابت الذى لا مجال فيه لإنكار منكر ، ولا لتشكيك متشكك .

وقد أكد - سبحانه - صدق هذا القصص بحرف إن وباللام في قوله ، هو ، وبضمير الفصل ، هو ، وبالقصص الذى تضمنته تعريف الطرفين وذلك ليكون الرد حاسماً على كل منكر ما أخبر الله به في شأن عيسى - عليه السلام - ، وفي كل ما قصه على نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله « وما من إله إلا الله .. » ، فني قاطع لأن يكون هناك إله سوى الله - تعالى - وإثبات بأن الألوهية الحقّة إنّما هي لله رب العالمين .

وقد أكد - سبحانه - فني الألوهية عن غيره بكلمة « من » ، المفيدة للاستفراق النفي لاستفراقاً مستمراً نابهاً مؤكداً .

وقوله « وما من إله إلا الله » ، « وما ، مافية ، و ، إله ، في قوله « من إله » ، مبتدأ و « من » ، مزيدة فيه ، و « إلا الله » ، خبره والتقدير : وما إله إلا الله ، وزيدت من للاستفراق والعموم .

وقوله « وإن الله هو العزيز الحكيم » ، تذييل قصد به تأكيد قصر الألوهية على الله - تعالى - وحده أي وإن الله - تعالى - هو المنفرد بالألوهية وحده ، لأنه هو الغالب الذي يتهر ولا يقهر ؛ الحكيم في كل ما يخلقه ويديره .

وفي هذا التذييل أيضاً رد على أولئك الضالين الذين يزعمون أن المسيح إله ، ويمتقدون مع ذلك أنه صلب ولم يستطع أن يدافع عن نفسه .

ثم ختم - سبحانه - تلك المحاجة بقوله : « فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين » .

أي فإن أعرضوا عن اتباعك وتصديقك بهذه الآيات البينات والحجج الواضحات التي أخبرناك بها وقصصناها عليك ، فأندزم بسوء العاقبة ، وأخبرهم أن الله - تعالى - عليم بهم ، وبما يقولونه ويفعلونه من فساد في الأرض ، وسيعاقبهم على ذلك العقاب الأليم .

فقوله « فإن الله عليم بالمفسدين » ، قائم مقام جواب الشرط ، أي فإن تولوا فأخبرهم بأنهم مفسدون وأن لهم سوء العقبى لأن الله عليم بإفسادهم ولن يتركهم بدون عقوبة .

وهذه الجملة الكريمة تتضمن في ذاتها تهديداً شديداً لهؤلاء المجادلين الباطل

في شأن عيسى - عليه السلام - ولاكل من أعرض عن الحق الذي جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - لأن الله - تعالى - ليس غافلاً عن إفساد المفسدين ، وإنما يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد بينت بأسلوب معجز حكيم جانباً من قصة آل عمران فحدثنا عما كان من امر أم مريم ، وما قالته عندما حملت بها ، وما قالته بعد ولادتها ، وما أكرم الله به مريم من رعايتها بالترية الحسنة وبالرزق الحسن ، ثم ما كان من شأن زكريا وتضرعه إلى الله أن يهبه الذرية الصالحة واستجابة الله له وتبشيره بولادة يحيى ، ثم ما كان من شأن مريم وتبشيرها باصطفاء الله لها وأمرها بالمداومة على طاعته ، ثم تبشيرها بعيسى وتعميمها لذلك والرد عليها بما يزيل هذا العجب ، ثم ما كان من شأن عيسى - عليه السلام - وما وصفه به من صفات كريمة ، وما منحه من معجزات باهرة تشهد بصدقه في رسالته ، مما جعل الحواريين يؤمنون به ، أما الاكثرون من بني إسرائيل فقد كفروا به ودبروا له المسكائد فأجاء الله من مكبرهم ورفعهم إليه وظهره منهم ...

ثم بين القرآن أن عيسى عبد الله ورسوله ، وأن هذا هو الحق ، وقد تحدى الرسل - صلى الله عليه وسلم - كل من تازعه في ذلك بالمباينة ولكن المجادلين فكسروا على أعقابهم ، فثبت صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه .

وبذلك يكون القرآن قد بين الحق في شأن عيسى - عليه السلام - بيانا يهدى القلوب ، ويقنع العقول ، ويحمل النفوس على التدبر والاعتبار ، وإخلاص العبادة لله رب العالمين .

ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء عاما إلى أهل الكتاب ، دعاهم فيه - في بعض آيات متواليه - إلى عبادة الله وحده ، إلى ترك المحاجة الباطلة في شأن الأنبياء .

- عليهم الصلاة والسلام - وإلى الافلاخ عن الكفر بآيات الله وعن تلبيس الحق بالباطل ، وعن كتمان الحق مع علمهم بأنه حق ...  
استمع إلى القرآن وهو يسوق هذه النداءات داعياً أهل الكتاب إلى كلمة الحق فيقول :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَزَلَّتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٧٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) » .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وجه إلى أهل الكتاب أربع نداءات في هذه الآيات الكريمة ، أما النداء الأول فقد طلب منهم فيه أن يثوبوا إلى رشدهم . وأن يخلصوا لله العبادة ، فقال : قل يا أهل الكتاب تمالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ... .

والسواء : العدل والنصفة . أي قل يا محمد لأهل الكتاب : هلموا وأقبلوا إلى كلمة ذات عدل وإنصاف بيننا وبينكم .

أو السواء : مصدر بمعنى مستوية أى دللوا إلى كلمة لا تختلف فيها الرسل  
والكتب المنزلة والعقول المليمة لأنها كلمة عادلة مستقيمة ليس فيها ميل  
عن الحق .

ثم بين - سبحانه - هذه الكلمة العادلة المستقيمة التي هي محل لإتفاق بين  
الأنبياء فقال : « ألا نعبد إلا الله ، أى نترك نحن وأنتم عبادة غير الله ، بأن  
نفرده وحده بالعبادة والطاعة والإذعان .

« ولا نشرك به شيئاً ، أى ولا نشرك معه أحداً فى العبادة والخضوع ،  
بأن نقول : فلان إله ، أو ابن إله ، أو أن الله ثالث ثلاثة .  
« ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، أى ولا يطبع بعضنا بعضاً  
فى معصية الله .

قال الألومى : ويؤيده ما أخرجه الترمذى وحسنه من حديث عدى بن  
حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قال : ما كنا نعبدكم يا رسول الله ، فقال - صلى الله  
عليه وسلم - : أما كانوا يحملون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال :  
نعم فقال - صلى الله عليه وسلم - : هو ذلك . قيل وإلى هذا أشار - سبحانه -  
بقوله : « إنخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم  
وما أمر إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو ... » (١) .

فالأية الكريمة قد نهت الناس جميعاً عن عبادة غير الله ، وعن أن يشرك  
معه فى الألوهية أحد من بشر أو حجر أو غير ذلك ، وعن أن يتخذ أحد  
من البشر فى مقام الرب - عز وجل - بأن يتبع فى تحليل شيء أو يحريمه إلا  
بإما حله الله أو حرمه .

ولقد كانت رسالة الأنبياء جميعاً متفقة فى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده  
وقد حكى القرآن فى كثير من الآيات هذا المعنى . ومن ذلك قوله - تعالى - :  
« ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ... » (٢)

(٢) - سورة النحل الآية ٢٦ .

(١) تفسير الألومى ج ٣ ص ١٩٣

(١٢) - سورة آل عمران

وقوله - تعالى - : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » ، (١) .

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يجب عليهم أن يقولوه إذا ما لج الجاحدون في طغيانهم فقال : « فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » .

أي فإن أعرض هؤلاء الكافرون عن دعوة الحق ، وإنصرفوا عن موافقتكم بسبب ما هم عليه من عناد وجحود ، فلا تجادلوهم ولا تتجادلهم ، بل قولوا لهم : أشهدوا بأنا مسلمون مدعونون للكلمة الحق ، بخلافكم أنتم فقد رضيتم بما أنتم فيه من باطل .

قال صاحب الكشف وقوله « فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » ، أي لزمكم الحججة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم . وذلك كما يقول الغالب للمغلوب في جدال أو صراع أو غيرهما : أعترف بأني أنا الغالب وسلم لي بالغلبة . ويجوز أن يكون من باب التعريض ومعناه : أشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث توليتهم عن الحق بعد ظهوره ، (٢) .

هذا ، وتعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التي تهدي الناس إلى طريق الحق بأسلوب منطقي رصين ، ولذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يكتبها في بعض رسائله التي أرسلها إلى الملوك والرؤساء ليدعوم إلى الإسلام فقد جاء في كتاب النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل - ملك الروم - : « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من إنبع الهدى . أما بعد : فأبى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين . ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا الخ الآية » ، (٣) .

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

(٢) تفسير الكشف ج ١ ص ٣٧١ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٠٥ والأريسون م : العمال والفلاحون وعامة الشعب

وأما النداء الثاني الذي إشتملت عليه هذه الآيات ، فقد تضمن نهي أهل الكتاب عن الجدال بالباطل في شأن إبراهيم - عليه السلام - ، قال - تعالى - : « أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة إلا من بعده أفلا تعقلون » .

قال ابن جرير : عن ابن عباس قال : إجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله فتنازعو اعنده . قالت الأحبار : ما كان إبراهيم لإيهوديا وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فانزل الله - تعالى - فيهم : « يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم » . الآية ، (١) .

وقوله « تحاجون » ، من الحاجة ومعناها أن يتبادل المتخاصمان الحجة بأن يقدم كل واحد حجة ويطلب من الآخر أن يرد عليها .

والمعنى : لا يسوغ لكم يا معشر اليهود والنصارى أن تجادلوا في دين إبراهيم وشريعته فيدعى بعضكم أنه كان على الديانة اليهودية ، ويدعى البعض الآخر أنه كان على الديانة النصرانية ، فإن التوراة والإنجيل ما نزل إلا من بعده بأزمان طويلة ، فكيف يكون يهوديا يدين بالتوراة مع أنها ما نزلت إلا من بعده ، أو كيف يكون نصرانيا يدين بالإنجيل مع أنه ما نزل إلا من بعده ، بألاف السنين ؟ إن هذه الحاجة منكم في شأن إبراهيم ظاهرة البطلان واضحة الفساد .

وقوله « أفلا تعقلون » ، أى أفلا تعقلون يا أهل الكتاب هذا الأمر البدهى وهو أن المتقدم على شئ لا يكفى أن يكون نابها المشى . المتأخر عنه ؟

فلاستفهام لتوبيخهم وتعليمهم في دعواهم أن إبراهيم - عليه السلام - كان يهوديا أو نصرانيا .

ثم بين - سبحانه - مظهر الآخر من مظاهر مخالفة أهل الكتاب لمقتضيات العقول السليمة وهو أنهم يجادلون في أمر ليس عندهم أسباب العلم به فقال - تعالى - : : ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس به علم . . . . .

والمعنى : أنتم يا معشر أهل الكتاب جادلتم وبادلتم الحججة - سواء أكانت صحيحة أم فاسدة في أمرos لكم به علم في الجملة ، كجدالكم فيما وجدتموه في كتبكم من أمر موسى وعيسى - عليهما السلام - ، أو كجدالكم فيما جاء في التوراة والإنجيل من أحكام ، ولكن كيف أبجتم لأنفسكم أن تجادلوا في أمر ليسos لكم به علم أصلا ، وهو جدالكم في دين إبراهيم وشريعته ؛ لأنه من البديهي أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا إذ وجوده سابق على وجودهما بأزمان طويلة .

وإذن لجدالكم في شأن إبراهيم هو لون من ألوان جهلكم ومخالفتكم لكل ما تقتضيه العقول السليمة ، والنفوس المستقيمة .

وقوله - تعالى - : : ها أنتم هؤلاء حاجتكم ، ها حرف تنبيه ، وأنتم مبتدأ ، وهؤلاء منادى بحرف نداء محذوف ( وحاجتكم ) خير المبتدأ أنتم .  
والتقدير : أنتم يا هؤلاء حاجتكم فيماos لكم به علم ...

ويرى صاحب الكشف أن قوله ( أنتم ) مبتدأ و ( هؤلاء ) خبره .  
و ( حاجتكم ) جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى . والمعنى : أنتم هؤلاء الأشخاص الحقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم ( فيماos لكم به علم ) بما نطق به التوراة والإنجيل ، ( فلم تحاجون فيما ليسos لكم به علم ) ولا ذكر له ، في كتابيكم من دين إبراهيم . . . ومعنى الإستفهام التعجب من حماقتهم . . . (١) .

و تكبريه هاء التنبيه في قوله «ها أنتم هؤلاء»، يشعر بفرابة مام عليه من جهل،  
ومجافاته لكل منطق سليم .

قال الرازي : وقوله «ها أنتم هؤلاء» حاجتكم فيما لكم به علم ، يحتمل أنه  
لم يفهمهم بالعلم حقيقة ، وإنما أراد أنكم تستجيزون حاجته فيما تدعون علمه  
فكيف تحاجونه فيما لا علم لكم به البته ، (١) .

وقوله - تعالى - «و الله يعلم وأنتم لا تعلمون» ، تذييل قصد به تأكيد علم  
الله الشامل ، ونفي العلم عن أهل الكتاب في شأن إبراهيم .

أى والله - تعالى - يعلم حال إبراهيم ودينه ، ويعلم كل شئ في هذا  
الوجود ، وأنتم لا تعلمون ذلك .

ثم صرح - سبحانه - ببراءة إبراهيم من دين يخالف دين الإسلام فقال  
- تعالى - : « ما كان لإبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما  
وما كان من المشركين » .

وقوله «حنيفا» من الحنف وهو ميل عن الضلال إلى الاستقامة ؛ بعكس  
الحنف فهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال . ويقال : نحنف الرجل أى تحرى  
طريق الاستقامة .

أى : ما كان لإبراهيم - عليه السلام - في يوم من الأيام يهوديا كما قال  
اليهود ، ولا نصرانيا كما قال النصارى ، ولكنه كان حنيفا أى مائلا عن العقائد  
الزائفة ، متحررا بطريق الاستقامة ، وكان «مسلم» أى مستسليما لله - تعالى -  
متقادا له مخلصا له العبادة وما كان من المشركين ، الذين يشركون مع الله آلهة  
أخرى ، بأن يقولوا إن الله ثالث ثلاثة ، أو يقولوا عزير ابن الله أو المسيح  
ابن الله ، أو غير ذلك من الأقوال الباطلة ، والأفعال الفاسدة .

ففي هذه الآية الكريمة تنويه بشأن إبراهيم، وتعرض بأولئك الكافرين من أهل الكتاب الذين يدعون أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانياً بأنهم هم المشركون بخلاف إبراهيم فقد كان مهدياً من ذلك .

ثم أصدر - سبحانه - حكمه الجاسم البادل في هذه القضية التي كثر الجدل فيها فقال : « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا واثقة ولي المؤمنين » .

وقوله - تعالى - « أولى » أفعل تفضيل من الولي وهو القرب . والمعنى : إن أقرب الناس من إبراهيم ، وأخصهم به ، وأحقهم بالإنتساب إليه أصناف ثلاثة :

أولهم : بينه الله بقوله « للذين اتبعوه » أي الذين أجابوا دعوته في حياته واتبعوا دينه وشريعته بعد مماته .

وقد أكد الله - تعالى - حكمه هذا بحرف « إن » وبأفعل التفضيل « أولى » وباللام في قوله « للذين اتبعوه » ، ليرد على أقاويل أهل الكتاب ومفتريائهم حيث زعموا أنه كان يهوديا أو نصرانياً .

وثاني هذه الأصناف : بينه - سبحانه - بقوله « وهذا النبي » والمراد به محمد - صلى الله عليه وسلم - الداعي إلى التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم . والجملة الكريمة من عطف الخاص على العام الإهتمام به والإشعار بأنه - صلى الله عليه وسلم - قد تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم - عليه السلام - .

وثالث هذه الأصناف : بينه الله - تعالى - بقوله « والذين آمنوا » أي الذين آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - واتبعوه .

وفي هذا تنويه بشأن الأمة الإسلامية ، وتقرير بأن إتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - أحق بالإنتساب إلى إبراهيم من أهل الكتاب ، لأن المؤمنين

طلبوا الحق وآمنوا به ، أما أهل الكتاب فقد باعوا دينهم بدينام ، وتركوا الحق جرياً وراء شهوراتهم .

وقوله ، واقه ولى المؤمنين ، تذييل مقصود به تبشير المؤمنين بأن الله - تعالى هو ناصرهم ومتولى أمورهم .

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يقول الله - تعالى - إن أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين إتبعوه على دينه ؛ وهذا النبي يفتى محمداً - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم . فمن ابن مسعود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لكل نبي ولادة من النبيين وإن ولي منهم أبى و خليل ربى لإبراهيم . ثم قرأ : إن أولى الناس بإبراهيم للذين إتبعوه .. الآية ، (١) .

ثم حكى - سبحانه - أن بعض أهل الكتاب لا يكتفون بما هم فيه من ضلال بل يحاولون أن يضلوا غيرهم فقال - تعالى - : ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ، . . .

وقوله - تعالى - ، ودت ، من الود وهو محبة الشيء . وتمنى حصوله ووقوعه .

أى تمت وأحبت جماعة من أهل الكتاب إضلالكم عن الحق - أيها المؤمنون - ، وذلك بأن ترجعوا عن دين الإسلام الذى هداكم الله إليه ، إلى دين الكفر الذى يعتنقه أولئك الكافرون من أهل الكتاب .

ولم يقف بفتى بعض أهل الكتاب وخدم عند هذا الفتى ، بل تجاوزوه إلى إلقاء الشبهات حول دين الإسلام ، وإلى محاولة صرف بعض المسلمين عن دينهم ؟

قال القرطبي : نزلت - هذه الآية - في معاذ بن جبل ، وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ، حين دعاهم اليهود من بني النضير وقريظة وبني قينقاع إلى اليهودية (١) .

والمراد بالطائفة رؤساء أهل الكتاب وأخبارهم . ومن للتبويض ، وهي مع مجرورها في محل رفع نعت لطائفة .

و ، لو ، في قوله ، لويصلونكم ، مصدرية أي ودت طائفة من أهل الكتاب إضلالكم .

وقوله ، وما يصلون إلا أنفسهم وما يشعرون ، جملة حالية .

أي : والحال أنهم ما يصلون أي ما يصلون إلا أنفسهم بسبب غوايتهم وإستيلاء الأهواء على قلوبهم ، ولا يشارم العمى على الهدى ولكنهم لا يشعرون بذلك ولا يفظنون له ، لأنهم قد زين لهم الشيطان سوء سلمهم فرأوه حسنا .

وأما النداء الثالث الذي إشتملت عليه هذه الآيات فهو قوله : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ، .

أي : لماذا تكفرون بآيات الله - تعالى - التي يتلوها عليكم نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - والحال أنكم تعلمون صدقها وصحتها علما يقينا كعلم المشاهدة والعيان ، وتعرفون أنه نبي - حقا كما تعرفون أبناءكم .

والإستفهام في قوله ، لم تكفرون ، لتوبيخهم ، والتعجب من شأنهم ، وإنكار ما هم عليه من كفر بآيات مع علمهم بصدقها .

وفي هذا النداء إشارة إلى أن ما أعطوه من علم كان يقتضي منهم أن يسارعوا إلى الإيمان لأن يكفروا بآيات الله الدالة على صدق نبيه - صلى الله عليه وسلم - والتي تتناول القرآن الكريم ، والحجج والمعجزات التي جاءهم بها - صلى الله عليه وسلم - .

ثم وجه لإيهم - سبحانه - نداء رابعاً نهام فيه عن الخاطئ بين الحق والباطل وعن كتمان الحق بعد أن نهام قبل ذلك عن الكفر بالآيات فقال - تعالى - : يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون . . .

وقوله : « تلبسون ، أى تخلطون ، من اللبس - بفتح اللام - أى الخلط وفعله لبس من باب ضرب .

تقول : لبتت عليه الأمر أبسه إذا مزجت بينه بمشكله وحقه بباطله في ستر وخفاء .

أى : يا أهل الكتاب لماذا تخلطون الحق الواضح الذى نطق به الكتاب السماوية ، وأيته العقول السليمة ، بالباطل الذى تخترعونه من عند أنفسكم لإرضاء لأهوائكم؟ ولماذا تكتمون الحق الذى تعرفونه كما تعرفون أبناءكم بغية لإنصراف الناس عنه ، لأن من جهل شيئاً عاداه .

وفي تكرار النداء والاستفهام زيادة في توبيخهم والانكار عليهم ، والتعجب من شأنهم ، ذلك لأنهم جمعوا أخش أنواع الرذائل التى على رأسها كفرهم بآيات الله ، وخطبهم الحق بالباطل وكتمان الحق عن يريده .

ولدعاة الضلالة طريقتان في إغواء الناس :

أحدهما : طريقة خلط الحق بالباطل حتى لا يميز أحدهما عن الآخر وهى المشار إليها بقوله - تعالى - : « لم تلبسون الحق بالباطل ، .

والثانية : طريقة جحد الحق وإخفائه حتى لا يظهر ، وهى المشار إليها بقوله - تعالى - : « وتكتمون الحق ، .

وقد استعمل أهل الكتاب الطريقتين لصرف الناس عن الاسلام . فقد كان بعضهم يؤول نصوص كتبهم الدالة على صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - تأويلاً فاسداً ، يخلط فيه الحق بالباطل ليوهموا العامة أنه ليس

هو النبي المنتظر . وكان بعضهم يلقى حول الحق شبها ليوقع ضعفاء الإيمان في حيرة وتردد ، وكان بعضهم يخفى أو يحذف النصوص الدالة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - أو التي لا توافق أهواهم .

وقوله : « وأنتم تعلمون ، جملة حالية . أي وأنتم تعلمون أن ما أخفيتموه وما لبستموه هو الحق . أو وأنتم من ذوى العلم ولا يناسب من كان كذلك أن يكتم الحق أو يخلطه بالباطل ، وإذا كان هذا الفعل يعد من كبائر الذنوب حتى ولو وقع من شخص عادى ، فإن وقته يكون أقبح وفساده أكبر وعاقبته أشام ، متى صدر من عالم فاهم يميز بين الحق والباطل .

قال أبو حيان : وهذه الحال وإن كان ظاهرها أنها قيد في النهي عن اللبس والسكتم ، إلا أنها لا تدل بمفهومها على جواز اللبس والسكتم حالة الجهل إذ الجاهل بحال الشيء لا يدري كونه حقا أو باطلا . وإنما فائدتها بيان أن الإقدام على الأشياء القبيحة مع العلم بها أفحش من الإقدام عليها مع الجهل ، (١) .

وبعد هذه النداءات المتكررة لأهل الكتاب ، والحجج الباهرة التي ساقها لهم على صحة هذا الدين ، والتوبيخات المتعددة التي وبغهم بها لانصرافهم عن الحق ومحاربتهم صرف غيرهم عنه بعد كل ذلك ، أخذ القرآن في سرد بعد المسالك الخبيثة التي سلكها اليهود لكي يدلكم الإسلام والمسلمين ، فبدأ ببيان مسلك لثيم من مسالكهم الكثيرة ، وهو أن بعضهم كان يظهر الإيمان لفترة من الوقت ثم يرجع عنه إلى الكفر ، أي وهم ضعاف العقول أنه ما رجع عن الإسلام إلا بعد أن دخله فرجه دينا ليس بشيء - في زعمه - . . .

استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك لكي يتطلع أتباعه على مسالك اليهود ومكرهم حتى يحذروهم ، فيقول :

«وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَجَاءَ النَّهَارُ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تَوَيْمُنُوا إِلَّا بِمَنْ  
تَبِعَ دِينَكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ  
أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ  
وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)»

فأنت إذا تأملت في هذه الآيات الكريمة تراها قد حكمت عن طائفة من  
أهل الكتاب طريقة ماكرة لتيمة ، هي تظاهروا بالإسلام لفترة من الوقت  
ليحسن الظن بهم من ليس خبيراً بمكرهم وخداعهم ، حتى إذا ما أطمأن الناس  
إليهم جاهروا بكفرهم ، ورجعوا إلى ما كانوا عليه ، ليؤهموا حديثي العهد  
بالإسلام أو ضعاف الإيمان ، أنهم قوم يبحثون عن الحقيقة ، وأنهم ليس  
عندهم أي عداة للنبي - صلى الله عليه وسلم - بل إن الذي حصل منهم هو أنهم  
بعد دخولهم في الإسلام ، وجدوه ديناً باطلاً . وأنهم ما عادوا إلى دينهم  
القديم إلا بعد الفحص والاختبار وإمعان النظر في دين الإسلام .

ولا شك أن هذه الطريقة التي سلكها بعض اليهود لعرف بعض المسلمين  
عن الإسلام من أقوى ما فتق عنه تدبيرهم الشيطاني ؛ لأن إعلانهم الكفر  
بعد الإسلام ، وبعد إظهارهم الإيمان به ، من شأنه أن يدخل الشك في القلوب  
ويوقع ضعاف الإيمان في حيرة واضطراب ، خاصة وأن العرب - في  
مجموعهم - قوم أميون : ومنهم من كان يعتقد أن اليهود أعرف منهم بمسائل  
العقيدة والدين . فيظن أنهم ما ارتدوا عن الإسلام إلا بعد اطلاعهم على  
نقص في تعاليمه .

والمتتبع لمراحل التاريخ قديماً وحديثاً، يرى أن الدهاة في السياسة والحروب  
يتخذ هذه الخدعة ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب في صفوف أعدائه .

قال الأستاذ الشيخ محمد عبده - رحمه الله - : هذا النوع الذي تحكيه الآيات من صدق اليهود عن الإسلام مبني على قاعدة طبيعية في البشر ، وهي أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه . وقد فقه هذا ، هرقل ، ملك الروم ، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبي - صلى الله عليه وسلم - أن قال له : هل يرتد أحد من أتباع محمد - سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فقال أبو سفيان : لا . وقد أرادت هذه الطائفة أن تلبس على الناس من هذه الناحية فيقولوا : لولا أن ظهر هؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، وأطلعوا على بواطنه وخوافيه ، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب . . . (١) .

هذا ، وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات متعددة كلها تدور حول المعنى الذي قررناه .

ومن هذه الروايات ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال في قوله - تعالى - : **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا... أخ** ، قال بعض أهل الكتاب لبعض : أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار ، واكفروا آخره ، فإنه أجدر أن يصدقكم ، ويعلموا أنكم قد رأيتم ما تكفرونه في دينهم ، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم . . .

وعن السدي : كان - هؤلاء - أجبار قرى عربية أثنى عشر حبرا ، فقالوا لبعضهم : أدخلوا في دين محمد أول النهار ، ونولوا : نشهد أن محمدا حق صادق . فإذا كان آخر النهار فكفروا وقولوا : إننا رجعنا إلى علمائنا وأجبارنا فسألناهم . فحدثونا أن محمدا كاذب ، وأنكم لستم على شيء ، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم ، لعلمهم يشكون ، يقولون كانوا معنا أول النهار فسألناهم ؟ فأخبر الله - عز وجل - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، (٢) .

(١) تفسير المنار ج ٣ ص ٢٢٣ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ٣١١ .

والمعنى . . . وقالت طائفة من أهل الكتاب ، أى : فيما بينهم ليلبسوا على الضعفاء أمر دينهم ، آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ، أى قال بعضهم لبعض : نأفقوا وأظهروا التصديق بالإسلام وبنييه - صلى الله عليه وسلم - وبما أنزل عليه وعلى أصحابه من قرآن وجه النهار ، أى فى أول النهار .

وسمى أول النهار وجها ، لأنه أول ما يواجهك منه ، وأول وقت ظهوره ووضوحه .

وقوله ، واكفروا آخره عليهم يرجعون ، معطوف على ، آمنوا . . .

أى : آمنوا فى أول النهار واكفروا فى آخره ، بأن تعودوا إلى اليهودية ، أملا فى أن يتخضع بحيلتكم هذه بعض المسلمين ، فيشكوا فى دينهم ، ويعودوا إلى الكفر بعد دخولهم فى الإسلام .

وقوله ، لعلمهم يرجعون ، كشف عن مقصدهم الخبيث ، وهو إبتغاؤهم رجوع بعض المؤمنين عن دينهم الحق إلى ما كانوا عليه من باطل .

قال الفخر الرازى : والفائدة فى إخبار الله - تعالى - عن تواضعهم على هذه الحيلة من وجوه :

الأول : أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم ، وما أطلعوا عليها أحداً من الأجانب ، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك لإخبار عن الغيب فيسكون معجزاً .

الثانى : أنه - تعالى - لما أطلع المؤمنين على تواضعهم على هذه الحيلة لم يحصل لهذه الحيلة أثر فى قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت هذه الحيلة فى قلب بعض من كان فى إيمانه ضعف .

الثالث : أن القوم لما افتضحوا في هذه الحيلة صار ذلك رادعا لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس (١).

نم حكي - سبحانه - لونا من عصبيتهم وتعاونهم على الإثم والعدوان فقال - تعالى - « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم . . . » .

وقوله - سبحانه - حكاية عنهم « ولا تؤمنوا . . . » مطوف على قوله - تعالى - في الآية السابقة « آمنوا بالذي أنزل . . . » .

وقد نسر بعضهم قوله « ولا تؤمنوا » بمعنى « ولا تقروا ، أو ولا تعترفوا ، فتكون اللام في قوله « إلا لمن تبع دينكم » أصلية .

وعليه يكون المعنى : أن بعض اليهود قد قالوا لبعض . أظهروا إسلامكم أول النهار واكفروا آخره ، لعل هذا العمل منكم يحمل بعض المسلمين على أن يتركوادينهم الإسلام ، ويعردوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ولم يكتفوا بهذا القول بل قالوا أيضاً على سبيل المسكر والخديمة ، ولا تقروا ولا تعترفوا بأن أحداً من المسلمين أو من غيرهم يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة والفضائل ، أو بأن أحداً في قدرته أن يحاججكم أي يبادلكم الحججة عند ربكم يوم القيامة ، ولا تقروا ولا تعترفوا بشيء من ذلك « إلا لمن تبع دينكم ، أي إلا لمن كان على ملتكم اليهودية دون غيرها .

فإنستثنى منه على هذا التفسير محذوف ، والتقدير : « ولا تؤمنوا أي تقروا وتعترفوا لأحد من الناس بأن أحداً يؤتى مثل ما أوتيتم أو بأن أحداً يحاججكم عند ربكم إلا لمن تبع دينكم ، لأن إقراركم بذلك أمام المسلمين أو غيرهم ممن هو على غير ملتكم سيؤدى إلى ضعفكم وإلى قوة المسلمين .

فهم على هذا التفسير يعلمون ويعتقدون بأن المؤمنين قد أوتوا مثلهم من

الدين والفضائل عن طريق محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، ولكنهم أشد حدة حردم وبغضهم للنبي - صلى الله عليه وسلم ولا تبايعه ، قد تواصلوا فيما بينهم بأن يكتموا هذا العلم وتلك المعرفة ، ولا يظهروا ذلك إلا فيما بينهم ، وصدق الله إذ يقول في شأنهم (الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعملون ) .

وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره للآية بهذا الوجه فقال : قوله « ولا تؤمنوا ، متعلق بقوله : ، أن يؤتى ... ، وما بينهم اعتراض ، أى : ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتهم إلا لأهل دينكم دون غيرهم . أرادوا : أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتهم ، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين لتلايزهم ثباتاً ، ودون المشركين لتلايدعومهم إلى الإسلام ( أو يحاجوكم عند ربكم ) عطف على أن يؤتى . والضمير في يحاجوكم لأحد ، لأنه في معنى الجمع ، بمعنى : ولا تؤمنوا الغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة ويقالون لكم عند الله - تعالى - بالحجة ... (١) .

هذا هو الوجه الأول في تفسير الآية الكريمة :

وهناك وجه آخر يرى أصحابه أن قوله - تعالى - « ولا تؤمنوا ، بمعنى ولا تصدقوا أو ولا تعتقدوا ، فتكون اللام في قوله « لمن تبع دينكم ، زائدة للتقوية .

فيصير المعنى على هذا الوجه : أن بعض اليهود قد قالوا لبعض : أظهِروا الإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل عملكم هذا يجعل بعض المسلمين يترك دينه ويعود إلى الكفر الذي كان عليه ، ولا تصدقوا أن أحداً من البشر يؤتى مثل ما أوتيتهم يابى لإسرائيل من الكتاب والنبوة ، أو أن أحداً في قدرته

أن يحاججكم عند ربكم فأنتم الأعلى في الدنيا والآخرة وأنتم الذين لا تخرج النبوة من بينكم إلى العرب ، وما دام الأمر كذلك فلا تتبعوا إلا نبيا منكم يقرر شرائع التوراة ، أما من جاء بتغيير شيء من أحكامها أو كان من غير بني إسرائيل كحماد - صلى الله عليه - فلا تصدقوه .

فالمستثنى منه على هذا الوجه هو قوله ، أحد ، المذكور في الآية ، والمستثنى هو قوله ، إلا لمن تبع دينكم ، .

والتقدير : ولا تصدقوا أن أحدا يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم أو يمكنه أن يحاججكم عند ربكم ، إلا لمن تبع دينكم ، أي إلا من كان على ملتكم اليهودية . أما أن يكون من غيركم كهذا النبي العربي فلا يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة ، لأنهما - في زعمهم - محكر على بني إسرائيل .

فهم على هذا الوجه من التفسير يزعمون أنهم غير مصدقين ولا معتقدين بأن المسلمين قد أوتوا كتابا ودينا وقضائلا مثل ما أوتوا هم أي اليهود ، ويرون أنفسهم - لغرورهم وانطباس بصيرتهم - أنهم أهدى سبيلا من كل من سواهم من البشر .

وعلى كل من الوحامين يكون قوله - تعالى - أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاججكم عند ربكم ، مفعول به لتؤمنوا .

والتقدير . ولا تصدقوا أو ولا تقرروا لأحد بأن أحدا يؤتى مثل ما أوتيتم أو بأن أحدا يحاججكم عند ربكم .

وعلى كل من الوحامين - أيضا - يكون قوله - تعالى - : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، وقوله ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاججكم عند ربكم ، حكاية من الله - تعالى - لما تواصى به بعض اليهود فيما بينهم من أقوال خبيثة . وأفكار ماكرة .

ويكون قوله - تعالى - ( قل إن الهدى هدى الله ) كلاما معترضا بين أقوالهم  
ساقه الله - تعالى - المسارعة بالرد على أقوالهم الذميمة حتى يزداد المؤمنون  
إيمانا على إيمانهم ، ويزدادوا هم رجسا إلى رجسهم ، وينكشف ما أضمره  
وما بيتهوه للذميين من سوء وحقد .

أى قل لهم يا محمد أن هداية الله - تعالى - ملك له وحده ، وهو الذى يهبها  
لمن يشاء من عباده ، فهى ليست حكراً على أحد ، ولا أسرا مقصورا على قوم  
دون قوم ، وإذا كانت النعمة قد ظلت فترة من الزمان فى بنى إسرائيل ، فاقه -  
تعالى - قادر على أن يسلبها منهم لأنهم لم يشكروه عليها وأن يجعلها فى محمد  
العربي - صلى الله عليه وسلم - لأنه أهل لها ، وهو - سبحانه - أعلم  
حيث يجعل رسالته .

هذا ، ويرى بعض المفسرين أن أقوال اليهود التى حكها القرآن عنهم  
لقد انتهت بنهاية قوله - تعالى - ( ولا تؤمنوا إلا بما نبتع دينكم ) وأما  
أوله - تعالى - ( قل إن الهدى هدى الله أن يوتى أحد مثل ما أوتيتم أو  
بحاجوكم عند ربكم ) فهو من كلام الله - تعالى - وقد ساقه - سبحانه -  
لرد عليهم .

فيكون المعنى عليه : أن بعض اليهود قد قال لبعض : أظنوا إسلامكم  
ول النهار واكفروا آخره لعل بعض المسلمين يرجع عن دينه بسبب فعلكم  
هذا ، ولا تعترفوا بفعلكم هذا إلا لأهل دينكم من اليهود حتى يبقى عملكم  
مذمورا له أثره فى بلبلة أفكار المسلمين ورجوع بعضهم عن الإسلام .

وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - بالرد  
عليهم وبالكشف عن مكرهم فيقول : قل لهم يا محمد إن الهدى هدى الله ، أى  
إن هداية الله ملك له وحده ، فهو الذى يهدى من يشاء وهو الذى يضل من  
شاء ، وقد هدانا - سبحانه - إلى الإسلام وارتدنا عنه ديننا لنا ولن  
رجع عنه .

وقل لهم كذلك على سبيل التوبيخ والنهك بقولهم : أخفاة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة ، أو أخفاة أن يحاججكم المسلمون عند ربكم يوم القيامة حيث آمنوا بالحق وأنتم كفرتم به ، أخفاة ذلك دبرتم ما دبرتم من هذه الأنوال السيئة والأفعال الخبيثة ؟ لاشك أنه : لا يحملكم على ذلك المكر السيء إلا ألسنة محمد - صلى الله عليه وسلم - ولقومه وزعمكم أنكم أفضل منهم لأنكم - تدعون - أنكم أبناء الله وأحباؤه فدفعكم ذلك كله إلى كراهية دينه والاكيد لأنبأه .

قالوا : ويؤيد هذا الوجه من التفسير الآية قراءة ابن كثير ( أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ... ) بهجتين أولاهما للاستفهام الذي قصد به التوبيخ والإنكار ، والثانية هي همزة أن المصدرية .

وقد أشار إلى هذا الوجه الفخر الرازي فقال ما ملخصه : واعلم أن هذه الآية من المشكلات الصعبة ... ويحتمل أن يكون قوله - تعالى - ( أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاججكم عند ربكم ) من كلام الله - تعالى - فقد قرأ ابن كثير ( أن يؤتى أحد ... ) بعد الألف على الاستفهام . ويكون الاستفهام للتوبيخ كقوله - تعالى - ( أن كان ذا مال وبنين . إذا تلى عليه آياتنا قال اساطير الأولين ) . والمعنى امن أجل ان يؤتى احد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع فتكفرون انبأه ، ثم حذف الجواب للاختصار ، وهذا الحذف كثير .

يقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه ، وبعد كثرة إحسانه إليه : امن قلة إحساني إليك ؟

والمعنى امن أجل هذا فعلت ما فعلت .. (١)

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم مرة ثانية حتى يبطل مزاعمهم ويفضحهم على رموس الأشهاد فقال : « قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله واسع عليم ، أى قل لهم يا محمد : إن الفضل - الذى يتناول النبوة وغيرها من نعم الله على عباده - هذا الفضل وذلك العطاء بيد الله - تعالى - وحده ، وهو - سبحانه - المتفضل به على من يشاء التفضل عليه من عباده ، وإذا كان - سبحانه - قد جعل النبوة فى بنى إسرائيل لفترة من الزمان ، فذلك بفضل منه وبرحمته ، وإذا كان قد سلبها عنهم لأنهم لم يعوها حق رعايتها وجعلها فى هذا النبي العربى فذلك - أيضا - بفضل ورحمته ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو - سبحانه - صاحب الإختيار المطلق فى أن يؤتى فضله لمن يشاء من عباده . وهو - سبحانه - « واسع الرحمة والفضل » عليم ، بمن يستحقهما وبمن لا يستحقهما .

ثم قال - تعالى - « يختص برحمته من يشاء ، أى يختص بالنبوة وما يترتب عليها من الهداية والنعم من يشاء من عباده ،

وقوله « والله ذو الفضل العظيم ، أى هو - سبحانه - صاحب الجود العظيم والفضل العظيم ، فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله - تعالى - على خلقه ، وإنما هو وحده صاحب النعم التى لا تحصى على عباده ، فعليهم أن يشكروه وأن يفردوه بالعبادة والخضوع .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد كشفت عن مسلك من مسالك اليهود المماكرة التى أرادوا من ورائها كيد الإسلام والمسلمين ، وفى هذا الكشف تنبيه للمسلمين إلى ما يبته لهم هؤلاء الأعداء من شرور وآنام حتى يجزروهم

ثم حكى القرآن لونا آخر من ألوان مزاعم اليهود الباطلة وأفاويلهم الكاذبة وهو دعواهم أنهم ليس عليهم فى الآمين سبيل ، أى أن كل من كان على غير ملتهم فإنه مهدور الحقوق ، ثم رد عليهم بما يدحض مزاعمهم ويثبت أنهم ليسوا أهلا لإختصاصهم بالنبوة والرحمة فقال تعالى :

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيلٌ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون (٧٥) ليلي من أوفى بهديه واتقوا فإن الله يحب المتقين (٧٦) » .

قال الإمام الرازي : أعلم أن تعلق هذه الآية - وهي قوله - ومن أهل الكتاب ... بما قبلها من وجهين : الأول . أنه - تعالى - حكى عنهم في الآية المتقدمة أنهم إدعوا أنهم أتوا من المناصب الدينية ما لم يؤت أحد غيرهم مثله ثم لاقه - تعالى - بين أن الحياة مستقبحة عند جميع أرباب الأديان وهم مصرون عليها فدل هذا على كذبهم .

والثاني : أنه - تعالى - لما حكى عنهم في الآية المتقدمة قبائح أحوالهم فيما يتعلق بالأديان وهو أنهم قالوا ( لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ) حكى في هذه الآية بعض قبائح أحوالهم فيما يتعلق بمعاملة الناس ، وهو إصرارهم على الحياة والظلم وأخذ أموال الناس في القليل والكثير .

قال ابن عباس : أودع رجل عند عبد الله بن سلام ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأداها إليه . وأودع رجل آخر عند فنخاص بن عازوراء اليهودي ديناراً فخافه فنزيت الآية ، (١) .

والمعنى : إن من أهل الكتاب فريقاً إن تأمنه على الكثير والنفيس من الأموال يؤده إليك عند طلبه كاملاً غير منقوص ، وإن منهم فريقاً آخر إن تأمنه على القليل والحقير من حطام الدنيا يستحله ويجرده ولا يؤديه إليك إلا إذا دوام صاحب الحق على المطالبة بحقه واستعمل كل الوسائل في الحصول عليه .

فلاية الكريمة قد مدحت من يستحق المدح من أهل الكتاب وهو الحق الذي استجاب للحق وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، كعبد الله بن سلام وأمثاله من مؤمنى أهل الكتاب . وذمت من يستحق الذم منهم وهو الفريق الذي لا يؤدى الأمانة ، ولم يستجب للحق ، بل استمر على كفره ووجوده ، وهذا القسم يمثل أكثرية أهل الكتاب .

والمراد من ذكر القنطار والدينار هنا العدد الكثير والعدد القليل . أى أن منهم من هو فى غاية الأمانة حتى أنه لو اتتمن على الأمور السكثيرة لأداها ، ومنهم من هو فى غاية الخيانة حتى أنه لو اتتمن على الشئ القليل لجحدوه . وقوله ، إلا مادمت عليه قائما ، استثناء من أعم الأحوال أو الأوقات . أى لا يؤده إليك فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا فى حال أو فى وقت مداومتك على ضلته ، والإلحاح فى ذلك ، واستعمال كل الوسائل الوصول إلى حفاك .

قال الجمل : و ذمت ، هذه هى الناقصة ، ترفع وتنصب ، و شرط أعمالها أن يتقدمها ما الظرفية كهذه الآية إذ التقدير لإامدة دوامك . وأصل هذه المادة الدلالة على الثبوت والسكون : يقال دام الماء ، أى سكن . وفى الحديث : لا يبرلن أحدكم فى الماء الدائم ، أى الذى لا يجرى . . ومنه دام الشئ . إذا امتد عليه زمان . ودرمت الشمس إذا وقعت فى كبد السماء . وقوله ، عليه ، متعلق بقوله ، قائما ، والمراد بالقيام الملازمة ، لأن الأغلب أن المطالب يقوم على رأس المطالب ؛ ثم جعل عبارة عن الملازمة وإن لم يكن ثمة قيام (١) .

وقال ابن جرير : فإن قال قائل : وما وجه إخبار الله بذلك نبيه - صلى الله عليه وسلم - وقد علمت أن الناس لم يزالوا كذلك ، منهم المؤدى أمانته ومنهم الخائن لها ؟ قيل : إنما أراد - عز وجل - إخباره المؤمنين خبرهم على ما بينه

في كتابه بهذه الآية ، تحذير المؤمنين من أن يأتمنوم على أموالهم ، ونحو يفهم من الاغترار بهم ، لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأسباب التي جعلتهم يبرون حياتهم وجحودهم لحقوق غيرهم فقال - تعالى - : ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل .

وقوله ، ذلك إشارة إلى ترك الأداة المدلول عليه بقوله - سبحانه - لا يؤده .

والمراد بالأميين : العرب ، خصاصا من آمن منهم . وسمى العرب بالأميين نسبة إلى الأم ، وذلك لغلبة الأمية عليهم حتى لشأن الواحد منهم قد بقى على الحالة التي ولدتهم عليها أمهاتهم من عدم القراءة والكتابة .

والسبيل المراد به : الحجة الملزمة والخرج . وأصله الطريق ، ثم أطلق على الحجة باعتبارها طريقا ووسيلة للالتزام وتحمل التبعات .

أي : ذلك الامتناع عن الوفاء بالعهود ، وجحود الأمانات والحقوق من الفريق الخثائن ، سببه زعمهم الباطل أنهم ليس عليهم حرج أو إنم أو قبة في استحلال أموال العرب الأميين واستتلابها منهم بأية طريقة ، لأن الأميين ليسوا على ملاتهم .

واليهود يزعمون أن كتابهم يحل لهم قتل من خالفهم ، كما يحل لهم أخذ ماله بأى وسيلة . وهذا الخلق الذميم مهرق في اليهود ، لأن أنانيتهم جعلتهم يحرفون كتبهم على حسب ما توى نفوسهم ، فقد كانت التوراة تحرم الربا محرما مطلقا فتقول : ( لا تأخذ ربا من أخيك إذا أقرضته ) تحرف اليهود هذا النص ، إذ زادوا فيه كلمة الاسرائيلي فأصبح النص هكذا ( لا تأخذ ربا من أخيك الإسرائيلي إذا أقرضته ) . وبذلك أصبحوا يحرمون الربا عند

تعاملهم مع أنفسهم ويجلونه عند تعاملهم مع غيرهم. لأنهم لا يشعرون بالأخوة الإنسانية العامة .

قال الألوسي : أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : بايع اليهود رجال من المسلمين في الجاهلية فلما أسلوا تفاضوهم عن ييوعهم فقال اليهود : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا ، لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه ، وأدعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم .

وقال الكلبي . قالت اليهود : . الأبرار كلها كانت لنا . فما في أيدي الرب منها فهو لنا ؛ وأنهم ظللونا وغضبونا فلا إنهم علينا في أخذ أموالنا منهم ، (١) . وقوله - تعالى - ، ويقولون : بلى الله الكذب وهم يعلمون ، رد عليهم فيما قالوه من أنهم ليس عليهم في الأيمان سبيل . وتكذيب لهم فيما زعموه ، لأن قولهم هذا ما أنزل الله به من سلطان . ولا يؤيده عقل سليم ، إذ الباطل الحاقية الفاضلة يجب أن تطبق على جميع الناس بدون تفرقة بينهم .

والمعنى : أن هؤلاء اليهود الذين يجهلون الأمانات متذرعين بقولهم ليس علينا في الأيمان سبيل ، يفترون بلى الله الكذب في قولهم هذا ، وهم يعلمون أنهم كاذبون ، لأنهم ليس عندهم في كتبهم نص يبيح لهم إستهلال أموال العرب وخيانتهم ، وإنما الذي تآمرهم به كتبهم هو أداء الأمانة لمستحقها بالمعروف .

وقوله ، وهم يعلمون ، جملة حالية من الضمير في ، يقولون ، ومفعول العلم محذوف لإقتصارا ، أي وهم من ذوى العلم . أو إختصارا ، أي يعلمون كتبهم وإفتراءهم !

ولقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - في أحاديث متعددة أن الأمانة يجب أن تؤدى إلى البار والفاجر ، ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن سعيد ابن جبير أنه قال : لما نزلت : ومن أهل الكتاب من إن تأمنه . . . الآية ،

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كذب أعداء الله ١١ ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البار والفاجر ، (١) » .

واقف - سار أتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - على مبدأ أداء الأمانة ، وعدم أخذ شيء من أموال الغير إلا بوجه مشروع .

قال ابن كثير : قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن أبي إسحاق الهمداني عن أبي صعصعة بن يزيد ، أن رجلا سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة : الدجاجة والشاة . قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال تقول : ليس علينا بذلك بأس . قال ابن عباس : هذا كما قال أهل الكتاب « ليس علينا في الأميين - سبيل إنهم إذا أدوا الجزية لم نحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم ، (٢) » .

ثم أكد الله - تعالى - كذب هؤلاء اليهود الذين قالوا : « ليس علينا في الأميين سبيل بحملة أخرى فيها الرد الذي يحرس أنفسهم ، ويدحض مزاعمهم فقال - تعالى - : « بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ، » .

و « بلى ، حرف يذكرفي الجواب لإثبات المنفى في كلام سابق ، ولقد حكى القرآن قبل ذلك أن اليهود قد نفوا أن يكون عليهم في الأميين سبيل ، لجفاء - سبحانه - بهذا الرد الذي يثبت ما نفوه . ويبتل ما زعموه .

والمعنى : ليس الأمر كما زعمتم أيها اليهود من أنه ليس عليكم في الأميين سبيل بل الحق أن عليكم فيهم سبيلا . وأنكم معذبون بسبب كفركم وإستحلالكم لأموالهم بدون حق ، ومثابون إن آمنتم بآفته وسوله ووفيتهم بهمودكم ، وصتتم أنفسكم عن كل ما يفضب الله - تعالى - .

(١) تفسير أبي جرير ج ٢ ص ٣٧١ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٤ .

وة - علل - سبحانه - هذا الحكيم العادل بحملة مستأنفة عامة فقمال :  
 « من أوفى بهده واتقى فإن الله يحب المتقين » .

أى كل من أوفى بهده الله فأمن بغيره محمد - صلى الله عليه وسلم -  
 وإستقامة على دينه ، واتقى ما نهى الله عنه من ترك الخيانة والغدر وما إلى ذلك  
 من المحرمات ، فإن الله يحبه ويرضى عنه . ومن لم يفعل ذلك فإن الله يبغضه  
 ولا يحبه ويعذبه العذاب الأليم .

وبذلك تكون الآية المكرمة قد بينت أن محبة الله لهده تتوفر بأمرين :  
 أولهما : الوفاء بالعهد . فكل ما يلتزمه الإنسان من عهود قالوا بها واجب .  
 وفي مقدمة هذه العهود ، العهد الذى أخذه الله على عباده بتوحيده الإيمان برسله  
 وعلى رأسهم محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وثانيهما : تقوى الله بمعنى أن يحتنب ما نهى الله عنه وحرمه عليه ، ولا يفعل  
 إلا ما أحله الله له وأذن له فيه .

وقد خلا اليهود من هذين الأمرين ، لأنهم لم يفوا بعهدهم ، ولم يتقوا الله  
 فسلبت عنهم محبته ، وإستحقوا غضبه - سبحانه - ونقمته .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - « بلى » ، إثبات لما نقوه من السبيل  
 عليهم فى الأميين ؛ أى بلى عليهم سبيل فيهم . وقوله « من أوفى بهده واتقى » ،  
 جملة مستأنفة مقررة للجملة التى سدت « بلى » مسدها . والضمير فى « بهده » ،  
 راجع إلى « من أوفى » ، على أن كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى بأن ترك  
 الخيانة والغدر فإن الله يحبه .

فإن قلت : فهذا عام أنه لو وفى أهل الكتاب بعهدهم وتركوا الخيانة  
 لكسبوا محبة الله ؟ قلت : أجل ، لأنهم إذا وفوا بالعهد ، وفوا أول شيء  
 بالعهد الأعظم وهو ما أخذ عليهم فى كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم  
 ولو اتقوا الله فى ترك الخيانة لانتقوه فى ترك الكذب على الله وغيره  
 كلمة . وبحوز أن يرجع الضمير فى « بهده » ، إلى الله ، على أن كل من وفى بهده

الله واتقاه فإن الله يحب العبد ويُدخل في ذلك الإيمان وغيره من الصالحات، وما وجب  
لنفاقه من الكفر وأعمال سوء .

فإن قلت : فأين الضمير الراجع من الجزاء إلى من ؟ قلت : عموم المتقين  
قام مقام رجوع الضمير ، (١) .

وهذا يكون القرآن قد كشف عن مكر اليهود ونخداعهم . وورد عليهم فيما  
إفتروه من أقوال باطلة ، وأثبت أنهم يكذبون فيما يدعون عن تعمد وإصرار  
وبين أن أداء الأمانة واجب على كل إنسان ، وأن كل من وفى بعهود الله  
واتقاه فهو أهل لمحبه ورضاه .

ثم توعد الله - تعالى - الذين يخونون العهود ، ويحلفون كذبا بالعذاب  
الآليم ، ونهى على فريق من اليهود تحريفهم للكلام عن مواضعه ، وأذهرهم بسوء  
المصير فقال - تعالى - .

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِمَهْدِ اللَّهِ وَأَيَّانِهِمْ نَمًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ  
لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ  
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ  
لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ  
اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) » .

روى المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ ..  
الآية » روايات منها : ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود أن رسول  
الله - صلى الله عليه وسلم - قال : من حلف على مال أمرىء مسلم بغير حظه

لتي آتته وهو عليه غضبان ، قال عبد الله . تم قرأ علينا رسول الله مصداقه من كتاب الله ، إن الذين يشترون بعهد الله ... الخ .

وفي روايه قال : من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرئ مسلم آتى الله وهو عليه غضبان ، فأنزل الله - تعالى - تصديق ذلك . « إن الذين يشترون بعهد الله ... » قال عبد الله : فدخل الأشعث بن قيس فقال : ما يحدثكم أبو عبد الرحمن قلنا : كذا وكذا فقال : صدق . في نزات ، كان بيني وبين رجل خصومة في بر ، فاخصمنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : شاهدك أو يمينه ؟ قلت : لأنه إذا يحلف ولا يبالي فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر آتى الله وهو عليه غضبان ، ونزلت : « إن الذين يشترون ... » (١) .

وروى البخاري عن عبد الله بن أوفى أن رجلا أقام سلعة في السوق فخلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه ليوقع فيها رجلا من المسلمين ، فنزلت إن الذين يشترون ... » (٢) .

وقال الفخر الرازي : قال عكرمة إنها نزلت في أحبار اليهود ، كتبوا ما عهد الله إليهم في التوراة من أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - وكتبوا بأيديهم غيره ، وحلفوا بأنه من عند الله لئلا يفوتهم الرشاء ، (٣) .

هذه ثلاث روايات في سبب نزول تلك الآية الكريمة ، وأرجحها رواية الشيخين ، ولذا وجب الأخذ بها . إلا أن نزول الآية في حادثة معينة لا يمنع شمول

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب « إن الذين يشترون » ج ٦ ص ٤٢

وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب « إن الذين يشترون » ج ٦ ص ٤٢ .

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ١١١

حكما لكل ما يشمه هذه القصة أو الحادثة، إذ العبارة بمعوم اللفظ لا بخصوص السبب - كما يرى جمهور العلماء .

فمثل من حلف بالله كاذبا، واشترى بهمه - سبحانه - ثمنا قليلا، حقت عليه العقوبة التي بينها الآية الكريمة . ويدخل تحت هذه العقوبة دخولا أوليا أولئك اليهود الذين خانوا عهد الله بإنكارهم لنبوته محمد - صلى الله عليه وسلم - مع أنهم يعرفون صدقه معرفة جلية .

والمراد بقوله « يشتركون »، أى يستبدلون، وذلك لأن المشتري يأخذ شيئا ويعطى شيئا، فكل واحد من المعطى والمأخوذ ثمن للآخر .

والمراد بعهد الله، كل ما يجب الوفاء به فيدخل فيه ما أوجبه الله - تعالى - على عباده من فرائض وتكاليف، ومن إيمان بملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، كما يدخل فيه - أيضا - ما أوجبه الله على أهل الكتاب من الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - الذي يحدون نعمته في كتبهم، ويعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم .

والباء في قوله - تعالى - : « بعهد الله »، داخلة على المتروك الذي ترويه وأخذوا في مقابله الثمن القليل .

وقوله : « وإيمانهم » معطوف على عهد الله .

والمراد بإيمانهم تلك : الإيمان الكاذبة التي يحلفونها ليؤكدوا ما يريدون تأكيده من أقوال أو أفعال .

والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو المال والمنافع الزائلة، التي أخذوها نظير تركهم عهد الله، وحلفهم المكاذب .

وليس وصف الثمن بالقلة هنا من الأوصاف المخصصة للنكرات، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل نظير خيانة عهد بتحقيق أنه لا يكون إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله والوفاء بهموه .

وقوله «أولئك لأحلاق لهم في الآخرة، أي: الذين يخزنون عهد الله ويحلفون  
الآيمان الكاذبة في مقابل عرض من أعراض الدنيا، لا نصيب لهم ولا حظ  
من نعم الآخرة بسبب ما ارتكبوه من غدر وإفتراف» .

وقوله «ولا يكلمهم الله، أي لا يكلمهم بما يسرهم بل يكلمهم بما يسوهم  
ويخزيهم يوم القيامة بسبب أعمالهم السيئة» .

أو أن عدم كلام الله - تعالى لهم : كناية عن عدم محبته لهم ، لأن من  
عادة المحب أن يقبل على حبيبه ويتحدث إليه . أما المفضل شيء ، فإنه  
ينصرف عنه .

وإلى هذا المعنى ذهب الإمام الرازي فقد قال ماملاخصه : وقوله - تعالى -  
«ولا يكلمهم الله» فيه سؤال وهو : أنه - تعالى - قال : «فوربك لننسالنهم  
أجمعين» عما كانوا يعملون ، فكيف الجمع بين الآية التي معنا وبين قوله  
«لنسالنهم أجمعين» ؟ والجواب : أن المقصود من كل هذه الكلمات : بيان  
شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره كلامه ؛ فإنما ذلك بسخط عليه ،  
وإذا سخط إنسان على آخر قال له : لا أكلك وقد يأمر بحبته عنه ويقول :  
لا أرى وجه فلان ، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل ، ثبت أن الآية  
كناية عن شدة الغضب فعوذ بأقواله منه . وهذا هو الجواب الصحيح ... (١) .

وقوله «ولا ينظر إليهم» ، أي لا يعطف عليهم ولا يرحمهم ولا يحسن  
إليهم ، وذلك كما يقول القائل لغيره : انظر إلى . يريد : ارحمني واعطف على .  
ويقال : فلان لا ينظر إلى فلان ، والمراد من ذلك نفي الإحسان إليه  
وترك الاعتداد به ، فقد جرت العادة بأن من إعتد بإنسان وعطف عليه  
انتفت إليه .

قالوا : فلماذا السبب صار المراد بعدم نظر الله - تعالى - إلى هؤلاء الخائنين  
زة عن ترك العطف عليهم والإحسان إليهم والرحمة بهم .

ولا يجوز أن يكون المراد من عدم النظر إليهم ، عدم رقيبهم ، لأنه  
- سبحانه - يرأى كما يرى غيرهم من خلقه .

وقوله - تعالى - « ولا يزككهم ، أى أنه - سبحانه - لا يظفرهم من  
ذنوبهم وأوزارهم بالمغفرة ، بل يعاقبهم عليها . أو أنه - سبحانه -  
لا يثني عليهم كما يثني على الصالحين من عباده ، بل يسخط عليهم وينتقم منهم  
جزاء عذرهم .

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان النتيجة المترتبة على هذا الغضب منه عليهم  
فقال : « ولهم عذاب أليم » .

أى ولهم عذاب مؤلم موجه بسبب ما ارتكبهوه من آثام وسيئات .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد توعدت هؤلاء الذين يشتركون بعهد الله  
وإيمانهم ثمنا قليلا بأنهم لاحظظ لهم من نعيم الآخرة وأهم ليسوا أهلا لرضا  
الله ورحمته وإحسانه ، وأنهم سيتألمون العذاب المؤلم الموجه بسبب ما قدمت  
أيديهم .

ثم بين - سبحانه - بعض الرذائل التي صدرت عن فريق من أهل الكتاب  
فقال - تعالى - : « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من  
الكتاب وما هو من الكتاب ، والضمير في قوله - تعالى - « منهم » يعود إلى  
أهل الكتاب الذين ذكر القرآن طرفاً من رذائلهم ومساكنهم الخبيثة فيما سبق .  
قال الفخر الرازى : أعلم أن هذه الآية « وإن منهم لفريقاً . . . » تدل  
على أن الآية المتقدمة هي قوله - تعالى - « إن الذين يشتركون . . . » نازلة  
في اليهود بلا شك ؛ لأن هذه الآية نازلة في حق اليهود وهي معطوفة على  
ما قبلها ، فهذا يقتضى كون تلك الآية المتقدمة نازلة في اليهود أيضاً (١) .

وقال ابن كثير : يخبر - سبحانه - عن اليهود عليهم لعائن الله -

أن منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ، ويزيلونه عن المراد ليؤهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله . وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله ... (١) .

وقوله ، يلوون ، مأخوذ من اللوى . وأصل اللوى الميل يقال : لوى يبيده ولوى برأسه وإذا أماله . واللوى الشيء إذا انحرف ومال عن الاستقامة إلى الاعوجاج والمعنى : وإن من هؤلاء اليهود الذين كتبوا الحق واشتروا بهمهده الله وبأيامهم ثمننا قليلا . . . . إن منهم لفريقا يلوون آياتهم بالكتاب ، أى يعمدون إلى كتاب الله فينطقون ببعض ألفاظه نطقا مائلا محرفا يتغير به المعنى عن الصحيح الذى يفيد ظاهر اللفظ إلى معنى آخر سقيم لا يدل عليه اللفظ ولكنه يوافق أهواءهم . ونواياهم السيئة ، وقاصدهم الذميمة :

وذلك كأن ينطقوا بكلمة « راعنا ، نطقا ملتويا يوافق في لغتهم كلمة قبيحة يقصدون بها الإساءة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - . وقد نهى الله - تعالى - المؤمنين عن مخاطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمثال هذه الألفاظ حتى لا يتخذها اليهود ذريعة للإساءة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا نأظركنا . . . » وكان ينطقوا بكلمة « السلام عليكم ، بقولهم : « السام عليكم ، بحذف اللام يعنون الموت عليكم لأن السام معناه الموت .

وكان يغيروا لفظا من كتابهم فيه ما يشهد بصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - بلفظ آخر ، أو يقولوا المعاني نأويلا فاسدا ، وقد وبخهم الله - تعالى - على هذا التحريف في كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » (٢) . وقوله - تعالى - : « ومن الذين هادوا بجر فون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا . . . » (٣) .

(٢) سورة البقرة الآية ٧٥

(١) تفسير ابن كثير ١٣ ص ٢٧٦

(٣) سورة النساء الآية ٤٦

وقوله - تعالى - « وإن منهم لفريقا » ، لإصناف منه - سبحانه - للفريق الذي لم يرتكب هذا الفعل الشنيع وهو تحريف كلامه - عز وجل - . وتلك عادة القرآن في أحكامه لا يظلم أحداً ولكنه يمدح من يستحق المدح ويذم من يستحق الذم .

وقوله « يلوون » ، صفة لقوله « فريقا » .

والباء في قوله « بالكتاب » ، بمعنى « في » ، مع حذف المضاف . أى وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم في حال قراءتهم للكتاب ، إما بحذف حروف بتغيير المعنى بحذفها ، أو بزيادة تفسد المعنى ، أو بغير ذلك من وجوه التغيير والتبديل .

وقوله - تعالى - « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » ، بيان لدوافع السيئة التي دفعتهم إلى ارتكاب هذا التحريف الذميمة .

والضمير المنصوب في قوله « لتحسبوه » ، وكذلك ضمير الغائب « هو » : يعودان إلى الكلام المحرف الذي لو وابه ألسنتهم والمدلول عليه بقوله « يلوون » أى إن هؤلاء اليهود فريقاً يلوون ألسنتهم في نطقهم بالكتاب ويحرفونه عن وجهه الصحيح لتظنوا أنها المسلمون أن هذا المحرف الذي لو وابه ألسنتهم من كتاب الله الذي أنزله على أنبيائه ، والحق أن هذا المحرف ليس من كتاب الله في شيء ، وإنما هو من عند أنفسهم نطقوا به زوراً وهتافاً لإرضاء لأهوائهم وقوله « من الكتاب » هو المفعول الثاني لقوله « لتحسبوه » .

والمخاطب بقوله « لتحسبوه » هم المسلمون وقال ( وما هو من الكتاب بتكرار لفظ الكتاب ، ولم يقل وما هو منه ، للتنبية على أن كتاب الله المنزل على موسى وعيسى - عليهما السلام - برى كل البراءة من تحريفهم وتبديلهم ، وما يزعمونه ويفترون عليه . ثم بين - سبحانه - أنهم قد بلغت بهم الجرأة في الكذب والإفتراف أنهم نسبوا هذا الذي حرفوه وغيروه من كتبهم إلى الله - تعالى - فقال : ( ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ) .

أر أن هؤلاء الذين يلوون أسنتهم بالكتاب ؛ ليؤمروا غيرهم بأن هذا المحرف من الكتاب ، لا يكتبون بهذا التحريف ، بل يقولون ، هو من عند الله ، أى هذا المحرف هو نزل من عند الله هكذا ، لم تنقص منه حرفا ولم تزد عليه حرفا والحق أن هذا المحرف ليس منى عند الله ولكنهم قوم ضالون يقولون على الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون .

ففي هذه الجملة الكريمة بيان لإصرارهم على الباطل ، ولتعمد الكذب على الله ، وتوبيخ لهم على هذا الافتراء العجيب . وقد أكد الله جرأهم في الانطق بالزور والبهتان بمؤكدات منها :

أن كذبهم لم يكن تعريضا وإنما كان في غاية الصراحة ، فهم يقولون عز المحرف هو من عند الله وما هو من عند الله ، .

وأن كذبهم لم يكن على البشر فحسب وإنما على الله الذى خلقهم والذى يعلم ما يسرون وما يعلنون ، ويقولون على الله الكذب ، .

وأن كذبهم لم يكن عن جهل أو عن نسيان وإنما عن علم وإصرار على هذا الكذب ، وهذا ما يشهد به قوله - تعالى - وهم يعلمون ، .

وهكذا القلوب إذا فسدت ، واستولى عليها الحسد والجحود . ارتسبت كل رذيلة ومنكر بدون تفكير في العواقب . أو تدبر لما جاءت به الشرائع وأمرت به العقول السليمة .

وفي هذه الآية ترى أن لفظ الجلالة «الله» قد تكرر ثلاث مرات كذلك لفظ «الكتاب» تكرر ثلاث مرات ، ولم يكتب بالضمير الذى يدل عليهما ، وذلك لقصد الاهتمام باسم الله - تعالى - وباسم كتابه ، وبالخير المتماق بهما . ولأن من عادة العرب أنهم إذا عظموا شيئا أعادوا ذكره ، وقد جاء ذلك كثيرا في أشعارهم ، ومنه قول الشاعر :

لا أرى الموت يبق الموت شيء      فقص الموت ذا الغنى والفقير

(١٤ - سورة آل عمران)

فتعمد الشاعر من تكرار لفظ الموت تفخيم شأنه وتحويل أمره .

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد نوه عن الذين يشتركون بهدايقه وبأيمانهم  
ثمنا قليلا بأشد ألوان الوعيد ، وكشف عن لون آخر من ألوان مكر بعض  
اليهود ، وعن جرأتهم في النطق بالكذب عن تعمد وإصرار ، حتى يحذروهم  
المسلمون .

ثم نزه الله - تعالى - أنبياءه - عليهم الصلاة والسلام - وعلى رأسهم محمد  
- صلى الله عليه وسلم - عن أن يطلبوا من الناس أن يعبدوهم ، عقب تنزيله  
- سبحانه - لذاته عما نقوله عليه المنترون فقال - تعالى - :

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ  
لِلْأَنْسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ  
تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ  
تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ  
مُسْلِمُونَ (٨٠) »

قال ابن كثير : عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت  
الأخبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - ودعاهم إلى الإسلام : أزيد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى  
عيسى ابن مريم : فقال رجل نصراني من أهل نجران يقال له الرئيس :  
أو ذلك يزيد منا يا محمد - وإليه تدعوننا ؟ - أو كما قال - فقال رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - : معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله ، ما بذلك  
أمرني ولا بذلك بعثني . أو كما قال - صلى الله عليه وسلم - فانزل الله في ذلك  
قوله - تعالى - : « مَا كَانَ لِبَشَرٍ . . . ، إِلَى قَوْلِهِ : « بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، (٨٠) » .

بقوله - تعالى - « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ، رد على أولئك الجاهلين الذين زعموا أن بعض النبيين يصح له أن يطلب من الناس أن يعبدوا من دون الله والمعنى : لا يصح ولا ينبغي ولا يستقيم عقلا لبشر آتاه الله - تعالى - وأعطاه الكتاب ، الناطق بالحق ، الأمر بالتوحيد ، الناهي عن الإشراك ، وآتاه الحكم ، أي العلم النافع والعمل به ، وآتاه النبوة ، أي الرسالة التي يبلغها عنه - سبحانه - إلى الناس ، ليدعوم إلى عبادته وحده ، وإلى مكارم الأخلاق ، لا يصح له ولا ينبغي بعد كل هذه النعم أن يكفروا بها ثم يقول للناس ، بعد هذا العطاء العظيم الذي وهبه الله له ، كونوا عبادا لي من دون الله ، أي : لا ينبغي ولا يعقل من بشر آتاه الله كل هذه النعم أن يقول للناس هذا القول الشنيع وهو كونوا عبادا لي من دون الله ، لأن الأنبياء الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة يحجزهم خوفهم من الله ، وإخلاصهم له ، عن أن يقولوا هذا القول المنكر ، كما يحجزهم عنه - أيضا - ما امتازوا به من نفوس طاهرة ، وقلوب نقية ، وعقول سليمة . . . لأنهم لو فرض أنهم قالوا ذلك لأخدم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر فهو - سبحانه - القائل : ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين .

والتعبير بقوله - تعالى - « ما كان لبشر » تعبيرا قرآني بليغ ، لإيقيد نفى الشأن ، وعدم اتفاق هذا المعنى مع الحقيقة المفروضة في الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام - وشبيه هذا التعبير قوله - تعالى - : « ما كان لله أن يتخذ من ولد و ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ » .

وجاء المطف بتم في قوله « ثم يقول للناس . . » للإشعار بالتناموت العظيم بين ما أعطاه الله - تعالى - لأنبيائه من نعم . وبين هذا القول المنكر الذي تعالى - سبحانه - عنه ، وهو أن يقولوا للناس : اجعلوا عبادتنا لكم لنا ولا تجعلوها لله - تعالى -

ثم بين .. سبحانه - ما يصح للأنبياء أن يقولوه للناس فقال - تعالى -  
ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، .

وقوله « ربانيين » جمع رباني نسبة إلى الرب - عز وجل - بزيادة الألف  
والنون سماعا للمبالغة كما يقال في غليظ الرقبة رقباتي ، وللعظيم العظمة : لحياتي .

والمراد بالرباني : الإنسان الذي أخلص لله - تعالى - في عبادته ، وراقبه  
في كل أحواله وأفعاله ، واتقاه حق التقوى ، وجمع بين العلم النافع والعمل به ،  
وقضى حياته في تعليم الناس وإرشادهم إلى ما ينفعهم .

والمعنى : لا يصح لبشر آتاه الله ما آتاه من النعم أن يقول للناس اعبدوني  
من دون الله ، ولكن الذي يعقل أن يصدر منه هو أن يقول لهم : كونوا  
« ربانيين » أي مقبلين على طاعة الله - تعالى - وعبادته وحده بجد ونشاط  
وإخلاص ، بسبب كونكم تعلمون غيركم الكتاب الذي أنزله الله لهداية الناس ،  
وبسبب كونكم تعلمون غيركم الكتاب الذي أنزله الله لهداية الناس ، وبسبب  
كونكم دارسين له ، أي قارئين له بتمهل وتدبر .

وقوله - تعالى - « ولكن كونوا ربانيين » لاستدراك قصد به إثبات  
ما ينبغي للرسول أن يقولوه ، بعد أن نفى عنهم ما لا ينبغي لهم أن ينطقوا به  
أي : لا ينبغي لبشر آتاه الله نعمًا لا تحصى أن يقول للناس كونوا عبادا لي من  
دون الله ؛ ولكن الذي ينبغي له أن يقول لهم هو قوله : كونوا ربانيين أي  
مخلصين له - سبحانه - العبادة إخلاصا تاما .

ففي الجملة السكريمة لإضمار ، والتقدير : ولكن يقول لهم كونوا ربانيين ،  
فأضمر القول على حسب مذهب العرب في جواز الإضمار إذا كان في الكلام  
ما يدل عليه ، ونظيره قوله - تعالى - « وأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم  
أي فيقال لهم : أكفرتم ، والياء في قوله « بما كنتم » للسببية ، وما مصدرية  
أي بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع وتعلمون - بإسكان الهمزة وفتح اللام -  
من العلم أى بسبب كونكم عالمين بالكتاب ودارسين له .

قال الرازى : دلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون  
الإنسان ربانيا ، فن اشتغل بذلك لا لهذا المقصد ضاع سعيه وخاب عمله ،  
وكان مثله كمثل من غرس شجرة حسناء موقفة بمنظرها ولا منفعة بثمرها ،  
ولهذا قال - صلى الله عليه وسلم - : نفوذ باقته من علم لا ينفع وقلب لا ينشع .  
وقوله - تعالى - : ولا يأمرم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، تأكيد  
لنفي أن يقول أحد من البشر الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة للناس  
اهبطوا من دون الله ، وتزويه لساحتهم عن أن يأمرهم بعبادة غير الله .  
وقوله : ولا يأمرم ، وردت فيه قراءة ثان مشهورتان .

أما القراءة الأولى فبفتح الراء عطفا على : يقول ، فى قوله : ثم يقول ،  
وتكون دلا ، مزيدة لتأكيد معنى النفي فى قوله : ما كان بشر . . . ويكون  
فى الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب .

والمعنى على هذه القراءة : ما كان ليشر أن يؤتبه الله ما ذكر ثم يأمر الناس  
بعبادة نفسه ، أو يأمرهم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا . وذلك كقولك ما كان  
لزيد أن أكرمه ثم يهينى ويستخف بى . وهذه القراءة قرأ ابن عامر وحمة  
وعاصم .

وعلى هذه القراءة يكون توسيط الاستدراك بين المعطوف والمعطوف  
عليه للمساواة إلى تحقيق الحق ، ولبیان ما يلبق بهأته ويحق صدوره عنه .  
وأما القراءة الثانية فقد قرأها الباقر برفع الراء فى : يأمرم ، فتكون  
الجملة مستأنفة ، والمعنى : ولا يأمرم هذا البشر الذى أعطاه الله ما أعطاه  
من نعمة أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا .

وخصص الملائكة والنبيين بالذكر لأن عبادتهما قد شاعت عند كثير  
من الناس ، فقد وقع فى عبادة الملائكة والصابئة ، الذين كانوا يقيمون فى بلاد

الكلدان ، وتبهم بعض المشركين من العرب . ووقع في عبادة بعض الغيبيين كثير من النصارى فقد اتخذوا المسيح إلهاً يعبدون وزعموه ابن الله وكثير من اليهود عبدوا عزيراً وزعموه ابن الله .

والاستفهام في قوله : « أيا مكرم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ، الإنكار الذى بمعنى النفي .

أى : أن الرسل الكرام لا يمكن أن يأمروا الناس بالكفر بالله بعد أن هداهم الله - تعالى - عن طريق هؤلاء الرسل إلى أن يكونوا مسلمين .

فالجمله الكريمة تأكيد أبليغ وجه لثبوت أن يأمر الرسل الناس بعبادة غير الله ، وتزويه لساحتهم عن أن يقولوا قولاً أو يأمروا بأمر يخالف ما تلقوه عن الله - تعالى - من إفراده بالعبادة والطاعة والخضوع .

قال بعضهم : وإذا كان ما ذكر في الآيتين لا يصلح لنبى ولا لمرسل ، فلأنه لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى ، ولهذا قال الحسن البصرى : لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته . ثم قال . وذلك أن القوم - يعنى أهل الكتاب - كان يعبد بعضهم بعضاً كما قال - تعالى - « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .. »

فالجمله من الأحبار والرهبان يدخلون في هذا الذم ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما أمر الله به وينهون عما نهى الله - تعالى - عنه ؛ ولذلك سموا وفازوا (١) .

وبعد أن نزه - سبحانه - الأنبياء عن أن يقولوا قولاً أو يأمروا بأمر لم يأذن به الله ، أتبع ذلك بيان الميثاق الذى أخذه الله - تعالى - عليهم ، فقال - سبحانه - :

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي؟ قَالُوا أَقْرَضْنَا، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْتِغُونَ، وَلَهُ أُسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) » .

قوله - تعالى - « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ » الظرف ، إذ ، منصوب بفعل مقدر تقديره اذكر ، والمخاطب فيه للنبي - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يصلح للخطاب .

والميثاق : هو العقد المؤكد بيمين .

أى : اذكر يا محمد أو أيها المخاطب وقت أن أخذ الله الميثاق من النبيين - والمفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة أقوال أشهرها قولان :

أولها : - وهو رأى جمهور العلماء - أن المراد أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين .

وثانيتها : - وهو رأى بعض العلماء - أن المراد أن الأنبياء هم الذين أخذوا الميثاق من غيرهم .

والمعنى على رأى فريق من أصحاب القول الأول - منهم الحسن والسدى وسعيد بن جبير - :

أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، وأخذ العهد على كل نبي أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه ، فإن لم يدركه يأمر قومه بنصرته إن أدركوه . فأخذ - سبحانه - الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى . ومن عيسى أن يؤمن بمحمد - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً - وإذا كان هذا حكم الأنبياء ، كانت الأمم بذلك أولى وأحرى .

والمعنى على رأى فريق آخر من أصحاب هذا القول . منهم على وابن عباس وقتادة : أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين أن يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - إذا أدركوه ، وأن يأمروا أقوامهم بالإيمان به .

قالوا : ويؤيد هذا ما أخرجه ابن جرير عن علي بن أبي طالب قال : لم يبعث الله نبياً : آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد - صلى الله عليه وسلم - لتزجيته وهو حتى ليؤمنن به ولينصرنه . ويأمره فيأخذ العهد على قومه . ثم تلا الآية (١) .

فكان أصحاب هذا القول الأول متفقون فيما بينهم على أن الميثاق إنما أخذه الله من النبيين ، إلا أن بعضهم يرى أن هذا الميثاق أخذه الله منهم لكي يصدق بعضهم بعضاً . . . والبعض الآخر يرى أن هذا الميثاق أخذه الله منهم في شأن محمد - صلى الله عليه وسلم - خاصة .

قال ابن كثير مالم يخصه : وما قاله الحسن ومن معه لإيضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه ، بل يستلزمه ويقترضه . . . وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله : لاني مررت بأخ لي من بني قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه النبي - صلى الله عليه وسلم - قال عبد الله ابن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقال عمر : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسلاً . قال : فسرى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال : « والذئ نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى - عليه السلام - ثم اتبعتموه وتركتموني اضللتكم ، لأنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين . . »

وعن جابر نال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء . فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، ولأنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني ، وفي بعض الأحاديث : لو كان موسى وعيسى حين لما وسعهما إلا أتياهي . »

قال رسول محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أى عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم ... ، (١) .

هذا هو معنى الجملة المكرمة عند أصحاب الرأى الأول الذين يرون أن الله - تعالى - لاخذ الميثاق من النبيين . وأصحاب هذا الرأى كما سبق أن بيناهم جمهور العلماء .

أما أصحاب الرأى الثانى الذين يرون أن المراد من الآية أن الأنبياء هم الذين أخذوا الميثاق من غيرهم ، فلعنى عليه :

وأذكر يا محمد أو أيها المخاطب وقت أن أخذ الأنبياء العهد على أقوامهم بأنه إذا بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - وأدركوه ، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوه وينصروه فكان معنى الآية : وأذكر وقت أن أخذ الله الميثاق الذى وثق الأنبياء على أقوامهم ..

هذا . وقد أشار صاحب الكشف إلى هذين الرأيين وغيرهما فقال :

« ميثاق النبيين ، فيه غير وجه . : أحدها : أن يكون على ظاهره من أخذ الميثاق على النبيين بذلك . والثانى : أن يضيف الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الموثق لا إلى الموثق عليه . كما تقول : ميثاق الله وعهد الله كأنه قيل : وإذ أخذ الله الميثاق الذى وثقه النبيون على أممهم . والثالث : أن يراد ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف . والرابع : أن يراد أهل الكتاب وأن يرد زعمهم تمكينا بهم ، لأنهم كانوا يقولون : نحن أولى بالنبوة من محمد لأن أهل الكتاب ، ومنا كان النبيون ، (٢) .

والذى تسكن إليه النفس فى معنى الآية . هو الرأى الأول الذى قال به جمهور العلماء ، وذلك لأن الآيات المكرمة مسوقة - كما يقول الفخر الرازى لتعديد تقرير الاشياء المعروفة عند أهل الكتاب ، مما يدل على نبوة محمد

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٨

(٢) تفسير الكشف ج ١ ص ٣٧٩

صلى الله عليه وسلم - قطعاً له نذرهم . وإظهاراً لعنادهم ، ومن جملة هذه الأشياء ما ذكره - سبحانه - في هذه الآية . وهو أنه - تعالى - أخذ الميثاق من الأنبياء بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه ، وأخبر أنهم قبلوا ذلك ، وحكم - سبحانه - بأنه من رجع عن ذلك كان من الفاسقين . .  
 لحاصل الكلام أنه - تعالى - أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقاً لما معهم ، ولا شك أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - قد جاء مصدقاً لما معهم فوجب على الجميع أن يؤمنوا به ، (١) .

ولأن هذا المعنى هو الظاهر من الآية الكريمة ، ولا يحتاج إلى تقدير مضاف أو غيره ، والأخذ بالمعنى الظاهر الذي لا يحتاج إلى تقدير أولى من الأخذ بغيره .

ولأن أخذ العهد على الأنبياء بأن يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - أعلى وأشرف لتقديره - صلى الله عليه وسلم - من أخذه على أعينهم وأقوامهم .  
 ولأن أخذ العهد على الأنبياء أخذ له على الأعم ، إذ كل أمة يجب أن تصدق بما جاءها به نبيها .

واللام في قوله - تعالى - لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، قرأها الجمهور بالفتح وقرأها حمزة بالكسر .

وأما قراءة الفتح فلها وجهان : أولها : أن تجعل ما ، إسم موصول مبتدأ وما بعده صلة له ، وخبره قوله : لتؤمنن به ، .

والتقدير : وأذكر وقت أن أخذ الله ميثاق النبيين قائلاً لهم : للذي آتيتكم إياه من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما أو تيموه لتؤمنن بهذا الرسولك ولتنصرنه . وعلى هذا الوجه تكون اللام في قوله : لما ، للابتداء وحسن دخولها هنا لأن قوله : لما آتيتكم ، في مقام المقسم عليه ، وقوله : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ، في مقام القسم ، إذ هو بمنزلة الاستحلاف بقول : أخذت ميثاقك لتفعلن كذا فكانت قلت : استحلفتك لتفعلن كذا . .

وثانیهما : أن تجمل ، ما ، ههنا ، لاسم شرط جازم فی موضع نصب بآیتکم  
والنقدیر : ما آیتکم مر کتاب وحکمة ثم جاءکم رسول مصدق لما معکم ،  
لتؤمنن به ولتنصرنه .

وعلى هذا الوجه يكون فعل الشرط مكوونا من جملتين : الأولى « آیتکم »  
والثانية « ثم جاءکم » وهما معا في محل جزم بما الشرطية . وقوله « لتؤمنن به »  
جواب القسم الذي تضمنته قوله : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين » وجواب  
الشرط محذوف ، لأن القاعدة النحوية أنه إذا اجتمع شرط وقسم فالجواب  
المذكور للسابق منهما وجواب اللاحق محذوف وهما السابق هو القسم .  
قال ابن مالك :

واحذف لدى إجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم  
وأما قراءة الكسر التي قرأها حمزة فتكون اللام للتعليل كأنه قيل :  
أذكر وقت أخذ الله ميثاق النبيين ، لأن إيتاءهم الكتاب والحكمة ، ثم  
يجىء من بصدقهم يوجب عليهم الإيمان بهذا الرسول المصدق لما معهم ويوجب  
عليهم نصرته :

والمراد بالكتاب : ما أنزله الله - تعالى - على هؤلاء النبيين من كتب  
تنطق بالحق .

والمراد بالحكمة : الوحي الوارد بالتكاليف المفصلة التي لم يشتمل عليها  
الكتاب .

أو المراد بها العلم النافع الذي أعطاه - سبحانه - لهم ، ووقفهم للعمل به  
و « من » في قوله « من كتاب » للبيان .

قال القرطبي : والمراد بالرسول هنا محمد - صلى الله عليه وسلم - واللفظ  
قولان كان نكرة فالإشارة إلى معين ، كقوله - تعالى - « ضرب الله مثلا  
ربه كانت آمنة مطمئنة . . . إلى قوله - تعالى - « ولقد جاءهم رسول منهم

فكذبوه ، فأخذ الله الميثاق للنبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذ بذلك الميثاق على أنفسهم ، (١) ثم حكى - سبحانه - ما قاله لهم بعد أن أمرهم بالإيمان بهذا الرسول وينصروته فقال : **قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، ؟**

والإصر : العهد . وأصله من الإصرار - أى الجبال التى يعقد بها الشئ - ويشد وسمى العهد إصرًا لأنه تقوى به الأقرال والعقود .

أى : قال الله - تعالى - للنبيين : **أقررتم بهذا الذى أمرتكم به وعلقتهم يدي ؟ والاستهوام للتقرير والتوكيد** عليهم لاستحالة معناه الحقيقى فى حقه - سبحانه - ثم حكى - سبحانه - ما أجاب به الرسل وما رد به عليهم فقال : **قالوا أقررنا قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين .**

أى : قال الرسل مجيبين الخالق - عز وجل - **أقررنا يا ربنا وقبلنا عهدك وأضعناه .**

فرد عليهم - سبحانه - بقوله : **فاشهدوا ، أى فليشهد بعضكم على بعض بهذا الإقرار ، وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم على بعض من الشاهدين .** وهذا توكيد عليهم ، ونحوه من الرجوع .

ثم بين - سبحانه - عاقبة الناكثين لهم وهم فقال : **فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ،**

أى فمن أعرض عن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وعن نصرته ، بعد أخذ الميثاق المؤكد عليه ، فأولئك المرزوقون وهم الفاسقون ، أى الخارجون عن الإيمان إلى أفحش دركات الكفر والخيانة .

والفاء فى قوله **فمن تولى** ، للتفريع ، و **ومن** ، يجوز أن تكون شرطية ويكون قوله **فأولئك هم الفاسقون** ، جوابها .

وبحوز أن تكون موصولة ، ويكون قوله ، فأولئك الفاسقون ، هو الخبر والضمير في قوله « تولى » يعود على « من » ، بالإفراد باعتبار لفظها ، ويعود عليها بصيغة الجمع في قوله فأولئك ، باعتبار معناها .

وبعد أن بين - سبحانه - أن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - حق لا ريب فيه ، وأنه واجب على جميع من مضى من الأنبياء والأمم ، عقب ذلك ببيان أن كل من كره الإيمان بما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنه يكون بعيداً عن الدين الحق ، مستحقاً للعقاب الأليم فقال - تعالى - ( وأقفر دين الله يبعثون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ) والاستفهام للانكار والتوبيخ ، وهمزة الاستفهام داخله على فعل محذوف والغاء الداخلة على ( غير ) عاطفة الجملة ( يبعثون ) على ذلك المحذوف الذي دل عليه الاستفهام وعينه المقام .

والمعنى : أتولون عن الإيمان بعد هذا البيان فيبعثون ديناً غير دين الله الذي هو الإسلام .

ومعنى ( يبعثون ) يطلبون . يقال بنى الأمر يبعثه بقاء - بضم الباء - أى طلبه . وقوله .. تعالى .. ( وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ) جملة حالية . أى أيبعثون ديناً غير دين الله والحال أن الله - تعالى - لا يسلم وإتقاد وخضع له من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً . أى طائعتين وكارهين فما مصدران في موضع الحال .

والمراد أن كل من في السموات والأرض قد اتقادوا وخضعوا لله - تعالى - إما عن طواعية وإختياراً ولأنهم رأوا في كل الأحوال بقضائه وقدره ، ومستجيبيون له في المشط والمسكره والمس واليسر وإما عن تسخير وقهر وهم الكافرون لأنهم واقعون تحت سلطانه العظيم وقدرته النافذة ، فهم مع كفرهم لا يستطيعون دفع قضائه .. سبحانه - ، وإذن فهم خاضعون لسلطانه - عز وجل - لأنهم لا سبيل لهم ولا لغيرهم إلى الامتناع عن دفع ما يريد بهم .

هذا ، وقد ساق الفخر الرازي جملة آراء في معنى الآية الكريمة ثم إختار أحدها فقال ما ملخصه : في خضوع من في السموات والأرض لله وجوه : أحدها عندي أن كل ما سوى الله - سبحانه - ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد إلا بإيجاده ، ولا يعدم إلا بإعدامه ؛ فإذاً كل ما سوى الله فهو منقاد خاضع لجلال الله في طرفي وجوده وعدمه . وهذا هو نهاية الخضوع والإنقياد ثم إن في هذا الوجه لطيفة أخرى : وهي أن قوله ، وله أسلم ، يفيد الحصر ، أي وله كل ما في السموات والأرض لا غيره .

فهذه الآية تقييد أن واحب الوجود واحد ، وأن كل ما سواه فإنه لا يوجد إلا بتكوينه . ولا يفنى إلا بإفاته . (١) والآيات في هذه المعنى كثيرة .

وقوله ، وإليه يرجعون ، أي إليه وحده يرجع الخلق فيجازي كل مخلوق بما يستحقه من خير أو شر .

ففي الجملة الكريمة تحذير من الإعراض عن دينه ، لأنه مادام مرجع الخلق جميعا إليه - سبحانه - فعلى العاقل أن يسلم نفسه إلى خالقه لإختيار أقبل أن يسلمها لإضطرارا ، وأن يستجيب لأوامره ونواهيه ، حتى ينال رضاه .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد أقامت للناس الأدلة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمرتهم بالدخول في دينه ، وحذرتهم من الإعراض عنه بأجلى بيان وأقوى برهان .

وبعد هذا البيان الواضح والبرهان الساطع على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - أمر الله - تعالى - نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن على الدنيا كلمة الحق التي يؤمن بها ، وأن يغير كل من يتأني له الخطاب بأن الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام وأن كل دين سواه فهو باطل . لأن رسالته - صلى الله عليه وسلم - هي خاتمة الرسالات ، ودين الإسلام الذي أتى به ناسخ لكل دين سواه . استمع (٢) إلى القرآن وهو بين ذلك فيقول :

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ١٣٠ . (٢) - سورة الاعراف الآية ١٦٠

« قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ  
وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ  
مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَشْفَعْ  
غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) »

قوله . والاسباط ، جمع سبط وهو الحفيد ، والمراد بهم أولاد يعقوب -  
عليه السلام - وكانوا اثني عشر ولدا قال - تعالى - : « وقطعناهم لئنتي عشرة  
اسباطا أما ،

وسموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق - عليهم السلام - .

والمعنى : « قل ، يا محمد لأهل الكتاب الذين جادلوك بالباطل وجحدوا  
الحق مع علمهم به ، قل لهم ولغيرهم « آمنا بالله ، أي آمنت أنا وأتباعي بوجود  
الله ووحدانيته ، واستجبنا له كل ما أمرنا به ، أو نهانا عنه .

آمنا كذلك بما « أنزل علينا ، من قرآن يهدي إلى الرشده ، ويخرج الناس  
من الظلمات إلى النور بإذن ربهم .

وآمنا أيضا بما أنزله الله - تعالى - من وحي وصحف على إبراهيم وإسماعيل  
وإسحاق ويعقوب والاسباط . .

وآمنا - أيضا - بما آناه الله لموسى وعيسى من التوراة والإنجيل وغيرهما  
من المعجزات ، وبما آناه لسائر أنبيائه من وحي وآيات تدل على صدقهم .

« لا نفرق بين أحد منهم ، أي لا نفرق بين جماعة الرسل فنؤمن ببعض  
ونكفر ببعض كما فعل أهل الكتاب ، إذ فرقوا بين أنبياء الله وميزوا بينهم  
وقالوا - كما حكى القرآن عنهم « نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، وهم في الحقيقة

كافرون بهم جميعا ، لأن الكافر بواحد من الأنبياء يؤدي إلى الكفر بهم جميعا ، ولذا ففحن معاشر المسلمين تؤمن بجميع الأنبياء بلا تفرقة أو إستثناء ونحن له مسلمون ، أى خاضعون له وحده بالطاعة والعبودية مستجيبون له في كل ما أرفأ به وما نانا عنه .

فآلاية الكريمة تأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يجبر عن نفسه وعن معه بأنهم آمنوا بالله وبكتبه وبرسله جميعا بدون تفرقة بينهم ، لأنها شرائع الله - تعالى - التي أنزلها على أنبيائه ، كلها مرتبطة بعضها ببعض ، وكلها تتفق على كلمة واحدة هي إفراد الله - تعالى - بالعبودية والطاعة .

قال صاحب المكشاف : فإن قلت : لم عدى أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء ، وفيها تقدم من مثلها - في سورة البقرة - بحرف الانتهاء ؟ قلت : لوجود المعنيين جميعا ، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل ، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر

ومن قال إنما قيل هنا علينا ، لقوله ، قل ، وقيل هناك إلينا ، لقوله ، قولوا ، تفرقة بين الرسل والمؤمنين ، لأن الرسول يأتيه الوحي على طريق الإستعلاء ، ويأتيهم على وجه الانتهاء ، من قال ذلك تعسف ألا ترى إلى قوله ، بما أنزل إليك ، وإلى قوله ، آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا . . (١) ،

وخص هؤلاء الأنبياء الذين ذكرتهم الآية بالذكر ، لأن أهل الكتاب يزعمون أنهم يؤمنون بهم ويتبعونهم . فأراد القرآن أن يبين لهم أن زعمهم باطل ، لأنهم ان يكونوا مؤمنين بهم إلا إذا آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وقوله - تعالى - ، لا تفرق بين أحد منهم ، بيان لقمة الإيمان الحق الذي رسخ في قلوب المؤمنين وعلى رأسهم هادهم ومرشدهم محمد - صلى الله عليه وسلم ، لأن هذا الإيمان الحق جعلهم يصدقون بأن رسل الله جميعا قد أرسلهم

سبحانه - بالدعوة إلى توحيده وإخلاص العبادة له ، وإذا وجد تفاضل  
اختلاف فهذا التفاضل والاختلاف يكون في أمور أخرى سوى الإيمان  
به وإفراده بالعبودية ، سوى ما انفقت عليه الشرائع جميعها من الدعوة إلى  
ق وإلى مكارم الأخلاق . وقد جاءت رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم -  
نعمة للرسالات ، وجامعه لكل ما فيها من محاسن فوجب الإيمان بها ،  
لا كان الكفر بها كقراءة جميع الرسائل السابقة عليها .

وقوله « ونحن له مسلمون » يفيد الحصر ، أي نحن له وحده أسلمنا  
بوهنا . وأخلصنا عبادتنا ، لا لغيره كتنا من كان هذا الغير .

وهذا يدل على أنهم بلغوا أعلى مراتب الإخلاص والطاعة لله رب العالمين .  
ثم بين - سبحانه - أن كل من يطلب ديننا سوى دين الإسلام فهو خاسر  
ل - تعالى - : « ومن يتبع غير الإسلام ديننا فلن يقبل منه . . . » .

أي : ومن يطلب ديننا سوى دين الإسلام الذي أتى به محمد - عليه الصلاة  
وسلام - فلن يقبل منه هذا الدين المخالف لدين الإسلام ، لأن دين الإسلام  
أى جاء به محمد ، هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده قال - تعالى - « اليوم  
كملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (١) ولأنه  
الدين الذي ختم الله به الديانات ، وجمع فيه محاسنها .

أما عقوبة هذا الطالب لدين سوى دين الإسلام فقد بينها - سبحانه -  
له : « وهو في الآخرة من الخاسرين » .

أي وهو في الآخرة من الذين خسروا أنفسهم بحرمانهم من ثواب الله ،  
ستحقاتهم لعقابه جزاء ما قدمه من كفر وضلال .

وفي الحديث الشريف « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ، أي مردود  
به ، وغير مقبول منه .

(١) سورة المائدة آية ٣ .

وفي الاخبار بالخسران عن الذي ينبغي أى يطلب ديننا سوى الإسلام، إشعار بأن من يتبع ديننا سوى دين الإسلام يكرن أشد خسارانا، وأسوأ حالا، لأن الطلب أقل شرا من الاتباع الفعلى .

وبعد أن عظم - سبحانه - شأن الإسلام، وبين أنه هو الدين المقبول عنده، أتبع ذلك ببيان أن سنته جرت في خلفه بأن يزيد الذين اهتدوا هدى، أما الجاحدون للحق عن علم، والمتبعون لأهوائهم وشهواتهم فهم بعيدون عن هداية الله، وإن يقبلهم - سبحانه - إلا إذا تابوا عن ضلالهم، وأصلحوا مافسد منهم، استمع إلى القرآن وهو بصور هذا المعنى بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

« كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أَرَأَيْتَ أَجْرًاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُونَ مِنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) » .

روى المفسرون روايات في سبب نزول هذه الآيات الكريمة منها ما أخرجه النسائي عن ابن عباس قال : إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم، فأرسل إلى قومه : سلوا لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هل لى من توبة ؟ فجاء قومه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : هل له من توبة ؟ فنزلت هذه الآيات، فأرسل إليه قومه فأسلم .

وعن مجاهد قال : جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله هذه الآيات . قال : فعملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه . فقال الحارث : إنك والله - محاملت

سَدُوق ، وَإِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَصْدَقِ مَنكَ ، وَإِنْ اللَّهُ - عَزَّ  
جَلَّ لِأَصْدَقِ الثَّلَاثَةِ ، قَالَ : فَرَجَعَ الْحَارِثُ فَأَسْلَمَ حَسَنًا لِإِسْلَامِهِ وَعَنِ الْحَسَنِ  
بِصْرَى أَنَّهُ قَالَ : أَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، رَأَوْا نِعْمَتَ النَّبِيِّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي كِتَابِهِمْ وَأَقْرَبُوا بِهِ ، وَشَهِدُوا أَنَّهُ حَقٌّ ، فَلَمَّا بَعَثَ  
نَ غَيْرَهُمْ جَسَدُوا الْعَرَبَ عَلَى ذَلِكَ فَأَنْكَرُوهُ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِقْرَارِهِمْ حَسَدًا لِلْعَرَبِ  
مِنْ بَعَثَ مِنْ غَيْرِهِمْ (١) .

هذه بعض الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآيات ، ويبدو لنا  
أن أقربها إلى سياق الآيات هي الرواية التي جاءت عن الحسن البصري بأن  
المقصود بالآيات أهل الكتاب ، وذلك لأن الحديث معهم من أول السورة .  
ولأن القرآن قد ذكر في غير موضع أن أهل الكتاب كانوا يعرفون صدق  
النبي - صلى الله عليه وسلم - كما يعرفون أبناءهم ، وأنهم كانوا يستفتحون به  
( على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ) .

ومع هذا فليس هناك ما يمنع من أن يكون حكم هذه الآيات شاملا لكل  
من ذكرتهم الروايات لكل من يشابههم ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص  
السبب .

قال ابن جرير - بعد أن ساق هذه الروايات - ما ملخصه : وأشبه هذه  
الاقوال بظواهر التنزيل ما قاله الحسن : من أن هذه الآيات معنى بها أهل  
الكتاب على ما قال ، وجائز أن يسكون الله - تعالى - أنزل هذه الآيات  
بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا إرتدوا عن الإسلام لجمع قصتهم وقصة  
من كان سبيله سبيلهم في إرتداده عن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم -  
في هذه الآيات ، ثم عرف عباده سنته فيهم ؛ فيكون داخلًا في ذلك كل من  
كان مؤمنا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يبعث ثم كفر به بعد أن  
بعث ، وكل من كان كافرا ثم أسلم على عهده - صلى الله عليه وسلم - ثم

(١) تفسير ابن جرير ج ٣ ص ٣٤٠ . وتفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٩ .

إرتد وهو حى عن إسلامه ، فيكون معنياً بالآيات جميع هذين الصنفين وغيرهما ممن كان يمثل معناهما . بل ذاك كذلك إن شاء الله (١) .

والاستفهام فى قوله - تعالى - « كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم ... » ، للنفى والاستبعاد هدايتهم إلى الصراط المستقيم وهم على هذا الحال من الارتكاس فى الكفر والضلال ، مع علمهم بالحق وإيمانهم به لفترة من الوقت .

والمعنى : أن الله - تعالى - جرت سنته فى خلقه ألا يهدى إلى الصراط المستقيم ، قوماً كفروا بعد إيمانهم ، أى إرتدوا إلى الكفر بعد أن آمنوا ، وبعد أن شهدوا أن الرسول ، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - حق ، وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه ، وبعد أن جاءهم البينات ، أى البراهين والحجج الناطقة بحقيقة ما يدعيه ، من قرآن كريم عجز البشر عن الإنيان بسورة من مثله ومن معجزات بأهرة دالة على صدقه - صلى الله عليه وسلم - .

فأنت ترى أن حالهم الذى أوجبت هذا النفى والاستبعاد تتمثل فى أنهم كانوا مؤمنين ، وكانوا يشهدون بأن الرسول حق ، وجاءتهم البينات اليقينية الملزمة التى تؤيد إيمانهم وشهادتهم ، ومع كل ذلك إستحبوا العمى على الهدى ، وإختاروا الكفر على الإيمان ، واستولى عليهم التعصب بالباطل فأرداهم وحرهم من هداية الله حتى يغيروا ما بأنفسهم ويتوبوا عن غيهم ، ويصلحوا ما أفسدوه ، ويخلصوا وينيبوا إلى خالقهم وبارئهم .

قال صاحب الكشاف : قوله « كيف يهدى الله قوما ... » أى كيف يلطف بهم وليسوا من أهل اللطف ، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم ، ودل على تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم ؛ وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق وبعد ما جاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التى تثبت بعثها النبوة

- وهم اليهود - كفروا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن كانوا مؤمنين ، وذلك حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات .

فإن قلت : علام تطف قوله ، وشهدوا ، ؟ قلت : فيه وجهان : أن يعطف ل ما في إيمانهم من معنى الفعل ، لأن معناه : بعد أن آمنوا . . . . . ويجوز أن يكون الواو للحال بإضمار « قد » ، بمعنى كفروا وتدشهدوا أن الرسول حق ، (٩) .

وقوله - تعالى - « والله لا يهدي القوم الظالمين » ، جملة حالية أو معترضة .  
و المعنى : أنه - سبحانه - قد مضت سنته في خلقه أنه لا يهدي إلى الحق أولئك الذين آثروا الكفر على الإيمان ، عن تمرد وإصرار ، ووضعوا الشيء غير موضعه مع علمهم بسوء صنيعهم .

وفي تذييل الآية الكريمة بهذه الجملة مع إطلاق لفظ العلم ، إشعار بأنهم قد ظلموا أنفسهم بإيقاعها في مهاوى الردى والعذاب وظلموا الرسول الذي شهدوا أنه بأن ما جاء به هو الحق ثم كفروا به ، وظلموا الحقائق والبراهين فنطقت بأحقية الإيمان ويبطلان الكفر ثم تركوا هذه الحقائق والبراهين افتقادوا لأهوائهم وشهواتهم ومطامعهم .

وإن الظلم متى سيطر على النفوس أفقدها رشدها وإدراكها للأمر  
درا كاسليها ، وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول : « انقوا ظلم فإنه ظلمات يوم القيامة » .

ثم بين - سبحانه - عاقبة هؤلاء الظالمين فقال : « أولئك جزاؤهم أن لهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

قال الراغب : اللعن : الطرد والإبعاد على سبيل السخط ، وذلك من الله

- تعالى - في الآخرة عقوبة ، وفي الدنيا إنقطاع من قبول رحمته وتوفيقه ،  
ومن الإنسان دعاء على غيره ... ، (١) .

والمعنى: أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة ، جزاؤهم أن عليهم لعنة  
الله ، أى جزاؤهم أن عليهم غضب الله وسخطه بسبب إستحسانهم الكفر على  
الإيمان ، والملائكة والناس أجمعين ، أى وعليهم كذلك سخط الملائكة والناس  
أجمعين وغضبهم ، ودعاؤهم عليهم باللعنة والطرده من رحمة الله .

وقوله ، أولئك ، مبتدأ . وقوله ، جزاؤهم ، مبتدأ ثان ، وقوله أن عليهم  
لعنة الله ... الخ ، خبر المبتدأ الثاني ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول .

والآية الكريمة قد بينت أن اللعنة على هؤلاء القوم ، صادرة من الله وهى  
أشد ألوان اللعن ، وصادرة من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون  
ما يؤمرون ، وصادرة من الناس أجمعين أى أن الفطر الإنسانية تلعنهم لنبذهم  
الحق بعد أن عرفوه وشهدوا به ، وقامت بين أيديهم الأدلة على أنه حق .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : فإن قيل لم عم جميع الناس مع أن من  
واقفهم في كفرهم لا يلعنهم؟ قلنا فيه وجوه : منها أنهم في الآخرة يلعن بعضهم  
بعضا كما قال - تعالى - ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، . فعلى هذا التقدير يكون  
اللعن قد حصل للكفار من الكفار . ومنها كان الناس هم المؤمنون ، والكفار  
ليسوا من الناس ، ثم لما ذكر لعن الثلاث قال ، أجمعين ، . ومنها هو الأصح  
هندي : أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر ، ولكنه يعتقد في نفسه أنه  
ليس بمبطل ولا كافر ، فإذا لعن الكافر وكان هو في علم الله كافرا فقد لعن  
نفسه وإن كان لا يعلم ذلك ، (٢) .

ثم أكد - سبحانه - تلك العقوبة بعقوبة أخرى لازمة لها ما داموا على

(١) مفردات القرآن ص ٥١ ، المراغب الاصفهاني

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١٣٧ .

لك الحالة المشيئة فقال - تعالى - « خالدون فيها لا يخفف عنهم العذاب ، بسبب  
مرارهم على الكفر في الدنيا ، وأنعامهم فيما يغضب الله ، ولا هم ينظرون ،  
ولا هم يمهلون ولا يؤخر عنهم العذاب بل عذابهم عاجل لا يقبل الإمهال  
والتأخير بسبب ما ارتكبوه في الدنيا من شرور وآثام .

ولكن القرآن - مع هذا - يفتح باب التوبة لمن أراد أن يتوب ، وينهى  
ناس عن أن يقنطوا من رحمة الله متى تابوا ، وأنابوا وأصلحوا فيقول - بعد  
تلك الحملة المرعبة التي شنّها على الكفر والكافرين - « إلا الذين تابوا من  
بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » .

أى : أن العنة مستمرة على هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ، وهم خالدون  
في العذاب يوم القيامة بدون إمهال أو تأخير ، إلا الذين تابوا منهم عن الكفر  
الذي ارتكبوه ، وعن الظلم الذي اقترفوه ، وأصلحوا ما أفسدوه بأن قالوا  
ربنا الله ثم استقاموا على طريق الحق ، وحافظوا على أداء الأعمال الصالحة  
« فإن الله - تعالى - غفور رحيم ، أى فإنه سبحانه يغفر لهم ما سلف منهم  
من كفر وظلم .

ففي هذه الآية الكريمة إغراء للكافرين بأن يقنعوا عن كفرهم ، والمذنبين  
بأن يتوبوا إلى رشدهم وبأن يتوبوا إلى رحمة الله ، فإنه - سبحانه - يغفر الذنوب  
جميعاً لمن يتوب ويحسن التوبة ، فهو القائل « قل يا عبأدى الذين أسرفوا على  
أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور  
الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلوا له ... » (١) .

أما الذين لا يتوبون ولا يستغفرون ولا يتوبون إلى رشدهم ، بل يصرون  
على الكفر فيزدادون كفراً ، والذين يرتكبون في كفرهم وضلالهم حتى تغلقت  
منهم الفرصة ، وينتهى أمد الاختبار ، ويأتى دور الجزاء ، فهؤلاء لا توبة لهم  
ولا نجاة ، فقد قال - تعالى - بعد هذه الآيات :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَدِّ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ اِزْدَادُوا كُفْرًا ، لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ  
 وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ  
 يَقْبَلَ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُم مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ  
 أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ،  
 وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢) » .

قوله - تعالى - « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَدِّ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ اِزْدَادُوا كُفْرًا » .

قال قتادة وعطاء : نزلت في اليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم  
 بموسى والتوراة . ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم -  
 وبالقرآن .

وقال أبو العالية والحسن : نزلت في أهل الكتاب جميعا ، آمنوا برسول  
 الله - صلى الله عليه وسلم - قبل بعثته ثم كفروا به بعد بعثته ، ثم ازدادوا  
 كفرا بإصرارهم على ذلك ، وطعنهم في نبوته في كل وقت ، وعداوتهم له ،  
 وتقضهم ليهودهم وصددهم الناس عن طريق الحق ، وسخرتهم بأيات الله .

ويمكن أن يقال : إن الآية الكريمة على عمومها فهي تتناول كل من آمن  
 ثم ارتد عن الإيمان إلى الكفر ، وازداد كفرا بمقاومته للحق ، وإيذاته  
 لاتباعه ، وإصراره على كفره وعناده وجحوده .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : « لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ  
 الضَّالُّونَ » .

أى إن هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا وعنادا وجحودا  
 للحق « لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ » ، أى لن تتوقع منهم توبة حتى تقبل ، لأنهم بإصرارهم  
 على كفرهم ، ورسوخهم فيه ، وتلاعبهم بالإيمان ، قد صاروا غير أهل للتوفيق

لها ، ولأنهم حتى لو تابوا فتابوا عنهم إنما هي بالسنتهم لحسب ، أما قلوبهم فليمة بالكفر والتفارق ولذا تعتبر توبتهم كلا توبة .

وبعضهم حمل عدم قبول توبتهم على أنهم تابوا عند حضور الموت ، والتوبة في هذا الوقت لقيمة لها .

قال القرطبي : وهذا قول حسن كما قال - تعالى - : وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن .

وبعضهم حمل عدم قبول توبتهم على أنهم ماتوا على الكفر ، وإلى هذا المعنى إنجيه صاحب الكشاف فقد قال : فإن قلت : قد علم أن المرتد كيفما إزداد كفرا فانه مقبول التوبة إذا تاب فما معنى . لن تقبل توبتهم ، ؟ قلت : جعلت عبارة عن الموت على الكفر ، لأن الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر . كأنه قيل إن اليهود أو المرتدين الذين فعلوا ما فعلوا ماتون على الكفر ، داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم .

فإن قلت : فأى فائدة في هذه الكتابة ؟ أعنى أن كفى عن الموت على الكفر بامتناع قبول التوبة ؟

قلت : الفائدة فيها جميلة وهي التعلل في شأن أولئك الفريق من الكفار وإبراز حالهم في صورة حالة لايسين من الرحمة التي هي أغلظ الأحوال وأشدها الأتري أن الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة ،<sup>(١)</sup> ولذلك يبدو لنا أن الآية الكريمة أشد ما تكون إنطباقا على أولئك الذين تتكرر منهم الردة من الإيمان إلى الكفر فهم لفساد قلوبهم وانطماس بصيرتهم وإستيلاء الأهواء والمطامع على نفوسهم أصبح الإيمان لااستقرار له في قلوبهم بل يتلاعبون به ، ويقومونه نظير عرض قليل من أعراض الدنيا ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - في سورة النساء : إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا

م كفروا . ثم إزدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا ،  
وقوله : وأولئك هم الضالون ، أى الكاملون فى الضلال ، البعيدون عن  
لمريق الحق ، المستحقون لسخط الله وعذابه .

ثم صرح - سبحانه - ببيان عاقبة الذين تموتون على الكفر فقال - تعالى -  
إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار .

أى إستمروا على كفرهم وضلالهم حتى ماتوا على هذا الكفر والضلال  
نكأن الآيات الكريمة قد ذكرت لنا ثلاثة أصناف من الكافرين : قسم كان  
كافرا ثم تاب عن كفره توبة صادقة بأن آمن وعمل صالحا فقبل الله توبته ،  
وهذا القسم هو الذى إستثناه الله بقوله : إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا  
فإن الله غفور رحيم .

وقسم كان كافرا ثم تاب عن كفره توبة ليست صادقة ، فلم يقبلها الله  
- تعالى - منه .

وهو الذى قال الله فى شأنه فى الآية السابقة : إن الذين كفروا بعد إيمانهم  
ثم إزدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون :  
وقسم كان كافرا واستمر على كفره حتى مات عليه دون أن يتحدث منه  
أية توبة ، وهو الذى أخبر عنه - سبحانه - فى هذه الآية بقوله : : إن الذين  
كفروا وماتوا وهم كفار .

أى ماتوا على كفرهم دون أن يتوبوا منه . وقد بين الله - تعالى - سوء  
مصيرهم بقوله : ( فلن يقبل من أحدكم ملة الأَرْضِ ذهابا ولو إفتدى به ) .

أى أن هؤلاء الذين ماتوا على الكفر دون أن يتوبوا منه . لن يقبل الله  
- تعالى - من أحدكم ملة الأَرْضِ ذهابا ، لأن كفره قد أحبط أعماله وأفسدها كما قال - تعالى - ( وقد منا  
إلى ما عملوا من عمل لظلمناه مباء منثورا ) (١) .

وكذلك لن يقبل الله - تعالى - من أحدم فدية من عقابه الشديد له بسبب موته على الكفر ، ولو كان ما يفتدى به نفسه ملء الأرض ذهباً ، لأن الله - تعالى - غنى عنه وعن فديته - مهما عظمت - وسيعاقبه غلى كفره بما يستحق من عقاب .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - ( فلن يقبل من أحدم ملء الأرض ذهباً ولو اقتدى به ) .

أى من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قرابة كما سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن عبد الله بن جدعان - وكان يقرى الضيف ، ويفك العاني ، ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك ؟ فقال لا : ( إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفرلى خطيئتي يوم الدين ) وكذلك لو اقتدى - نفسه فى الآخرة - بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه - كما قال - تعالى - ( ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ) وقال - تعالى - ( إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ) (١) .

ثم قال : وروى الشيخان والامام أحمد عن أنس بن مالك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرايت لو كان لك ما على الأرض من شئ - أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول نعم . فيقول الله له : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر أبيلك آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك .

وفى رواية الإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله له : يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب ، خير منزل . فيقول الله - تعالى - له : سل وتمن ، فيقول : ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر مرات - لما

رى من فضل الشهادة - ريثوق بالرجل من أهل النار فيقول له : كيف وجدت  
بذلك ؟ فيقول : أى رب شر منزل . فيقول له : أتفتدى منه بملء الأرض  
ذهبا ؟ فيقول : أى رب نعم فيقول : كذبت ا قد سألك أقل من ذلك وأيسر  
لم تفعل فيرد إلى النار (١).

وقال صاحب الكشاف : فان قلت : فلم قيل في الآية السابقة ( لن تقبل  
وبتهم ) بغير فاء . وقيل هنا ( فلن يقبل من أحدهم ) بوجود الفاء . ؟ قلت :  
هو أوذن بالفاء أن الكلام بنى على الشرط والجزاء . وأن سبب إمتناع قبول  
فديه هو الموت على الكفر ، وبترك الفاء أنه كلام مبتدأ أو خير ولا دليل  
يسه على التسيب ، كما تقول : الذى جاءنى له درهم ، لم يجعل المجيء سببا فى  
ستحقاق الدرهم ، بخلاف قولك : فله درهم (٢).

وقوله ( ذهبا ) منصوب على أنه تمييز .

وعبر بالذهب لأنه أنفوس الأشياء وأعزها على النفس .

وقوله ( ولو افتدى به ) جملة حالية ، والواو للحال . أى لا يقبل من الذى  
ات على كفره هذا الفداء ولو فى حال إفتراض تحقق هذا الفداء فى يده ،  
تقديمه إياه لى يدفعه لخالفه وينجو من العقوبة التى توعد به .

أى أن العذاب الأليم نازل قطعا على هذا الذى مات على كفره ، حتى  
و فرضنا أنه تصدق فى الدنيا بملء الأرض ذهبا ، وحتى لو فرضنا أنه ملك  
ذا المقدار الفيس الكثير من الأموال فى الآخرة وقدمه فدية لنفسه من  
مذاب ، فإن كل ذلك غير مقبول منه ، ولا بد من نزول العذاب به .

وقد أشار ابن المنير إلى هذا المعنى بقوله : ( قبول الفدية التى هى ملء  
أرض ذهبا يكون على أحوال : منها : أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية عن

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٨٠ - بتصريف وتلخيص .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٨٢

نفسه كما تؤخذ الدية قهرا من مال القاتل على قول . ومنها أن يقول المفتدى في التقدير : أفدى نفسي بكذا وقد لا يفعل . ومنها أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذي يفدى به نفسه ويجعله حاضرا عتيدا ، وقد يسلمه مثلا لمن يأمن منه قبول فديته . وإذا تعددت الأحوال فالمراد من الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهو أن يفدى بملء الأرض ذهابا اقتداء محققا بأن يقدر على هذا الأمر العظيم ويسلمه وينجزه اختيارا مع ذلك لا يقبل منه ، فجرد قوله أ بذل المال وأقدر عليه أو ما يجري هذا المجرى بطريق الأولى . فبكون دخول الواو والحالة هذه على بابها تنبها على أن ثم أحوالا أخرى لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة .... وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا تخاص لهم من العذاب ، وإلا فن المعلوم أنهم أعجز عن الفلتس في ذلك اليوم . ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القاتل : لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى في يدي هذه ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من فاصرين ، .

أى أولئك الذين ماتوا على كفرهم لهم عذاب أليم ، وما لهم من فاصرين ينصرونهم بدفع العذاب عنهم ، أو تخفيف وقمة عليهم .  
ومن منبذة لاستغراق النبي وقآ كيدته . أى لا يوجد أحد كائنا من كان يتقدم من عذاب الله ، أو يجيرهم من أليم عقابه .

وبذلك نرى أن الآيتين السكريميتين قد توعدتا الكافرين بأشد ألوان العذاب ، وأقسى أنواع العقاب ، حتى يقلعوا عن كفرهم ، ويشوبوا إلى رشدهم .

وبعد هذا الحديث المشتمل على أشد صنوف التهيب من الكفر ، وعلى بيان سوء عاقبة الكافرين ، أتبعه بالحديث عن الطريق الذي يوصل المؤمنين

(١) حاشية ابن المنير على الكشاف ج ١ ص ٢٨٣ .

إلى رضا الله وحسن مشورته فقال - تعالى - : : لن تنالوا البر حتى تنفقوا  
بما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم .

تنالوا : من النيل وهو إصابة الشيوء والحصول عليه . يقال نال ينال نيلا ،  
إذا أصاب الشيء ووجده وحصل عليه .

والبر : الإحسان وكال الخير . وأصله التوسع في فعل الخير . يقال :  
بر العبد ربه أى توسع في طاعته .

والإنفاق البذل ، ومنه إنفاق المال . وعن الحسن : كل شيء أنفقه المسلم  
من ماله ينفق به وجه الله ويطلب ثوابه حتى التمرة يدخل في هذه الآية .

والمعنى : لن تنالوا حقيقة البر ، ولن تبلغوا ثوابه الجزيل الذى يوصلكم  
إلى رضا الله ، وإلى جنته التى أعدها لعباده الصالحين ، إلا إذا بذلتم مما تحبونه  
وتؤثرونه من الأموال وغيرها فى سبيل الله ، وما تنفقوا من شيء - ولو قليلا  
- فإن الله به عليم ، وسيجازيكم عليه بأكثر مما أنفقتم وبذلتم .

ولقد حكى لنا التاريخ كثيرا من صور البذل والإنفاق التى قام بها السلف  
الصالح من أجل رضا الله وإعلاء كلمته ، ومن ذلك ما رواه الشيخان عن أنس  
ابن مالك قال : كان أبو طلحة أ كثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان  
أحب أمواله إليه بئر حاء - موضع بالمدينة - وكانت مستقبلة المسجد ، وكان  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها . قال  
أنس : فلما أنزلت هذه الآية : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .. قام  
أبو طلحة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، إن  
الله - تعالى - يقول فى كتابه : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وإن أحب  
أموالى إلى بئر حاء ، ولإنها صدقة لله - تعالى - أرجو برها وذخرها عند الله ،  
فضعها يا رسول الله حيث أراك الله .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : بخ بخ - كلبه استحسان

ومدح - أي: ذلك مال رايح - أي ذورايح - ، ذلك مال رايح وقد سمعت  
ماقلت ، وإنني أرى أن يجعلها في الأقربين . قال أبو طلحة : أفضل يا رسول  
الله ، فقسما أبو طلحة في أقاربه وبني عمه ، (١) .

قال القرطبي : وكذلك فعل زيد بن حارثة ، عمسدا ما يحب إلى فرس له  
يقال له ، سبيل ، وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مالي أحب إلى من فرسي  
هذه ، جاء بها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : هنا في سبيل الله .  
فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأسماء بن زيد : أقبضه ؛ فسكان زيدا  
وجد من ذلك في نفسه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله  
قد قبلها منك ، .

وأعتق عبد الله بن عمر نافعاً مولاه ، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر  
ألف دينار ، قالت صفية بنت أبي عبيد : أظنه تناول قوله الله - تعالى - : لن  
تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، .

وقال الحسن البصري : إنكم لن تناولوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ،  
ولا تتركون ما تؤملون إلا بالصبر على تكرهون (٢) .

وهكذا نرى أن السلف الصالح قد قدموا ما يحبون من أموالهم تقرباً  
إلى الله - تعالى وشكراً له على نعمائه وعطائه ، فرضى الله عنهم وأرضاهم .  
ثم عاد القرآن الكريم إلى الرد على اليهود الذين جادلوا النبي - صلى الله عليه وسلم -  
في كثير من القضايا ، بعد أن ذكر في الآيات السابقة طرفاً من مسالكهم  
الخبثية التي منها توأصهم فيما بينهم بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره ،  
وقد حكى هنا جدلهم فيما أحله الله وحرمه من الأطعمة فقال - تعالى - :

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة . باب الزكاة على الأقارب ج ٢ ص ١٤٨

وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ج ٢ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٣٣ .

« كلُّ الطعامِ كانَ حلالاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ ، قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ السَّكْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) » .

ذكر بعض المفسرين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لليهود في معرض مناقشته لهم : أنا على ملة إبراهيم . فقال بعض اليهود : كيف تدعى ذلك وأنت تأكل لحوم الإبل والبانها ؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - ، كان ذلك حلالا لإبراهيم فنحن نحلّه . فقالوا : كل شيء . أصبحنا اليوم نحرّمه فإنه كان محرّما على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا ، فأُنزل الله هذه الآيات تكذيباً لهم ، (١) .  
والطعام مصدر بمعنى المطعموم ، والمراد به هنا كل ما يطعم ويؤكل .  
وحلال : مصدر أيضاً بمعنى حلالا ، والمراد الإخبار عن أكل الطعام بكونه حلالا ، لا نفس الطعام ؛ لأن الحل كالحرمه مما لا يتعلق بالذوات .

وإسرائيل : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام - .  
والمعنى : كل أنواع الأطعمة كانت حلالا لبني إسرائيل قبل نزول التوراة إلا شيئا واحداً كان محرّما عليهم قبل نزولها وهو ما حرّمه أبوم إسرائيل على نفسه ؛ فإنهم حرّموه على أنفسهم اقتداء به ، فلما أنزل الله التوراة حرّم عليهم فيها بعض الطيبات بسبب بغيهم وظلمهم .

هذا هو الحق الذي لا شك فيه ، فإن جادلوك يا محمد في هذه المسألة فقل لهم على سبيل التحدى : أحضروا التوراة فانروها ليقين الصادق منا من الكاذب ، إن كنتم صادقين في زعمكم أن ما حرّمه الله عليكم فيها كان محرّما على نوح وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - .

فالآية الكريمة قد تضمنت أموراً من أهمها :

أولاً : لإبطال حججهم فيما يتعلق بقضية النسخ ، إذ زعموا أن النسخ محال  
وإلتخذاً من كون النسخ مشروعاً في الإسلام ذريعة للطعن في نبوة النبي  
- صلى الله عليه وسلم - فمدح القرآن مدعاهم وألزمهم الحجج عن طريق  
كتابهم .

ولذا قال الإمام ابن كثير : الآية شروع في الرد على اليهود ، وبيان بأن  
النسخ الذي أنكره وأوقعه وجوازه قد وقع ، فإن الله - تعالى - قد نص  
في كتابهم التوراة أن نوحاً - عليه السلام - لما خرج من السفينة أباح الله له  
جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم لإسرائيل على نفسه لحوم  
الإبل وألبانها فاتبعه بنوه فيما حرم على نفسه ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك  
وبتحريم أشياء زيادة على ذلك - عقوبة لهم بسبب بغيهم وظلمهم . . . وهذا  
هو النسخ بمبینه ، (١) .

وقد صرح ابن كثير وغيره من المفسرين أن ما حرمه لإسرائيل على نفسه  
هو لحوم الإبل وألبانها ، وبذلك جاءت بعض الروايات عن النبي - صلى الله -  
عليه وسلم - وكان تحريمها لها تعبداً وزهادة وقهراً للنفس طلباً لمرضاة الله  
- تعالى - .

وقيل إن ما حرمه على نفسه هو العروق . روى ذلك عن ابن عباس  
والضحاك والسدى موقوفاً عليهم .

قالوا : كان يهتربه عرق النمساً وهو عرق يخرج من الورك فيستبطن  
الفخذين ويسبب آلاماً شديدة - فنذر إن عوفي منه لا يأكل عرقاً . فلما شفاه  
الله يرك أكل العروق وفاء بنذره .

ثانياً : تضمنت أيضاً تكذيبهم في دعواهم أن ما حرم عليهم لم يكن سبب  
تحريمهم ظلمهم أو بغيهم ؛ وإنما كان محرماً على غيرهم من سبقهم من الأمم .

(١) تفسير ابن كثير - ١ - ص ٢٨٢ - بتصرف وتأخييص -

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : وهو - أى ما إشتملت عليه الآية - رد على اليهود وتكذيب لهم ، حيث أرادوا براءة ساحتهم ما نعى عليهم فى قوله - تعالى - « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . . . » وحيث أرادوا جحود ما غظهم بسبب ما نطق به القرآن من أن تحريم الطيبات عليهم كان لأجل بنهم وظلمهم فقالوا : « لسنا بأول من حرمت عليه هذه الأشياء ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل وهلم جرا ، إلى أن لآتى التحريم لإيماننا ، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا . » وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبعى والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا . . . وما عدد من مساويهم التى كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم الله عليهم نوعا من الطيبات عقوبة لهم ، (١) .

ثالثاً : تضمنت الآية كذلك أمراً من الله - تعالى - لنبية - صلى الله عليه وسلم - بأن يتحداهم بالتوراة ويكتمهم بما نطقت به ، وذلك بقوله - تعالى - فى الآية الكريمة . « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، . »

فكانه - سبحانه - يقول لهم : ما دمتم - يا معشر اليهود - قد زعمتم أن ما حرم عليكم بسبب نبيكم وظلمكم ليس محرماً حادثاً ، وإنما هو تحريم قديم على الأمم قبلكم ، فما هى ذى التوراة قريبة منكم فأحضروها واتلوها يا معان وقد بر إن كنتم صادقين فى مدعائكم ،

والتعبير بأن يشير إلى عدم صدقهم ، لأنها تدل على الشك فى الشرط .  
أى : هم ليسوا صادقين فيما يزعمون ، ولذلك لا يتلون ولا يقرؤون ، ولو جاءوا بها لكافت مؤبده لما أخبر به القرآن الكريم ، ولذلك لم يحصروا على

إخراج التوراة ، وهتوا وانقلبوا صاغرين . وفي ذلك الحججة البينة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله ، إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ، مستثنى من إسم كان ، والتقدير : كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه فإنه قد حرم عليهم في التوراة ، وليس منها ما زادوه من محرمات وادعوا صحة ذلك .

ثم توعدتم - سبحانه - على كذبهم وجحودهم فقال - تعالى - : « فن افتري على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ، » .

إفتري : من الإفتراء وهو إختلاق الكذب ، وأصله من فرى الأديم إذا تعامه ، لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له في الوجود .

أى : فن تعمد الكذب على الله - تعالى - بأن زعم بأن ما حرمته التوراة على بني إسرائيل من المطاعم بسبب ظلمهم وبقيهم ، كان محرماً عليهم وعلى غيرهم قبل نزولها ، فأولئك الذين قالوا هذا القول الكاذب هم المتناهون في الظلم ، المتجاوزون للحدود التي شرعها الله - تعالى - ، وسيعاقبهم - سبحانه - على هذا الظلم والإفتراء عذاباً ألماً لا مهرب لهم منه ولا نصير .

والغناء في قوله ، فن إفتري ، للتفريع ، ومن يحتمل أن تكون شرطية وأن تكون موصولة ، وقد روعى في الآية الكريمة لفظها ومعناها .

وقوله ، من بعد ذلك ، متعلق بإفتري ، وإسم الإشارة ذلك يعود إلى أمرهم بإحضار التوراة وما يترتب عليه من قيام الحججة وظهور البينة .

واسم الإشارة ، أولئك ، يعود إلى من ، وهو عبارة عن هؤلاء اليهود الذين جادلوا النبي - صلى الله عليه وسلم - بالباطل وافترخوا على الله الكذب .

ويحتمل أن يكون المشار إليه وهو د من ، عاما لكل كاذب ويدخل فيه اليهود دخولا أوليا .

وقد أكد الله - تعالى - وصفهم بالظلم بضمير الفصل الدال على أنهم كاملون فيه ، وموغلون في إقترافه والتمسك به .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يدعوهم إلى إتباع ملة إبراهيم إن كانوا حقا يريدون إتباعها فقال - تعالى - : **قل صدق الله فاتبوا ملة إبراهيم حنيفاً ، أى : قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين جادلوك بالباطل ولكل من كان على شاكلتهم في الكذب والظلم ، قل لهم جميعاً : صدق الله فيما أخبرنا به في قوله - تعالى - د كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه . . . . ، وفي كل ما أخبرنا به كتابه وعلى لسان رسوله . وأتم الكاذبون في دعواكم .**

وإذا كنتم تريدون الوصول إلى الطريق القويم حقا ، فاتبوا ملة إبراهيم حنيفاً ، أى فاتبوا ملة الإسلام التي عليها محمد - صلى الله عليه وسلم - وعليها من آمن به ، فهم المتبعون حقا لإبراهيم - عليه السلام - وهم أولى الناس به لأن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما .

أى كان متجها إلى الحق لا ينحرف عنه إلى غيره من الأديان أو الأقوال أو الأفعال الباطلة .

وكان مسلما ، أى كان مسلما وجهه لله ، مفردا إياه بالعبادة والطاعة والخضوع . ثم نفى الله - تعالى - عن إبراهيم كل لون من ألوان الشرك بالبلغ وجه فقال : **د وما كان المشركين ، .**

أى : وما كان إبراهيم في أى أمر من أموره من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى ، وإنما كان مخلصا لعبادته وحده .

وفي ذلك تعريض بشرك اليهود وغيرهم من أهل الكفر والضلال ، وتفتية إلى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه هم المتبعون حقا لإبراهيم ،

فقد أمر الله - تعالى - محمداً - صلى الله عليه وسلم - أن يسير على طريقة أبيه إبراهيم فقال : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، (١) .

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد حكمت قضية من القضايا الكثيرة التي جادل فيها اليهود النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وقد لقت الآيات النبي - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذي يخرس ألسنتهم ، ويكشف عن كذبهم وافتراءهم وظلمهم ، ويرشدهم ويرشد كل من يتأني له الخطاب إلى الملة القويمة إن كانوا حقاً يريدون الاهتداء إلى الصراط المستقيم .

ثم أخبر القرآن عن مسألة أخرى جادل اليهود فيها النبي - صلى الله عليه وسلم - وهي مسألة أفضلية المسجد الحرام على غيره من المساجد ، وقد رد القرآن عليهم وعلى أمثالهم في الكفر والعناد بما يثبت أن المسجد الحرام الذي نازعوا في أفضليته هو أفضل المساجد على الإطلاق فقال - تعالى - :

« إِنَّ أَوْلَىٰ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًىٰ  
لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ،  
وَلَقَدْ عَلَّمْنَا النَّاسَ حِجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، وَمَنْ كَفَرَ  
فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) » .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : في اتصال هاتين الآيتين بما قبلهما وجوه الأول : أن المراد منهما الجواب عن شبهة أخرى من شبهات اليهود في إنكار نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وذلك لأنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في نبوته وقالوا : إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال وذلك لأنه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر ، وقبلة جملة الأنبياء ، وإذا

كان كذلك كان نحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلا ، فأجاب الله عنه بقوله :  
 « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة . . . فبين - سبحانه - أن الكعبة  
 أفضل من بيت المقدس وأشرف فكان جعلها قبلة أولى . . . » (١) .

والمراد بالأولية أنه أول بيت وضعه الله لعبادته في الأرض ، وقيل المراد  
 بها كونه أولا في الوضع وفي البناء ، ورووا في ذلك آثارا ليس فيها  
 ما يعتمد عليه .

وبكة : لغة في مكة عند الأكثرين ، والبياء والميم تعقب لإحداهما  
 الأخرى كثيراً ، ومنه النيط والنيط فمما اسم لموضع . وقيل هما متغابران :  
 فبكة موضع المسجد ومكة اسم للبلد بأمرها . وأصل كلمة بكة من البك وهو  
 الأزدهام . يقال : تباك القوم إذا تزاحموا ؛ وكأنها سميت بذلك لإزدحام  
 الحجيج فيها . والبك أيضاً دق العنق ، وكأنها سميت بكة لأن الجبابرة تنفق  
 أهناقهم إذا أرادوها بسوء . وقيل أنها مأخوذة من بكأت الناقة أو الشاة إذا  
 قل لبنها ، وكأنها إنما سميت بذلك لقله ماؤها وخصبها .

والمعنى : إن أول بيت وضعه الله . . . تعالى - للناس في الأرض ليكون  
 متعبداً لهم ، هو البيت الحرام الذي بمكة ، حيث يزدحم الناس أثناء طوافهم  
 حوله ، وقد أتوا إليه رجالاً وعلى كل ضامر من كل فج عميق ليشهدوا  
 منافع لهم .

روى الشيخان عن أبي ذر قال . قلت يا رسول الله : أي مسجد وضع في  
 الأرض أول ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى .  
 قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة ، ثم قال : حينما أدركتك الصلاة فصل .  
 والأرض لك مسجد ، (٢) .

(١) تفسير الفخر ج ٨ ص ١٥١

(٢) أخرجه البزار في كتاب الأنبياء ج ٤ ص ١٩٧ ، وأخرجه مسلم في كتاب

المساجد ومواضع الصلاة ج ٢ ص ٦٣

قالوا : وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد منه فقال : معلوم أن سليمان بن داود هو الذى بنى المسجد الأقصى ، والذى بنى المسجد الحرام هو إبراهيم وابنه إسماعيل ، وبينهما وبين سليمان أكثر من ألف سنة فكيف قال - صلى الله عليه وسلم - إن بين بناء المسجدين أربعين سنة ؟

والجواب أن الوضع غير البناء ، فالذى أسس المسجد الأقصى ووضعه فى الأرض بأمر الله هو سيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وبين إبراهيم ويعقوب هذه المدة التى جاءت فى الحديث ، أما سليمان فلم يكن مؤسساً للمسجد الأقصى أو واضعاً له وإنما كان مجدداً فلا إشكال ولا منافاة .

وإذن فالبيت الحرام أسبق بناء من المسجد الأقصى ، وأجمع منه للديانات السماوية ، وهو - أى البيت الحرام - أول بيت جعل الله الحج إليه عادة مفروضة على كل قادر على الحج ، وجعل الطواف حوله عبادة ، وتقبيل الحجر الأسود الذى هو ضمن بنائه عبادة ... ولا يوجد بيت سواه فى الأرض له من المزايا والخصائص ما لهذا البيت الحرام .

وبذلك ثبت كذب اليهود فى دعواهم أن المسجد الأقصى أفضل من المسجد الحرام ، وأن فى تحول الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الكعبة فى صلواته مخالفة للأنبياء قبله .

ثم مدح الله - تعالى - بيته بكونه مباركاً ، أى كثير الخير دائمه ، من البركة وهى النماء والزيادة والدوام .

أى أن هذا البيت كثير الخير والنفع لمن حججه أو اعتمره أو اعتكف فيه ، أو طاف حوله ، بسبب مضاعفة الأجر ، وإجابة الدعاء ، وتكفير الخطايا لمن قصده بإيمان وإخلاص وطاعة لله رب العالمين .

وإن هذا البيت فى الوقت ذاته وفير البركات المادية والمعنوية .

فن بركاته المادية : قدوم الناس إليه من مشارق الأرض ومغاربها .  
والمعنوية : تقدمه على سائر الأماكن المتنافسة .

الصدقة تارة أخرى لمن يسكنون حول هذا البيت الحرام، إجابة لدعوة سيدنا إبراهيم حيث قال: «ربنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أئمة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» (١).

ومن بركاته المعنوية: أنه مكان لا كبرعبادة جامعة للمسلمين وهى فريضة الحج، وإليه يتجه المسلمون فى صلاتهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأماكنهم. وقوله «مباركا» حال من الضمير فى «وضع».

ثم مدحه بأنه «هدى للعالمين» أى هو بذاته مصدر هداية للعالمين، لأنه قبلهم ومتبعدهم، وفى استقباله توجيهه للقلوب والعقول إلى الخير وإلى ما يوصلهم إلى رضا الله وجنته.

ثم مدحه - ثالثا - بقوله «فيه آيات بينات» أى فيه علامات ظاهرات، ودلائل واضحات تدل على شرف منزلته، وعلو مكانته. وهذه الجملة السكريمة مستأنفة لبيان وتفسير بركته وهده.

ثم بين - سبحانه - بعض هذه الآيات البينات الدالة على عظمه وشرفه فقال: «مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا».

فآية الأولى الدالة على عظم وشرف البيت الحرام «مقام إبراهيم» أى المقام المعروف بهذا الاسم. وهو الموضع الذى كان يقوم فيه إبراهيم تجاه الكعبة لعبادة الله - تعالى - ولإتمام بناء الكعبة ومعنى أن فى البيت مقام إبراهيم أى أنه فى فناءه ومتصل به.

قال ابن كثير: عن جابر - رضى الله عنه - أن الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى».. لجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين.... والمراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان

إبراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة ، لما ارتفع الحدار أتاه إسماعيل بهذا الحجر ليقوم فوقه ويتاوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار .

ثم قال : وقد كان هذا المقام منسقا بجدار الكعبة قديما ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر بمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك .... وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى ناحية المشرق حيث هو الآن ، ليتمكن الطائفون من الطواف ، وليصلي المصلون عنده دون تشويش عليهم من الطائفين (١) .

وقوله ، مقام إبراهيم ، مبتدأ محذوف الخبر أى مقام إبراهيم منها أى من هذه الآيات البينات . أو خبر لمبتدأ محذوف أى فيه آيات بينات أحدهما مقام إبراهيم .

وقد رجح ابن جرير أن قوله - تعالى - « مقام إبراهيم » هو بعض الآيات البينات التي في البيت الحرام فقال : وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال : الآيات البينات منهن مقام إبراهيم . وهو قول فتادة ومجاهد الذي رواه معمر عنهما فيكون الكلام مرادا منهن ، فترك ذكره اكتفاء بدلالة الكلام عليهما : فإن قال قائل : فهذا المقام من الآيات البينات فما سائر الآيات التي من أجلها قيل ، آيات بينات ، لا قيل : منهن المقام ، ومنهن الحجر ، ومنهن الحطيم ... ، (٢) .

وقال ابن عطية : والراجح عندي أن المقام وأمن الداخلين جعلامثالاماف حرم الله من الآيات ، وخصا بالذكر لعظمهما وأنهما تقوم بهما الحججة على الكفار ، إذ هم مدركون لهاتين الآيتين بحواسهم ، (٣) .

وأما الآية الثانية التي تدل على فضل هذا البيت وشرفه فقد بينها القرآن بقوله : « ومن دخله كان آمنا » .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٧٠ . بتصريف والتخصيص .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ١١ .

(٣) حاشية الخطيب على الخلاصة ج ١ ص ٢٩٧ .

أى من التجأ إليه أمن من التعرض له بالأذى أو القتل قال - تعالى -  
 « أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ، وفى ذلك لإجابة  
 لسيدنا إبراهيم حيث قال - كما حكى القرآن عنه - : « رب اجعل هذا البلدا آمنا  
 وأجنبتى وبنى أن نعبد الأصنام ، ولا شك أن فى أمن من دخل هذا البيت أكبر  
 آية على تعظيمه وعلى علو مكانته عند الله ، لأنه موضع أمان الناس فى بيته  
 تفرد بالإعتداء لخلوها من الزرع والنبات .

وفى الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمر بن  
 سعيد وهو يبعث البعوث لمكة - يعنى لقتال عبد الله بن الزبير - : « أئذن لى أياها  
 الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الغد من يوم  
 الفتح - سمعته أذنانى ووعاه قلبى ، وأبصرته عينائى - حين تكلم به (١) : أنه  
 حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ولم يجرمها الناس ، فلا يحل  
 لأمرى يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً أو يعضد بها شجرة ، فإن  
 أحد ترخص بقتال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها - أخذ فيه بالرخصة  
 فقولوا له : إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار ،  
 وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب .

فقبل لأبى شريح ما قال لك عمرو ؟ فقال أبو شريح : قال لى : يا أبا  
 شريح أنا أعلم بذلك منك إن الحرم لا يعيد عاصياً - أى لا يجيره ولا يعصم  
 دمه - ولا فاراً بدم - أى أن الحرم لا يجير إنساناً هارباً إليه لسبب من  
 الأسباب الموجبة للقتل - ولا فاراً بخربة - أى بسبب سرقة أو خيانة (٢) .  
 واتفق كان أهل الجاهلية يعظمون المسجد الحرام - وخصوصاً أهل مكة -

(١) أراد بقوله : سمعته أذنانى ... الخ المبالغة فى تحقيق حفظه إياه ، وثيقته من  
 زمانه ومكانه ولفظه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب العلم . باب فليبلغ الشاهد الغائب ج ١ ص ٣٧  
 وأخرجه مسلم فى كتاب الحج ج ٤ ص ١٠٩

فلما جاء الإسلام أقر له هذه الميزة وزكاها . ووضع لها الضوابط والأحكام التي تضمن استعمالها في الوجوه التي شرعها الله .

فقد إتفق الفقهاء على أن من جنى في الحرم جنابة فهو مأخوذ بجنابته سواء أكانت في النفس أم فيما دونها .

وإختلفوا فيمن جنى في غير الحرم ثم لاذ إليه . فقال أبو حنيفة وابن حنبل : إذا قتل في غير الحرم ثم دخل الحرم لا يقتص منه ما دام فيه ؛ ولكن لا يجالس ولا يعامل ولا يؤاكل إلى أن يخرج منه فيقتص منه . وإن كانت جنابته فيما دون النفس في غير الحرم ثم دخل الحرم اقتص منه .

وقال مالك والشافعي يقتص منه في الحرم لذلك كله كما يقتص منه في الحل .

ولكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفقه .

ثم أخبر - سبحانه - عن وجوب الحج على كل قادر عليه فقال :  
 ووقع على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين .

أى أن الله - تعالى - فرض على الناس أن يحجوا بيته في أوقات معينة وبكيفية مخصوصة متى كان في استطاعتهم أداء هذه الفريضة .

ومن كفر ، أى من جحد فريضة الحج وأنكرها ، ولم يؤدها مع استطاعته وقدرته على أدائها فإن الله غني عنه وعن حجه وعن الناس جميعاً .

قال صاحب الكشاف : وفي هذا الكلام أنواع من التأكيد والتشديد منها قوله : ووقع على الناس حج البيت ، يعنى أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهده . ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل منه من استطاع إليه سبيلا وفيه ضربان من التأكيد : أحدهما أن الإبدال تثنية لله اد وتكرره . والثاني أن الإيضاح بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال

ليراد له في صورتين مختلفتين . ومنها قوله : « ومن كفر ، مكان ومن لم يحج تغليظاً على تارك الحج ، ولذلك قال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً . ومنها ذكر الاستغناء عنه ، وذلك بما يدل على المقث والسخط والخذلان . ومنها قوله : « عن العالمين ، ولم يقل عنه ، لأن فيه الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ولأنه يدل على الاستغناء الكامل ، فكان أدل على عظم السخط . . . » (١) .

وقوله : « وقته ، خبر مقدم متعلق بمحذوف أى واجب . وقوله : « على الناس ، متعلق بهذا المحذوف . وقوله : « حج البيت ، مبتدأ مؤخر .

والناس عام مخصوص بالمنستطيع ، وقد خصص ببدل البعض في قوله : « من استطاع إليه سبيلاً ، إذ هذه الجملة بدل من الناس بدل البعض من الكل والضمير في البدل مقدر أى من استطاع منهم إليه سبيلاً .

و « من ، في قوله : « ومن كفر ، يحتمل أن تكون شرطية وهو الظاهر ، - أن تكون موصولة . وعلى الاحتمالين استغنى فيما بعد الفاء عن الرابطة بإقامة الظاهر مقام المضمرة إذ الأصل « ومن كفر فإن الله غنى عنه فاستغنى بالظاهر عن المضمرة .

قال ابن كثير : والجمهور يرى أن هذه الآية هي آية وجوب الحج . وقيل بل هي آية « وآموا بالحج والمرة لله ، والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقوائمه ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً حاضراً ورئياً وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع فعن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال يا أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله؟

فسكت حتى قالها ثلاثا . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قام رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : ما السبيل يا رسول الله ، فقال : الزاد والراحلة ، (١) .

وبذلك تكون هاتان الآيتان والآيات التي قبلهما قد ردت على اليهود في دعواهم أن ما حرمه الله عليهم من طيبات لم يكن عقوبة لهم بسبب ظلمهم وبغيتهم وكذبهم في دعواهم أن بيت المقدس أفضل من المسجد الحرام .

وقد اشتمل هذا الرد على ما يشهد لإفترامهم من واقع التاريخ ، فقد أمر الله - تعالى - النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يقابلهم بإحضار التوراة إن كانوا صادقين في دعواهم . فبهتوا وانقلبوا صاغرين ، وأثبت القرآن أن البيت الحرام أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله ، فهو يسبق بيت المقدس في أولوية الشرف والزمان وإذن يجادل اليهود للنبي - صلى الله عليه وسلم - في هذه الأمور ما هو إلا نوع من عنادهم وجحودهم للحق ، والمعاند والجاحد لا ينفع معهما دليل أو برهان .

وبعد هذا الرد المفحم من القرآن على اليهود في هاتين القضيتين - قضية ما حرم عليهم من الأطعمة وقضية نزاعهم في أفضلية البيت الحرام - بعد كل ذلك ساق القرآن طرفا من مسالكهم الخبيثة لتكيد الإسلام والمسلمين عن طريق محاولتهم الدس والوقيعمة وإثارة الفتنة بين المؤمنين . وقد حذر الله المؤمنين من شرورهم بعد أن وبخ اليهود على مكرمهم ، وتوعدهم بسوء المصير .

استمع إلى القرآن وهو يسوق هذه المعاني بألوه الحكيم فيقول :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبُغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بِمَدِّ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ فِيكُمْ رَسُولُهُ ، وَمَن يَمْتَصِحْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) » .

أخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال : مر شاس بن قيس - وكان شيخاً قد عسا<sup>(١)</sup> في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم - مر على نفر من الصحابة من الأوس والخزرج في بئس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاضه مارأى من جماعهم وألفهم وصلاح ذات بينهم

(١) عسا الشيخ : كبر وأسن من عسا القضيبي إذا ببس .

على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية . فقال : قد اجتمع  
 ملائكة بني قيلة<sup>(١)</sup> بهذه البلاد ، والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا مؤم بها من قرار .  
 فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال له اعد لايهم فاجلس معهم وذكركم يوم  
 بعثت ، وما كان قبله وأنشدكم بعض ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار . وكان  
 يوم بعثت يوماً اقتتلتم فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على  
 الخزرج - ففعل . فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى توائب  
 رجلاً من الحيين على الركب : أوس بن قيطى من الأوس ، وجبار بن صخر  
 من الخزرج فتناولوا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئت والله رددناها الآن  
 جذعة<sup>(٢)</sup> ، وغضب الفريقان وقالوا : قد فعلنا ، السلاح موعدهم الظاهرة .  
 والظاهرة : الحرة - فخرجوا إليها ونحاور الناس . فانضمت الأوس بعضها إلى  
 بعض والخزرج بعضها إلى بعض ، على دعواتهم التي كانوا عليها في الجاهلية . فبلغ ذلك  
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه  
 حتى جاءهم . فقال يا معشر المسلمين : الله الله أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم  
 بعد إذ هداناكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ،  
 واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً  
 فحرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من  
 أيديهم ، وبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا  
 مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد  
 عدو الله شامس بن قيس . وما صنع .

فأنزل الله في شامس بن قيس وما صنع دقل يا أهل الكتاب لم تكفرون  
 الآية ، وأنزل في أوس بن قيطى وجبار بن صخر ومن كان معهم من قومهما  
 الذين صنعوا ما صنعوا ، يأبها الذين آمنوا أن تظلموا فريقتا من الذين أتوا

(١) قيلة : هي قلة : بنت كاهل بن عذرة وهي أم الأوس والخزرج .

(٢) جذعة : هابة فتية . يريد عودة الحرب قوية كما كانت .

الكتاب . . . إلى قوله : وأولئك لهم عذاب عظيم ، (١) - فما كان يوم أُنزِل  
أولاً وأحسن آخر من ذلك اليوم . -

وقوله - تعالى - قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله . . .  
أمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يوبخ هؤلاء اليهود  
ومن لف لفهم على مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية ، وإيذاء أتباعها  
ومحاولتهم صرف الناس عنها .

أى : قل يا محمد هؤلاء اليهود الذين كفروا بالحق بعد أن حامتهم البينات :  
لم تعاندون الحق وتكفرون بآيات الله السمعية والعقلية الدالة على صدق فيما  
أبلغه عن ربي ، والحال أن الله مطلع عليكم وعالم علم المعاین المشاهد لأعمالكم  
الظاهرة والخفية ، وسيجازيكم عليها بما تستحقونه من عقاب أليم .

فآية الكريمة قد تضمنت تأنيبهم على الكفر . ونهيدهم بالعقاب إذا  
استمروا في مسالكهم الأثيمة .

ولكى يكون التأنيب أوجع ، أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم -  
أن يناديهم بقوله : يا أهل الكتاب ، ، لأن علمهم بالكتاب يستلزم منهم  
الإيمان ، والإذعان للحق ، ولكنهم اتخذوا عليهم وسيلة للشروع والتضليل  
فكان مسلكهم هذا دليلاً على فساد فطرتهم ، وخبث طويبتهم وسوء طباعهم .

وبعد أن أنبههم القرآن الكريم في هذه الآية على كفرهم وضلالهم ، أمر  
الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - في آية ثانية أن يوبخهم على  
محاولتهم إضلال غيرهم فقال - تعالى - : قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن  
سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء ، وقوله : تصدون ، من الصد  
وهو صرف الغير عن الشيء ومنعه منه . يقال : صد يصد صدوداً ، وصدداً .

وقوله « سبيل الله ، أى طريقة الموصلة وهى ملة الإسلام .

وقوله « تبغونها عوجا ، أى تطلبون لها العوج . يقال : بغيت له كذا أى طلبته . والعوج - بكسر العين - الميل والزيغ فى الدين والقول والعمل وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج . والعوج - بفتح العين - يكون فى المحسوسات كالميل فى الحائط والرمح وكل شىء منتصب قائم أى أن مكسور العين يكون فى المعانى ومفتوحها يكون فى الأعيان . والمعنى : قل يا محمد لأهل الكتاب مرة أخرى مبالغة فى تقريرهم ، وإزاحة لأعدارهم ، لآى شىء تصرفون المؤمنین عن الإيمان الحق ، وتمنعون من آمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - عن الاستمرار على إتباعه ، وتشيرون الفتنة والوقیعة بین أصحابه .

وقوله : « تبغونها عوجا ، أى تطلبون العوج والميل لسبيل الله الواضحة والميل بها عن القصد والإستقامة ، وتريدون أن تكون ملتوية غير واضحة فى أعین المهتدين ، كما التوت نفوسكم ؛ وإنحرفت عقولكم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف قال تبغونها عوجا وهو محال ؟ قلت : فيه معنيان : أحدهما أنكم تلبسون على الناس حتى توهموم أن فيها أوجاجا بقولكم إن شريعة موسى لا تنسخ ، وبتغييركم صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن وجهها وغير ذلك .

والثانى أنكم تعبون أنفسكم فى إخفاء الحق لإبتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيها هو أقوم من كل مستقيم ، (١) .

وقوله « من آمن ، مفعول به لتصدون . والضمير المنصوب فى قوله « تبغونها ، يعود إلى سبيل الله أى تبغون لها خذفت اللام كما فى قوله - تعالى - « وإذا كالوهم ، أى كالوا لهم . وقوله « عوجا ، مفعول به اتبعون . وبعضهم جعل الضمير المنصوب فى « تبغونها ، وهو الماء ، هو المفعول .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٩٣ .

وجعل عرجا حال من سبيل الله . أى تبغونها أن تكون معوجة وتريدونها في حال عوج وإضطراب .

وقوله ، وأقم شهاداء ، حال من فاعل ، تصدون ، أو تبغون ، .

أى والحال أنكم تعلمون بأن سبيل الإسلام هى السبيل الحق علم من يعاين ويشاهد الشئ . على حقيقته ، فوجودكم عن علم ، وكفركم ليس عن جهل ، واقدكار المتوقع منكم يا من ترون الحق الذى جاء به محمد - صلى الله عليه - وسلم - فى كتابكم ، أن تكونوا أول المسارعين إلى الإيمان به ، ولكن الحسد والعناد حالا بينكم وبين الإنتفاع بالنور الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله ، وما الله بغافل عما تعملون ، تهديد لهم ووعيد على ضلالهم ومحاولتهم لإضلال غيرهم ، لأنه - سبحانه - ليس غافلا عن أعمالهم ، بل هو سيجازيهم على هذه المالك الخبيثة بالفشل والذلة فى الدنيا ، وبالعذاب والهوان فى الآخرة . ولما كان صدم المؤمنين بطريق الخفية ختمت الآية الكريمة بما يحسم مادة حيلتهم . ببيان أن الله - تعالى - محيط بكل ما يصدر عنهم من أقوال أو أعمال وليس غافلا عنها . بخلاف الآية الأولى فقد كان كفرهم بطريق العلانية لذا ختمت ببيان أن الله مشاهد لما يعملونه ولما يجاهرون به .

وبعد أن بين - سبحانه - فى هاتين الآيتين أن اليهود قد جمعوا الحستين ضلال أنفسهم ، ثم محاولتهم تضليل غيرهم ؛ تركهم مؤقتا فى طغيانهم يعمهون ووجه نداء إلى المؤمنين يحذرهم فيه من دسائس اليهود وكيدهم ، وينهاهم عن الركون إليهم ، والاستماع إلى مكرهم فقال - تعالى - ، يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، .

والمعنى : لأنكم أيها المؤمنون إن استمعتم إلى ما يلقى به بعض أهل الكتاب بينكم من دسائس ولتم لهم ، لا يكتفون بإيقاع العداوة والبغضاء . بينكم كما فى الجاهلية ، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولتهم إعادتكم إلى وثنيكم القديمة وكفرا بالله بعد إيمانكم .

وقد خاطب الله المؤمنين بذاته في هذه الآية بعد أن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم - بأن يخاطب أهل الكتاب في الآيتين السابقتين، لإظهار إرادة قدرهم، وإشعاراً بأنهم الأحقاء بالمخاطبة من الله - تعالى - .

وناداهم بصفة الإيمان، لتحريك حرارة العقيدة في قلوبهم، وتوجيه وطمحهم إلى ما يستدعيه الإيمان من فطنة ويقظة. فالؤمن ليس خبا ولكن نب لا يخدعه .

وفي التعبير « يان » في قوله : « إن تطيعوا فريقاً ، إشارة إلى أن طاعتهم هود ليست متوقعة ، لأن لإيمانهم بمنعم من ذلك .

ووصف - سبحانه - الذين يجارلون الواقعة بين المؤمنين بأنهم فريق من ذين أوتوا الكتاب ، إنصافاً لمن لم يفعل ذلك منهم .

ونعتهم بأنهم « أوتوا الكتاب » للإشعار بأن تضليلهم متعمد . وبأن مرمهم على المؤمنين مقصود ، فهم أهل كتاب وعلم ، ولكنهم استعملوا عليهم ، الشرور والآثام .

وقوله : « يردوكم » ، أصل الرد الصرف والإرجاع ، إلا أنه هنا مستعار تغير الحال بعد المخالطة فيفيد معنى التصيير كقول الشاعر :

فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوهن البيض سوداً

أى : يصيروكم بعد إيمانكم كافرين . والكاف مفعوله الأول ، وكافرين مفعوله الثاني

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - في آية أخرى : « ود كثير من أهل لكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ... » (١) .

ثم بين القرآن بعد ذلك أنه ما يسوغ للمؤمنين أن يطاعوا هذا الفريق من

الذين أوتوا الكتاب ، أو أن يكفروا بعد إيمانهم ، أو أن يتفرقوا بعد وحدتهم فقال - تعالى - : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، والاستفهام في قوله : « وكيف تكفرون ، للإنكار ، والاستبعاد كفرهم في حال اجتماع لهم فيها كل الأسباب الداعية إلى الإيمان .

أى : كيف يتصور منكم الكفر ، أو يسوغ لكم أن تسيروا في أسبابه وآيات الله تقرأ على مسامعكم غضة طرية صباح مساء ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين ظهرانيكم ، يردكم إلى الصواب إن أخطأتم ، ويزيح شبهكم إن التبس عليكم أمر .

وفي هذا ما يؤمى - إلى إلقاء اليأس في قلوب هذا الفريق من اليهود من أن يصلوا إلى ما يفرقونه بين المؤمنين في وقت يذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - المؤمنين بما ينفعهم ؛ ويحذرهم بما يؤذيهم ويضرهم .

وفي توجيه الإنكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر مبالغة ، لأن كل موجود لا بد أن يكون وجوده على حال من الأحوال ، فإذا أنكر ونفى في جميع الأحوال انتفى وجوده بالكلية بالطريق البرهاني

وقوله « وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، جملتان حاليتان من فاعل « تكفرون ، وهو ضمير الجماع . وهاتان الجملتان هما عطف الإنكار والاستبعاد .

أى أن كلا من تلاوة آيات الله وإقامة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيهم ، وازع لهم عن الكفر ، ودافع لهم إلى التمسك بهرى الإيمان .

ففي الآية الكريمة دلالة على عظم قدر الصحابة ، وإن لهم وازعين عن هو اقعة الضلال : سماع القرآن ، ومشاهدة أنوار الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإن وجرده عصمة من ضلالهم ،

قال قتادة : أما الرسول فقد مضى إلى رحمة الله ، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر .

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى الوسيلة التي تمسكوا بها عصموا أنفسهم من مكر اليهود فقال - تعالى - : « ومن يمتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . »

أي ومن يلتجئ إلى الله في كل أحواله ويتوكل عليه حق التوكل ، ويتمسك بدينه ، فقد هدى إلى الطريق الذي لا عوج فيه ولا إنحراف : وفي هذا إشارة إلى أن التمسك بدين الله وبكتابه كفيلاً بأن يبعد المسلمين الذين لم يشاهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما يبيته لهم أعداؤهم من مكر وخداع .

قال ابن جرير ما ملخصه : وأصل العصم : المنع . فكل مانع شيئاً فهو عاصمه ، والممتنع به معتصم به ، ولذلك قيل للجبل : عصام ، وللسبب الذي يتسبب به الرجل إلى حاجته عصام وأفصح اللغتين : إدخال الباء كما قال - عز وجل - « واعتصموا بحبل الله جميعاً ، وقد جاء اعتصمته ، (١) . »

ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين بمجامع الطاعات ، ومعاقد الخيرات ، فقال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . »

وقوله « حق تقاته ، اتقوا الله » ، مصدر وهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها . إذ الأصل : اتقوا الله اتقوا الحق . أي الثابتة ، كقولك ضربت زيدا أشد الضرب تريد الضرب الشديد . وقيل اتقوا لاسم مصدر من اتقى كالتؤدة من أتاد والمعنى : بالغوا أي المؤمنون في التمسك بتقوى الله ومراقبته وخشيته حتى لا تتركوا منها شيئاً ، ولا تكونن على ملة سوى الإسلام إذا أدرككم

الموت ، وإنما عليكم أن تستمروا على دينكم القويم حتى يأتيكم الأجل الذي لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون .

وقد ساق ابن كثير بعض الآثار التي وردت عن بعض السلف في تفسير هذه الآية الكريمة فمن ذلك ما روى عن عبدا لله بن مسعود أنه قال في معنى الآية تقوى الله حق تقواه : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا ينكفر . .

وروى عن أنس أنه قال : لا يتقى الله العبد حق تقائه حتى يخزن لسانه . وقوله : ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون ، هو نهي في الصورة عن موتهم إلا على هذه الحالة . والمراد دوامهم على الإسلام ، وذلك أن الموت لا بد منه فكأنه قيل : دواموا على الإسلام إلى أن يدر كحكم الموت فتتموتوا على هذه الملة السمحاء وهي ملة الإسلام . لكي تفوزوا برضا الله وحسن ثوابه .

والجملة الكريمة في محل نصب على الحال من ضمير الجماعه في : اتقوا ، . والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال : أي لا تموتن على حالة من الأحوال إلا على هذه الحالة الحسنة التي هي حالة المداومة على التمسك بالإسلام وتعاليمه وآدابه . . .

قال صاحب الكشاف : قوله : ولا تموتن ، معناه ولا تموتن على حال سوى حال الإسلام إذا أدر كحكم الموت ، وذلك كأن تقول لمن تستعين به على لقاء العدو : لا تأتي إلا وأنت على حصان ، فأنت لا تنهيه عن الإتيان ولكنتك تنهيه عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان ، (١) .

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بمداومة خشيته ، والاستمرار على دينه ، أتبع ذلك بأمرهم بالاعتصام بدينه وبكتابه فقال - تعالى - ، وإعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . . . . .

فهذه الآية الكريمة تأكيد لما إشتملت عليه سابقها من مداومة التقوى والطاعة لله رب العالمين .

والاعتصام : إفتعال من عصم وهو طالب ما يعصم أى يمنع من السقوط والوقوع .

وأصل الجبل : ما يشد به للإرتقاء أو التدى أو للنجاة من غرق أو نحوه ، أو للوصول إلى شئ معين .

والمراد بجبل الله هنا : دينه ، أو عهده ، أو كتابه ، لأن التمسك بهذه الأشياء يوصل إلى النجاة والفلاح .

والمعنى : كونوا جميعا مستمسكين بكتاب الله ودينه وبعهدوه ، ولا تتفرقوا كما كان شأنكم فى الجاهلية يضرب بعضكم رقاب بعض ، بل عليكم أن تجتمعوا على طاعة الله ، وأن تكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وبذلك تفوزون وتسمدون وتنتصرون على أعدائكم .

فى الجملة الكريمة إستعارة تمثيلية حيث شبه - سبحانه - الحالة الحاصلة من تمسك المؤمنين بدينه وبكتابه وبعهدوه وبوحدتهم ، بالحالة الحاصلة من تمسك جماعة بجبل وثيق مأمون الانقطاع ألقى إليهم من منقذ لهم من غرق أو سقوط أو نحوهما .

وإضافة الجبل إلى الله - تعالى - قرينة على هذا التمثيل .

وقوله « جميعا » حال من ضمير الجماعة فى قوله « وإعتصموا » .

فالجملة الكريمة تأمر المسلمين جميعا أن يعتصموا بعهد الله ودينه . وبكتابه ، وأن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، وأن يفتدوا بالفرق والاختلاف الذى يؤدى إلى ضمهم وفشلهم .

والله اعلم بالصواب .

يمشى على طريق دقيق يخاف أن تغزلق رجله ، فإنه إذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبه ذلك الطريق أمن من الخوف . ولا شك أن طريق الحق طريق دقيق . وقد أنزلت أرجل كثير من الخلق عنه . فناعتهم بدلائل الله وبياناته فإنه يأمن بذلك الخوف ، فكان المراد من الحبل هنا : كل شىء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين . وهو أنواع كثيرة فمنهم من قال المراد به عهد الله . . . ومنهم من قال المراد به القرآن ، فقد جاء في الحديث : هو حبل الله المتين ، ومنهم من قال المراد به طاعة الله . . . وهذه الأفعال كلها متقاربة والتحقيق ما ذكرناه من أنه لما كان النازل في البر يمتصم بحبل تحرز من السقوط فيها ، وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته وموافقته لجماعة المؤمنين خروا لصاحبه من السقوط في جهنم ، جعل ذلك جبلا لله وأمروا بالإعتصام به<sup>(١)</sup> ثم أمرهم - سبحانه - بتذكر نعم الله عليهم فقال : واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . . . .

قوله : وشفاه حفرة ، الشفا طرف الشىء وحرفه مثل شفا البئر ، وشفاه الحفرة ومنه يقال : فلان أشفا على الشىء إذا أشرف عليه ، كما أنه بلغ شفاه أى حده وحرفه .

والمعنى : واذكروا أيها المؤمنون وتنبهوا بمقولكم وقلوبكم إلى نعمة الله عليكم بتأليف نفوسكم ، ورأب صدوعكم ، فقد كنتم في الجاهلية أعداء متقاتلين متنازعين ، فألف بين قلوبكم بأخوة الإسلام فأصبحتم متحابين متناصحين متوادين ، وكنتم على وشك الوقوع في النار بسبب اختلافكم وضلالكم فمن الله عليكم وأنقذكم من التردى فيها بهدایتكم إلى الحق عن طريق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى أرسله ربه رحمة للعالمين . إذا فن الواجب عليكم وفاء لهذه النعم أن تشكروا الله عليها وأن تطيعوا

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١٧ . طبعة عبد الرحمن محمد .

رسولكم - صلى الله عليه وسلم - ، وأن تتمسكوا بهمري المحبة والمودة والأخوة فيما بينكم .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء... إلخ ، هذا السياق في شأن الأوس والخزرج ، فإنه كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية . وعداوة شديدة ، وضغائن وإحن طال بسببها قتالهم ، والوقائع بينهم ، فلما جاء الله بالإسلام ، فدخل فيه من دخل منهم ، صاروا إخوانا متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها إذ هداهم للإيمان وقد امتن عليهم بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم ، بما فضل عليهم في القسمة بما أراه ، فخطبهم فقال يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فآلفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ؟ فكانوا كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن ، (١) .

وفي هذه الآية الكريمة تصوير بديع مؤثر لحالة المسلمين قبل الإسلام وحالتهم بعد الإسلام .

فقد صور - سبحانه - حالهم وتردبهم في الكفر والاختلاف والتقاتل قبل أن يدخلوا في الإسلام بحال من يكون على حافة حفرة من النار يوشك أن يقع فيها .

وصور هدايته لهم إلى سبيل الحق والمحبة والإخاء بدخولهم في الإسلام ، عن طريق محمد - صلى الله عليه وسلم - بحالة من يبعد غيره عن التردى في النار وينقذه من الوقوع فيها .

قال صاحب الكشاف : « والضمير المجرور في قوله « فأنا قد كنتم منها » يعود للحفرة أو للنار أو للشفا ، وإنما أنت لإضافته إلى الحفرة - فاكاتب التأنيث من المضاف إليه - كما قال : كما شرفت صدر القناة من الدم ... وشفا الحفرة وشفتها : حرقها ، بالتذكير والتأنيث .

فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار ؟ قلت : لو ما تراعى ما كانوا عليه لوقعوا في النار ، فثلث حياهم التي يتوقع بعدها الوقوع في النار بالعود على حرفها ، مشفين - أى مشرفين - على الوقوع فيها .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

أى كهذا البيان الواضح الذي سمعتموه في هذه الآيات ، يبين الله لكم دائما من آياته ودلائله وحججه ما يسمدكم في الدنيا والآخرة ، وما يأخذ بيدكم إلى وسائل الهداية وأسبابها ، رجاء أن تكونوا ممن رضى الله عنهم وأرضاهم بسبب اهتدائهم إلى الصراط المستقيم .

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بتكميل أنفسهم عن طريق خشيته وتقواه والاعتصام بدينه وبكتابه ، عقب ذلك بأمرهم بالعمل على تكميل غيرهم وإصلاح شأنه عن طريق دعوته إلى الخير وإبعاده عن الشر فقال - تعالى - :  
« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

الأمة : الجماعة التي تؤم وتقصد لأمر ما . وتطلق على أتباع الأنبياء كما تقول : نحن من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - . وعلى الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به كقوله - تعالى - : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا » (٢)

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٩٦

(٢) سورة النحل ، الآية ١٢٠

وعلى الدين والملة كقوله - تعالى : « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، (١) . وعلى  
الحين والزمان كقوله - تعالى - ، وقال الذي نبأنا منهما واذكر بعد أمة ، (٢) .  
والمراد بالأمة هنا الطائفة من الناس التي تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير  
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والمراد بالخير ما فيه صلاح للناس ديني أو دنيوي .

والمراد بالمعروف ما حسنه الشرع وتمامه العقلاء على حسنه ، والمنكر  
ضد ذلك .

والعنى : ولتكن منكم أيها المؤمنون طائفة قوية الإيمان ، عظيمة  
الإخلاص ، تبذل أقصى طاقتها وجهدها في الدعوة إلى الخير الذي يصلح من  
شأن الناس ، وفي أمرهم بالتمسك بالتعليم وبالأخلاق التي توافق الكتاب والسنة  
والعقول السليمة . وفي نهيمهم عن المنكر الذي ياباه شرع الله ، وتنفير منه  
الطباع الحسنة .

وقوله : « ولتكن ، صيغة وجوب من الله - تعالى - على كل من يصلح  
لمهمة الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وتكن إما من كان التامة أى : ولتوجد منكم أمة فيكون قوله : « أمة ،  
فاعلا لتكن وجملة « يدعون .... » صفة لأمة ، « و منكم » متعلق بتكن .

وإما من كان الناقصة فيكون قوله : « أمة ، اسمها ، وجملة « يدعون ،  
خبرها ، وقوله « منكم » متعلق بكان الناقصة ، أو بمحذوف وقع حالا  
من أمة .

و « من » في قوله - تعالى - : « ولتكن منكم أمة » يرى أكثر العلماء  
أنها للتبويض .

(١) سورة الزخرف الآية ٢٢ .

(٢) سورة يوسف الآية ٤٥ .

أى : ليكن بعض منكم أمة أى طائفة تبذل جهودها فى تبليغ رسالات الله ، وفى دعوة الناس إلى الخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

وفى هذا التبويض وتمسكهم أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك ، وأنه لا يخاطب به إلا الخواص . ومن هذا الأسلوب قوله - تعالى - : « اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لعد ، <sup>(١)</sup> فقد وجه الخطاب إلى نفس منكreme ، تنبها على قلة الناظر فى معاده .

وعلى هذا فكان الآية الكريمة قد اشتملت على ضلحين : أحدهما موجه إلى الأمة كلها بطلبها بأن تعد طائفة من بينها لهذه المهمة السامية وهى دعوة الناس إلى الخير ، وأن تزود هذه الطائفة الصالحة لهذه المهمة بكل ما يمكنها من أداء مهمتها .

وثانيهما : موجه إلى تلك الطائفة الصالحة لهذه المهمة ، بأن تخلص فيها ، وتؤديها على الوجه الأكمل الذى يرضى الله - تعالى - .

ويرى بعض العلماء أن « من » فى قوله - تعالى - « ولتكن منكم أمة ، يسانيه .

فيكون المعنى أن الأمة كلها عليها واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لاعلى سبيل الفرض الكفائى ، بل على سبيل الفرض العيني .

أى : لتسكنوا أيها المؤمنون جميعاً أمة تدعوا إلى الخير وتأمروا بالمعروف وتنهى عن المنكر . فمن هنا ليس المراد بها التبويض على هذا الرأى بل المراد بها البيان ، وذلك كقولك . لفلان من أولاده جند ، والأمير من غلماناه عسكر ، تريد بذلك جميع أولاده وغلماناه .

ويبدو لنا أن الرأى الأول وهو أن « من » ، للتبويض أقرب إلى الصواب ، لأن الأمة كلها برجالها ونسائها وشبابها وشيوخها لاتصلح لهذه المهمة السامية ،

وإنما يصلح لها من يجيدها ويحسنها بأن تكون عنده القدرة العقلية، والعلمية، والنفسية، والخلقية، لأدائها .

ولذا قال صاحب الكشاف مرجحاً أن « من » للتبويض : وقوله « ولتكن منكم أمة » ، من للتبويض ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات ، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يبائسه ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فهناك عن غير منكر . وقد يغفل في موضع اللين ، ويلين في موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمادياً ، أو على من الإنكار عليه عبث ...

وقيل « من » للتبيين ، بمعنى : وكونوا أمة تأمرون .. كقوله - تعالى - « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » (١) .  
وقوله - تعالى - : « يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، معضوف على قوله : « يدعون إلى الخير » ، من باب عطف الخاص على العام .

وفائدة هذا التخصيص ذكر الدعاء إلى الخير عاماً ثم مفصلاً على هذين الوجهين وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنهما أشرف ألوان الدعوة إلى الخير .

وقوله : « يدعون إلى الخير » ، المفعول فيه محذوف وكذلك في قوله : « يأمرون وينهون » ، والتقدير : يدعون الناس إلى الخير ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر .

وحذف المفعول للإبذان بظهوره . أو للقصد إلى إيجاد نفس الفعل . أي يفعلون الدعاء إلى الخير ، أو القصد التعميم أي يدعون كل من تتأني له الدعوة وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بتبشير هؤلاء الداعين إلى الخير

بالفلاح فقال ، وأولئك هم المفلحون ، والفلاح هو الظفر وإدراك البغية .  
 أى : وأولئك القاسمون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف  
 والنهى عن المنكر هم الكاملون فى الفلاح والنجاح ، ولا يمكن أن يفلاح  
 سواهم من لم يقيم بهذا الواجب الذى هو مناط عزة الجماعات والأفراد وأساس  
 رفعتهم وقوتهم وسعادتهم .

قال بعض العلماء : فى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن  
 المنكر ، ووجوده ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة  
 المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يرتفع  
 ستارها ويكمل نظامها .

وآل الإمام الغزالي : فى هذه الآية بيان الإيجاب . فإن قوله : ولتكن ،  
 أمر وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به . إذ حصر  
 وقال : وأولئك هم المفلحون . . وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين ،  
 وأنه إذا قام به البعض سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلكم  
 أمرين بالمعروف ، بل قال : ولتكن منكم أمة . . . وإن تقاعد عنه الخلق جميعا  
 عم الإنم كافة القادرين عليه لا محالة (١) .

هذا ، وقد وردت أحاديث متعددة فى فضيل الدعوة إلى الخير والأمر  
 بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى بيان العاقبة السيئة التى تترتب على ترك هذا  
 الواجب ، ومن ذلك :

ما رواه مسلم والترمذى وابن ماجه والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال :  
 سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : مر رأى منكم منكراً  
 فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك  
 أضعف الإيمان .

روى الترمذى عن جابر بن عبد الله عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله .

وروى الشيخان عن جرير بن عبد الله قال : بايعت النبي - صلى الله عليه وسلم - على السمع والطاعة فلقنتي فيما استطعت والنصح لكل مسلم .  
 وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى عن أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - قال : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ، يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده ، (١) .

وبعد أن أمر الله - تعالى - بالمواظبة على الدعوة إلى الخير ، عقب ذلك بنهيهم عن التفرق والاختلاف فقال : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، » .

أى : « ولا تكونوا أيها المزمعون كأدائك اليهود والنصارى وغيرهم من الذين تفرقوا شيما وأحزابا ، وصار كل حزب منهم بما لديهم فرحون ، واختلفوا فيم بينهم إختلافا شنيعا ، وقد ترتب على ذلك أن كفر بعضهم بعضا وقاتل بعضهم بعضا ، وزعم كل فريق منهم أنه على الحق وغيره على الباطل ، وأنه هو وحده الذى يستطيع أن يدرك ما فى الكتب السماوية من حقائق ، وهو وحده الذى يستطيع تفسيرها تفسيرا سليما .

ولقد كان تفرقهم هذا واختلفهم « من بعد ما جاءهم البينات ، أى الآيات والحجج والبراهين للدالة على الحق ، والداعية إلى الإتحاد والوئام لا إلى التفرق والاختلاف .

(١) هذه الأحاديث من كتاب الترغيب والترهيب للبخارى ج ٣ ص ٢٢٢ وقد ذكر احاديث أخرى فى هذا الموضوع فارجع إليه إن شئت .

وقوله « لا تؤمنوا كالمؤمنين تفرقوا » ، مطوف على قوله « واتكن منكم أمة يدعون ... » ، وهو يرجع إلى قوله « من قبل » ، وإعصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ... ، لما فيه من تمثيل حال التفرق في أشنع صورته المعروفة لديهم من مطالعة أحوال اليهود وفيه إشارة إلى أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفضي إلى التفرق والاختلاف ؛ إذ يرتب على هذا الترك أن تتكثرت المنازعات والأهواء والمظالم ؛ وتنتشق الأمة بسبب ذلك إنشقاقا شديدا .

والمقصود بهذا النهي إنما هو التفرق والاختلاف في أصول الدين وأساسه أما الفروع التي لا يصادم الخلاف فيها نصا صحيحا من نصوص الدين فلا تندرج تحت هذا النهي ، فنحن نرى أن أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - والتابعين من بعدهم قد اختلفوا فيما بينهم في بعض المسائل التي لا تخالف نصا صحيحا من نصوص الشريعة ، وتأولها كل واحد أو كل فريق منهم على حسب فهمه الذي أداه إليه إجهاده .

ومن الأحاديث التي ذمت الاختلاف في الدين ما رواه أبو داود والإمام أحمد عن أبي حنيفة بن عبد الله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر فقال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن أهل الكتابين إفتروا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - ، ولأنه سيخرج في أمي أقوام يجاري بهم تلك الأهواء كما يتجاري الكلب بصاحبه . لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ، والله يامعشر العرب لئن لم تقوموا بما جاءكم به نبيكم - صلى الله عليه وسلم - لتغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان سوء عاقبة المتفرقين ، والمختلفين

في الحق فقال : وأولئك لهم عذاب عظيم ، أو أولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة لهم عذاب عظيم بسبب تفرقهم واختلافهم الباطل .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد نهى المؤمنين عن التفرق والاختلاف بأبلغ تعبير ، والطف إشارة ، وذلك بأن بين لهم حسن عاقبة المعتصمين بحبل الله دون أن يتفرقوا ، وما بشر به - سبحانه - المواظبين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أنهم هم المفلحون الفاتحون .

ثم بين لهم بعد ذلك - سوء عاقبة التفرقة والاختلاف الذي وقع فيه من سبقهم من اليهود والنصارى ، وكيف أنه ترتب على تفرقهم واختلافهم أن كفر بعضهم بعضا ، وقاتل بعضهم بعضا ، ورمى بعضهم بعضا بالزيف والضلال . . . هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فلولا المتفرقين والمختلفين العذاب العظيم من الله - تعالى - .

فالقرآن قد أتى بالأوامر ومعها الأسباب التي تدعو إلى الاستجابة لها ، وأتى بالتواهي ومعها كذلك الأسباب التي تحمل على البعد عنها .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت مسلكا من مسالك اليهود والخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين ، ووبختهم على ذلك توبيخا موجعا ، وفضحتهم على مر العصور والدهور ، وحذرت المؤمنين من شرورهم ، وأرشدتهم إلى ما بهصمهم من كيدهم . وذكرتهم بنعم الله الجليلة عليهم ، وأمرتهم بالمواظبة على الدعوة إلى الخير . ونهتهم عن التفرق والاختلاف ، لكي يسعدوا في دينهم ودنياهم . ثم حذر الله - تعالى - الناس من أهوال يوم القيامة ، وأمرهم بأن يتسلحوا بالإيمان وبالعمل الصالح حتى ينجوا عذابه فقال :

«يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أبيضَّتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ  
ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَفِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ  
تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩) .

قوله - تعالى - : يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، : بياض الوجوه  
وسوادها محمولان على الحقيقة عند جمهور العلماء . وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما  
ولا دليل يوجب ترك هذه الحقيقة فوجب الحمل على ذلك .

قال الألوسي : قال بعضهم . يوسم أهل الحق ببياض الوجه وإشراق البشرة  
تشریفاً لهم ، وإظهار الأناجيم في ذلك الجمع ويوسم أهل الباطل بضد ذلك  
والظاهر أن البياض والأسوداد يكونان لجميع الجسد ، إلا أنهما أسندا  
للووجه . لأن الوجه أول ما يلقاك من الشخص وتراه . وهو أشرف أعضائه  
واختلف في وقت ذلك فقيل : وقت البعث من القبور ، وقيل وقت قراءة الصحف ، (١)  
ويرى بعض العلماء أن بياض الوجوه هنا المراد منه لازمه وهو الفرح  
والسرور ، كما أن سوادها المراد منه لازمه أيضاً وهو الحزن والغم . وعليه  
يكون التعبير القرآني محمولا على المجاز لا على الحقيقة .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : وهذا مجاز مشهور قال - تعالى -  
« وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » . ويقال : لفلان  
عندي يد بضاء . وتقول العرب لمن مال بغيته وفاز بمطلوبه : أبيض وجهه  
ومعناه الاستبشار والتهلل . . . ويقال لمن وصل إليه مكروه : أربد وجهه  
واغبر لونه وتبدلت صورته . . . وعلى هذا فمعنى الآية : أن المؤمن يرد يوم  
القيامة على ما قدمت يدها ، فإن رأى ما يسره أبيض وجهه بمعنى أنه استبشر بنعم  
الله وفضله ؛ وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة عليه أسود  
وجهه بمعنى أنه يشتد حزنه وغمه . . . (٢) .

(١) تفسير الألوسي ج ٤ ص ٢٥

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ١٨١

والظرف . يوم ، في قوله ، يوم تبيض . ملح ، منصوب على أنه مفعول به بفعل محذوف والتقدير : أذكر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . والمراد الاعتبار والاعتناء . ويجوز أن يكون العامل فيه قوله ، عظيم ، في قوله قبل ذلك ، وأولئك لهم عذاب عظيم ، . أى أولئك الذين تفرقوا وإختلفوا من بعد ما جاءهم اليقينات لهم عذاب عظيم في هذا اليوم الهائل الشديد الذى تبيض فيه وجوه المؤمنين ، وتسود فيه وجوه الكافرين والفاستقين .

وفي وصف هذا اليوم بأنه تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه تهويل لأمره . وتعظيم لشأنه ، وتشويق لما يرد بعد ذلك من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضة ، وأصحاب الوجوه المسودة . وترغيب للمؤمنين في الاكثار من التزود بالعمل الصالح ، وترهيب للكافرين من التهادى فى كفرهم وضلالهم .

والتكثير في قوله ، وجوه ، للتكثير . أى تبيض وجوه عدد كثير من المؤمنين ، وتسود وجوه كثيرة للكافرين .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : . ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . . (١) وقوله - تعالى - ، وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . وجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة ، (٢) .

قال صاحب الكشاف : د البياض من النور والسواد من الظلمة . فمن كان من أهل نور الحق وسم بياض اللون وإسفاره وإشراقه وأبيضت صحيفته ، وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه . ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكده ، واسودت صحيفته وأظلمت ؛ وأحاطت به الظلمة من كل جانب . فعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمة الباطل وأهله ، (٣) .

(١) سورة الزمر الآية ٦٠

(٢) سورة القيامة الايات من ٢٢ - ٢٥

(٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٩٩

ثم بين - سبحانه - حال الذين اسودت وجوههم وسوء عاقبتهم فقَالَ :  
 « فأما الذين اسودت وجوههم ، بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة ، فيقال لهم  
 « أ كُفِرْتُمْ بعد إيمانكم ، وحذف هذا القول المقدر والذي هو جواب أمال دلالة  
 الكلام عليه ، ومثله كثير في القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - « ولوترى  
 إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا .. » (١) « أى قائلين  
 ربنا أبصرنا وسمعنا . وقوله - « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام  
 عليهم .. » (٢) « أى قائلين لهم : سلام عليكم .

والإستفهام فى قوله : « أ كُفِرْتُمْ .. » ، للتوبيخ والتعجيب من حالهم .

قال الألوسى : والظاهر من السياق والسياق هؤلاء هم أهل الكتاب ،  
 وكفرهم بعد إيمانهم ، هو كفرهم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد الإيمان  
 قبل مبعضه . وقيل هم جميع الكفار لإعراضهم عما وجب عليهم من الإقرار  
 بالتوحيد حين أشهدهم على أنفسهم بربكم ؟ قالوا بلى ، ويحتمل أن يراد  
 بالإيمان الإيمان بالقوة والفطرة ، وكفر جميع الكفار كان بعد هذا الإيمان  
 لتسكنهم بالنظر الصحيح ، والدلائل الواضحة ، والآيات البينة من الإيمان  
 بالله - تعالى - ، ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ، (٣) .

وقوله « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، أى فادخلوا جهنم وذوقوا  
 مرارة العذاب وآلامه بسبب إستمراركم عن الكفر وموتكم عليه .

والأمر فى قوله « فذوقوا » ، للإهانة والاذلال ، وهو من باب الاستعارة  
 فى « فذوقوا » ، إستعارة تبعية تخيلية . وفى العذاب إستعارة مكنية : حيث شبه  
 العذاب بشئ يدرك بحاسة الأكل والذوق تصويرا له بصورة ما يذاق ، وأثبت  
 له الذوق تخيلا - وهو قرينة المكنية .

(١) سورة السجدة الآية ١٢ .

(٢) سورة الرعد الآية ٤٢ .

(٣) تفسير الألوسى ج ٤ ص ٢٦ .

وأن في العذاب للمهدأ فذوقوا العذاب الممهود الموصوف بالمعظم والذي سبق أن حذركم الله - تعالى - منه ، ولكنكم لم تميروا التحذير لإتقائها ، بل تماديتم في كفركم وضلالكم حتى أدرككم الموت وأنتم على هذا الحال الشنيعة .

ثم بين - سبحانه - حال الذين أبيضت وجوههم وحسن عاقبتهم فقال :  
 « وأما الذين أبيضت وجوههم ، ببركة إيمانهم وعملهم الصالح ، ففي رحمة الله ،  
 أي ففى جنته . والتعبير عن الجنة بالرحمة من باب التعبير بالحال عن المحل  
 فتكون الظرفية حقيقية . وإذا أريد برحمة الله ثوابه وجزاؤه تكون  
 الظرفية مجازية .

وفي التعبير عن الجنة بالرحمة إشعار بأن دخولها إنما هو بمحض فضل الله  
 - تعالى - فهو - سبحانه - المالك لكل شئ ، والخالق لكل شئ .

وقوله « هم فيها خالدون » بيان لما خصهم الله - تعالى - من خلود في هذا النعيم  
 الذي لا يحد بحد ، ولا يرسم برسم ، ولا تبلغ العقول مداه . أي هم في الرحمة  
 باقون دائمون فقد أعطاهم الله - تعالى - عطاء غير مجزؤذ .

وقد بدأ - سبحانه - كلامه عن الفريقين بالذين أبيضت وجوههم ، ثم  
 قدم الحديث عن حال الذين أسودت وجوههم على الذين أبيضت وجوههم ،  
 ليكون لبثداء الكلام واختتامه عن هؤلاء السعداء بما يسر القلب ، ويشرح  
 الصدر ، ويفرى الناس بالتمسك بعرى الإيمان ؛ وبالإكثار من العمل الصالح  
 الذي يوصلهم إلى رحمة الله ورضاه .

ووصف - سبحانه - الذين أبيضت وجوههم بأنهم خالدون في رحمة ،  
 ولم يصف الذين أسودت وجوههم بالخلود في العذاب ؛ للتصريح في غير هذا  
 الموضوع بخلودهم في هذا العذاب كما قاله - تعالى - إن الذين كفروا من أهل  
 الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدون فيها أولئك هم شر البرية ، (١) .

وللإشعار بأن باب رحمة - سبحانه - مفتوح أمام هؤلاء الضالين فطبيهم  
أن يشوبوا إلى رشدهم ، وأن يفلحوا عن الكفر إلى الإيمان والعمل الصالح حتى  
ينجوا من عذات الله وسخطه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

وبعد أن أفاض - سبحانه - في الحديث عن أحوال السعداء وأحوال  
الاشقياء ، وعن رذائل الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم عن أشركوا بالله  
مالم ينزل به سلطانا ، وبعد أن ساق - سبحانه - من التوجيهات الحكيمة :  
والإرشادات النافعة ما يشفي الصدور ويهدى النفوس ، بعد كل ذلك ، خاطب  
- سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بقوله :

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وما الله يريد ظلماً للعالمين ،

والمراد بالآيات ما سبق ذكره في هذه السورة وغيرها من آيات قرآنية  
تهدى إلى الرشد ، وتشهد بوحداية الله - تعالى - وبصدق رسوله - صلى الله  
عليه وسلم - فيما يبلغه عنه .

وكانت الإشارة بتلك الدالة على البعد ، للإشعار بعلو شأن هذه الآيات ،  
وسمو منزلتها ، وعظم قدرها .

ومعنى « نتلوها » نقرؤها عليك يا محمد شيئا فشيئا قراءة واضحة جلية لتبلغها  
للناس على مكث وتدبر وروية .

وأسند - سبحانه - التلاوة إليه مع أن التالي في الحقيقة جبريل  
- عليه السلام - للتنبيه على شرف هذه الآيات المتأولة ، ولأن تلاوة جبريل  
إنما هي بأمر منه - سبحانه - .

- وقال - سبحانه - « تلك آيات الله نتلوها » فأظهر لفظ الجلالة ، ولم يقل  
تلك آياتنا نتلوها ، ليكون التصريح باسمه - سبحانه - مربيا في النفوس  
المهابة والإجلال له ، إذ هو المستحق وحده لوصف الألوهية ، فلا إله سواه ،  
ولا معبود بحق غيره ، وهو ذو الجلال والإكرام ، وهو المنشئ الموجد لهذا  
الكون وما فيه ومن فيه .

التصريح بأحده - تعالى - يزيد البيان جلالا ، ويبعث في النفوس الخشية والمراتب والبعد عما يوجب العقاب ، والإقبال على ما يوصل إلى الثواب .  
 وقوله ، بالحق ، في موضع الحال المؤكدة من الفاعل أو المفعول .  
 أي تلوها عليك لمناسبة بالحق أو منتبسين بالصدق أو بالعدل في كل ما دلت عليه هذه الآيات ، ونطقت به ، مما لا تختلف فيه العقول السليمة ، والمدارك القويمة .

وقوله - تعالى - « وما الله يريد ظلما للعالمين » نفي للظلم بأبلاغ وجه ، فإنه - سبحانه - لم ينف فقط الظلم عن ذاته ، بل نفي عن ذاته إرادة الظلم ، إذ هو أمر لا يليق به - سبحانه - ولا يتصور وقوعه منه .  
 وكيف يريد الظلم من منح هذا العالم كله الوجود ، وخلق هذا الكون برحمته وقدرته وعدله ؟

والظلم - كما يقول الراغب - وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بزيادة أو بنقصان ، وإما ببدول عن وقته أو مكانه ، ومن هذا يقال : ظلمت السماء إذا تناولته في غير وقته ، وظلمت الأرض إذا حفرتها ولم تكن موضعها المحضر . . .

قال بعض الحكماء : الظلم ثلاثة أنواع :

الأول : ظلم بين الإنسان وبين الله - تعالى - وأدغمه الكفر والشرك والنفاق وإياه قصد - سبحانه - بقوله : « إن شرك لظلم عظيم » .

والثاني : ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله : « وإنما السبيل على الذين يظلمون الناس » .

والثالث : ظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد بقوله : « فمنهم ظالم لنفسه » (١) والظلم الذي نفي لإرادته - سبحانه - عن ذاته عام لا يخص نوعا دون نوع ؛

(١) مفرادات القرآن للراغب الأصفهاني ج ٣١٦

إذ من المعروف عند علماء اللغة أن التكررة في سياق النفي نعم ، وهنا جاء لفظ الظلم منكراً في سياق النفي وهو ما .

قال الجبل : واللام في قوله للعالمين ، زائدة لا تعلق لها بشيء زيدت في مفعول المصدر وهو د ظلم ، والفاعل محذوف . وهو في التقدير ضمير البارئ .  
- سبحانه - والمعنى وما الله يريد أن يظلم العالمين ، فزيدت اللام تقوية للعامل كقوله د فمال لما يريد ، (١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنه هو المالك لكل شيء ، وأنه هو وحده الذي إليه تصير الأمور فقال : د وقته ما في السموات وما في الأرض ، أي له - سبحانه - وحده ما فيهما من المخلوقات ملكا وخلقاً وتديراً وتصرفاً وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيباً .

د وإلى الله ترجع الأمور ، أي إلى حكمه وقضائه تعود أمور الناس وشؤونهم ، فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، لأنه - سبحانه - منه المبدأ وإليه المسآب فيجازى كل إنسان على حسب إعتقاده وعمله بدون ظلم أو محاباة .

وبذلك نرى أن هذه الآيات السكرية ، قد حذرت الناس من أهوال يوم القيامة الذي تبيض فيه وجوه ، وتسود فيه وجوه ، وبينت الأسباب التي أدت إلى فوز من فاز وإلى شقاء من شقى ، ونوهت بشأن آيات التي أنزلها الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - لتكون هداية للناس ، وصرحت بأن الله - تعالى - هو الخالق لكل شيء ، وإليه مرجع الأمور ومصيرها ، فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

وبعد أن أمر الله - تعالى - المؤمنين بالدعوة إلى الخير ، ونهاهم عن التفرق والاختلاف المفضى إلى العذاب العظيم يوم القيامة . وبين لهم أن مصير الأمور

(١) حاشية الجبل على الجلالين ج ١ ص ٣٠٣ :

إليه ، بمد كل ذلك ساق لهم ما يقوى لإيمانهم ، ويثبت بيقينهم ، بأن بشرهم بحسن العقبي متى استقاموا على أمره ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وأنذر الكافرين من أهل الكتاب بالهزيمة في الدنيا ، وبغضب الله - تعالى - في الآخرة فقال - تعالى - :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرَ آلِهَمُ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَمَا تَقِفُوا ، إِلَّا بِجِئِلٍ مِنَ اللَّهِ وَجِئِلٍ مِنَ النَّاسِ ، وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) »

وقوله - تعالى - « كنتم ، يصح أن تكون من كان التامة التي بمعنى وجد وهي لا تحتاج إلى خبر فيكون المعنى وجدتم خیرامة أخرجت للناس ، ويكون قوله « خير أمة ، بمعنى الحال . وبهذا الرأي قال جمع من المفسرين .

ويصح أن يكون من كان الناقصة التي هي - كما يقول الزمخشري - عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام ، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ . فيسكون المعنى : قدرتم في علم الله - تعالى - خير أمة أخرجت للناس .

ويجوز أن تكون بمعنى صار . أي تحولتم بامعشر المؤمنين الذين حاصرتم النبي - صلى الله عليه وسلم - من جاهليتكم إلا أن صرتم خير أمة .  
وقيل : إن كان هنا زائدة والتقدير : أتم خير أمة . ورد هذا القول بأن كان لا يزداد في أول الكلام .

والظاهر أن الرأى الأول الذى يقول إن «كنتم» هنا من كان النامة هو أقرب الأقوال إلى انصواب ، وبليته الرأى الثانى الذى يرى أصحابه أن كنتم هنا من كان الناقصة إلا أنها هنا تدل على تحقق شىء بصفة فى الزمان الماضى من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق .

والخطاب فى هذه الآية الكريمة بقوله - تعالى - «كنتم» للمؤمنين الذين عاصروا النبي - صلى الله عليه وسلم - ولمن أتى بعدهم واتبع تعاليم الإسلام إلى يوم الدين .

ولذا قال ابن كثير : والصحيح أن هذه الآية عامة فى جميع الأمة . كل قرن بحسبه ، وخير قرونهم الذين بحث فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال - سبحانه - فى الآية الأخرى . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .

وقد وردت أحاديث متعددة فى فضل هذه الأمة الإسلامية . منها ما جاء فى مسند الإمام أحمد وفى سنن الترمذى وابن ماجه من رواية حكيم بن معاوية ابن حنيفة عن أبيه قال : قال رسول - صلى الله عليه وسلم : أنتم توفون سبعين أمة . أنتم خيرها وأكرمها على الله - تعالى - ، (١) .

والمعنى : وجدتم بامعشر المسلمين تتعاملين بتعاليم الإسلام وآدابه وسنته وشرعيته خير أمة أخرجت وأظهرت الناس ، من أجل إعلاء كلمة الحق وإزهاق كلمة الباطل ، ونشر الإصلاح وتنتفع فى الأرض .

وقوله «خير أمة» خبر كنتم على أنها من كان الناقصة .  
وجملة «أخرجت» صفة لأمة ، وقوله «للقاس» متعلق بأخرجت ،

وحذف الفاعل من « أخرجت » ، للعلم به أى : أخرجها الله - تعالى لنفع الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم .

فالجملـة الكريمة تنوره بشأن الأمة الإسلامية ؛ وتعلم من قدرها ، فهل تعنى الأمة الإسلامية هذا التنويه من شأنها وذلك الإغلاء من قدرها ، فتقوم دورها الذى اختاره الله لها ، وهو نشر كلمة التوحيد فى الأرض ، وإحقاق الحق وإبطال الباطل شكراً لله - تعالى - على جعله لإبائها خير أمة أخرجت للناس ؟؟ .

إن واقع المسلمين الملى بالضعف والهوان ، والفسوق والعصيان يدمى قلوب المؤمنين الصادقين ، ويحملهم على أن يملغوا رسالات الله دون أحدا سواه ، حتى تكون كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى جعلت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس فقال : « تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » .

والمعروف : هو كل قول أو عمل حسنه الشرع ، وأيدته العقول السليمة ، والمنكر بعكسه .

والمعنى : وجدتم خير أمة أخرجت الناس ، لأنكم « تأمرون بالمعروف ، أى بالقول أو الفعل الجميل المتحسّن فى الشرائع والعقول . وتنهون عن المنكر ، أى : كل قول أو فعل قبيح تستنكره الشرائع ، ويأباه أهل الإيمان القويم والعقل السليم .

و « تؤمنون بالله » ، أى تصدقون وتدعون بأنه لا معبود بحق سواه ، وتخلصون له العبادة والخضوع ، وتطيعونه فى كل ما أمركم به أو نهاكم عنه على لسان رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - .

فأنت ترى أن الخير به للأمة الإسلامية منوطة بتحقيق أصليين أساسيين :

أولها : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنهما سياج الدين ، ولا يمكن أن يتحقق بنبيا ن الأمة على الخير والفضيلة إلا بالقيام بهما ، فهما من الأسباب التي استحق بنو إسرائيل اللعنة من أجل تركهما ؛ فقد أخرج أبو داود في سنته عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد على حالة فلا يمنعه ذلك أن يسكون أكيله وشريبه وقميده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال - صلى الله عليه وسلم - : لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون .

ثم قال : كلا والله : لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر . ولتأخذون على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً - أي ولتحملنه على اتباع الحق حملاً - ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض . ثم ليأمنكم كما آمنهم .  
وثانيهما : الإيمان بالله - تعالى - ، وبجميع ما أمر الله - تعالى - بالإيمان به .

هذان هما الأمران اللذان يجب أن يتحققا لتكوين هذه الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس ، لأن الأمة التي تهمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا تؤمن بالله ، لا يمكن أن تكون خير أمة ، بل لا توصف بالخيرية قط ، لأنه لا خير إلا في الفضائل والحق والعدل ، ولا تقوم هذه الأمور إلا مع وجود الإيمان بالله ، وكثرة الدعوة إلى الخير والناهي عن الشر ويكون لدعوتهم آثارها القوية التي تحيا معها الفضائل وتزول بها الرذائل .

وكانه - سبحانه - قد أخرج الإيمان بالله ، عن الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر ، ، ليكون كالباعث عليهما ، لأنه لا يصر على تكايفيهما ومتابعيهما إلا مؤمن يبتغي وجه الله ، ويرى في كفاحه ربه . فهذا الإيمان باقعه هو الباعث للأمرين بالمعروف والناهي عن المنكر ، على أن يبلغوا رسالات الله دون أن يمشوا أحداً سواه .

وقيل : إنما آخر الإيمان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة كما هو الظاهر . لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فهما أظهر في الدلالة على الخيرية للأمة الإسلامية .

وجملة ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، يجوز أن تكون حالية من ضمير الخطاب في ، كنتم ، ويجوز أن تكون مستأنفة للتعليل ، وهذا ما ذهب إليه الفخر الرازي ، فقد قال :

اعلم أن هذا كلام مستأنف والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية ، كما تقول ، زيد كريم يطعم الناس ويكسوم ويقوم بما يصلحهم ، وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف ، فهنا حكم - تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة .

ثم ذكر عقيب هذا الحكم هذه الطاعات أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان ، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات (١) .

وقال الإمام أبو كثير - بعد أن ساق بضعة عشر حديثاً في فضل هذه الأمة : فهذه الأحاديث في معنى قوله - تعالى - د كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . د فن إنصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح ، كما قال قتادة ، بلغنا أن عمر

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ١٩١ .

ابن الخطاب رأى من الناس دعه في حجة حجها فقرأ هذه الآية ، كنتم خير أمة أخرجت للناس ، ثم قال ، من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيما ، رواه ابن جرير . ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله . وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، الآية (١) .

وبعد أن مدح - سبحانه - هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال - تعالى - ، ولو آمن أهل الكتاب ، أى بما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - ، لكان خيرا لهم ، أى لكان لإيمانهم خيرا لهم في دنياهم وآخرتهم ولنالوا الخير به التي ظهرت بها الأمة الإسلامية ، ولكنهم لم يؤمنوا فامتنع الخير فيهم ، لامتناع الإيمان الصحيح منهم ولا يشارهم الضلالة على الهداية فهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - ، كنتم خير أمة . . . ، ومرتبطة بها .

ولم يذكر متعلق د آمن ، هنا ، لأن المراد لو إتصفوا بالإيمان الذي هو لقب وإشعار للإيمان بدين الإسلام الذى أتى به محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو الذى منه أطلقت صفة الذين آمنوا على المسلمين فصار كالعلم بالعلة . وقال - سبحانه - ، لكان خيرا لهم ، أى : لو آمنوا لكان لإيمانهم خيرا لهم بدون تفصيل لهذه الخيرية ، لتذهب نفوسهم كل مذهب في الرجاء والإشفاق .

ثم أخبر سبحانه - بأن قلة من أهل الكتاب إختاروا الإيمان على الكفر فقال - تعالى - : منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ، .

أى : من أهل الكتاب أمة آمنت بالله وصدقت رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - ولاتبعت ما جاء به من الحق وأكثرهم معرضون عن الإيمان بالله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وخارجون عن الطريق المستقيم الذى أمرت باتباعه الشرائع والعقول السليمة .

فالجمله الكريمة لإنصاف القلة المؤمنة التي آمنت من أهل الكتاب كعبداه  
ابن سلام وغيره ممن دخل في الاسلام . ودم لأكثر أهل الكتاب الذين  
جحدوا الحق . وخرجوا عن الطريق القويم .

وقوله « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ، جملة مستأنفة استثناء ببيانها ،  
فهو جواب للجمله للشرطية التي قبلها ، فكأنه قيل : هل منهم من آمن أو كلهم  
على الكفر ؟ فكان الجواب : منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون .

وعبر عن كفرهم بالفسق ؛ الإشعار بأنهم قد فسقوا في دينهم أيضا فهم  
ليسوا عدولا فيه ، وبذلك يذكر فون قد خرجوا عن الاسلام وعمّا أوجبه  
عليهم كتبهم من الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - .

ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين ، بأن هذه الكثرة الفاسقة من أهل  
الكتاب التي عنت على أمرها . وناصبت المؤمنين العدا ، لن تضرهم ضررا  
بليغاً له أثر ، مادام أهل الايمان متمسكين بدينهم ، ومتقدين لتعاليمه وآدابه ،  
فقال - سبحانه - « ان يضرركم إلا أذى ، أي ، ان يضرركم أهل الكتاب يامعشر  
المؤمنين إلا ضررا يسيرا ، كأن يؤذركم بالسنتهم ، ويلقوا الشبه بينكم ليصدوا  
من ضعف لإيمانه عن الحق ، وفي هذا تقييد للمؤمنين ، وطمأنينة لقلوبهم ،  
إذ الضرر الذي يصيب الأمة الاسلامية من أعدائها على قسمين :

اولهما : ضرر يؤدي إلى هدم كيان الأمة ، وإضعاف قوتها ، وإهدار  
كرامتها ، وجعل أمورها في أيدي أعدائها تصرفها كيف تشاء .  
وثانيهما : ضرر لا يؤثر في كيان الأمة ، ولا يؤدي إلى اضمحلال قوتها ،  
كالأذى بالقول ، أو محاولة التأثير في ضعاف الإيمان .

وقد نفى - سبحانه - أن يلحق المؤمنين ضرر يأتي على كيانهم من جهة  
أهل الكتاب فقال : « لن يضرركم إلا أذى ، فأوقع الفعل المضارع في حيز  
المفيدة للنفي ؛ للإشارة إلى أن ذلك لا يكون في المستقبل .

ولكن هذا النفي لهذا النوع من الضرر مشروط بمحافظة الأمة الاسلامية

على الأصلين السابقين وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان  
بالله . .

فإذا أرادت أمة الإسلام ألا تصاب من جهة أهل الكتاب بما يأتي على  
كيانها ، فليعلم أن نخلص العبادة لربها ، وأن تعمل بسنة نبيها ، وأن تتقيد بأحكام  
كتابها ، وأن تباشر الأسباب التي شرعها خالقها للنصر على أعدائها .  
أما إذا تركت أمة الإسلام ما أمرها الله - تعالى - به ، وتجاوزت ما نهاها  
عنه ، فإنها في هذه الحالة قد تصاب من أعدائها بما يؤثر في كيانها ، وتكون  
هي الجانية على نفسها بمخالفتها لأوامر الله ونواهيه .

هذا ، وأكثر العلماء على أن الاستثناء في قوله : لن يضروكم إلا أذى ،  
متصل ، وأنه استثناء مفرغ من المصدر العام ، كأنه قيل : لن يضروكم ضرا  
ألبته إلا ضرر أذى لا يبالي به من كلمة سوء ونحوها .

وقيل هو لاستثناء منقطع لأن الأذى ليس من الضرر ، أي إن يضروكم  
بقتال وغلبة لكن بكلمة أذى ونحوها .

ورجح الأول ، لأن الكلام إذا أمكن حمله على الاستثناء الحقيقي لم يحز  
صرفه عن ذلك إلى الاستثناء المنقطع وهنا الأذى مهمما قل هو نوع من الضرر  
وإن لم يترك أذى .

ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين ببشارة أخرى فقال : . وإن يقاتلوكم  
يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ،

تولية الأدبار : كناية عن الهزيمة ، لأن المنهزم يحول ظهره وظهره إلى جهة  
الذي هزمه هربا إلى ملجأ يلجأ إليه ليدفع عن نفسه القتل أو الأسر .

والمعنى ، إن أهل الكتاب لن يضروكم يا معشر المؤمنين إلا ضرا يسيرا  
لا يبقى أثره فيكم - مادتم مستمسكين بدينكم - فإن قاتلوكم وأنتم على هذه  
الحال ، أمدم الله بنصره ، وألقى في قلوبهم الرعب فيولونكم الأدبار انهزاما  
منكم . ثم لا ينصرون عليكم بل تنصرون أنتم عليهم .

والتعبير عن الهزيمة بتولية الأدبار، فيه إشارة إلى جبنهم، وأنهم يفرون فرارا شديدا بذعر وهلع.

وهكذا كان الشأن في قتال المسلمين الأولين لأعداء الله وأعدائهم، فلقد قاتل المؤمنون اليهود من بنى قينقاع والنضير وقریظة وأهل خيبر فاتهم المسلمون عليهم انتصارا باهرا.

وقاتلوا جموع الروم في بلاد الشام وفي مصر، فكان النصر المؤزر حليفنا للمسلمين مع قلاتهم وكثرة أعدائهم.

وقوله «ثم لا يبصرون» احتراس. أي يولوكم الأدبار تولية المنهزم؛ لا تولية المتحرف لقتال أو المتحيز إلى فئة أو المتأمل في الأمر.

والتعبير به «ثم» لإفادة التراخي في المرتبة، لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليهم الأدبار.

وهذه الجملة خبرية وهي معطوفة على جملة الشرط وجزائه معا، للشاعر بأن هذا ديدنهم، وأنهم لن ينتصروا على المسلمين لا في قتال ولا في غيره، مادام المسلمون مستقيمين على الطريقة التي رسمها الله - تعالى - لهم.

وقد وضع هذا المعنى صاحب الكشاف فقال: فإن قلت: هلا نجم المخطوف في قوله «ثم لا يبصرون» قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار لإبتداء. كأنه قيل أخبركم أنهم لا يبصرون.

فإن قلت: فأى فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لو جزم لكان النصر مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار. وحين رفع كان في النصر وعدا مطلقا كأنه قال: تم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم تحذولون منتف عنهم النصر والقوة لا يعضون بعدها بمخاض ولا يستقيم لهم أمر. وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع ويهود خيبر فإن قلت: أما الذي عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء كأنه قيل: أخبركم

أنهم إن بقائولكم يهزموا ، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون . فإن قلت فما معنى التراخي في تم ؟ قلت : التراخي في المرتبة ، لأن الاخبار بتسليط الخنزان عليهم أعظم من الاخبار بتولييتهم الأديار . فإن قلت : بما موقع الجملتين ، أعنى ، منهم المؤمنون ، و ، لن يضروكم ، قلت هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب ، كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت ولذلك جاء من غير عطف . (١)

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بشرت المؤمنين الصادقين ببشارات ثلاث :

أولها : أنهم في مأمن من الضرر البليغ الذي يؤزر في كيماهم وعزتهم وكرامتهم من جهة أهل الكتاب .

ثانيها : أن أهل الكتاب لو قاتلهم ، فإن المؤمنين سيكون لهم النصر عليهم .  
ثالثها : أنهم بعد نصرهم عليهم لن تكون لأهل الكتاب — وعلى رأسهم اليهود — شوكة أو قوة للأخذ بثأرهم بعد ذلك .

وقد محقت هذه البشارات ، وكانت كما أخبر الله — تعالى — ، فإن المسلمين الأولين الذين كانوا متمسكين بتعاليم دينهم نصرهم الله — تعالى — على أهل الكتاب وعلى غيرهم من أعدائهم نصرهم مؤزرا — كما سبق أن أشرنا ..

فإن قال قائل : ولكن الذي نراه الآن أن اليهود الذين لا يماوى أحد في جنتهم وفي حرصهم على الحياة ، قد انتصروا على المسلمين وأقاموا لهم دولة في بقعة من أعز بقاع البلاد الإسلامية وهي فلسطين فهل تخلف وعد الله ؟

والجواب على ذلك : أن وعد الله — تعالى — ما تخلف ولن يتخلف ، وقد حققه — سبحانه — لأسلافنا الصالحين الذين آمنوا به حق الإيمان ..  
ولكن المسلمين في هذا العصر هم الذين تعيرت أحوالهم ، فقد فرطوا في دينهم

وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات؛ وتفرقوا شيعا وأحزاباً، وتسكبوا الطريق القويم، ولم يباشروا الأسباب التي شرعها الله - تعالى - لبلوغ النصر، ولم يحسنوا الشعور بالمسئولية . . .

فلما فعلوا ذلك تبدل حالهم من الخير إلى الشر، ومن القوة إلى الضعف . وسلط الله عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم؛ لأنه - سبحانه - لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . .

وإذا ما عاد المسلمون إلى دينهم فطبقوا أوامره ونواهيه على أنفسهم تطبيقاً كاملاً؛ فإن الله - تعالى - سيعيد لهم كرامتهم وعزتهم وقوتهم . ولنصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز، (١) .

ومن هنا نعلم أن الشرط في نفي الضرر الذي يؤثر في الأمة الإسلامية، هو أن تكون مؤمنة برها حق الإيمان، متبعة لهدى رسولها محمد - صلى الله عليه وسلم - .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض العقوبات التي عاقب بها اليهود بسبب كفرهم وظلمهم فقال: وضربت عليهم الذلة أينما نقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس . .

وأصل الضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى السقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة . يقال: ضرب فلان يده الأرض إذا ألصقها بها، وشرعت عن هذا المعنى معاني مجازية أخرى ترجع إلى شدة اللصوق .

والذلة على وزن فعلة من قول القائل: ذل فلان يذل ذلة وذلاً والمزاد الصغار والهوان والحقارة .

فضرب الذلة عليهم كناية عن لزومها لهؤلاء اليهود، وإحاطتها بهم، كما يحيط السرادق بمن يكون في داخله .

قال صاحب الكشاف: جعلت الذلة محيطة بهم مشتمة عليهم ، فهم كمن يكون في القبة من ضربت عليه . أو الصقت بهم حتى أزمهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحوائط فيلزمه . فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقة (١) .

و د ثقفوا ، أى وجدوا ، أو ظفروا بهم . يقال : ثقفه بثقفه أى صادفه أو ظفر به أو أدركه . وهذه المادة تدل على التمكن من أخذ الشيء ، ومن التصرف فيه بشدة ، ومنها سمي الأسير ثقافاً . والثقاف آلة تكسر بها أعناق الرماح :

والحبل : هو ما يربط بين شئين ، يطلق على العهد ، لأن الناس يرتبطون باليهود : كما يقع الارتباط الحسى بالحبال ، وهذا الإطلاق هو المراد هنا .

ولذا قال ابن جرير : وأما الحبل الذى ذكره الله - تعالى - فى هذا الموضوع ، فإنه السبب الذى يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين وعلى أموالهم وذراتهم من عهد وأمان تقدم لهم عقده قبل أن يثقفوا فى بلاد الإسلام (٢) .

والمعنى : إن هؤلاء اليهود أحاطت بهم الذلة فى جميع أحوالهم أينما وجدوا وحينما حلوا ، إلا فى حال إعتصامهم بعهد من الله أو بعهد من الناس . وقد فسر العلماء عهد الله بعقد الجزية الذى يربط بينهم وبين المسلمين . وإنما كان عقد الجزية عهداً من الله لهم ، لأنه - سبحانه - هو الذى شرعه ، وما شرعه الله فالوفاء به واجب .

وكان عهداً من المسلمين لهم ، لأنهم أحد طرفيه ، فهم الذين باشره مع اليهود ، وبمقتضاه يحفظون حقوقهم ودماءهم وأموالهم ، ويكون لهم ما للسليين

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٨١٧

(٢) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ٤٨ .

وعليهم ما عليهم ، وعلى المسلمين حمايتهم ، وصون أموالهم ابقاء مقدار من المال يدفع لهم كل عام وهو المسمى بالجزبة .

وأما عهد الناس ، فهو العهود التي يعيشون بمقتضاها في أى أمة من أمة الأرض مسلمة كانت هذه الأمة أو كافرة .

فإن كانت تلك العهود صادرة من المسلمين ، جاز أن يطلق عليها عهد الله - أيضا - ، باعتبار أن الله هو الذى شرعها .

وإن كانت من غير المسلمين فهى عهود من الناس سواء أوافقت شريعة الله - تعالى - أم لا .

والمعنى الإجمالى للآية : أن اليهود قد ضرب الله - تعالى - عليهم الذلة والمسكنة فى كل زمان ومكان بسبب كفرهم وطغيانهم ، وسلب عنهم السلطان والملك ، فهم يعيشون فى بقاع الأرض فى حماية غيرهم من الأمم الأخرى ، وبمقتضى عهود يعقدونها معهم ، وقد تكون هذه العهود موافقة لشرع الله - تعالى - وقد لا تكون موافقة .

فإن قال قائل : إنهم الآن أصحاب جاه وسلطان ، بعد أن أنشأوا دولتهم بفلسطين :

والجواب : أنهم مع قيام هذه الدولة يعيشون تحت حماية غيرهم من دول الكفر الكبرى . فهى التى تحميهم وتقدم بأسباب الحياة والقوة ، فينطبق على هذه الحالة - أيضا - أنها يجبل من الناس . فاليهود لا سلطان لهم ، ولا عزة تكن فى نفوسهم ، ولا يكتم مأمورون مسخرون أن يعيشوا فى تلك البقعة من الأرض لتكون مركزا لتلك الأمم التى تعهدت بحمايتهم أية فزوا منها إلى هاربة المسلمين ، إذا أتاحت لهم فرصة .

ولو أن المسلمين غيروا ما بأنفسهم ، وتمسكوا بشريعتهم ، وأجتمعت

قلوبهم ، وتوحدت أهدافهم ، وأحسنوا الشهور بالمستوية نحو دينهم وأنفسهم  
وأوطانهم ، وأعدوا ما استطاعوا من قوة لقتال أعداء الله وأعدائهم . . .

لو أنهم فعلوا ذلك لما كان حالهم كما نرى الآن من ضعف وتخاذل وتفرق  
والأمل كبير في أن يتنبه المسلمون إلى ما يحيط بهم من أخطار فيجعلوا على  
دفعها ، ويعتصموا بحبل الله ليعود لهم قوتهم وهيبتهم .

هذا ، وقوله ، أينما شرط ، وهو ظرف مكان و « ما » ، مزيدة فيها  
للتأكيد .

وقوله ، تقفوا ، في محل جزم بها .

وجواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله أي : أينما تقفوا غلبوا أو ذلوا  
ويجوز أن يكون جواب الشرط قوله « ضربت عليهم الذلة » عند من  
يجوز تقديم جواب الشرط على الشرط .

والاستثناء في قوله « إلا بحبل من الله وحبل من الناس » مفرغ من أعم  
الأحوال أي ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا في حال إعتصامهم  
بحبل من الله وحبل من الناس .

ثم ذكر - سبحانه - عقوبتين أخريين أنزلها بهم جزاء كفرهم وتعديهم  
لحدوده فقال - تعالى - « وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » .

قال ابن جرير : قوله - تعالى - « وباؤا بغضب من الله » أي إنصرفوا  
ورجعوا . ولا يقال باؤا ، إلا موصولا إما بغير وإما بشر . يقال منه : باه  
فلان بذنبه يبوء به بواً وبواء . ومنه قوله - تعالى - « إنني أريد أن تبوء  
يا أيها النبي وإني ملك ، تنصرف متحملهما ، وترجع بهما قد صارا عليك دوني . فغنى  
الكلام إذا : ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله  
غضب ، ووجب عليهم منه سخط ، (١) .

والمسكنة : مفعلة من السكون ، ومنها أخذ لفظ المسكين ، لأن الهم قد أنقله لجعله قليل الحركة والنهوض ، لما به من الفاقة والفقر .

والمراد بها في الآية الكريمة الضعف النفسى ، والفقر القلبى الذى يستولى على الشخص فيجعله يحس بالهوان مهما تكن لديه من أسباب القوة .

والفرق بينها وبين الذلة : أن الذلة هو ان نجىء أسبابه من الخارج ، كأن يغلب المرء على أمره نتيجة إلتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو .

أما المسكنة فهي هو أن يذشأ داخل النفس نتيجة بدهها عن الحق ، وإستلاء المطامع والشهوات وحرد الدنيا عليها .

والمعنى : أن هؤلاء اليهود بجانب ضرب الذلة عليهم حينما حلوا ، قد صابروا فى غضب من الله ، وأصبحوا أحقاء به ، وضربت عليهم كذلك المسكنة التى نجعلهم يحسون بالاصغار مهما ملكوا من قوة ومال .

ثم ذكر - سبحانه - الأسباب التى جعلتهم أحقاء بهذه العقوبات فقال - تعالى - ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يرتدون ، .

فاسم الإشارة ذلك يعود إلى تلك العقوبات العادلة التى عاقبهم الله بها بسبب كفرهم وفسقهم .

والآيات : تطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على وحدانية الله - تعالى - وربوبيته ، وتطلق ويراد بها النصوص التى تشتمل عليها الكتب السماوية ، وتطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله - تعالى - ، وهى التى يسميها علماء التوحيد بالمعجزات

وقد كفر اليهود بكل هذه الضروب من الآيات ، ومردوا على ذلك كما يفيدة التعبير بالفعل المضارع ، بكفروا ،

أى : ذلك الذى أصابهم من عقوبات رادعة ، سببه أنهم كانوا يكفرون  
بآيات الله وأدلته الداله على وحدانيته وعلى صدق رسله - عليهم الصلاة  
والسلام - وتلك هى جريمة بنى إسرائيل الأولى :

أما جريمةهم الثانية فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ويقتلون الأنبياء بغير  
حق ، أى أنهم لم يكتفوا بالكفر ، بل إمتدت أيديهم الأنيعة إلى دعاة الحق  
وهم أنبياء الله - تعالى - الذين أرسلهم له - دعاهم ، فقتلواهم بدون أدنى شبهة  
تحمل الإساءة اليهم فضلا عن قتلهم .

وقال - سبحانه - بغير حق ، مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبداً ،  
لإفادة أن قتلهم لهم كان بغير وجه معتبر فى شرعهم لأنها محرمة .

قال - تعالى - من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً  
بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما  
أحيا الناس جميعاً .. (١) .

فهذا القيد المقصود به الاحتجاج عليهم بأصول دينهم ، وتخليد مذمتهم ،  
وتقبيح إجرامهم ، حيث إنهم قتلوا أنبياءهم بدون خطأ فى الفهم ، أو تأول  
فى الحسب ، أو شبهة فى الأمر ، وإنما فعلوا ما فعلوا وهم عالمون بقبح  
ما ارتكبوا ، ومخالفون لشرع الله عن تعمد وإصرار .

ولذا قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير  
الحق ، فما فائدة ذكره ؟ قلت : معناه أنهم قتلوا بغير الحق عندهم ، لأنهم لم  
يقتلوا ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا ؛ وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم  
فقتلواهم .

فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكرُوا وجهاً يستحقون به القتل  
عندهم (١) .

وقال الفخر الرازي ماملخصه: فإن قيل قال هنا: «ويقتلون الأنبياء بغير  
حق»، وقال: «في سورة البقرة» ويقتلون النبيين بغير الحق، فما الفرق؟

قلت: إن الحق المعلوم بين المسلمين الذي يوجب القتل يتجلى في حديث:  
لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: بكفر بعد إيمان، وزنا بعد  
إحصان، وقتل نفس بغير حق. فالحق المذكور في سورة البقرة إشارة إلى  
هذا. وأما الحق المنكر هنا فالمراد به تأكيد العموم. أي لم يكن هناك أي  
حق يستندون إليه، لا هذا الذي يعرفه المسلمون ولا غيره ألبتة (٢).

ونسب - سبحانه - القتل إلى أولئك اليهود المعاصرين للعهد النبوي مع  
أن القتل قد صدر عن أسلافهم، لأن أولئك المعاصرين كانوا راضين بفعل  
آبائهم وأجدادهم، فصحت نسبة القتل إليهم، ولأن بعض أولئك المعاصرين  
قدم بقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - فكف الله - تعالى - أيديهم  
الآئمة عنه.

ثم سجل الله - تعالى - جرمهم الثالثة بقوله: «ذلك بما عصوا وكانوا  
يعتدون» .

العصيان: الخروج عن طاعة الله . والاعتداء: تجاوز الحد الذي حده الله  
- تعالى - لعباده إلى غيره . وكل متجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعداه إلى  
ما جاوز إليه .

وللنفسرين في مرجع لاسم الإشارة ذلك، في قوله ذلك بما عصوا . .  
وأيات:

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٧ .

(٢) الفخر الرازي ج ١ ص ٩٣ .

أولهما : أنه يهود إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم لأنبيائه، وعليه يكون المعنى :  
 إن هؤلاء اليهود قد ألقوا العصيان الخالقهم والتعدى لحدوده بجرأة وعدم  
 مبالاة ، فنشأ عن هذا التمرد والطغيان أن كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه ،  
 وبأشروا تلك الكبائر بقلوب كالحجارة أو أشد قسوة .

والجملة الكريمة على هذا الرأى ، تفيد أن التمردى فى المعاصى . وارث المكاب  
 ما نهى الله عنه ، ونجاوز الحدود المشروعة ، يؤدى إلى الانتقال من صغير  
 الذنوب إلى كبيرها ، ومن حقيرها إلى عظيمها ، لأن هؤلاء اليهود حين  
 استمروا المعاصى ، هانت على نفوسهم الفضائل ، وانكسرت أمام شهواتهم  
 كل مثل العليا ، فكذبوا بآيات الله تكديبا ، وقتلوا من جاءهم بالهدى  
 ودين الحق :

وثانيتها : أن اسم الإشارة ، ذلك ، فى قوله ، ذلك بما عصوا ، يعود إلى  
 نفس المشار إليه باسم الإشارة الأول وهو قوله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون .  
 وتكون الحكمة فى تكرار الإشارة هو تمييز المشار إليه ، حرصا على  
 معرفته ، ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة  
 عليهم . واستحقاقهم لغضب الله كما أشرنا من قبل .

والإشارة حينئذ من قبيل التكرير المعنى عن العطف كما فى قوله - تعالى - .  
 أو أنك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون .

والمعنى : أن هؤلاء اليهود قد لزمهم الذلة والمسكنة . وصاروا أحقاه  
 بسخط الله بسبب كفرهم بآياتنا ، وقتلهم أنبياءنا . وخروجهم عن طاعتنا ،  
 وتعديهم حدودنا .

وعلى هذا الرأى يكون ذكر أسباب العقوبة التى حلت بهم فى الدرجة  
 العليا من حسن الترتيب فقد بدأ - سبحانه - بما فعلوه فى حقه وهو كفرهم  
 بآياته ، ثم تلى بما يتلوه فى العظم وهو قتلهم لأنبيائه ، ثم وصمهم بعد ذلك  
 بالعصيان والخروج عن طاعته ، ثم ختم أسباب العقوبة بهم بالاعتداء ،  
 وتخطى الحدود ، وعدم المبالاة باليهود .

وهذا الترتيب من اطائف أسلوب القرآن الكريم في سوق الاحكام مشفوعة بملها وأسبابها .

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد بدأت حديثها بمدح الأمة الاسلاميه بأنها خير أمة أخرجت للناس ، ثم نبت بدعوة أهل الكتاب إلى الاسلام ، وياخبار المؤمنين بأن أعداءهم لن يضرروهم ضررا يؤثر في كيانهم ماداموا معتصمين بتعاليم دينهم ، ثم ختمت حديثها ببيان العقوبات التي حلت باليهود بسبب كفرهم وبغيبهم .

وبعد هذا الحديث الحكيم عن أهل الكتاب ، وعن العقوبات التي أنزلها - سبحانه - باليهود بسبب فسقهم وظلمهم ، بعد كل ذلك سابق - سبحانه - آيات كريمة تمدح من يستحق المدح من أهل الكتاب إنصافا لهم ، وتكراما لذواتهم فقال - تعالى - :

« لَيْسُوا سَوَاءً ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْقَهُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) » .

فالضمير في قوله - تعالى - « ليسوا سواء » يعود لأهل الكتاب ، الذين تقدم الحديث عنهم ، وهو اسم ايسر ، وخيرها قوله « سواء » . والجملة مستأنفة للثناء على من يستحق الثناء منهم ، بعد أن وبع القرآن من يستحق التوبيخ منهم .

قال ابن كثير : والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أخبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وأسد بن عبيد ونعلية ابن شعبة وغيرهم . أى لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب ،

وهؤلاء الذين أسلموا ، ولهذا قال - تعالى - ليسوا سواء ، أى ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ، ومنهم المجرم (١) .

وقوله - تعالى - من أهل الكتاب أمة قائمة ، استثناف مبين لكيفية عدم التساوى ويزيل لما فيه من إبهام .

أى : ليس أهل الكتاب متساوين فى الكفر وسوء الأخلاق ، بل منهم طائفة قائمة بأمر الله مطيعة أشرعه مستقيمة على طريقته ثابتة على الحق ملازمة له ، لم تتركه كما تركه الأكترون من أهل الكتاب وضيعوه .

ففى قائمة مستقيمة عادلة من قولك أمت العود فقام بمعنى استقام .

أو معناها : ثابتة على التمسك بالدين الحق ، ملازمة له غير مضطربة فى التمسك به ، كما فى قوله - تعالى - إلا ما دمت عليه قائما ، أى ملازمة المطالبته بحقك . ومنه قوله - تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، أى ملازما له .

والمراد بهذه الطائفة من أهل الكتاب التى وصفها الله - تعالى - بأنها « أمة قائمة ، أولئك الذين أسلموا منهم ، واستقاموا على أمر الله ، وأطاعوه فى السر والعلن ، كعبد الله بن سلام ، وأصحابه ، والنجاشى ومن آمن معه من النصارى هؤلاء قد آمنوا بكل ما يجب الايمان به ، ولم يفرقوا بين أنبياء الله ورسله ، فدحهم الله على ذلك وأثى عليهم .

ثم تابع القرآن حديثه عن أوصافهم الكريمة فقال . « يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » .

وقوله « يتلون » من التلاوة وهى القراءة ، وأصل الكلمة من الاتِّبَاع ، فكان التلاوة هى اتباع اللفظ .

والمراد بآيات الله هنا : ما أنزله على رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - من قرآن .

وقوله وآناء الليل، أى أوقاته وساعاته. والآناء جمع إنسى - كما وأمعاء -  
أو جمع أنسى - كعضا - ، أو جمع أنى وإنى وإنو . فالهمزة فى آناء منقلبة  
عن ياء كرداء : أو عن وار ككساء .

والمراد بالسجود فى قوله ، وهم يسجدون، الصلاة لأن السجود لا قراءة  
فيه وإنما فيه التسبيح ، فقد روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : قال  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . ألا لى نبيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو  
ساجداً . فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء  
فَقَسَمِينَ أن يستجاب لهم ، .

والمعنى . ليس أهل الكتاب متساوين فى الانصاف بما ذكر من الصائحات ،  
بل منهم قوم سلطوا منها ، وهم الذين استقاموا على الحق ولزموه ، وأكثروا  
من تلاوة آيات الله فى صلاتهم التى يتقربون بها إلى الله - تعالى - آناء الليل  
وأطراف النهار .

قال الألوسى ما ملخصه . والمراد بصلاتهم هذه النهج - على ما ذهب إليه  
البعض - . وعلل هذا بأنه أدخل فى المدح وفيه تيسر لهم التلاوة ، لأنها فى  
المسكوبة وظيفة الإمام ...

والذى عليه بعض السلف أنها صلاة العتمة . واستدل عليه بما أخرجه  
الإمام أحمد والنسائى وابن جرير والطبرانى عن ابن مسعود قال : أخر  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد  
فاذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : أما أنه لا يصلى هذه الصلاة أحد من  
أهل الكتاب ... وعبر عن الصلاة بالسجود ، لأنه أدل على كمال الخضوع  
والصلاة تسمى سجوداً وسجدة ، وركوعاً وركعة (١) .

ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى كريمة فقال : « يؤمنون بالله ،  
والمراد بهذا الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به على الوجه المقبول الذى نطق  
به الشرع ، وجاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - .

« واليوم الآخر ، أى ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار وقوله : « ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، إشعار بأنهم لم يسكتوا بتشكيل أنفسهم بالفضائل التى من أشرفها الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإكثار من إقامة الصلاة ومن تلاوة القرآن ، بل أضافوا إلى ذلك إرشاد غيرهم إلى الخير الذى أمر الله به ، ونهيه عن الباطل الذى يبغضه الله ، وتسكركه العقول السليمة .

وقوله - تعالى - « ويسارعون فى الخيرات ، أى يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات التى ترفع درجاتهم عند الله - تعالى - . بدون تردد أو تقصير .

وقال - سبحانه - « ويسارعون فى الخيرات ، ولم يقل إلى الخيرات ، للإشعار بأنهم مستقرون فى كل أعمالهم فى طريق الخير ، فهم ينتقلون من خير إلى خير فى دائرة واحدة هى دائرة الخير ، فهم ينتقلون بين زواياها وأقطارها ولا يخرجون منها . فهم لا ينتقلون مسارعين من شر إلى خير وإنما ينتقلون مسارعين من خير إلى خير وهذا هو سر التعبير فى المفيدة للظرفية .

والمسارعة فى الخير هى فرط الرغبة فيه ؛ لأن من رغب فى الأمر يسارع فى تويبه وفى القيام به . وإختبار صيغة المفاعلة ، يسارعون ، للبالغة فى سرعة نهوضهم لهذا العمل الجامع لفنون الخير ، وألوان البر .

قال صاحب الكشف : وقوله « يتلون ، و « يؤمنون ، فى محل الرفع صفتان لأمة . أى : أمة قائمة تالون مؤمنون . وصفهم بمحاصل ما كانت فى اليهود من تلاوة آيات الله بالليل ساجدين ، ومن الإيمان بالله ؛ لأن إيمانهم به كلاً إيمان ، لإشراكهم به عزيراً ، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض . ومن الإيمان باليوم الآخر ، لأنهم يصفونه بخلاف صفته . ومن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأنهم كانوا مدهنيين . ومن المسارعة فى الخيرات ، لأنهم كانوا متباطئين عنها غير راغبين فيها ، (١) .

وأسم الإشارة في قوله ، وأرثك من الصالحين ، يعود إلى الموصوفين بتلك الصفات السابقة من تلاوة الكتاب ومن إيمان باقته واليوم الآخر ...  
 أي وأرثك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة الشأن من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم ، واستحقوا ثنائه عليهم .  
 وفي التعبير بقوله ، من الصالحين ، إشارة إلى أنهم بهذه المزايا ، وتلك الصفات ، قد انسلخوا من عداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله - تعالى - ووصفهم بأن أكثرهم من الفاسقين .

فهم بسبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين .

قال الفخر الرازي : واعلم أن وصفهم بالصلاح في غاية المدح . ويدل عليه القرآن والمعقول . أما القرآن ، فهو أن الله - تعالى - مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء ، فقال بعد ذكر إدريس وإسماعيل وذى الكفل وغيرهم :  
 « وأدخلناهم في رحمتنا لأنهم من الصالحين » .

وذكر حكاية عن سليمان أنه قال : « وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » .  
 وأما المعقول ، فهو أن الصلاح ضد الفساد ، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد ، سواء كان ذلك في العقائد أو في الأعمال ، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون فقد حصل الصلاح ؛ فكان الصلاح دالا على أكمل الدرجات ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أنه لن يضيع شيئا مما قدموه من أعمال صالحة ، بل سيكافئهم على ذلك بما هو أفضل وأبقى فقال : « وما يفعلوا من خير فلن يكفروه » أي أن هؤلاء الذين وصفهم الله بتلك الصفات الطيبة لن يضيع الله شيئا مما قدموه من عمل صالح ، وإنما سيجازيهم بما هم أهل من ثواب جزيل ، وأجر كبير بدون أي نقص أو حرمان .

و ما ، في قوله ، وما يفعلوا من خير ، شرطية . وفعل الشرط قوله  
 « يفعلوا » وجوابه قوله « فلن يكفروه » .

و من ، في قوله ، من خير ، لتأكيد للعموم أى ما يفعلوا من أى خير سواء أكان قليلاً أم كثيراً فلن يجرموا ، ثوابه .

وأصل الكفر : السر والتغطية . وقد صرح تعدية الفعل كفر إلى مفعولين لأنه هنا بمعنى حرم .

ولذا قال صاحب الكشاف : فإن قلت لم عدى إلى مفعولين ، وشكر وكفر لا يتعديان إلا واحداً تقول : شكر النعمة وكفرها ؟ قلت : ضمن معنى الحرمان فكأنه قيل : فلن يجرموه ، بمعنى : فلن يجرموا جزاءه ، (١) .

وقوله ، والله عليم بالمتقين ، تدبيل مقرر لمضمون ما قبله . أى هو - سبحانه - عليم بأحوال عباده وسيجازى المتقين بما يستحقون من ثواب ، وسيجازى الكافرين بما يستحقون من عقاب .

فانت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد أنصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب ، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة .

وصفتهم بأنهم طائفة ثابتة على الحق . وأنهم يتلون آيات الله أناء الليل وأطراف النهار . وأنهم مكثرون من التضرع إلى الله في صلواتهم وسجودهم ، وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وأنهم يأمرون بالمعروف ، وأنهم ينهاون عن المنكر . وأنهم يسارعون في الخيرات ، وأنهم من الصالحين .

ثم بشرهم - سبحانه - بعد وصفهم بهذه الصفات الكريمة بأن ما يقدموه من خير فلن يجرموا ثوابه ، لأنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده ولن يضيع أجر من أحسن عملاً .

وبعد هذا الحديث المؤثر عن أحوال المؤمنين من أهل الكتاب وبيان ما أعد الله لهم من ثواب جزيل ، أتبعه بالحديث عن الكافرين وعن سوء عاقبتهم وعن أهم الأسباب التي أدت إلى جحودهم وفسوقهم فقال - تعالى - :

« إن الذين كفروا لن تنفي عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (١١٦) مثل ما يتفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ریح فيها صیراً صابت حرت قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون (١١٧) » .

والمراد بالذين كفروا في قوله « إن الذين كفروا .. » جميع الكفار ، لأن اللفظ عام ، ولا دليل يقتضى تخصيصه بفريق من الكافرين دون فريق . والمراد من الإغناء في قوله « لن تنفي عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً » الدفع وسد الحاجة يقال : أغنى فلان فلانا عن هذا الأمر ، إذا كفاه مؤنه ، ورفع عنه ما أثقله منه .

أى : إن الذين كفروا بما يجب الإيمان به . واغتروا بأموالهم وأولادهم في الدنيا ، لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً - ولو يسيراً - من عذاب الله الذى سيحقق بهم يوم القيامة بسبب كفرهم ووجودهم .

وقد أكد - سبحانه - عدم إغناء أموالهم ولا أولادهم عنهم شيئاً - في وقتهم في أشد الحاجة إلى من يعينهم ويدفع عنهم - بحرف « لن » المفيد لتأكيد النفي وخص الأموال والأولاد بالذكر ، لأن الكفار كانوا أكثر ما يكونون اغتراراً بالأموال والأولاد ، وقد حكى القرآن غرورهم هذا بأموالهم وأولادهم في كثير من الآيات ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » (١) .

ولأن من المتعارف عليه بين الناس أن الإنسان يلجأ إلى ماله وولده عند الضدائد ، إذ المال يدفع به الإنسان عن نفسه في العناء وما يشبهه من المعازم ، والأولاد يدافعون عن أبيهم لنصرتهم ممن يعتدى عليه .

وكرر حرف النفي مع المعطوف في قوله «ولا أولادهم» ، لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم ، ولدفع توهم ما هو متعارف من أن الأولاد لا يبعدون عن الذب عن آبائهم .

فالمنصوب من الجملة الكريمة في الانتفاع بالأموال والأولاد في حالة اجتماعهما ، وفي حالة انفراد أحدهما عن الآخر ، ولأن المال قد يكون أكثر نفعا في مواضع خاصة ، والأولاد قد يكونون أكثر نفعا من المال في مواطن أخرى ، فبتكرار النفي تاکد عدم انتفاع الكفار بهذين النوعين في آية حال من الأحوال .

فإن قيل : لقد نص القرآن على أن الكفار لا تنفي عنهم أموالهم ولا أولادهم يوم القيامة ، مع أن المؤمنين كذلك لا تنفي عنهم أموالهم ولا أولادهم فلماذا خص الكافرين بالذكر ؟

فالجواب أن الكافرين هم الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ، وهم الذين اعتقدوا أنهم سينجون من العقاب بسبب ذلك ، أما المؤمنون فإنهم لم يعتقدوا هذا الاعتقاد ، ولم يغتروا بما منحهم الله من نعم ، وإنما اعتقدوا أن الأموال والأولاد فتنة ، ولم يعتمدوا في نجاتهم من عقاب الله يوم القيامة إلا على فضله ورحمته ، وعلى إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح .

و . من ، في قوله «من الله» ، لإبتدائية ، والجار والمجرور متعلق بتغني .

وقوله «شيئا» منصوب على أنه مفعول مطلق أي : لن تنفي عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا من الاغناء والدفع . وتنفكير «شيئا» للتقليل .

وقوله «وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» تذييل قصد به بيان سوء عاقبتهم ، وما أعد لهم من عذاب شديد .

أى وأولئك الكافرون المغترون بأموالهم وأولادهم هم أصحاب النار الذين سيلازمونها ويصلون سميرهما ، ولن ينصروهم من عذاب الله أى ناصر من أموال أو أولاد أو غيرهما .

وقد أكد - سبحانه - هذا الحكم العادل بعدة مؤكدات منها : التعبير باسم الإشارة المتضمن السلب من كل قوة كانوا يعترفون بها ، ومنها . ذكر مصاحبتهم للنار وخلودهم فيها أى ملازمتهم لها ملازمة أبدية ، ومنها ما اشتملت عليه الجملة الكريمة من معنى القصر أولئك أصحاب النار الذين يلازمونها ولا يخرجون منها إلى غيرها بل هم خالدون فيها .

ثم ضرب - سبحانه - مثلاً لبطلان ما ينفقه هؤلاء الكافرون من أموال من أموال فى الدنيا فقال ، مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا ، أى من أموال فى وجوه الخير المختلفة : كواساة البائسين ، ودفع حاجة المحتاجين .  
و ما ، موصولة والعائد محذوف ، والتقطير . مثل ما ينفقونه .

كمثل ريح فيها صر ، أى كمثل ريح فيها برد شديد قاتل للنبات . وقيل .  
الصر . الحر الشديد ، وقيل الصر . صوت هيب النار التى تحرق النار .

وذكر - سبحانه - الصر على أنه فى الريح ، وأنها مشتقة عليه ، وهى له ظرف وهو مظهر ، للاشعار بأنها ريح لا تحمل عوامل النار للزرع . وإنما هى تحمل ما معها ما يهلكه .

وقوله ، أصابت حرث قوم ظلوا أنفسهم فأهلكته ، أى أصابت زرع قوم ظلوا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصى فدمرتهم وأهلكته ما فيه من بخارهم وأحوج ما يكونون إلى الزرع وتلك النار .

والحرث هنا مصدر بمعنى المحرث ، وأصل كلمة حرث : فلاح الأرض وإلقاء البذر فيها ، ثم أطلقت على ما هو نتيجه لذلك وهو الزرع .

وفى التعبير بقوله ، ظلوا أنفسهم ، تذكير للسامعين ، وبمعنى لم يترك

الظلم ، حتى لا يصابوا بمثل ما أصيب به أولئك الذين ظلموا أنفسهم من عقوبات رادعة ، وأضرار فادحة .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله . وما ظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون ، أى أن الله - تعالى - ما ظلمهم حين لم يقبل نفاقهم ؛ ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإبشارهم الكفر على الإيمان ، ومن كان كذلك فلن يقبل الله منه شيئاً ، لأن الله - تعالى - وإنما يقبل من المتقين .

والضائر في هذه الجملة الكريمة تعود أولئك الكافرين الذين ينفقون أموالهم مقررة بالوجوه المانعة من قبولها .

وفي هذه الآية الكريمة تشبيه بليغ : فقد شبه - سبحانه - به - حال ما ينفقه الكفار في الدنيا - على سبيل القرينة أو المفارقة - شبه ذلك في ضياعه وذهابه وقت الحاجة إليه في الآخرة من غير أن يعود عليهم بفائدة ؛ بحال زرع لقوم ظالمين ، أصابته ريح مهلكة فاستأصلته ، ولم ينتفع أصحابه منه بشيء ، وهم أحوج ما يكونون إليه .

قال صاحب الإنتصاف . أصل الكلام - والله أعلم - . مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ، كمثل حرث قوم ظلموا انفسهم ، فأصابتهم ريح فيها صر فأهلكته .

ولكن خولف هذا النظم في المثل المذكور لفائدة جليظة . وهى تقديم ما هو أهم لأن الريح التى هى مثل العذاب . ذكرها في سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث . فقد تمت عناية بذكرها ، وإعتمادا على إن الأفهام السميحة تستخرج لمصابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه . ومثل هذا في تحويل النظم لمثل هذه الفائدة قوله - تعالى - وفرجل وأمرأتان ممن ترضون من الشهداء . أن تضل إحداهما ، . ومثله - أيضا - . أعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعه .

والأصل . أن تذكر إحداهما الأخرى وإن ضلت . وأن أدمع بها الحافظ إذا مال ، وأمثال ذلك كثيرة (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة الكافرين أكمل بيان وأحكامه ، حذر المؤمنين من أهل الكتاب ومن على شاكلتهم من لا يريدون الإسلام إلا الشرور والمضار فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا ، وَدُوا مَا عَنْتُمْ ، قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا لِقَاكُمْ قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ ، وَإِنْ تَصَبَّيْتُمْ سَبِيئَةً يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَحِيطٌ (١٢٠) . »

قال الفخر الرازي مالمخصه : اختلفوا في الذين نهي الله المؤمنين عن مخالطتهم من هم ؟ فقيل هم اليهود ؛ لأن بعض المسلمين كانوا يشاورونهم في أمورهم ويؤانسونهم لما كان فيهم من الرضا والخلق . . . وقيل هم المنافقون ، وذلك لأن بعض المؤمنين كانوا يقترون بظواهر أقوالهم فيفشون إليهم الأسرار والصحيح أن المراد بهم جميع أصناف الكفار ، والدليل عليه قوله - تعالى - « بَطَانَةٌ مِنْ دُونِكُمْ ، فَنَعَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ نَهْيًا عَنْ جَمِيعِ الْكُفَّارِ . . . » (٢) .

(١) الانتصاف على الكشاف للشيخ أحمد بن المنير ج ١ ص ٤٥٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٨ ص ٢١٠ .

والبطانة في الأصل : داخل الثوب ، وجمعها بطائن . قال - تعالى -  
 « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق » (١) . وظاهر الثوب يسمى الظهارة .  
 والبطانة - أيضا - الثوب الذي يجعل تحت ثوب آخر ويسمى الشعار ، وما فوقه  
 الدنار : وفي الحديث « الأنصار شعار والناس دنار » .

ثم أطلقت البطانة على صديق الرجل وصفيه الذي يطلع على شئونه  
 الخفية تشبيها ببطانة الثياب في شدة القرب من صاحبها . قال الشاعر :  
 أولئك خلصاني نعم وبطائتي وم عيني من دون كل قريب  
 وقوله « من دونكم ، أي من غير أهل ملتكم .

والمعنى : لا يجوز لكم - أيها المؤمنون - أن تتخذوا من غير أهل ملتكم  
 أوصياء وأولياء المقوم إليهم بأمراركم التي لا يصح لكم أن تطلعوهم عليها ،  
 لأنكم لو فعلتم ذلك لأصابكم الضرر في دينكم ودنياكم .

قال القرطبي : « نهى الله المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار  
 واليهود وأهل الأهواء دخلا وولجا ، يفاوضونهم في الآراء ويستبدون إليهم  
 أمورا . . . وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم -  
 قال : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » . . . وقيل لعمر بن  
 الخطاب - رضی الله عنه - إن ههنا رجلا من نصارى الخيرة لا أحد  
 أكتب منه ولا أخط بقلم ، أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا أخذ بطانة من دون  
 المؤمنين . . . . .

ثم قال القرطبي - رحمه الله - : « قلت وقد إنقلبت الأحوال في هذه الأزمان  
 ياخذ أهل الكتاب كتبه وأمناء ، وتسودوا بذلك عند الجملة الأغبياء من  
 الولاة والأمراء . . . روى البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي - صلى الله  
 عليه وسلم - قال : « ما بعث الله من بني ولا استخلف من خليفة إلا كانت له

بطانتان : بطانة تأمره بالخير ونحضه عليه . وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه .  
والمعصوم من عصمه الله ، (١) .

وصدر - سبحانه - النداء بوصف الإيمان ، للاشعار بأن مقتضى الإيمان  
يوجب عليهم ألا يأمّنوا من يخالفهم في عقيدتهم على أسرارهم ، وألا يتخذوا  
أعداء الله وأعداءهم أولياء بلقون إليهم بالموودة ، وألا يطلعوهم على ما يجب  
إخفاؤه من شئون وأمر خاصه بالمؤمنين وقوله ، من دونكم ، يجوز أن يكون  
صفة لبطانة فيكون متعلقا بمحذوف ، أي لا تتخذوا بطانه كائنه من غيركم .  
ويجوز أن يكون متعلقا بقوله : لا تتخذوا ، أي لا تتخذوا من غير أصل  
ملككم بطانة تصافونهم وتفعلونهم على أسراركم

ثم ذكر . سبحانه - جملة من الأسباب التي تجعل المؤمنين يمتنعون عن  
مصافاة هؤلاء الذين يخالفونهم في عقيدتهم فقال في بيان أول هذه الأسباب :  
ولا يألونكم خبالا ، وأصل ، الألو ، : لتقصير يقال : ألا في الأمر - كغزا -  
يألو ألوأ وألوأ ، إذا قصر فيه ، ومنه قول امرئ القيس :

ما المرء ما دامت حشاشة نفسه يمدد لا أضرار الخطوب ولا آل  
أرأد ولا مقصر . وهو - أي الفعل ، يألو ، من الأفعال اللازمة التي تعدى  
إلى المفعول بالحرف ، وقد يستعمل متعبدا إلى مفعولين كما في قولهم : لا آلوك  
نصحا ، على تضمين الفعل معنى المنع . أي لا أمنك ذلك

والخبال : الشر والفساد . وأصله ما يلحق الحيوان من مرض وفنور فيورثه  
فسادا وإضطرابا . يقال خبله وخبلته فهو خابل . والجمع الخبل ورجل مخبل  
إذا أصيب بمرض أورثه إضطرابا وفسادا في قواه العقلية والفكرية .

والمعنى : أنكم - أيها المؤمنون - عن تتخذوا أولياء وأصفياء لكم من  
غير إخوانكم المؤمنين ، لأن هؤلاء الأولياء من غير إخوانكم المؤمنين

لا يقصرون في جهـد يبذلونه في إفساد أمركم ، وفيهم يورثكم شرا وضرا .  
أو لا يعمرونكم خبيلا ؛ أي أنهم يفعلون معكم ما يقدرون عليه من الفساد  
ولا يبقون شيئا منه عندهم ، بل يبذلون قصارى جهدهم في إلحاق الضرر بكم  
في دينكم ودنياكم .

وقوله « لا يألونكم خبالا » جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى إجتناهم  
أو صفة لقوله « بطانة » .  
وقوله « خبالا » منصوب على أنه المفعول الثاني ليألونكم لتضمينته معنى  
يعمرونكم

ويصح أن يكون منصوبا بزعم الخافض أي لا يقصرون لكم عن جهـد  
فيما يورثكم شرا وفسادا .

أما السبب الثاني الذي يحمل المؤمنين على إجتناهم هؤلاء الضالين فقد بينه  
- سبحانه - بقوله : « ودوا ما عنتم » .

وقوله « ودوا » من الود وهو المحبة . يقال : وددت كذا أي أحببته .  
وقوله « عنتم » من العنت وهو شدة الضرر والمشقة . ومنه قوله - تعالى -  
« ولو شاء الله لأعنتكم » أي لأوقمكم فيما يشق عليكم .

ود ما في قوله « ما عنتم » هي ما المصدرية . أي : أن هؤلاء الذين تصافونهم  
وتفشون إليهم أسراركم مع أنهم لبسوا على ملتكم ، بجانب أنهم لا يألون جهدا  
في إفساد أمركم ، فانهم يحبون عنتكم ومشقتكم وشدة ضرركم ، وتفريق  
جمعكم ، وذهاب قوتكم .

فالجملة الأولى وهي قوله « لا يألونكم خبالا » بمنزلة المظهر والنتيجة ،  
وهذه ، أي قوله - تعالى - « ودوا ما عنتم » بمنزلة الباعث والدافع .

فهم لا يودون للمسلمين الخير والإطمئنان والأمان ، وإنما يودون لهم  
الشقاء والشور والحسران . وليس بعاقل ذلك الذي يطلع من يريد له الشور  
على أسراره ودخائله .

وأما السبب الثالث الذي يدعو المؤمنين إلى إجتناهم فقد بينه الله - تعالى -  
فقوله : قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر .

والبغضاء مصدر كالسراء والضراء ، وهي البغض الشديد المتمكن في  
النفوس ، والثابت في القلوب .

أى : قد ظهرت أمارات العداوة لكم من فلتات ألسنتهم ، وطفح البغض  
الباطن في قلوبهم لكم حتى خرج من أفواههم ، ولاح على صفحات وجوههم  
وقد قيل كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفتلات اللسان .  
ومع هذا فإن ما تحف به نفوسهم المريضة لكم من أحقاد وإحن ، أكبر مما  
نطقت به ألسنتهم من بغضاء ، إذ أن ما نطقوا به إنما بمثابة الرشح الذي ظهر  
من مسام أجسامهم وقلوبهم ، أما ما يبيتونه لكم من شرور وآثام فهو أكبر  
من ذلك بكثير .

وخص الأفواه بالذكر دون الألسنة ، للإشارة إلى تشدهم وثرثرتهم  
في أفواههم الباطلة ، فهم أشد جرما من المتستر الذي تبدر البغضاء في عينيه .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان مظاهر من مظاهر فضله على  
المؤمنين ، حيث كشف لهم عن أحوال أعدائهم وعن سوء نواياهم  
وعن الأسباب التي تدعو إلى الحذر منهم فقال - تعالى - قد بينا لكم  
الآيات إن كنتم تعقلون .

أى قد بينا لكم العلامات الواضحات ، والآيات البينات التي تعرفون  
بها أعدائكم ، وتميزون عن طويقتها بين الصديق وبين العدو ، إن كنتم من  
أهل العقل والفهم .

والمقصود من الجملة الكريمة حثهم على إستعمال عقولهم بتأمل وتدبر  
في هذه الآيات التي بينها الله لهم فضلا منه وكرما ، حتى لا يتخذوا بطانة من  
غير إخوانهم في العقيدة والدين .

وحواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه ، والتقدير: إن كنتم تعقلون ذلك فلا تباطنوا ولا تمشوا لهم أسراركم .

ثم ذكر - سبحانه - أموراً أخرى من شأنها أن تجعل المؤمنين يقطعون عن مباطنة ومصافاة أعدائهم في الدين فقال : **«ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم، أو ها أنتم أولاء أيها المؤمنون تحبون هؤلاء الذين يخالفونكم في عقيدتكم، وتتمنون لهم الهداية والخير، بينما هم لا يحبونكم ولا يريدون لكم إلا الشرور والهزائم والضعف .»**

وفي هذه الجملة الكريمة عتاب ولوم للمؤمنين الذين يلقون إلى أعدائهم بالمودة ، ويكشفون لهم عن أسرارهم ودخائلهم .

و **«ها ، حرف تنبيه ، وقوله «أنتم ، مبتدأ وقوله «أولاء ، خبره ، وقوله «تحبونهم ولا يحبونكم . . . ، كلام مستأنف لبيان خطتهم في موالاتهم ومحبتهم لمن يبغضونهم ويخالفونهم في الدين .»**

وبعضهم جعل **«أنتم ، مبتدأ ، وقوله «أولاء ، منادى حذف منه حرف النداء ، وقوله «تحبونهم ، هو الخبر عن المبتدأ .»**

وبعضهم جعل جملة **«تحبونهم ، في موضع نصب على الحال من إسم الإشارة الذي هو الخبر .»**

والمراد بالكتاب في قوله **«والمؤمنون بالكتاب كله ، جنس الكتب السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه .»**

أي أنتم أيها المؤمنون تحبونهم وهم يحبونكم ، وأنتم تؤمنون بجميع الكتب السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم الذي أنزله الله على نبيكم محمد - صلى الله عليه وسلم - وما دام الأمر كذلك فكيف تتخذونهم بطانته من دون إخوانكم المؤمنين ؟ لا شك أن من يفعل ذلك يكون بعيداً عن الطريق القويم ، والعقل السليم .

ثم بين - سبحانه - سببا ثالثا يدل على قبوح غناظتهم ومصافاتهم فقال - تعالى - : « وإذا القوم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

والعض هو الإمساك بالأسنان أى تحامل الأسنان بعضها على بعض . يقال : عض بعض عضا وعضيضا إذا تحامل بأسفانه على الشئ .

والأنامل جمع أملة ، وهى أطراف الأصابع . وقيل هى الأصابع .

والغيظ : أشد الغضب . وعضهم الأنامل كناية عن شدة غضبهم وتحسرم وحنقهم على المؤمنين .

أى أن هؤلاء الذين يؤلبهم بعضكم أيها المئمنون بلغ من نفاقهم وسوء ضمايرهم أنهم إذا القوم قالوا آمنا بدينكم وبنيبكم محمد - صلى الله عليه وسلم - وإذا خلوا ، أى خلا بعضهم ببعض أكل الحقد قلوبهم عليكم ، وسلقوكم بالسنة حداد ، وتمنوا لكم المصائب ، وأظهروا فيما بينهم أشد ألوان الغيظ بحوكم ؛ بسبب ما يرونه من إئتلافكم ، وإجتاع كلتكم . وعجزهم عن أن يجد سبيلا إلى التشفى منكم ، وإلحاق الأضرار بين صفوفكم .

ومن كان كذلك فى كفره ونفاقه ، كان من الواجب على كل مؤمن أن يحتقره وأن يبتعد عنه ، لأنه لا يريد للمؤمنين إلا شرا .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يكيت هؤلاء المنافقين ويسقى حسرتهم فقال : « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » .

والخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولكل مؤمن من أتباعه لتجربته على مقاطعة هؤلاء الذين لا يريدون لهم إلا الشر .

أى : قل لهم دووا على غيظكم وإستمروا عليه إلى أن تموتوا ، فإن قوا الإسلام وعزة أهله التى جعلتكم تفضون المؤمنين سبقي وستستمر ، وإذ أحقادكم على المسلمين لن تنتص من قوتهم وعلو كلمتهم شيئا .

فالمراد الدماء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به ، وهذا يستلزم أن يستمر ما يغيظهم ويكببهم ، وهو نجاح الإسلام وقوته :

والباء في قوله « يغيظكم » للملازمة . أي موتوا متلبسين بغيظكم وحقنكم . وقوله « إن الله عليم بذات الصدور » أي عيظ بما خفي فيها : ومطلع على ما بيته هؤلاء المنافقون للمسلمين ، وسيحاسبهم عليه حسابا عسيراً . وبمنهم بسبب ذلك عذاباً ألماً .

قال الجمل : وهذه الجملة يحتمل أن تكون مستأنفة ، أخبر الله - تعالى - بذلك ، لأنهم كانوا يخفون غيظهم ما أمكنهم ، فذكر ذلك لهم على سبيل الوعيد ويحتمل أن تكون من جملة المقول . أي قل لهم كذا وكذا فتكون في محل نصب بالقول . ومعنى قوله « بذات الصدور » أي : بالمضمرات ذوات الصدور . فذات هنا تأنيث ذي بمعنى صاحبة الصدور . وجعلت صاحبة للصدور للملازمتها لها وعدم انفكاكها عنها ، نحو أصحاب الجنة وأصحاب النار ، (١) .

وفي هذه الجملة السكينة تطيب لقلب النبي - صلى الله عليه وسلم - ولقلوب أصحابه . حيث بين - سبحانه - لهم أنه ناصرهم ، وأنه كاشف لهم أمر أعدائهم متى أطاعوا أوامرهم واجتنبوا نواهيه ، ولم يجعلوا من أولئك الأعداء الذين يضمرون لهم كل شر وضغينة بطانة لهم .

ثم ذكر - سبحانه - لونا آخر من ألوان بغض هؤلاء الكافرين للمؤمنين ، فقال - سبحانه - : « إن تمسكم حسنة تؤم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » والمس : أصله الجرس باليد ، ثم أطلق على كل ما يصل إلى شيء على سبيل التشبيه ، فيقال : فلان مسه النصب أو التعب ، أي أصابه .

والمراد بالحسنة هنا منافع الدنيا على اختلاف ألوانها كحصة البدن ، وحصول النصر ، ووجود الألفة والمحبة بين المؤمنين ...

أى إن تمسككم - أيها المؤمنون - حسنة كنصركم على أعدائكم ، وإصلاح ذات بينكم ، و تسؤم ، أى تحزنهم وتملا قلوبهم غيظا عليكم ، ، وإن تصيبكم سيئة ، كزول مصيبة بكم ، يفرحوا بها ، أى يتهجوا بها ، وتستطار إليهم سرور وحبوراً بسبب ما نزل بكم من مكاره .

فالجملة الكريمة بيان لفرط عداوة هؤلاء المنافقين للمؤمنين ، حيث يحسدونهم على ما ينالهم من خير ، ويشمتون بهم عند ما ينزل بهم شر .

وعبر في جانب الحسنة بالمس ، وفي جانب السيئة بالإصابة ، للإشارة إلى تمكن الأعداء من قلوبهم ، بحيث إن أى حسنة حتى ولو كان مسها للمؤمنين خفيفاً وليس عامراً فإن هؤلاء المنافقين يحزنون لذلك ، لأنهم يستكثرون كل خير للمؤمنين حتى ولو كان هذا الخير ضئيلاً .

أما بالنسبة لما يصيب المؤمنين من مكاره ، فإن هؤلاء المنافقين لا يفرحون بالمصيبة التي تمس المؤمنين مساً خفيفاً ، فانها لا تشفي غيظهم وحقدهم ، وإنما يفرحون بالمعاصب الشديدة التي تؤذي المؤمنين في دينهم وديارهم أذى شديداً ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بإرشاد المؤمنين إلى الدواء الذي يتقون به كيد أعدائهم وأعدائهم فقال - تعالى - : « وإن تصبروا وتقروا لايضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » .

وقوله « تصبروا » من الصبر وهو حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل .

وقوله « وتقوا » من التقوى وهي صيانة الإنسان نفسه عن محارم الله . وقوله « كيدهم » من الكيد وهو أن يحتال الشخص ليوقع غيره في مكروه والمعنى : « وإن تصبروا ، أيها المؤمنون على طاعة الله ، فتضبطوا أنفسكم ولا تنساقوا في محبة من لا يستحق المحبة ، وتحملوا بهزيمة صادقة مشاق التكاليف التي كلفكم الله بها ، وتقاوموا العداوة بمثلها ، وتقوا ، الله - تعالى - في كل ما نهاكم عنه ، وتمثلوا أمره في كل ما أمركم به ، إن فعلتم ذلك ، لا يضركم

كيدهم ، وتدبيرهم السيء . « شيئا » من الضرر ببركة هاتين الفضيلتين : الصبر والتقوى ، فإنهما جامعتان لمحاسن الصاعات ، ومكارم الأخلاق .

وإن لم تفعلوا ذلك أصابكم الضرر ، وإستمكثوا منكم بكيدهم ومكرهم قال الجمل ما ملخصه : وقوله « لا يضركم » وردت فيه قرأتان سيميتان إحداهما - بضم الضاد وضم الراء مع التشديد - من ضار يضرون . والثانية « لا يضركم - بكسر الضاد وسكون الراء - من ضار يضرون . والفعل كليهما مجزوم جوابا للشرط ، وجزمه على القراءة الثانية « يضركم ظاهر . وعلى القراءة الأولى « يضركم . يكون مجزوما بسكون مقدر على آخره منع من ظموره لإشتغال المحل بحركة الإنباع للتخلص من التقاء الساكنين ؛ وأصل الفعل يضركم - بوزن ينصركم - نقلت حركة الراء الأولى إلى الضاد ثم أدغمت في الثانية ، وحركت الثانية بالضم لإتباعا لحركة الضاد ، (١) .

وقوله « شيئا » نصب على المصدرية . أى لا يضركم كيدهم شيئا من الضرر لا قليلا ولا كثيرا بسبب إعتصامكم بالصبر والتقوى .

وقوله « إن الله بما يعملون محيط » تذييل قصده إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين ، والزعج في قلوب أعدائهم . أى إنه - سبحانه - محيط بأعمالهم وبكل أحوالهم ، ولا تخفى عليه خافية منها ، وسيجازيهم عليها بما يستحقونه من عذاب أليم بسبب نياتهم الخبيثة ، وأقوالهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة .

وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين بأسلوب بليغ حكيم عن مصافاة من يخالفونهم في الدين ، وذكرت لهم من صفات وأحوال هؤلاء المخالفين ما يحلمهم على منابذتهم والحذر منهم والبعد عنهم ، وأرشدتهم إلى ما يعينهم على النصر عليهم وعلى التخلص من آثار مكرهم وكيدهم .

ولإنها لوصايا حكيمة وتوجيهات سديدة ، وإرشادات عالية ، ما أخرج المسلمين في كل زمان ومكان إلى العمل بها لكي يفلحوا في دنياهم وآخرتهم .

تدبر معي - أخى القارىء - هذه الآيات مرة أخرى فإذا ترى ؟

إنك تراها توجه إلى المؤمنين نداءً محبباً إلى نفوسهم ، بحرارة العقيدة في قلوبهم .. حيث نادتهم بصفة الإيمان ، ونهتهم في هذا النداء عن اتخاذ أولياء وأصفياء لهم من غير إخوانهم المؤمنين . ولكن هل اكتفت بهذا النهي مع أنه كفيلاً بحجز المؤمنين عما نهتهم عنه ؟

كلا ، لأنها لم تكتم بذلك ، بل ساقط لهم صورة كاملة السمات لأحوال أعدائهم ، صورة ناطقة بدخائل نفوسهم ، وبمشاعرهم الظاهرة والخفية ، وبانفعالاتهم القلبية والجسدية ، وبمخاطرهم الذاتية والآية . صورة ناطقة بمخاطبهم عندما يلتقون بالمؤمنين ، وبمخاطبهم عندما يفارقونهم ويخلون بأنفسهم ، أو عندما يلتقون بأمثالهم من الضالين . صورة ناطقة بسرورهم عندما تصيب المسلمين مصيبة ، وبجزعهم عندما يرون المؤمنين في نعمة يسيرة .

صورة ناطقة بموقف المؤمنين منهم وبموقفهم هم من المؤمنين ثم بعد رسم هذه الصورة العجيبة المتكاملة لهم . يسوق القرآن للمؤمنين أسمى وأحكم ألوان التوجيه والإرشاد الذى يجعلهم فى مأمن من كيدهم ومكرهم ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً . . . . .

أرأيت - يا أخى القارىء - كيف روى القصة أتباعه أكل زبينة وأحكامها وأسمائها ؟ إنه نهاهم أولاً عن مباينة أعدائهم ، ثم ساق لهم بعد ذلك من أوصافهم وأحوالهم ما يقنعهم ويحملهم على البعد عنهم ، ثم أرشدهم إلى الدواء الذى ينجيهم من مكرهم .

فأحكامه من توجيهه ، وما أسماه من إرشاد ، وإن ذلك ليدل على أن

هذا القرآن من عنده الله ، ولو كان من عند غيره لوجدوا فيه إختلافًا كثيرًا ، (١) .

وإلى هنا تكون سورة آل عمران قد حدثنا - من بين ما حدثنا - في مائة وعشرين آية منها ، عن بعض الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعن مظاهر قدرته ورحمته ، وعن كتبه التي أنزلها على أنبيائه لسعادة الناس وهدايتهم ، وعن حب الناس للشهوات وعمما هو اسمى وأفضل من هذه الشهوات الزائلة ، وعن المجادلات التي حدثت بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين أهل الكتاب فيما يتعلق بوحداية الله - تعالى - وبصححة دين الإسلام ، وعن جوانب من قصة آل عمران وما اشتملت عليه من عظات وعبر ، وعن الشبهات التي أثارها اليهود حول الدعوة الإسلامية والمسالك الخبيثة التي سلكوها في حربهم لها ، وكيف رد القرآن عليهم بما يفضحهم ويكشف عن كذبهم ويجعل المؤمنين يزدادون إيمانًا على إيمانهم .

والخلاصة أن السورة الكريمة من مطلعها إلى هنا قد ساقنا - من بين ما ساقنا - ألوانًا من الحرب النفسية التي شنها أهل الكتاب على الدعوة الإسلامية ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويبصرهم بالحق - إن كانوا طلاب حق - وساقنا للمؤمنين من التوجيهات والعهات ، ما يهدى قلوبهم ، ويصلح بالهم ويكفل لهم النصر على أعدائهم .

وبعد هذا السبح الطويل في الحديث عما دار بين المسلمين وبين أعدائهم من حروب كلامية وفكرية ونفسية . . . . . انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن حرب السيف والسنان ، وما صاحبها من أفكار وأقوال وأفعال . . . . .  
فقد حدثنا للسورة الكريمة في حوالى ستين آية عن جوانب متعددة من

غزوة « أحد » ، تلك الغزوة التي كانت لها آثارها الهامة في حياة المسلمين وأحوالهم .

ولعل من الخير - قبل أن نبدأ في تفسير الآيات الكريمة التي وردت في سورة آل عمران بشأن هذه الغزوة - أن نسوق خلاصة تاريخية لهذه الغزوة تدبر على فهم الآيات المتعلقة بها ؛ فنقول :

كانت غزوة بدر من الغزوات المشهورة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، فقد انتصر أتباعها انتصاراً مؤزراً على كفار قريش ...

وصمم المشركون على أن يأخذوا بثأرهم من المسلمين فجمعوا جمعاً عظيماً وخرجوا في جيش كبير ، ومعهم بعض نساءهم حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال في القتال .

ووصل مشركو قريش ومعهم حلفاؤهم إلى أطراف المدينة في أوائل شوال من السنة الثالثة ، وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف رجل .

واستغار النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه في شأن هؤلاء المشركين الزاحفين إلى المدينة .

فكان رأى بعضهم - ومعظمهم من الشباب - الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة .

وكان من رأى فريق آخر من الصحابة ، لاستدراج المشركين إلى أزقة المدينة ومقاتلتهم بداخلها ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يميل إلى رأى هذا الفريق ، إلا أنه آثر الأخذ برأى الفريق الأول الذي يرى أصحابه الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة ، نظراً لكثرة عدد مقاتليهم بذلك .

ثم دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - بيته ، ثم خرج منه وقد لبس ثوباً حربياً ، وشعر بعض المسلمين أنهم قد استكروها النبي - صلى الله عليه وسلم -

وسلم - على القتال ، فأظهروا له الرغبة في النزول على رأيه ، إلا أنه لم يستجب لهم ، وقال كلمته التي تعلم الناس الحزم وعدم التردد : « ما ينبغي لنبي لأمته أن يصعبها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه . لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتُم إلا الخروج . عليكم بتقوى الله والصبر عند البأس . وانظروا ما أمركم الله به فاعملوه . . . »

ثم خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - في ألف مقاتل من المسلمين حتى نزل قريبا من جبل ، أحد ، إلا أن « عبد الله بن أبي بن سلول » انسحب في الطريق بثلك الناس محتجا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يأخذ برأيه ، بل أخذ برأى غيره .

وعسكر المسلمون بالشعب من أحد ، جاعلين ظهرهم إلى الجبل ، ورسم النبي - صلى الله عليه وسلم - الخطة لكسب المعركة ، فجاءت خطة محكمة رائدة . فقد وزع الرماة على أماكنهم وكانوا خمسين راميا . ، وقال لهم : انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا . إن كانت لنا أو علينا فالزموا أماكنكم لا تؤذين من قبلكم .

وفي رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لهم : أحموا ظهورنا . وإن رأيتمونا تقتل فلا تنصرونا . وإن رأيتمونا نغتم فلا تشركونا . .

وأخيرا التقى الجمعان ، وأذن النبي - صلى الله عليه وسلم - لاتباعه أن يجادلوا أعداءهم ، وأظهر المسلمون أسى صور البطولة والإقدام ، وكان شعارهم في هذا الالتحام « أمت أمت » .

وما هي إلا جولات في أوائل المعركة ، حتى ولى المشركون الأدبار ، ولم يغن عن المشركين شيئا ما كانت تقوم به نفوسهم من تحريض واستنهاض للمزائم .

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله - تعالى - نصره ، وصدق وعده ، فحشروهم بالسيف حتى كشعروهم عن المسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها .

ورأى الرماة الهزيمة وهي تحمل بقريش ، فتطلعت نفوسهم إلى الغنائم ، وحاول أميرهم ، عبد الله بن جبير ، أن يمنعهم من ترك أماكنهم عملاً بوصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أن معظمهم تركوا أماكنهم ونزلوا إلى ساحة المعركة ليشاركوا في جميع الغنائم والأسلاب .

وأدرك خالد بن الوليد - وكان مازال مشركاً - أن ظهور المسلمين قد انكشف بترك الرماة لأماكنهم ، فاهتيل الفرصة على عجل ، واستدار بمن معه من خييل المشركين خلف المسلمين فأحذق بهم ، وأخذ في مهاجمتهم من مكان ما كانوا ليظنوا أنهم سيهاجمون منه ، فقد كانوا يعتمدون على الرماة في حماية ظهورهم .

وعاد المشركون المنهزمون إلى مقاتلة المسلمين ، بعد أن رأوا ما فعله خالد ، ومن معه .

واضطربت صفوف المسلمين للتحول المفاجئ الذي حدث لهم ، إلا أن فريقاً منهم أخذ يقاتل ببسالة وصبر .. واستشهد عدد كبير منهم وهم يحاولون شق طريقهم .

وأصيب النبي - صلى الله عليه وسلم - خلال ذلك بجروح بالغة وأشيع أنه قد قتل ، إلا أنه - صلى الله عليه وسلم - جعل يصيح بالمسلمين : إلى عباد الله ، إلى عباد الله .. فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلاً ، ودافعوا عنه دفاع الأبطال المخلصين .

ومرت على المسلمين ساعة من أخرج الساعات في تاريخ الدعوة الإسلامية فقد كان المشركون يهاجمون النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصح به بعناد وحق ، وكان المسلمون مستميتين في الدفاع عن رسولهم وعن أنفسهم .

وكان لهذه الاستماتة آثارها في تراجع المشركين ، وقد ظنوا أنهم قد أخذوا يشارهم من المسلمين .

وخشى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يكون تراجع المشركين من أجل مهاجمة المدينة ، فقال لعلي بن أبي طالب : أخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، فإنهم يريدون مكة . وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة ، فوالذي نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ، ثم لأنجزنهم فيها .  
قال علي : فخرجت في آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، وانجھوا إلى مكة .

وعندما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - لرجل من أصحابه : قل له : نعم بينك وبينك موعد . وانتهت غزوة أحد باستشهاد حوالي سبعين صحابيا من بينهم حمزة ابن عبد المطلب ومصعب بن عمير ، وسعد بن الربيع . . . وغيرهم من الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

وهذه خلاصة لأحداث غزوة أحد كما روتها كتب السيرة .

والآن فلنول وجوهنا شطر القرآن الكريم ، لتتدبر حديثه الحكيم عن هذه الغزوة ، ولتستمع إليه بقلوب متفتحة ، وآذان واعية ، وهو يبدأ حديثه عنها فيقول :

« وَإِذْ قَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تَبَوَّأَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ (١٣٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِمٍ هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ

بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وما جملة الله  
 إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله  
 العزيز الحكيم (١٢٦) ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم  
 فينقلبوا خائبين (١٢٧) ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم  
 أو يعذبهم فإنهم ظالمون (١٢٨) والله ما في السموات وما في الأرض  
 يفر من إيمانٍ يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم (١٢٩) .

في هذه الآيات الكريمة التي بدأت السورة بها حديثها عن غزوة أحد ،  
 تذكير للمؤمنين بما وقع فيها حتى يعتبروا وبعثصموا بحبل الله جميعاً  
 ولا يتفرقوا .

وقوله - تعالى - « غدوت » من الغدو وهو الخروج في أول النهار ، يقال :

غدا يغدو من باب سما يسمو .

و « من » ، في قوله « من أهلك » ، للإبتداء . والمراد بأهله ، زوجته عائشة  
 - رضي الله عنها - فقد كان خروجه لغزوة أحد من بيته . والكلام على  
 حذف مضاف يدل عليه فعل « غدوت » ، والتقدير : من بيت أهلك .

وقوله « تبوى » ، أصله من التبوء وهو إتخاذ المنزل . يقال : بوأته ، وبوأته  
 له منزلاً ، أي : أنزله فيه . والمراد به هنا تنظيم المؤمنين وتسويتهم وتثبيتهم  
 للقتال ، حتى يكونوا صفوا واحداً كأنهم بنيان مرصوص .

والعامل في « إذ » ، فعل مضمر تقديره ، واذكر .

والمعنى : واذكر لهم يا محمد ليعتبروا ويتعلموا وقت خروجك مبكراً من  
 حبرة زوجتك عائشة إلى غزوة أحد .

وقوله « تبوى » - المؤمنين مقاعد للقتال ، أي تنزلهم وتسوي لهم بالتنظيم  
 والترتيب مواطن وأماكن للقتال ، بحيث يكونون في أحسن حال ، وأكمل  
 استعداد لملاقاة أعدائهم .

قال الجمل : ويستعمل الفعل ، غدوت ، بمعنى صار عند بعضهم ، فيسكون ناقصاً يرفع الاسم وينصب الخبر . . . وهذا المعنى يمكن هنا ، فالمعنى عليه ، ولذا غدوت أى صرت تبوى المؤمنين أى تنزلهم في منازل للقتال ، وهذا أظهر من المعنى الآخر ، لأن المذكور في القصة أنه صار من عند أهله بعد صلاة الجمعة وبات في شعب أحد ، وأصبح ينزل أصحابه في منازل القتال ويدبر لهم أمر الحرب ، (١) .

فاجملة الكريمة تشير إلى مافعله النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه قبل أن تبدأ المعركة ، فقد اهتم بتنظيم صفوفهم ، وبرسم الخطة الحكيمة التي تكفل لهم النصر . وأمر الجيش كله ألا يتحرك للقتال إلا عندما يأذن له بذلك ، ولقد حدث أن بعض المسلمين من الأنصار استدبروا للقتال وتمناه عندما رأى قريشا قد سرحت خيولها ولابلها في زروع المسلمين ، وقال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : اترعى زروع بنى قيلة - يعنى الأنصار - ولما تضارب ، ؟ إلا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهام عن القتال إلا بعد إذنه .

وجملة ، تبوى ، حال من فاعل ، غدوت ، .

والفعل ، تبوى ، يحتاج لمفعولين أو لها قوله ، المؤمنين ، وثانها قوله ، مقاعد ، وقوله ، للقتال ، متعلق بقوله ، تبوى ، .

والمراد بقوله ، مقاعد للقتال ، أى مراكز وأماكن ومواقف للقتال بحيث يعرف كل مؤمن مكانه وموقفه فينبض منه على خصمه إلا أن القرآن الكريم صبر عن هذه الأماكن والمراكز والمواقف بالمقاعد . للإشارة إلى وجوب الثبات فيها كما يثبت القاعدة في مكانه ، وأن عليهم ألا يرجوا أماكنهم إلا بإذن قائدهم - صلى الله عليه وسلم - .

وقد ختم - سبحانه - الآية بقوله : « والله سميع عليم ، لبيان أنه مطلع على كل شيء ، وعلى ما كان يجري بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين أصحابه من مشاورات ومناقشات ... »

فهو - سبحانه - « سميع ، لما نطقت به ألسنتهم » عليم ، بما يخفيه صدورهم وسيجازي المؤمنين الصادقين بما يستحقون من ثواب وسيجزي غيرهم من ضباب الإيمان والمنافقين بما يستحقون من عقاب .

فالمراد من هذه الجملة الكريمة غرس الرهبة في قلوب المؤمنين ، حتى لا يعودوا إلى مثل ما حدث من بعضهم في غزوة أحد ، حيث خالفوا وصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

ثم ذكر - سبحانه - ما راود قلوب بعض المؤمنين من ضعف وفشل ، عندما رأوا زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بنخشل بثلك الجيش فقال - تعالى - : « إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون . »

الهم : هو حديث النفس وإتجاهها إلى شيء معين دون أن تأخذ في تنفيذه فإذا أخذت في تنفيذه صار إرادة وعزما وتصميما .

وتفشلا من الفشل وهو الجبن والخور والضعف . يقال : فشل - كعب - يفشله فشلا فهو فشل أى جبان ضعيف القلب .

أى : وأذركم وقت أن همّت طائفتان منكم بامعشر المؤمنين أن تفشلا وتضعفا ونجيبنا عن القتال في وقت الشديدة والكريمة .

وقوله « والله وليهما ، أى ناصرهما ويتولى أمرهما . وهاتان الطائفتان هما بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، وكانتا جناحى الجيش في يوم أحد .

روى الشيخان عن جابر - رضى الله عنه - قال : فينا نزات « إذ همّت

طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ، قال . نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب أنها لم تنزل لقوله - تعالى - والله وليهما ، (١) .

أى : لفرط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله - تعالى - عليهم ، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية . وأن ما حدثوا به أنفسهم لم يفرجهم عن ولايته سبحانه لأنهم لم يفساقوا وراء هذا الهم الباطل ، بل سرعان ما عادوا إلى يقينهم وإيمانهم الصادق ، وطاعتهم لرسوله - صلى الله عليه وسلم - .

ولذا قال صاحب الكشاف : والطائفتان حيان من الأنصار : بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس .. هموا بإتباع عبد الله بن أبى عندما اتخذ ثلث الناس وقال : يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فهممهم الله فضوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وعن ابن عباس قال : أضربوا أن يرجعوا ، فعزم الله لهم على الرشيد فثبتوا . والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس . كما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الملح ، ثم بردها صاحبها إلى الثبات والهدى ، ويوطئها على إحتيال المكروه .. ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الآية ... (٢) .

وقد ختم - سبحانه - الآية بدعوة المؤمنين إلى التوكل عليه وحده فقال : وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، .

والتوكل : تفعل من وكل فلان أمره إلى فلان ، إذا اعتمد في كفايته عليه ولم يتوله بنفسه . والتوكل الحقيقي إنما يكون بعد الأخذ بالأسباب التي شرعها الله - تعالى - ثم بعد ذلك يترك الإنسان النتائج للخالق - عز وجل - .

(١) صحيح البخارى باب «اذممت طائفتان» . من كتاب التفسير ج٦ وأخرجه

معلم فى كتاب «فضائل الصحابة» ج ٧ ص ١

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٠٩ .

يسيرها كيف يشاء . والجملة الكريمة أفادت قصر التوكل على الله وحده ، كما يؤذن به تقديم الجار والمجرور .

أى وعلى الله وحده لاعلى غيره فليتوكل المؤمنون فى أمورهم ، بعد إتخاذ الأسباب التى أمرهم - سبحانه - باتخاذها ، فانهم متى فعلوا ذلك تولاهم - سبحانه - بتأييده ورعايته .

ثم ذكرهم - سبحانه - بفضلهم وتأييده لهم يوم غزوة بدر فقال - تعالى - : ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة .

وبدر : لاسم لاء مكة والمدينة ، التقى عنده المسلمون والمشركون من قريش فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وكان عدد المشركين قريبا من ألف رجل ، ومع ذلك كان النصر حليفا للمسلمين . والأذلة - كما يقول الزمخشري : - جمع قلة ، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلين . وذلتهم : ما كان بهم من ضعف الحال ، وقلة السلاح والمال والمركوب ، وذلك أنهم خرجوا على التواضع يعتقب النفر منهم على البعير الواحد ، وما كان معهم لإفرس واحد . وقلتهم : أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ، وكان عدوم فى حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس ، ومعهم الشبكة والشوكة - أى السلاح والقوة - ، (١) .

وإذن فليس المراد بكونهم أذلة أنهم كانوا ضعاف النفوس ، أو كانوا راضين بالهوان ... وإنما المراد أنهم كانوا قليلي العدد والعدد ، فقراء فى الأموال وفى وسائل القتال .

وفى هذا التذكير لهم بما حدث فى غزوة بدر ؛ تنبيه لهم إلى وجوب تفويض أمورهم إلى خالقهم ، وإلى أن القلة المؤمنة التقية الصابرة كثيرا ما تنتصر

على الكثرة الفاسقة الظالمة ، ولذا فقد ختم - سبحانه - بقوله : « فاتقوا الله لعلمكم تشكرون » .

أى فاتقوا الله بأن تستشعروا هيئته ، وتجتنبوا ما نهاكم عنه ، وتفعلوا ما أمركم به لعلمكم بذلك تكونون قد قمم بواجب شكر ما أنعم به عليكم من نعم لا تحصى .

ثم ذكروهم - سبحانه - بما كان يوجهه إليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - من توجيهات سامية ، وإرشادات نافعة فقال - تعالى - « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ... » .

قال ابن كثير: لاختلاف المفسرون في هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين ؟ أحدهما : أن قوله - تعالى - « إذ تقول للمؤمنين ، متعلق بقوله « ولقد نصركم الله ببدر » ، وهذا عن الحسن والشعبي والربيع بن أنس وغيرهم . . . فمن الحسن في قوله « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم ... » إلخ ، قال هذا يوم بدر . وعن الشعبي : أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يريد أن يمد المشركين - برجال وسلاح - فشق ذلك على المسلمين فأزل الله - تعالى - « ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ... » إلى قوله « مسومين ، قال : فبلغت كرزا الهزيمة فلم يمد المشركين ... » .

وقال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف .

فإن قيل فكيف الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله في قصة بدر « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ... » إلى قوله « إن الله عزيز حكيم ، (١) » فالجواب : أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله - تعالى - « مردفين ، بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم أوف آخر مثلهم .

وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران ، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان بدر :

والقول الثاني يرى أصحابه أن هذا الوعد متعلق بقوله « وإذ عدت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال ... » ، وذلك يوم . أحد وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم . لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخسبة الآلاف ، لأن المسلمين يومئذ فروا . وزاد عكرمة : ولا بالثلاثة الآلاف لقوله - تعالى - : « بلى إن تصبروا وتتقوا ، فلم يبصروا ، بل فروا فلم يجدوا بملك واحد ، (١) »

ويبدو من كلام ابن كثير أنه يميل إلى أن هذا الوعد كان يوم بدر ، فقد قال : فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر ...

وهذا ما تسكن إليه النفس ، لأن الوعد بنصرة الملائكة للمؤمنين كان يوم بدر لا يوم أحد ، فقد كانوا في بدر قليل العدد والعدد ، وكانت غزوة بدر أول معركة حربية كبرى يلتقى فيها المؤمنون بالكافرين ، ولأن سياق الآيات يشعر بأن الله - تعالى - قد ساقها ليستحضر في أذهان المؤمنين مشهد غزوة بدر وما تم فيها من نصر بسبب صدق إيمانهم ، وطاعتهم لنبيهم - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يعودوا إلى ما حدث من بعضهم في غزوة أحد من مخالفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وعلى هذا الرأي يكون قوله - تعالى - « إذ تقول للمؤمنين ، متعلقا بقوله « ولقد نصركم ، أي : أذكروا أيها المؤمنون أن الله - تعالى - قد نصركم ببدر وأنتم قلة في العدد والعدد ، وكان رسولكم - صلى الله عليه وسلم - في ذلك الوقت يقول لكم على سبيل التثبيت والتقوية : « إن يكفيمكم أن يدركم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، أي منزلين من السماء لنصرتكم وتقويتكم ودحر أعدائكم . »

أما على الرأى القائل بأن هذا الوعد كان فى غزوة أحد ، فىسكون قوله - تعالى - : « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم . . . الخ ، بدل من قوله - تعالى - قبل ذلك . « واذ غدوت من أهلك تبوى المؤمنین مقاعد للقتال . . . » .

قال الآلوسى : « والهمزة فى قوله « ألن يكفئكم » ، لإنكار ألا يكفئهم ذلك . وأنى بلن لتأكيد النفي ؛ وفيه إشعار بأنهم كانوا حيثئذ كالأيسين من النصر لقلعة عديم وعديم . وفى التعبير بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين ما لا يخفى من اللطف وتقوية الإنكار . وقوله « أن يمدكم » فى تأويل لمصدر فاعل « يكفئكم » ، و « من الملائكة » ، بيان أوصفة لآلاف أولما أضيف إليه . و « مفرلين » ، صفة لثلاثة آلاف ، وقيل حال من الملائكة ، (١) . وقوله - تعالى - « بلى إن تصبروا وتتقوا . . . » ، إما من تنمة مقوله - صلى الله عليه وسلم - للمؤمنين ، وإما ابتداء خطاب من الله - تعالى - تأييد القول فإنه - صلى الله عليه وسلم - وزيادة على ما وعدهم تكرا ما وفضلا .

وقوله : بلى « لإيجاب لما بعد « لن » ، أى : بل يكفئكم الإمداد بثلاثة آلاف . ولكنه سبحانه - يمدكم بأنكم « إن تصبروا ، على قتال أعدائكم وعلى كل ما أمركم الله بالصبر عليه » ، وتتقوا ، أى وتتقوا الله وتخشوه وتجتنبوا معاصيه « ويأتوكم من فورهم هذا ، أى ويأتوكم المشركون مصرعين إيجار بكم ، وقد أعددتهم أنفسهم لقتالهم ، إذا فعلتم ذلك .

يمدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، أى يمدكم ربكم بفضله ورعايته لكم بخمسة آلاف من الملائكة معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلاوات مخصوصة .

وقرىء مسمومين ، - بالفتح - أى معلمين من جهته - تعالى -  
 بعلامات القتال . ومن التسويم ، وهو إظهار علامة الشيء .  
 قال صاحب الكشاف : وقوله ، من فورهم هذا ، من قواك : قفل من  
 غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى ، وجاء فلان ورجع من فوره .  
 ومنه قول أبي حنيفة - رحمه الله - : الأمر على الفور لا على التراخي ، وهو  
 مصدر من فارت القدر إذا غلت ، فأستعير للسرعة ، ثم سميت به الحالة التي  
 لا ريث فيها .. فقول : خرج من فوره كما تقول : خرج من ساعته ، والمعنى :  
 أنهم يأتوكم من ساعتهم هذه (١) .

هذا ، وقد تكلم العلماء هنا عن أمرين يتعلقان بهذه الآيات .  
 أما الأمر الأول فهو : هل أمد الله - تعالى - المؤمنين في غزوة بدر بهذا  
 العدد الذي ذكر في هذه الآية ؟

والجواب على ذلك أن بعض المفسرين يرى أن الله - تعالى - قد أمد  
 المؤمنين في بدر بخمسة آلاف من الملائكة ، لأنهم صبروا وإنقوا وأنام  
 المشركون من مكة فوراً حين إستنفهم أبو سفيان لإفقاد العير . فكان المدد  
 خمسة آلاف على سبيل التدرج ، أى أمدوا أولاً بألف ، ثم صاروا ألفين ، ثم  
 صاروا ثلاثة آلاف . ثم صاروا خمسة آلاف لا غير ، وإلى هذا رأى ذهب  
 الحسن وقتادة .

وقال الضحى : إن المدد لم يزد على الآف ، لأن المسلمين كان قد بلغهم أن  
 كرزين جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين بسلاح وجند : فشق ذلك على  
 المسلمين فأنزل الله - تعالى - : **هـ** أن يكفبكم أن يمدكم ربكم . . . إلى قوله  
 مسمومين . فبلغ كرزا الهزيمة فرجع ولم يمدهم ، فلم يمد الله المسلمين  
 بالخمسة الآف أيضاً . أما ابن جرير فقد إختار أن المسلمين وعدوا بالمدد  
 بعد الألف ؛ ولادلالة في الآية على أنهم امدوا بما زاد عن ذلك ، ولا على أنهم  
 لم يمدوا به ، ولا يثبت شيء من ذلك إلا بنص . فقد قال - رحمه الله - :

و أولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال للمؤمنين : « أن يكف يكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة » . فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مدد لهم ثم وعدم بعد الثلاثة الآلاف خمسة آلاف ، إن صبروا لأعدائهم وإتقوا الله ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ، ولا بالخمسة الآلاف ، ولا على أنهم لم يمدوا بهم .

وقد يجوز أن يكون الله - تعالى - أمدهم على نحو ما رواه الذين أنبتوا أنه أمدهم ، وقد يجوز أن يكون لم يمدهم ، على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم الحججة به . ولا خبر به كذلك فنسلم لأحد الفريقين قوم . غير أن في القرآن دلالة على أنهم أمدوا يوم بدر بألف . وذلك قوله - تعالى - : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . أما في أحد الدلالات على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا ، ذلك لأنهم لو أمدوا لم يزدوا وأوئيل منهم ما نيسل منهم ... (١) :

والذي نراه أن رأى ابن جرير هو أقرب الآراء إلى الصواب .

وأما الأمر الثاني فهو : إذا كان الله - تعالى - قد أمد المؤمنين بالملائكة في بدر ، فهل كانت وظيفتهم القتال مع المؤمنين أو كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فقط ؟ والجواب على ذلك أن كثيراً من العلماء يرى أن الملائكة قد قامت مع المؤمنين .

قال القرطبي : تظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان قد شهد بدرًا : لو كنت

معكم الآن بدر ومعنى بهرى لأريثكم الشَّعب - أى الطريق في الجبل - الذى  
خرجت منه الملائكة ، لا أشك ولا أمتري .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يوم بدر يشتد  
فى أثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت  
الفارس يقول : « أقدم حيزوم »<sup>(١)</sup> فنظر المسلم إلى المشرك أمامه فإذا هو قد  
خطم أنفه وشق وجهه . فجاء المسلم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
فحدثه بذلك فقال : صدقت : ذلك من مدد أسهاء الثالفة<sup>(٢)</sup> .

ويرى فريق آخر من العلماء أن الملائكة ما قاتلت مع المسلمين يوم بدر ،  
ولأنما أمد الله المؤمنين بالملائكة لتثبيت نفوسهم ، وتقوية قلوبهم . ولتخديـل  
المشركين ، وإلقاء الرعب فى قلوبهم . فقد قال - تعالى - « إذ يوحى ربك  
إلى الملائكة أنى معكم فنبتوا الذين آمنوا سائقى فى قلوب الذين كفروا الرعب  
فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » .

ويبدو أن الإمام ابن جرير الطبرى كان يميل إلى هذا الرأى فقد قال عند  
تفسيره لقوله - تعالى - « فثبتوا الذين آمنوا » : أى قروا عزائمهم . وضحوا  
نيابهم فى قتال عدوهم من المشركين . وقيل : كان ذلك بمعونتهم لإيـامهم  
بقتال أعدائهم . . . . .

وقد حكى الآلوسى عن أبى بكر الأصم أنه أنكر قتال الملائكة مع المؤمنين  
فى بدر وأنه قال : « إن الملك الواحد يكفى فى إهلاك سائر الأرض كما فعل  
جبريل بمداين قوم لوط . . . . . وأيضاً أى فائدة فى إرسال هذا الجمع من الملائكة  
معه وهو القوى الأمين ، وأيضاً فإن أكابر الكفار الذين قتلوا فى بدر عرف  
من قتلهم من المسلمين . . . . . »

(١) حيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة .

(٢) تفسير القرطبي - بتصرف وتلخيص - ج ٤ ص ١٩٢

ولم يرتض الألوسى ما قاله الأصم بل قال في الرد عليه . « ولا يخفى إن هذه الشبهة لا يلبق لإيرادها بقوانين الشريعة ، ولا بمن يعترف بأنه .. سبحانه . »  
 « قادر على ما يشاء فعال لما يريد ، فما كان يلبق بالأصم إلا أن يكون أخرس عن ذلك ... »

ثم قال الألوسى: فالواجب التسليم بكل ممكن جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - وتقويض ذلك وكيفية به إلى الله - تعالى - .. (١) .

وزي من كلام الألوسى أنه يرجح الرأي القائل بأن الملائكة قد قاتلت مع المؤمنين في غزوة بدر .

وفحن لازي مانعا من اشتراك الملائكة مع المؤمنين في بدر لأن النصوص الواردة عن النبي .. صلى الله عليه وسلم - صريحة في ذلك ، ولستنا مع الذين يضعفون من شأن الأحاديث الصحيحة أو يؤولونها تأويلا لا يتفق مع العقل السليم .

ولقد سئل الإمام السبكي: ما الحكمة في قتال الملائكة مع أوجبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه ؟

فأجاب : بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب التي أجزاها .. سبحانه - في عباده ، (٢) .

ثم تابع القرآن حديثه عن مظاهر فضل الله عليهم ورعايته لهم فقال - تعالى -  
 « وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، ، »

أي وما جعل الله - تعالى - الإمداد الذي أمدكم به إلا إشارة لقلوبكم ، وتطمئنا أنفسكم فالضمير في « جعله » يعود إلى الإمداد المفهوم من الفعل :

(١) تفسير الألوسى - بتصرف وتاخيص - ج ٤ ص ٤٨

(٢) تفسير القاسمي ج ١ ص ٩٩٧ .

المقدار المدلول عليه بقوله ، يدكم ، فكأنه قيل : فأمدكم الله - تعالى - بما ذكر ، وما جعل الله - تعالى - ذلك الإمداد إلا بشئى لكم ، ولتسكن قلوبكم به فلا تخافوا كثرة العدو ، بل تقدمون عليه بهزائم ثابتة ، ونفوس قوية .

وقوله ، بشرى ، مفعول لأجله ، والاستثناء مفرغ من أعم العال ، أى ما جعل الله إمدادكم بإنزال الملائكة لئى من الأشياء إلا للبشارة لكم بأنكم ستصرون على أعدائكم .

وقوله ، ولتطمئن قلوبكم به ، معطوف على بشرى ، باعتبار موضعه أى ما جعل إمدادكم إلا للبشرى وللطمأنينة .

وإنما جر قوله ، ولتطمئن ، باللام لإختلال شرط من شروط نصبه على أنه مفعول لأجله ، وهذا الشرط هو عدم إتحاد الفاعل ، فإن فاعل الجمل هو الله - تعالى - ، وفاعل الاظمتان قلوب ، فلذلك نصب المعطوف عليه وهو بشرى ، لاستكمال شروطه ، وجر المعطوف وهو ، ولتطمئن لإختلال شرط من شروطه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، .

أى ليس النصر إلا من الله وحده فهو العزيز الذى لا يغالب فى أمره . الحكيم الذى يفعل كل ما يريد فعله حسبما تقتضيه إرادته . فالجمللة المكريمة المقصود منها غرس الاعتقاد على الله فى قلوب المؤمنين ، وتفويض أمورهم لإييه ، وبيان أن النصر إنما هو من الله وحده ، وليس من الملائكة أو من غيرهم ، لأن الملائكة أو غيرهم أسباب عادية بمزول عن التأثير إلا إذا أراد الله ذلك . فهو الخالق للأسباب والمسببات .

ولقد حرص القرآن فى كثير من آياته على تثبيت هذا المعنى فى قلوب

المؤمنين حتى لا يعتمدوا على الأسباب، والوسائل التي بين أيديهم ،  
ويغتروا بها ، دون أن يلتفتوا إلى قدرة خالق الأسباب والوسائل ، فإنهم إذا  
اغتروا بالأسباب والوسائل ، ونسوا خالقهما أتام الفشل من حيث لم يحتسبوا  
وكان أمرهم فرطاً .

والعاقل من الناس هو الذي يباشر الأسباب التي شرعها الله - تعالى -  
بتدبر وإعتبار ، بحيث يوقن أن من رآها خالفاً لها يجب أن يستجيب له في  
كل ما أمر أو نهى ؛ وأن يعتمد عليه في كل شئونه وأحواله .

ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذا النصر والثمرات التي ترقت عليه .  
فقال - تعالى - : « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم في كتابهم  
ليس لك من الأمر شئ » ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ، .

وقوله « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم في كتابهم » ، متعلق بقوله  
« ولقد نصركم الله ببدر وأتم أذلة... » ، وما بينهما تحقيق لحقيقته ، وبيان  
لكيفية وقوعه .

والقطع - كما يقول الراغب - فصل الشئ . مدركاً بالبصر كالأجسام ،  
أو مدركاً بالبصيرة كالأشياء المعقولة ... والمراد به هنا الإهلاك والقتل .

والطرف - بفتح الراء - جانب الشئ أو الجزء المتطرف منه كالبيدين  
والرجلين والرأس . والمراد به هنا طائفة من المشركين .

والكتب في اللغة : صرع الشئ على وجهه . يقال : كتبه فانكبت ،  
والمراد به هنا الإذلال وشدة الغيظ بسبب ما أصابهم من هزيمة .

خائبين من الخيبة وهي إنقطاع الأمل في الحصول على الشئ . يقال :  
خاب يحيب إذا لم ينل ما طلب .

والمعنى : ولقد نصركم الله - تعالى - ببدر وأتم في قلة من العدد والعدد

« ليقطع طرفا من الذين كفروا ، أى ليهلك طائفة من الذين كفروا ويستأصلهم بالقتل وينقص من أرضهم بالفتح ، ومن سلطانهم بالقهر ، ومن أموالهم بالغنيمة ، أو يكبتهم ، أى يذلهم ويخزهم ويغيظهم غيظا شديدا بسبب ما نزل بهم من هزيمة ، حتى يخبوصوت الكفر ، ويعلوصوت الإيمان . وقوله « فينقلبوا خائبين ، أى فينزعوا ويرتدوا على أديبارهم منقطعي الآمال ، غير ظافرين بمبتغاهم .

قال الألوسى : « ولم يعبر عن تلك الطائفة بالوسط بل بالطرف فقال ، ليقطع طرفا ، لأن أطراف الشئ يتوصل بها إلى توهيمته وإزالته . وقيل : لأن الطرف أقرب إلى المؤمنين فهو كقوله - تعالى - « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » . وقيل للإشارة إلى أنهم كانوا أشرفاء ، ومنه قولهم : هو من أطراف العرب أى من أشرفهم ، ولعل لإطلاق الأَطراف على الأشراف لتقدمهم فى السير .. فالمعنى ليهلك صناديد الذين كفروا ورؤساءهم المتقدمين فيهم بالقتل والأسر . وقد وقع ذلك فى بدر فقد قتل المؤمنون من المشركين سبعين وأسروا سبعين ... » (١) .

و « أو » فى قوله « أو يكبتهم » للتنويح . لأن القطع والكبت قد وقعا للمشركين ، فهى مانعة خلو .

وعبر عن عودتهم خائبين بقوله « فينقلبوا خائبين ، للإشارة إلى أن مقاصدهم وأهدافهم قد انقلبت ، فقد كانوا يقصدون إطفاء نور الإسلام ، فظاب قصدهم ، وطاش سهمهم ، وعادوا وقد فقدوا الكثيرين من وجوههم وصناديدهم ، وتركوا خلفهم فى الأمر العشرات من رجالهم .

أما الإسلام فقد إزداد نوره تألقا ، وإزداد اتباعه إيمانا على إيمانهم ، ورزقهم الله - تعالى - نصره المبين :

وقوله ، ليس لك من الأمر شيء ، أى : ليس لك من أمر الناس شيء ، وإنما أمرم إلى الله وحده ، أما أنت فوظيفتك التبليغ والإرشاد ثم بعد ذلك من شاء فليؤم من ومن شاء فليكفر .

وقوله ، أو يتوب عليهم ، أى مما هم فيه من الكفر فيهديهم إلى الإسلام بعد كفرهم وضلالهم .

وقوله ، أو يعذبهم فإنهم ظالمون ، أو يعذبهم في الدنيا والآخرة على كفرهم وإجتراحهم للسيئات فإنهم بذلك يكونون مستحقين للعقاب ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فهم الذين صموا آذانهم عن الحق ، واستحبوا العمى على الهدى .

وعلى هذا يكون قوله - تعالى - ، ليس لك الأمر شيء ، جملة معترضة بين المتعاطفات ويكون تقدير الآيتين هكذا :

ولقد نصرم الله بيدك ليهلك طائفة من الذين كفروا بالقتل والأسر ، أو يحزبهم ويفظهم بالهزيمة ، أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم في الدنيا والآخرة بسبب ظلمهم ، وليس لك من أمرهم شيء ، وإنما أنت رسول من عند الله - تعالى - مأمور بإيذانهم وجهادهم .

وقد رجح هذا الوجه صاحب الكشاف فقال : وقوله ، ليس لك من الأمر شيء ، اعتراض . والمعنى أن الله مالك أمرهم فإذا أى يهلكهم أو يحزبهم أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر ، وليس لك من أمرهم شيء . وإنما أنت عبد مبعوث لإصدارهم ومجاهدتهم .

وقيل إن ، أو ، بمعنى ، إلا أن ، كقولك : لألزمك أو تقتضي حقى ، على معنى ليس لك من أمرهم شيء . إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم ، أو يعذبهم فتفتشئ منهم (١) .

فأنت ترى أن اليتين الكريمتين قد بيتا أحوال الكافرين في غزوة بدر أكل بيـان ، لأن فريقا منهم قد قتلوا فقطع بهم طرف من الكافرين ، وفريقا كتبوا وذلوا ، وفريقا من الله عليهم بالإسلام فأسلموا ، وفريقا عذبوا بالموت على الكفر أو عذبوا في الدنيا بالذل والصفار .

و د ا ، التي جرى بها بين هذه الجمل للتقسيم .

هذا ، وقد روى المفسرون في سبب نزول قوله - تعالى - « ليس لك من الأمر شيء » ، روايات منها ما أخرجه مسلم عن أنس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كسرت رباعيته يوم أحد وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال : كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبينهم وهو يدعوهم إلى ربهم - عز وجل - ، فأنزل الله - تعالى - « ليس لك من الأمر شيء » أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » .

ومنها ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع فرمما قال إذا قال سمع الله لمن حمده : « اللهم ربنا ولك الحمد . اللهم أيج الوليد بن الوليد . وسليمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة . اللهم اشد وطأنك على مضر ، واجملها عليهم سنين كسفي يوسف ، يجر بذلك . وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر : اللهم العن فلانا وفلانا ، لأحياء من العرب ، حتى أنزل الله - تعالى - : « ليس لك من الأمر شيء » (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذا التذكير بما جرى في غزوة بدر ببيان قدرته الشاملة ، وإرادته النافذة فقال - سبحانه - : « وقه ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم » .  
أي لله جميع ما في السموات وما في الأرض ملكا وتصرفا وتدبير لا ينازعه

في ذلك منازع ولا يمارضه معارض ، وهو - سبحانه - يفر لمن يشاء. أن يفر له من المؤمنين فلا يماقبه على ذنبه فضلا منه وكرما ، ويعذب من يشاء. أن يعذبه عدلامته ، وواقه غفوره ، أى كثير المغفرة بحبها وبربها ، ورحيم ، أى واسع الرحمة بعباده ، لا يؤاخذهم بكل ما اكتسبوه من ذنوب بل يعفو عن كثير منها .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد افتتحت الحديث عن غزوة أحد باستحضار بعض أحداثها ، وبتذكير المؤمنين بما هم به بعضهم قبل أن تبدأ المعركة ، ثم بتذكيرهم بمعركة بدر وما تم لهم فيها من نصر مؤزر منحه الله لهم مع قلتهم وضعفهم ، حتى تعرفوا أن النصر ليس بكثرة العدد والعدد وإنما النصر يتأتى مع صفاء النفوس ، وبقاء القلوب ، وهناء العزائم والطاعة التامة لله ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وحتى لا يعودوا إلى ما حدث من بعضهم في غزوة أحد من مخالفة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن طمع في زينة الحياة الدنيا .

وبعد هذا التذكير الحكيم والتوجيه السديد ، وجه القرآن نداء إلى المؤمنين تهاجم فيه عن تعاطى الربا ، وأمرهم بتقوى الله وبطاعته وطاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وبالمسارعة إلى الأعمال الصالحة التى توصلهم إلى مغفرته ورضوانه فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرُوا مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَاتٌ يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) .

قال الإمام الرازي ماملخصه : اعلم أن من الناس من قال : إن الله - تعالى - لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصالح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد ، انسح ذلك بما يدخل في الأمر والنهي والترغيب والترهيب فقال : يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضمافا مضاعفة ، .

وقال القفال : يحتمل أن تذكر هذه الآية متصلة بما قلها من جهة أن المشركين في غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالا كثيرة جمعوها من الربا ، ولعل ذلك بصير داعيا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر ، ويتمكنوا من الانتقام منهم ، فلا جرم نهام الله عن ذلك

وكان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم - مثلا - إلى أجل ، فإذا حل الأجل ولم يكن المدين واجدا لذلك المال قال : زدني في المال حتى أزيد في الأجل ، فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل لتناهي قول مثل ذلك ، ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضمافا فهذا هو المراد من قوله ، أضمافا مضاعفة ، (١) .

وقد ابتداء - سبحانه - الآية بالنداء بقوله ، يا أيها الذين آمنوا ... لبيان أن أكل الربا ليس من شأن المؤمنين ، وإنما هو من سمات الكافرين والفاسقين .

وإذا كان الكافرون يستكثرون من تعاطى الربا فملى المؤمنين أن يجتنبوا هذا الفعل القبيح ، وأن يتحروا الحلال في كل أمورهم .

وخصه بالنهاى لأنه كان شائماً في ذلك الوقت ، ولأنه - كما يقول القرطبي - هو الذى أذن فيه الحرب في قوله - تعالى - فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، والحرب يؤذن بالقتل ، فكأنه يقول لهم : إن لم تتقوا الربا هزمتم وقتلتم (١) .

والمراد من الأكل الأخذ ، وعبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد به ، ولشيوعه في المأكولات مع ما فيه من زيادة التشنيع .

والربا معناه الزيادة ، والمراد به هنا تلك الزيادة التى كانت تضاف على الدين .

قال الإمام ابن جرير : عن عطاء قال : كانت ثقيف تداين بنى المغيرة فى الجاهلية ، فإذا حل الأجل قالوا : نزيدكم وتؤخرون .

وقال ابن زيد : كان أبى - زيد بن ثابت - يقول : إنما كان ربا الجاهلية فى التضعيف . يكون للرجل على الرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له : تقضينى أو تزيدنى (٢) .

وقوله « أضعافا ، حال من الربا ، وقوله « مضاعفة ، صفة له .

والأضعاف جمع ضعف . وضعف الشيء مثله ، وضعفاه مثله ، وأضعافه أمثاله .

وهذا القيد وهو قوله « أضعافا مضاعفة ، ليس لتقييد النهى به ، أى ليس للنهى عن أكل الربا فى هذه الحالة وإباحته فى غيرها ، بل هذا القيد لمراعاة الواقع ، ولبيان ما كانوا عليه فى الجاهلية من التعامل الفاسد المؤدى إلى استحصال المال ، ولتوبيخ من كان يتعاطى الربا بتلك الصورة البهيمة .

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى ج ٤ ص ٩٠ .

وقد حرم الله - تعالى - أصل الربا ومضاعفته ، ونفر منه تنفيراً شديداً ، فقال - تعالى - الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ، . . . .

وهذا النوع من الربا الذي نهى الله - تعالى - عنه هنا بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة . . » ، هو الذي يسمى عند الصحابة والفقهاء بربا النسبئة ، أو ربا الجاهلية وقد حرمه الإسلام تحريماً قاطعاً ، فقد قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - في خطبة الوداع : « ألا إن ربا الجاهلية موضوع -- أي مهدر -- وأول ربا يبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . . »

وقال الإمام أحمد بن حنبل : إن ربا النسبئة يكفر من يجحد تحريمه .

ويقابل هذا النوع من الربا ، ربا البيوع وهو الذي ورد في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي يقول فيه : البر بالبر مثلاً بمثل يدا بيد ، والذهب بالذهب مثلاً بمثل يدا بيد والفضة بالفضة مثلاً بمثل يدا بيد ، والشعير بالشعير مثلاً بمثل يدا بيد . والتمر بالتمر مثلاً بمثل يدا بيد ، والملح بالملح مثلاً بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى . .

وقد اتفق العلماء على أن يبيع هذه الأصناف لا يد أن يكون بغير زيادة إذا كانت يمثلها كقمح بقمح ، ولا بد من قبضها . وإذا اختلف الجنس كقمح بشعير جازت الزيادة ، ولا بد من القبض في المجلس . والتأخير يسمى ربا النساء ، والزيادة المحرمة تسمى ربا الفضل .

وللفقهاء في هذا الموضوع مباحث طويلة فليرجع إليها من شاء . في مظاهرها . ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بأمر المؤمنين بخشيتها وقواه فقال : « واتقوا الله لعلكم تفلحون . . »

أى : واتقوا الله بأن تجعلوا بدينكم وبين محارمه ساترا ووقاية ، اعلمكم بذلك تناولون الفلاح في الدنيا والآخرة .

ثم حذرهم - سبحانه - من الأعمال التي تفضي بهم إلى النار فقال : واتقوا النار التي أعدت للكافرين ، .

أى : صونوا أنفسكم ، واحترزوا من الوقوع في الأعمال السيئة كتعاطى الربا وما يشابه ذلك ، لأن الوقوع في هذه الأعمال السيئة يؤدي بكم إلى دخول النار التي هيئت للكافرين .

وفي التحقيق على النهي عن تعاطى الربا يتقوى الله وبانقائه النار ، إشعار بأن الذى يأكل الربا يكون بعيداً عن خشية الله وعن مراقبته ، ويكون مستحقاً لدخول النار التي أعدها الله - تعالى - للكافرين والفاسقين عن أمره .

قال صاحب الكشاف : كان أبو حنيفة - إذا قرأ هذه الآية - واتقوا النار التي أعدت للكافرين - يقول : هي أخوف آية في القرآن ، حيث أوعده الله المؤمنين بالنار الممدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتناب محارمه ، (١) .

ثم بعد هذا التحذير الشديد للمؤمنين من ارتكاب ما نهى الله عنه ، أمرهم - سبحانه - بطاعته وطاعة رسوله فقال : « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » .

أى أطيعوا الله في كل ما أمركم به ونهاكم عنه ، وأطيعوا الرسول الذى أرسله إليكم ربكم لهذا يتكم وسعادتكم ، لعلكم بهذه الطاعة تكونون في رحمة من الله ، فهو القائل وقوله الحق : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

وفي ذكر طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مقترنة بطاعة الله - تعالى - تنبيه إلى أن طاعة الرسول طاعة لله . فقد قال - تعالى - « من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » ، (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤١٤

(٢) سورة النساء الآية ٨٠

ثم أمرهم - سبحانه - بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة التي توصلهم إلى مغفرة الله ورضوانه فقال: « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

قال الآلوسی : وسبب نزول هذه الآية على ما أخرجه عبد بن حميد وغيره عن عطاء بن أبي رباح : أن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، بنو إسرائيل كانوا أكرم على الله منا ، كانوا إذا أذّبنا أحدهم ذنباً أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة داره اجدهع أنفك ، لاجدهع أذنك ، الفعل كذا وكذا فسكت - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآيات إلى قوله « والذين إذا فعلوا فاحشة . . . » الآية - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - ألا أخبركم بخير من ذلكم ثم تلاها عليهم ، (١) .

وقوله : « سارعوا إلى مغفرة من ربكم » ، من السرعة بمعنى المبادرة إلى الشيء بدون تأخير أو تردد ، والكلام على حذف مضاف : أي سارعوا وبادروا إلى ما يوصلكم إلى ما به تظفرون بمغفرة ربكم ورحمته ورضوانه وجنته ، بأن تقوموا بأداء ما كلفكم به من واجبات ، وندموا عما نهاكم عنه من محظورات .

ولقد قرأ نافع وابن عامر بغير واو ، وهي قراءة أهل المدينة والشام . والباقون بالواو . وهي قراءة أهل مكة والمراق . . . .

فن قرأ بالواو . جعل قوله - تعالى - « وسارعوا » معطوفاً على قوله « وأطيعوا » ، أي : أطيعوا الله والرسول وسارعوا إلى مغفرة من ربكم . ومن قرأ بغير واو جعل قوله « سارعوا » مستأنفاً ، إذ هو بمنزلة البيان أو بدل الاشتغال .

و « من » في قوله « من ربكم » ، ابتدئية ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للهمزة أي مغفرة كائنة من ربكم .

ولقد عظم - سبحانه - بذلك شأن هذه المغفرة التي ينبغي طلبها بإسراع ومبادرة . بأن جاء بها منكرة ، وبأن وصفها بأنها كائنة منه - سبحانه - وهو الذي خلق الخلق بقدرته ، ورباهم برعايته .

ووصف - سبحانه - الجنة بأن عرضها السموات والأرض على طريقة التشبيه البليغ ، بدليل التصريح بحرف التشبيه في قوله - تعالى - ، سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، (١) .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : وفي معنى أن عرض الجنة مثل عرض السموات والأرض وجوه منها : أن المراد لو جعلت السموات والأرضون طبقات طبقات بحيث تتكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحاً مؤلفاً من أجزاء لا تتجزأ ، ثم وصل البعض ببعض طبقاتها واحداً ليكون ذلك مثل عرض الجنة ، وهذا غاية في السعة لا يعلمها إلا الله .

ومنها . أن المقصود المبالغة في وصف السعة للجنة ، وذلك لأنه لا شيء عندنا أعرض منهما ، ونظيره قوله ، خالد بن فيها مادامت السموات والأرض ، . فإن أطول الأشياء بقاء عندنا هو السموات والأرض ، نفوسنا على وفق ما عرفناه ، فكذا هنا ، (٢) .

وخص - سبحانه - العرض بالذكر ، ليكون أبلغ في الدلالة على عظمها واتساع طولها ، لأنه إذا كان عرضها كهذا ، فإن العقل يذهب كل ذهب في تصور طولها ، لأن العرض في المادة أقل من الطول . وذلك كقوله - تعالى - في صفة فرش الجنة ، متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ، لأنه إذا كانت بطانة الفرش من الحرير فكيف يكون ما فوق البطانة مما تراه الأعين ؟

وقال القفال : ليس المراد بالعرض هنا ما هو خلاف الطول ، بل هو عبارة عن السعة كما تقول العرب : بلاد عريضة ، ويقال - هذه دعوى عريضة

(١) سورة الحديد الآية ٢١

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٩ ص ٤

أى واسعة عظيمة والأصل فيه أن ما لا تسع عرضه لم يمتق ، وما ضاق عرضه دق ، فحمل العرض كناية عن السعة .

قال ابن كثير: وقد روينا في مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : إلفك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار .

وعن أبي هريرة أن رجلا جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: أرأيت قوله - تعالى - : : جنة عرضها السموات والأرض ، فأين النار قال : أرأيت الليل إذا جاء ليس كل شيء فأين النهار؟ قال : حيث شاء الله ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : وكذلك النار تكون حيث شاء الله . (١) .

وقوله - تعالى - : أعدت للمتقين ، أى هيئت للمتقين الذين صابروا أنفسهم عن عارم الله ، وجعلوا بينهم وبينها وقاية وساترا ، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى .

ثم بين - سبحانه - صفات المتقين الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون ، والذين أعد لهم - سبحانه - جنته فقال - تعالى - : الذين ينفقون في السراء والضراء ، أى الذين ينفقون أموالهم لإبتغاء مرضاة الله في جميع أحوالهم ، فهم يبذلونها لإبتغاء وجه ربهم في حال يسرهم وفي حال عسرهم ، وفي حال سرورهم وفي حال حزنهم ، وفي حال صحتهم وفي حال مرضهم ، لا يصرفهم مصارف عن إلتفاق أموالهم في وجوه الخير ما داموا قادرين على ذلك .

وقوله : الذين ينفقون ... ، في محل جر صفة للمتقين . ويجوز أن يكون في محل نصب أو رفع على القطع المشعر بالمدح .

وقال « ينفقون ، بالفعل المضارع ، الإشارة بأنهم يتجددوا اتفاقهم في سبيل الله آنا بعد أن بدون إنقطاع .

وقدم الإنفاق على غيره من صفاتهم لأنه وصف إيجابى يدل على صفاء نفوسهم ، وقوة إخلاصهم ، فإن المال شقيق الروح ، فإذا أنفقوه في حالى السراء والضراء كان ذلك دليلا على التزامهم العميق لتعاليم دينهم وطاعة ربهم وقد مدح الله - تعالى - الذين ينفقون أموالهم في سبيله في عشرات الآيات من كتابه ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ، <sup>(١)</sup> أما الصفحتان الثانية والثالثة من صفات هؤلاء المتهين فهما قوله - تعالى - : « والكاذمين الغيظ والعافين عن الناس ، »

أى سارعوا أيها المؤمنون إلى العمل الصالح الذى يوصلكم إلى جنة عظيمة أعدها الله - تعالى - لمن يبذلون أموالهم في السراء والضراء ، ولمن يمسكون غيظهم ، ويمتنعون عن إرضائه مع القدرة عليه ، ولمن يعضون عن أسماء إيمانهم . فالمراد بكظم الغيظ - حبسه وإمساكه . يقال : كظم فلان غيظه إذا حبسه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بمن أغضبه . ويقال : كظم البعير جرته ، إذا ردها وكف عن الإجتراء . وكظم القربة : إذا ملأها وشد على فمها ما يمنع من خروج ما فيها .

وقد ساق ابن كثير جملة من الأحاديث التي وردت في فضل كظم الغيظ والمعفو عن الناس ومن ذلك ما رواه الشيخان عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب .

وروى الإمام أحمد - بسنده - عن حارثة بن قدامة السعدي أنه سأل

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله : قل لي قولاً ينفعني وأقلل عني - لعل أعتقه : فقال له : لا تغضب ، فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً كل ذلك بقول : لا تغضب ، .

وعن أبي بن كعب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليصم عن ظلمه ويهط من حرمة ، ويصل من قطعه (١) ، .

وكظم الغيظ والعفوع عن الناس ما تان الصفتان إنما تسكونان محمدين عند ما تسكون الإساءة متعلقة بذات الإنسان، أما إذا كانت الإساءة متعلقة بالدين بأن إنتهك إنسان حرمة من حرمت الله في هذه الحالة يجب الغضب من أجل حرمت الله ، ولا يصح العفو عن إنتهك هذه الحرمة :

فلقد وصفت السيدة عائشة النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه كان لا يغضب لنفسه فإذا إنتهكت حرمت الله لم يقيم لغضبه شيء .

وقوله : والله يحب المحسنين ، تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

والإحسان معناه الإتقان والإجادة . وال في المحسنين إما للجنس أى والله - تعالى - يجب كل محسن في قوله وعمله ، ويكون هؤلاء الذين ذكر الله صفاتهم داخلين دخولاً أولياً .

وإما أن تسكون للمهد فيكون المعنى : والله - تعالى - يجب هؤلاء المحسنين الذين من صفاتهم أنهم ينفقون أموالهم في كل حال من أحوالهم ؛ ويكظمون غيظهم ، ويعفون عن ظلمهم .

أما الصفة الرابعة من صفات هؤلاء المتقين فقد ذكرها - سبحانه - في قوله : والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، .

والفاحشة من الفحش وهو مجاوزة الحد في السوء . والمراد بها الفعله  
البالغة في القبح كالزنا والسرقه وما يشبههما من الكبائر .

والمعنى : سارعوا أيها المؤمنون إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدتها  
خالقكم . عز وجل - للذين من صفاتهم أنهم ينفقون أموالهم في السراء  
والضراء ، ويكظمون غيظهم ، ويعفون عن الناس ، وأنهم إذا فعلوا فاحشة  
متناهية في القبح ، أو ظلموا أنفسهم ، يارتكب أي نوع من أنواع الذنوب  
« ذكروا الله ، أي تذكروا حقه العظيم ، وعذابه الشديد ، وحسابه العسير  
للضالين يوم القيامة » فاستغفروا لذنوبهم ، أي طلبوا منه - سبحانه - المغفرة  
لذنوبهم التي ارتكبوها ، وتابوا إليه توبة صادقة نصوحا .

وعلى هذا يكون قوله - تعالى - « والذين إذا فعلوا... » معطوفا  
على الصفة الأولى من صفات المتقين ، ويكون قوله - تعالى - « والله يحب  
المحسنين » جملة معترضه بين الصفات المتعاطفة .

قال الفخر الرازي : وأعلم أن وجه النظم من وجهين : الأول أنه - تعالى -  
لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين بين أن المتقين قسمان : « أحدهما الذين  
أقبلوا على الطاعات والعبادات ، وهم الذين وصفهم بالإتفاق في السراء والضراء  
وكظم الغيظ والعفو عن الناس . وثانيهما : الذين أذنبوا ثم تابوا وهذا هو المراد  
بقوله - تعالى - « والذين إذا فعلوا فاحشة ، وبين - سبحانه - أن هذه لفرفة  
كالفرفة الأولى في كونها متقية... »

والوجه الثاني : أنه في الآية الأولى تدب إلى الإحسان إلى الغير ، وتدب  
في هذه الآية إلى الإحسان إلى النفس . فإن المذنب إذا تاب كانت توبته  
إحسانا منه إلى نفسه (١) .

وقوله « أو ظلموا أنفسهم » معطوف على قوله « فعلوا فاحشة » من باب

عطف العام على الخاص ، وهذا على تفسير الفاحشة بأنها كباثر الذنوب ، أما ظلم النفس فيتناول كل ذنب سواء أكان صغيرا أم كبيرا .

وبعضهم يرى أن الفاحشة وظلم النفس وجهان للمعصية لا ينفصلان عنها ، بمعنى أن كل معصية لا تخلو منهما فهي فاحشة وظلم للنفس . وعلى هذا تكون أو بمعنى الواو .

ويكون المعنى : ومن يرتكب فاحشة ويظلم نفسه ، ويتذكر الله عند ارتكابها فيعود إليه تائباً متنبهاً يكون من المتقين .

وفي التعبير بقوله : إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله ، بصيغة الشرط والجواب ، إشعار بوجود إقتران الجواب بالشرط أى أن الشخص الذى يدخل فى جملة المتقين هو الذى يعود إلى ربه تائباً فور وقوع المعصية ، بحيث لا يسوف ولا يؤخر التوبة حتى إذا حضره الموت قال إني تبت الآن .

وقوله : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » جملة معترضة بين قوله « فاستغفروا » وبين قوله « ولم يهتروا » .

والاستفهام فى قوله « ومن يغفر الذنوب إلا الله » ، للإينكار والتنفيد .  
أى : لا أحد يقبل توبة التائبين ، ويغفر ذنوب المذنبين ، ويمسح خطايا المخطئين ، إلا الله العلى الكبير « الذى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، ويتوب الله عن من تاب ، - كما جاء فى الحديث الشريف - ولذا قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الجملة ما ملخصه . فى هذه الجملة وصف لذاته - تعالى - بسعة الرحمة ، وقرب المغفرة ، وأن التائب من ذنبه كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفرع للمذنبين إلا فضله وكرمه ... وفيها تطيب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ، وبهت عليها ، وردع عن اليأس والقنوط ، وأن الذنوب وإن جمعت فإن عفوه أجل ، وكرمه (٢٣ - سورة آل عمران)

أعظم . والمعنى أنه وحده عنده مصححات المغفرة ، وهذه جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، (١) .

وقوله « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » : بيان لشرط الاستغفار المقبول عند الله - تعالى - .

أى أن من صفات المتقين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، سارعوا بالتوبة إلى الله - تعالى - ، ولم يصروا على الفعل القبيح الذى فعلوه ؛ وهم عالمون بقبحه ، بل يندمون على ما فعلوا ، ويستغفرون الله - تعالى - عما فعلوا ، ويتوبون إليه توبة صادقة .

وقوله « ولم يصروا ، معطوف على قوله « فاستغفروا لذنوبهم » .

وقوله « وهم يعلمون » جملة حالية من فاعل « يصروا » ، أى : ولم يصروا على ما فعلوا وهم عالمون بقبحه .

ومفعول يعلمون محذوف للعلم به أى يعلمون سوء فعلهم ، أو يعلمون أن الله يتوب على من تاب ، أو يعلمون عظم غضب الله على المذنبين الذين يدارمون على فعل القبائح دون أن يتوبوا إليه .

فإن ترى أن هذه الآية الكريمة قد فتحت باب التوبة أمام المذنبين ، وحرصتهم على ولوجه بمنزلة صادقة ، وقلب سليم ، ولم تسكتف بذلك بل بشرتهم بأنهم متى أظلموا عن ذنوبهم ، وندموا على ما فعلوا ، وعاهدوا الله على عدم العودة على ما ارتكبه من خطايا ، وردوا المظالم إلى أهلها ، فإن الله - تعالى - يغفر لهم ما فرط منهم ، ويحشرهم في زمرة عباده المتقين .

إنه - سبحانه - لا يخلق فى وجه عبده الضعيف المخطئ باب التوبة ، ولا يبقيه حائراً منبوذاً فى ظلام المساهات ، ولا يدعه مطروداً خائفاً من

المصير ، وإنما يطعمه في مغفرته - سبحانه - و يرشده إلى أسبابها ، ويفريه بمباشرة هذه الأسباب حتى ينجو من العقاب .

ولقد ساق - سبحانه - في عشرات الآيات ما يبشر التائبين الصادقين في توبتهم بمغفرته ورحمته ورضوانه ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة . ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً » (١) .

وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى ومن ذلك ما رواه أبو دارد والترمذي عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال قال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » (٢) .

وقال القرطبي : وأخرج الشيخان عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه » .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم » .

ثم قال القرطبي : والذنوب التي يتاب منها إما كفر أو غيره فتوبة الكافر لإيمانه مع ندمه على ما سلف من كفره ، وغير الكافر إما حق لله - تعالى - وإما حق لغيره ، لحق الله - تعالى - بكنى في التوبة منه الترك ، غير أن منها ما لم يكتف الشرع فيها بمجرد الترك ، بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء كالصلاة

(١) سورة العنكبوت الآيات من ٦٧ - ٧١

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٧

والصوم . ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحنث في الإيمان والظهار وغير ذلك  
وأما حقوق الأدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها ، فإن لم يوجد واتصدق  
هنيئاً ، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسار فغفوا الله . مأمول ، وفضله  
مبدول ، فكف صمن من التبعات . وبدل من السيئات بالحسنات ... (١) .

ثم بين - سبحانه - عاقبة من هذه صفاتهم فقال . أولئك جزاؤهم مغفرة  
من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ، .  
أي ، أولئك ، الموصوفون بتلك الصفات السابقة من الإنفاق في السراء  
والضراء ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس - الخ أولئك ، جزاؤهم مغفرة  
من ربهم ، تستر ذنوبهم وتسمح خطاياهم .  
وفي الإشارة إليهم بأولئك الدالة على البعد إشعار بعلو منزلتهم في الفضل ،  
وسمو مكانتهم عند الله - تعالى - .

وقوله ، وجنات تجري من تحتها الأنهار ، معطوف على «مغفرة» أي لهم  
بجانب هذه المغفرة جنات تجري من تحت أشجارها وتثمرها الأنهار .  
وقوله ، خالدين فيها ، حال مقدرة من الضمير المجرور في «جزاؤهم» ،  
لأنه مفعول به في المعنى ، إذ هو في معنى أولئك بحريمهم الله - تعالى - جنات  
تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وعد  
أصحاب هذه الصفات بأمور ثلاثة :

وعدم بغفران ذنوبهم وهذا منتهى الأمانى والآمال .  
وعدم يادخالهم في جناته التي يتوفر لهم فيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين ،  
وعدم بالخلود في تلك الجنات حتى يتم لهم السرور والحبور .  
وقوله - تعالى - « ونعم أجر العاملين » ، تذييل قصده مدح ما أعد لهم من  
جراة ، حتى يرغب في تحصيله العتلاء .

والخصوص بالمدح محضوف أي ونعم أجر العاملين هذا الجزاء الذي وعدهم  
الله به من مغفرة وجنات خالدين فيها :

وبذلك ترى السورة الكريمة قبل أن تفصل الحديث عن غزوة أحد ،  
فذكرت المؤمنين بطرف مما حدث من بعضهم فيها ، وبالنتائج الطيبة التي  
حصلوا عليها من غزوة بدر ، ثم أمرتهم بتقوى الله وبالمسارعة إلى الأعمال  
الصالحة التي توصلهم إلى رضاه .

ثم أخذت السورة الكريمة بعد ذلك تتحدث عن غزوة أحد وعن آثارها  
في نفوس المؤمنين ، فبدأت بالإشارة إلى سنن الله في المكذبين بآياته ،  
لتخفف عن المؤمنين مصابهم ، ثم أمرتهم بالصبر والثبات ونهتهم عن الوهن  
والجزع لأنهم هم الأعلون . وإن تمكن قد أصابهم جراح فقد أصيب  
المشركون بأمثالها ، والله - تعالى - فيما حدث في غزوة أحد حكم ، منها: تمييز  
الخيث من الطيب ، وتمحيص القلوب ، وإتحاذ الشهداء ، ومحق الكافرين .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق تلك المعاني بأسلوبه الذي يبعث  
الامل في قلوب المؤمنين . ويرشدهم إلى ما يقوهم ويثبتهم ، ويمسح بتوجيهاته  
دموعهم ، ويخفف عنهم آلامهم فيقول :

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ  
كَانَ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ (١٣٧) هَذَا يَبَيِّنُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ  
لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَسْتَسْكِمِ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ  
الْآيَاتُ نُنَادِيهَا بَيْنَ النَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ  
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيَمَّحَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَحِقَّ  
لِلْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ

جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) .

قال الفخر الرازي ماملخصه : اعلم أن الله - تعالى - لما وعد على الطاعة والتوبة من المعصية ، الغفران والجنان ، اتبعه بذكر ما يحملهم على فعل الطاعة وعلى التوبة من المعصية ، وهو تأمل أحوال القرون الخالية من المطيعين والعاصين فقال : « قد خلت من قبلكم سنن ... » .

وأصل الخلو في اللغة : الانفراد . والمكان الخالي هو المنفرد عن يسكن فيه ، ويستعمل أيضا في الزمان بمعنى الماضي ، لأن ماضى انفراد عن الوجود وخلا عنه ، وكذا الأمم الخالية .

والسنن جمع سنة وهي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع . وفي اشتقاق هذه اللفظة وجوه منها : أنها فصلة من سن الماء يسنه إذا وإلى صبه . والسن الصب للماء . والعرب شبهت الطريقة المستقيمة بالماء المنصبوب . فإنه لتوالي أجزاء الماء فيه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد ... (١) .

والمراد بالسنن هنا : وقائع في الأمم المكذبة ، أجراها الله - تعالى - على حسب عادته ، وهي الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم فسوقهم على أمره .

والمعنى : لأنه قد مضت وتقررت من قبلكم - أيها المؤمنون - سنن ثابتة ، ونظم محكمة فيما قدره - سبحانه - من نصر وهزيمة ، وعزة وذلة ، وعقاب في الدنيا وثواب فيها ، فالحق يصارع الباطل ، وينتصر أحدهما على الآخر بما سنه - سبحانه - من سنة في النصر والهزيمة .

وقد جرت سننهم - سبحانه - في خلقه أن يجعل العاقبة للمؤمنين الصادقين ، وأن يعلى للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

فإن كنتم في شك من ذلك - أيها المؤمنون - فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

أى : فسيروا في الأرض متأملين متبصرين ، فسترون الحال السيئة التي انتهى إليها المكذبون من تخريب ديارهم ، وبقايا آثارهم .

قالوا : وليس المراد بقوله فسيروا في الأرض - فانظروا ، الأمر بذلك لا محالة . بل المقصود تعرف أحوالهم ، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير في الأرض كان المقصود حاصلًا . ولا يمتنع أن يقال أيضا : إن لمشاهدة آثار المتقدمين أثرًا أقوى من أثر السماع كما قال الشاعر :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار<sup>(١)</sup>

والتعبير بلفظ كيف الدال على الإستفهام ، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذبين التي تدعو إلى العجب ، وتثير الاستغراب ، وتقرس الاعتبار والاعتاظ في قلوب المؤمنين . لأن هؤلاء المكذبين ، مكن الله لهم في الأرض ، ومنحهم الكثير من نعمه ... ولكنهم لم يشكروه عليها ، فأهلكهم بسبب طغيانهم ... فهذه الآية وأشباهها من الآيات ، تدعو الناس إلى الاعتبار بأحوال من سبقهم . وإلى الاعتاظ بأيام الله ، والتاريخ وما فيه من أحداث ، والآثار التي تركها السابقون ، فإنها أصدق من رواية الرواة ومن أخبار المخبرين .

ثم قال - تعالى - : هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين .

والبيان : هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة .

والهدى : هو الإرشاد إلى ما فيه خير الناس في الحال والاستقبال .

والموعظة : هي الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي من الأمور الدينية أو الدنيوية .

قالوا : فالحاصل أن البيان جنس تحته فوعان : أحدهما الكلام الهادي

إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدى . والثاني : الكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعدة . فمعطفهما على البيان من عطف الخاص على العام ، (١) .

واسم الإشارة يعود إلى ما تقدم هذه الآية الكريمة من أوامر ونواه ، ومن وعد ووعد ، ومن حض على السير في الأرض للاعتبار والاتعاظ .

أى هذا الذى ذكرناه لكم من وعد ووعد ، ومن أوامر ونواه ، ومن حض على الاعتبار بأحوال المكذبين ، « بيان للناس » ، يكشف لهم الحقائق ويرفع عنهم الالتباس « وهدى » ، يهديهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم « وموعدة » ، أى تخويف نافع « للمتقين » ، الذين يعتبرون بلمثلاث ، وينتفعون بالعظات .  
وقيل إن اسم الإشارة يعود إلى القرآن .

أى هذا القرآن بيان للناس وهدى وموعدة للمتقين .

وقد رجح ابن جرير الوأى الأول فقال : وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب : قول من قال : قوله هذا ، إشارة إلى ما تقدم هذه الآية من تذكير الله - عز وجل - المؤمنين ، وتعرفهم حدوده ، وحضهم على لزوم ضاعته ، والصبر على جهاد أعدائه ؛ لأن قوله هذا ، إشارة إلى حاضر إما مرئى وإما مسموع وهو فى هذا الموضع إلى حاضر مسموع من الآيات المتقدمة . فعنى الكلام : هذا الذى أوضحت لكم وعرفتكموه بيان للناس . . . . (٢) .

والمراد بالناس جميعهم ؛ إذ أن ما ساقه الله - تعالى - من دلالات وهدايات وعدات هى للناس كافة ، إلا أن الذين ينتفعون بها هم المتقون ؛ لأنهم هم الذين أخلصوا قلوبهم لله ، وهم الذين طلبوا الحق وسلكوا طريقه . . .

والكلمة الهادية لا يستفيد بها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى ، والعظة البالغة لا ينتفع بها إلا القلب الخاشع المنيب ، والناس فى كل زمان ومكان

(١) حاشية الجمل على الجلالين .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ١٠١

لا ينقصهم - في الغاب - العلم بالحق وبالباطل ، وبالهدى وبالضلال . . .  
 وإنما الذي ينقصهم هو القلب السليم الذي يسارع إلى الحق فيعتنقه ويدافع عنه  
 بإخلاص وإصرار . ولذا وجدنا القرآن في هذه الآية - وفي عشرات الآيات  
 غيرها - يصرح بأن المنتفعين بالتذكير هم المتقون فيقول : « هذا بيان للناس  
 وهدى وموعظة للمتقين » .

وبعد هذا البيان الحكيم ، يتجه القرآن إلى المؤمنين بالثبوت والتعمية  
 فينهم عن أسباب الفشل والضعف . ويأمرهم بالصمود وقوة اليقين . ويبشرهم  
 بأنهم هم الأعلون فيقول : ولا تنهوا ولا تحزنوا وأتت الأعلون إن كنتم مؤمنين ،  
 وقوله « تنهوا » من الوهن - بسكون الهاء - وفتحها - وهو الضعف .  
 وأصله ضعف الذات كما في قوله - تعالى - حكاية عن زكريا : « قال رب إنني  
 وهن العظم مني . . . » أي ضعف جسمي .

وهو هنا مجاز عن خور العزيمة ، وضعف الإرادة ، وانقلاب الرجاء  
 ياسا والشجاعة جبنا ، واليقين شكا . ولذلك نهوا عنه .  
 وقوله « تحزنوا » من الحزن وهو ألم نفسي يصيب الإنسان عند فقد  
 ما يجب أو عدم إدراكه ، أو عند نزول أمر يجعل النفس في هم وقلق .  
 والمقصود من النهي عن الوهن والحزن ، النهي عن سببهما وعن الاسترسال  
 في الألم مما أصابهم في غزوة أحد .

والمعنى : لا تسترسلوا - أيها المؤمنون - في الهم والألم مما أصابكم في يوم  
 أحد ، ولا تضعفوا عن جهاد أعدائكم فإن الضعف ليس من صفات المؤمنين  
 ولا تحزنوا على من قتل منكم فإن هؤلاء القتلى من الشهداء الذين طم منزلتهم  
 السامية عند الله .

وقوله « وأنتم الأعلون » جملة حالية من ضمير الجماعة في ولا تنهوا ولا  
 تحزنوا والمقصود بها بشارتهم وتسليتهم وإدخال الطمأنينة على قلوبهم .

أى لا تضعفوا ولا تحزنوا والحال أنكم أنتم الأعلون الغالبون دون عدوكم، فأنتم قد أصبتم منهم في غزوة بدر أكثر مما أصابوا منكم في غزوة أحد وأنتم تقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله وهم يقاتلون في سبيل الطاغوت .

أنتم سيكون لكم النصر عليهم في النهاية ، لأن الله - تعالى - قد وعدكم بذلك فهو القائل : « إنا لننصر رسالنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (١) .

وقوله « إن كنتم مؤمنين ، جملة شرطية ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله .

أى : إن كنتم مؤمنين حقا فلا تنهوا ولا تحزنوا بل اعتبروا بمن سبقكم ، ولا تعودوا لما وقعتم فيه من أخطاء فإن الإيمان يوجب قوة القلب ، وصدق العزيمة . والصمود في وجه الأعداء ، والإصرار على قتالهم حتى تكون كلمة الله هي العليا .

والتعليق بالشرط في قوله « إن كنتم مؤمنين » المراد منه التهييج لنفوسهم حتى يكون تمسكها بالإيمان أشد وأقوى ، إذ قد علم الله - تعالى - أنهم مؤمنون ، ولكنهم لما لاح عليهم الوهن والحزن بسبب ما أصابهم في أحد صاروا بمنزلة من ضعف يقينه ، فقيل لهم : إن كنتم مؤمنين حقا فتركوا الوهن والحزن وجدوا في قتال أعدائكم ، فإن سنة الله في خلقه اقتضت أن تصيبوا من أعدائكم وأن تصابوا منهم إلا أن العاقبة ستكون لكم .

فالآية الكريمة تحريض للمؤمنين على الجهاد والصبر ، وتشجيع على القتال ، وتسلية لهم عما أصابهم ، وبشارة بأن النصر في النهاية سيكون حليفهم .

ثم أضاف - سبحانه - إلى ذلك تسلية جديدة لهم ، فأخبرهم بأن ما أصابهم

من جراح وآلام قد أصيب أعداؤهم . بمثله فقال - تعالى - : « إن يحبسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، . »

قال الفخر الرازي : واعلم أن هذا من تمام قوله - تعالى - ، ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون . . ، فبين - تعالى - أن الذي يصيبهم من القرح لا يصح أن يزيل جدم واجتهادهم في جهاد العدو ، وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك ، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب ، فبان لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والنسك بالحق أولى (١) .

والمراد بالمس هنا : الإصابة بالجراح ونحوها .

والقرح - بفتح القاف - الجرح الذي يصيب الإنسان ، والقرح - بضم القاف - الألم الذي يترتب على ذلك وقيل هما لغتان بمعنى واحد وهو الجرح وأثره .

والمعنى : إن تسكونوا - أيها المؤمنون - قد أصابتكم الجراح من المشركين في غزوة أحد ، فأنتم قد أنزلتم بهم من الجراح في غزوة بدر مثل ما أنزلوا بكم في أحد ، ومع ذلك فإنهم بعد بدر قد عادوا لقتالكم ، فأنتم أولى بسبب إيمانكم وبقيسكم ألا تنهوا ولا تحزنوا لما أصابكم في أحد وأن تعقدوا العزم على منازلهم حتى يظهر أمر الله وهم كارهون .

وقيل : إن المعنى إن تصبكم الجراح في أحد فقد أصيب القوم بجراح مثلها في هذه المعركة ذاتها .

وقد ذكر صاحب الكشف هذين المعنيين فقال : والمعنى : إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر ، ثم لم يهزم ذلك قلوبهم ، ولم يبطئهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى أن لا تضعفوا . ونحوه ، ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تسكونوا تالمون فإنهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون ،

وقيل : كان ذلك يوم أحد ، فقد نالوا منهم قبل مخالفتهم أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فإن قلت : كيف قيل « قرح مثله » ، وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين ؟ قلت : بلى كان مثله . ولقد قتل يؤمئذ خلق من الكفار . ألا ترى إلى قوله - تعالى - « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فصلتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ماتحبون ... » (١) .

ويبدو لنا أن الظاهر هو الرأي الأول ، وهو أن الكلام عن غزوة بدر وأحد ، لأن الله - تعالى - « قد ساق هذه الآية الكريمة لتسليمة المؤمنين بأن ما أصابهم في أحد من المشركين قد أصيب المشركون بمثله على أيدي المؤمنين في غزوة بدر ، فلماذا يحزنون أو يضعفون ؟ ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » ، يؤيد هذا المعنى - كما سنبينه بعد قليل - . وجواب الشرط في قوله « إن يمسسكم قرح إلخ ... » محذوف . والتقدير إن يمسسكم قرح فاصبروا عليه واعقدوا عزمكم على قتال أعدائكم ، فقد مسهم قرح مثله قبل ذلك .

وعبر عما أصاب المسلمين في أحد بصيغة المضارع « يمسسكم » ، لقربه من زمن الحال ، وعما أصاب المشركين بصيغة الماضي لبعده ؛ لأن ما أصابهم كان في غزوة بدر .

وقوله « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » ، بيان لسنة الله الجارية في كونه ، وتسليمة للمؤمنين عما أصابهم في أحد .

وقوله « نداؤها » من المداولة ، وهي نقل الشيء من واحد إلى آخر . يقال : هذا الشيء تداولته الأيدي ، أى انتقل من واحد إلى آخر ... والمعنى : لا تجزهوا أيها المؤمنون لما أصابكم من الجراح في أحد على أيدي المشركين فهم قد أصيبوا منكم بمثل ذلك في غزوة بدر ، وإن أيام الدنيا هي

دول بين الناس ، لا يدوم سرورها ولا غمها لأحد منهم ، فن سره زمن ساءته  
أزمان ، ومن أمثال العرب . الحرب سجال ، والأيام دول فهي تارة لهؤلاء  
وتارة لأولئك ، كما قال الشاعر :

فلا وأبي الناس لا يعلمون فلا الخير خير ولا الشر شر  
فيوم علينا ، ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر  
ولهم الإشارة ، تلك ، مشاربه إلى ما بعده ، كما في الضمائر المبهمة التي  
يفسر ما بعدها ، ومثل هذا التركيب يفيد التفخيم والتعظيم .

والمراد بالأيام : الأوقات والأزمان المختلفة للأيام العرفية التي يتكون  
الواحد منها من مدة معينة .

وقد فسر صاحب الكشاف مداولة الأيام بتبادل النصر ، فقال : وقوله :  
« وتلك الأيام ، تلك مبتدأ ، والأيام صفتها ، ونداؤها ، خبره .

ويجوز أن يكون « تلك الأيام . مبتدأ وخبرها ، كما تقول : هي الأيام تبلى  
كل جديد .

والمراد بالأيام : أوقات الظفر والغلبة . ونداؤها : نصرها بين الناس ،  
فدليل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء ... » (١) .

وقد تكلم الامام الرازي عن الحكمة في مداولة الأيام بين الناس فقال  
ما ملخصه : واعلم أنه ليس المراد من هذه المداولة أن الله - تعالى - ينصر  
المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين ، وذلك لأن نصره الله منصب شريف ،  
وإعزاز عظيم فلا يليق بالكافر ، بل المراد من هذه المداولة أنه تارة يشدد  
الحجة على الكفار وأخرى على المؤمنين والفائدة فيه من وجوه ،

الأول : أنه - سبحانه - لو شدد الحجة على الكفار في جميع الأوقات  
وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات . لحصل العلم الاضطراري بأن الإيمان

حق وما سواه باطل . ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب ،  
 فلماذا المعنى تارة يسلم الله المحنة على أهل الإيمان وأخرى على أهل الكفر  
 لتكبرون الشبهات باقية ، والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة  
 على صحة الإسلام فيعظم ثوابه عند الله .

والثاني : أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي ، فيكون تشديد المحنة عليه  
 في الدنيا أدبا ، وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضبا من الله  
 عليه . . . (١) .

ثم كشفت السورة الكريمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث  
 في غزوة أحد ، وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس فقال - تعالى - د وليعلم  
 الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء . .

أى فعلنا ما فعلنا في أحد . وانتضت حكمتنا أن نداول الأيام بينكم وبين  
 عدوكم ، ليظهر أمركم - أيها المؤمنون - ، وليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

فمعنى علم الله هو تحقق ما قدره في الأزل فيعلمه الناس ، ويعلمه الله - تعالى  
 واقعا حاضرا ، وذلك لأن العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ، وإنما  
 يترتبان على المعلوم إذا صار مشاهدا واقعا في الحس .

قال صاحب الكشاف : وقوله د وليعلم الله الذين آمنوا ، فيه وجهان :  
 أحدهما أن يكون المعطل محذوفا والمعنى : وليتميز الثابتون على الإيمان منكم  
 من الذين على حرف فعلنا ذلك ، وهو من باب التمثيل . بمعنى : فعلنا ذلك فعل  
 من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الشابت ، وإلا فاقه  
 - عز وجل - لم يزل عالما بالأشياء قبل كونها ، والثاني : أن تكون العلة  
 محذوفة ، وهذا عطف عليه والمعنى : وفعلنا ذلك ليكون كيت ويعلم الله .

ولأنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ، ليسلهم عما جرى عليهم ، وليبصرهم بأن العبد يسوء ما يجرى عليه من المصائب ، ولا يشعر أن فقه في ذلك من المصالح ما هو غافل عنه ، (١) .

وقوله « ويتخذ منكم شهداء » بيان لحكمة أخرى لما أصاب المسلمين يوم أحد .

أى : وليكرم ناسا منكم بالشهادة ليكونوا مثالا لغيرهم في التضحية بالنفس من أجل إعلاء كلمة الله والدفاع عن الحق ، وهو - سبحانه - يجب الشهداء من عباده ، ويرفعهم إلى أعلا الدرجات ، وأسمى المنازل .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - « ويتخذ منكم شهداء » أى يكرمكم بالشهادة ، أى ليقبل قوم منكم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم . وقيل : لهذا قيل شهيد .

وقيل : سمي شهيدا لأنه مشهود له بالجنة . وقيل : سمي شهيدا ؛ لأن أرواحهم احتضرت دار السلام لأنهم أحياء عند ربهم ، فالشهيد بمعنى الشاهد أى الحاضر للجنة . والشهادة فضلها عظيم ويكفيك في فضلها قوله - تعالى - « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... الآية » . وفى الحديث الشريف أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » (٢) .

وقوله - تعالى - « والله لا يحب الظالمين » جملة معترضة لتقدير مضمون ما قبلها .

أى : والله - تعالى - لا يحب الناس الذين ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٢٠

(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٨١

ونفاهم ونغادهم عن نصرة الحق ، وإنما يجب المؤمنین الثابتین علی الحق ،  
المجاهدين بأنفسهم وأموالهم في سبيل إلاء دين الله ، ونصرة شريعته .

ثم ذكر - سبحانه - حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين في غزوة أحد  
فقال : « وليحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

وقوله « وليحص » من المحص بمعنى التنقية والتخليص . يقال . حصت  
الذهب بالنار وحصته إذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث . أو من التخصيص  
بمعنى الابتلاء والاختبار .

وقوله « ويمحق » من المحق وهو محو الشيء . والذهاب به وأصله نقص  
الشيء قليلا قليلا حتى يفنى . يقال : محق فلان هذا الطعام إذا نقصه حتى أفناه .  
ومنه المحاق ، لآخر الشهر ، لأن الهلال يبلغ أقصى مدى النقصان فيختفي .

والمعنى : ولقد فعل - سبحانه - ما فعل في غزوة أحد ، لكي يظهر المؤمنين  
ويصفهم من الذنوب ، ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم ، ولكي يهلك  
الكافرين ويحقهم بسبب بغيتهم وبطرم .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذكر أربع حكم لما حدث للمؤمنين في  
غزوة أحد وهي : تحقق علم الله - تعالى - وإظهاره للمؤمنين ، وإكرام بعضهم  
بالشهادة التي توصل صاحبها إلى أعلا الدرجات . وتطهير المؤمنين وتخليصهم  
من ذنوبهم ومن المنافقين ، ومحق الكافرين واستئصالهم رويدا رويدا .

ثم بين - سبحانه - أن طريق الجنة محفوف بالمسكاره ، وأن الوصول إلى  
رضا الله - تعالى - يحتاج إلى جهاد عظيم ، وصبر طويل فقال - تعالى - :  
« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »  
و « أم ، هنا يرى كثير من العلماء أنها منقطعة ، بمعنى بل الانتقاليه ، لأن  
الكلام لانتقال من تسليتهم إلى معاتبتهم على ما حدث منهم في غزوة أحد من  
مخالفة بعضهم لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفرارهم عنه في ساعة الشدة .  
والهمزة المقدره معها للإيثار والاستبعاد .

وقوله « أم حسبتم .. » معطوف على جملة « ولا تنهوا .. » وذلك أنهم

لما مسهم القرح فخرنوا واعتراهم شئ. من الضعف ، بين الله لهم أن لا وجه لهذا الضعف أو الحزن لأنهم هم الأعلون ، والأيام دول ، وما أصابهم فقد سبق أن أصيب بمثله أعداؤهم ، ثم بين لهم هنا : أن دخول الجنة لا يحصل لهم إذا لم يبدلوا مهجهم وأرواحهم في سبيل الله ، فإذا ظنوا غير ذلك فقد أخطأوا .

والمعنى : بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة ، وتناولوا كرامة ربكم ، وشرف المنازل عنده مع أنكم لم تجاهدوا في سبيل الله جهاد الصابرين على شدائده ومتاعبه ومطالبه إن كنتم تحسبون هذا الحساب فهو ظن باطل يجب عليكم الإنعلاع عنه .

ويحتمل أن تكون دأب ، هنا للمعادلة ، بمعنى أنها متصلة لا مقطوعة . ويكون المعنى عليه : أعلمتم أن الله -- تعالى -- سندا في النصر والهزيمة ، وأن الأيام دول وأن الوصول إلى الجنة يحتاج إلى إيمان وجهاد وصبر . . . أم حسبتم وظننتم أنكم تدخلون الجنة من غير مجاهدة واستشهاد ؟ .

وقوله : ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، معناه : ولم تجاهدوا جهاد الصابرين فيعلم الله ذلك منكم .

قال صاحب الكشاف : وقوله : ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، بمعنى ولما تجاهدوا ، لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه ، لأنه منتف بانتقائه . يقول الرجل : ما علم الله من فلان خيراً ، يريد ما فيه خير حتى يعلمه ، وولما ، بمعنى لم ، إلا أن فيها ضرباً من التوقع ، فدل على نفي الجهاد فيما مضى ، وعلى توقعه فيما يستقبل . وتقول : وعدني أن يفعل كذا ولما تريد . ولما يفعل ، وأنا أتوقع فعله ، (١) .

وجملة : ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، حالية من ضمير : تدخلوا ، مؤكدة للإنكار ، فإن رجاء الأجر من غير عمل مستبعد عند ذوى العقول السليمة ، ولذا قال بعضهم :

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٠٢

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس  
وقال بعض الحكماء ، طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب ،  
وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء الرحمة بمن لا يطاع  
حق وجهالة . .

رقوله ، ويعلم الصابرين ، أى ويتميز الصابرون في جهادهم عن غيرهم  
فآية الكريمة تشير إلى أن الشدائد من شأنها أن تميز المحاهدين الصادقين  
في جهادهم ، الثابتين في لباساء والضراء من غيرهم ، وأن تميز الصابرين الذين  
يتحملون مشاق لقتال وتبعاته بقلب راسخ ، ونفس مطمئنة من الذين يجاهدون  
ولكنهم تطيش أحلامهم عند الشدائد والأحوال .

فالجهد في سبيل الله يستلزم الصبر ، لأن الصبر هو عدة المجاهد وأساس  
نجاحه ولقد سئل بعضهم عن الشجاعة فقال . الشجاعة صبر ساعة .

وقال بعض الشعراء يعتذر عن انتصار أعدائهم عليهم .

سقيناهم كأساً سقرونا بمثلها - ولكنهم كانوا على لموت أصحرا

ولقد كان عدم صبر الرماة في غزوة أحد ، ومسايرتهم إلى جمع الغنائم ،  
من أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمة المسلمين في تلك المعركة .

والآية الكريمة كذلك تشير إلى أن الطريق إلى الجنة ليس سهلاً يسلكه  
كل إنسان وإنما هو طريق محفوف بالمكاره والشدائد ، ولا يصل إلى غايته  
إلا الذين جاهدوا وصبروا وصابروا ، ولذا قال رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - وحفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . .

ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان منهم من تمنى الشهادة في سبيله فقال  
، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن ناقلوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ، .  
قال ابن جرير ما ملخصه : كان قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم - من لم يشهد بدرًا ، يتمنون قبل يوم أحد يوماً مثل يوم بدر ، فيعطون الله من أنفسهم خيراً ، وينالون من الأجر مثل ما قال أهل بدر ، فلما كان يوم أحد ، فر بعضهم وصبر بعضهم ، حتى أوفى بما كان غاهد الله عليه قبل ذلك . فعاتب الله من فر منهم بقوله : « ولقد كنتم تمنون الموت ... الآية » .

وعن الحسن قال : بلغني أن رجلاً من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - كانوا يقولون : لئن لقينا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - المشركين لننظمن ولنظمن ، فابتلوا بذلك - في أحد - ، فلا وافته ما كلمهم صدق فأنزل الله - تعالى - « ولقد كنتم ... الآية » (١) .

والخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين الذين لم يفوزوا بالشهادة في غزوة أحد ، وهو خطاب يجمع بين الموعظة واللام .

والمزاد بالموت هنا الشهادة في سبيل الله ، أو الحرب والقتال لأنها يؤديان إلى الموت ،

والمعنى : ولقد كنتم - يا مشرك المؤمنين - « تتمنون الموت ، أي الحرب أو الشهادة في سبيل الله » من قبل أن تلقوه ، أي تشاهدوه وتعرفوا أهواله « فقد رأيتموه ، أي فقد رأيتم ما تتمنونه من الموت بمشاهدة أسبابه وهي الحرب وما يترتب عليها من جراح وآلام وقتل ، وأنتم تنظرون ، أي رأيتموه مما بين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أنتم أيها الأحياء أن تقتلوا .

وقوله « من قبل أن تلقوه » متعلق بقوله « تمنون » مبين لسبب إقدامهم على القتلى . أي من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا مصاعده .

ففي الجمله الكريمة تعريض بأنهم تمنوا أمراً دون أريفة درواشده عليهم ، ودون أن يوطنوا أنفسهم على تحمل مشقاته وتبعاته .

والفاء في قوله ، فقد رأيتموه ، الإفصاح عن شرط مقدر دل عليه صدر الكلام . والتقدير: إذا كنتم قد تمنيتم الموت فقد وقع ما تمنيتموه ورأيتموه رأي العين ، فأين بلاؤكم وصبركم ونبأكم؟

وقوله ، وأنتم تنظرون ، جملة حالية من ضمير المخاطبين مؤكدة لمعنى رأيتموه . أي رأيتموه معاينين له ، وهذا على - قولك : رأيتته وليس في معنى علة : أي رأيتته رؤية حقيقية لا خفاء فيها ولا التباس .

والتعبير بالمضارع ، تنظرون ، يفيد التصوير ، وإحضار الصورة الواقعة في الماضي كأنها واقعة في الحاضر ، فيستحضرها العقل كما وقعت ، وكما ظهرت في الوجود .

والنظر الذي قرره الله - تعالى - بقوله ، وأنتم تنظرون ، يتضمن النظر إلى الواقعة كلها ، وكيف كان النصر في أول الأمر للمسلمين ؛ ثم كيف كانت الهزيمة بعد ذلك بسبب تطلع بعضهم إلى أعراض الدنيا . ثم كيف تفرقت صفوفهم بعد إجتماعها ، وكيف تضعضعت بعض العزائم بعد مضائها وقوتها .

ولقد حكمت الآية الكريمة أن المسلمين كانوا يتمنون الموت ، وليس في ذلك من بأس ، بل إن هذا هو شعار المؤمن الصادق ، لأن المؤمن الصادق هو الذي يتمنى الشهادة في سبيل الله ومن أجل نصرته دينه ، ولقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لوددت أني أقتل في سبيل الله ، ثم أحيى ، ثم أقتل ، ثم أحيى ثم أقتل ، .

وقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك ، . ولكن الذي يكرهه الإسلام هو أن يتمنى المسلم الشهادة ثم لا يفي بما تمناه ، بمعنى أن يفر من الميدان أو يفعل ما من شأنه أن يتنافى مع الجهاد الحق في سبيل الله .

ولذا قال الألوسي : والمقصود من هذا الكلام عتاب المهزمين على تمنيتهم

لهادة ، وهم لم يقبوا حتى يستشهدوا ، أو على تمنيمهم الحرب وتسيبهم طائمه  
بينهم وانهم زامهم لاعلى تمنى الشهادة نفسها لأن ذلك مما لاعتاب عليه كماوم (١) .

فألايه الكريمة تعظ المؤمنين بأن لا يتمنوا أمرا حتى يفكروا في عواقبه ،  
بعدوا أنفسهم له ، ويلتزموا الوفاء بما تمنوه عند تحققه ، واقد رسم النبي  
صلى الله عليه وسلم - الطريق القويم الذي يجب أن يسلكه المسلم في حياته  
نال في حديثه الصحيح : : أيها الناس ، لا تمنوا لقاء العدو ، وسألوا الله  
بأفيه ، فإذا لقيتموهم فاصبروا . واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف (٢) .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أدرت المؤمنين بأن يعتبروا  
حوال من سبقهم ، وأن يتجنبوا ما كان عليه المكذبون من ضلال وعصيان  
أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المصائب والآلام فإن العاقبة لهم . وأن يعلوا  
الحياة لا تخلو من نصر وهزيمة ، وسراء وضراء حتى يتميز الخبيث من  
طيب ، وأن يعرفوا أن الطريق إلى الجنة يحتاج إلى إيمان عميق ، وصبر  
ويل ، وجهاد شديد ، واستجابة كاملة لتعاليم الإسلام وآدابه . . .

ثم تمضى السيرة الكريمة في حديثها عن غزوة أحد، فتذكر المؤمنين بما كان  
هم عندما أشيع بأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قتل ، وترشدم إلى  
الأجال بيد الله ، وأن المؤمنين الصادقين فأنلوا مع أنبيائهم في سبيل إعلاء  
الله بدون ضعف أو ملل فعلمهم أن يتأسوا بهم في ذلك ، وأن الله - تعالى -  
تكفل بأن يمنح المؤمنين الصادقين المجاهدين في سبيله أجرهم الجزيل في  
نيا والآخرة .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعاني بأسلوبه البليغ الحكيم

نول :

(١) تفسير الألوسي - ج ٤ ص ٧٢

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ج ٤ ص ٦٢ ومسلم في كتاب الجهاد

« وما محمدُ إلا رسولٌ قد خات من قبله الرسل، أفليذات أوتيل  
 اقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً  
 وسيجزي الله الشاكرين (١٤٤) وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله  
 كتاباً مؤجلاً ، ومن يرز ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرز ثواب  
 الآخرة نؤته منها ، وسنجزي الشاكرين (١٤٥) وكأين من نبي  
 قاتل معه ربيون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا  
 وما استكانوا والله يحب الصابرين (١٤٦) وما كان قولهم إلا أن قالوا ؛  
 ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على  
 القوم الكافرين (١٤٧) فاتأم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب  
 الآخرة والله يحب المحسنين (١٤٨) » .

قال ابن كثير : لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد . وقتل من قتل  
 منهم ، نادى الشيطان : ألا إن محمداً قد قتل ، ورجع ابن قبيصة إلى المشركين  
 فقال لهم : قتل محمد . وإنما كان قد ضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
 فشجه في رأسه : فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول  
 الله - صلى الله عليه وسلم - قد قتل . . . . . فحصل ضعف ووهن وتأخر - بين  
 المسلمين - عن القتال . ففي ذلك أزل الله - تعالى - دوماً محمد إلا رسول قد  
 خلت من قبله الرسل . . . . . الآية (١) .

وقوله - تعالى - دوماً محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . تقرير  
 للحقيقة ثابتة ، ولأمر مؤكد ، وهو أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - واحد من  
 البشر ، وأنه سيموت كما يموت جميع البشر ، وأنه ليس له صفة تميزه عن سائر  
 البشر سوى الرسالة التي وهبها الله - تعالى - له ، ومنحها إياها ، وأن هذه الرسالة

تقتضى بقاءه أو خلوده ، إذ الرسل الذين سبقوه قد أدوا رسالتهم في الحياة أمرهم خالقهم ثم ماتوا أو قتلوا .

وما دام الأمر كذلك فمحمد - صلى الله عليه وسلم - سيموت وينقل ل الرفيق الأعلى كما مات الذين سبقوه من الأنبياء ، وكاسيموت جميع البشر .

والقصر في قوله - تعالى : وما محمد إلا رسول ، من باب قصر الموصوف لى الصفة ، أى قصر محمد - صلى الله عليه وسلم - على وصف الرسالة قصرأ صافياً

وفى هذا القصر رد على ما صدر من بعض المسلمين من اضطراب وضعف دين أرجف المتأفقون فى غزوة أحد - بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - د قتل .

فكانه - تعالى - يقول لهم : إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسول من الرسول الذين أرسلهم الله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وسيكون نصيره إلى الموت إن عاجلاً أو آجلاً كما هو شأن سائر البشر الذين أوصطى الله - تعالى - منهم رسله ، إلا أن رسالته التى جاء بها من عند الله لن تموت من بعده ، بل ستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا يصح أن يصف أتباعه فى عقيدتهم أو فى تبايع رسالته من بعده ، بل عليهم أن يستمسكوا بما جاءهم به ، وأن يدافعوا عنه بأنفسهم وأموالهم .

ولذا فقد وبخ الله - تعالى - بعض المسلمين الذين صدر منهم اضطراب أو ضعف عندما أشاع ضعاف المنفوس بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قتل فى غزوة أحد فقال - تعالى - : « أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟

أى : إذا مات محمد - أيها المؤمنون - وقد علمتم أن موته حق لا ريب فيه ، أو قتل وهو يدافع عن دينه وعقيدته ، « انقلبتم على أعقابكم ، أى : رجعتم

إلى ما كنتم عليه من الكفر والضلال . والانقلاب : الرجوع إلى المسكان .  
وهو هنا مجاز في الرجوع إلى الحال التي كانوا عليها قبل الإسلام .

يقال لكل من رجع إلى حاله السيء الأول : نكص على عقبيه ، وارتد  
على عقبيه . والمقب مؤخر الرجل . وجمعه أعقاب .

قال صاحب الكشاف : قوله « أفان مات ... » الفاء معلقة للجملة الشرطية  
بالجملة قبلها على معنى التسيب . والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله  
سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل ، مع علمهم أن خلو  
الرسل قبله وبقائه دينهم متمسكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد -  
صلى الله عليه وسلم - لا للانقلاب عنه .

فإن قلت : لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل ؟ قلت : لكونه يجوزاً عند  
المخاطبين .

فإن قلت : أما عدوه من ناحية قوله : « والله يه سمك من الناس ؟ قلت :  
هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوى البصيرة ... (١)

وفي قوله « انقلبتم على أعقابكم » تنفير شديد من الرجوع إلى الضلال  
بعد الهدى ، وتصوير بليغ لمن ارتد عن الحق بعد أن هداه الله إليه .

فقد صور - سبحانه - حالة من ترك الهداية إلى الضلال ، بحالة من رجع  
إلى الوراء وبصره إلى الأمام ، وأعقابه هي التي تقوده إلى الخلف ، وهو في  
حالة انشكاس ، بأن جعل إلى أسفل وعقبه إلى اعلا . ولا شك أن هذا  
أفبح منظر يكون عليه الإنسان .

وقوله « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » الغرض منه تأكيد  
الوعد ؛ لأن كل عاقل يعلم أن الله - تعالى - لا يضره كفر الكافرين .

أى : « ومن ينقلب على عقبيه بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن  
يرجع إلى ما كان عليه من الكفر والضلال ، فلن يضر الله شيئاً من الضرر

إن قال يهضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ، وبجرماتها من الأجر الثواب .

ثم أتبع - سبحانه - هذا الوعيد بالوعد فقال : « وسيجزي الله الشاكرين »  
 ي : وسيتيب الله - تعالى - الثابتين على الحق ، الصابرين على الشدائد ، الشاكرين ،  
 نعمه في السراء والضراء ، سيثيبهم على ذلك بالنصر في الدنيا وبرضوانه  
 ، الآخرة .

وعبر هنا بالشاكرين ولم يعبر بالصابرين مع أن الصبر في هذا الموطن  
 ظهر ؛ وذلك لأن الشكر في هذا المقام هو أسمى درجات الصبر ، لأن هؤلاء  
 المؤمنين الصادقين الذين وقفوا إلى جانب النبي - صلى الله عليه وسلم - في ساعة  
 حسرة ، لم يكتفوا بتحمل البلاء معه فقط ، بل تجاوزوا حدود الصبر إلى  
 حدود الشكر على هذه الشدائد التي ميزت الخبيث من الطيب ، فالشكر هنا صبر  
 زيادة ، وقليل من الناس هو الذي يكون على هذه الشاكلة ، ولذا قال - تعالى -  
 « وقليل من عبادي الشكور » فالأية الكريمة قد تضمنت عتاباً وتوبيخاً  
 لأولئك المسلمين الذين ضعف يقيمتهم ، وفنرت هممتهم ، عندما أرفج المرجفون  
 ، غزوة أحد بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد قتل .

كما تضمنت الثناء الجزيل على أرائك الثابتين الصابرين الذين لم تؤثر في قوة  
 إيمانهم تلك الأراجيف الكاذبة ، بل مضوا في جهادهم وثباتهم بدون تردد أو  
 زعزع ولقد كان الثابتون حول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة  
 أحد كثيرين ومن بينهم أنس بن النضر - رضی الله عنه - ، فقد روى البخاري  
 بن أنس - رضی الله عنه - قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر ،  
 قال : يا رسول الله . غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لئن أشهدني  
 الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع .

فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون . قال : اللهم إنني أعتذر إليك بما  
 صنع هؤلاء - يعني المسلمين - ، وأبرأ إليك بما صنع هؤلاء - يعني المشركين - .

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ . فقال : يا سعد بن معاذ ! الجنة ورب  
النضر لاني أحد ريحها من دون أحد .

قال سعد فا استطعت يا رسول الله أن أصنع ما صنع .

قال أنس : فوجدناه يضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ،  
أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل . وقد مثل به المشركون فاعرفه أحد إلا  
أخته بيناته .

قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه . . من  
المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . . (١)

كما تضمنت الآية الكريمة التحذير من الارتداد عن دين الله بعد وفاة  
الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبيان أنه بشر من البشر ، وأنه يموت كما  
يموت سائر البشر ، وأن رسالته هي الخالدة الباقية ، فن تمسك بها فقد سعد وقاز ،  
ومن أعرض عنها فلن يضر الله شيئا .

ثم بين - سبحانه - أن الأجل بيد الله وحده ، وأنه - سبحانه - قد جعل  
لكل أجل وقتا محددأ لا يهدوه فقال - تعالى - : وما كان لنفس أن تموت  
إلا بإذن الله كتابا مؤجلا . .

أى : ما كان الموت حاصلأ لنفس من النفوس مطلقا ، لأى سبب من  
الأسباب ، إلا بمشيئة الله وأمره وإذنه - سبحانه - الذى كتب لكل نفس  
عمرها كتابا مؤقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر .

والمراد بالنفس هنا : جنسها . أى كل نفس لا تموت إلا بإذن الله .

والمراد بإذنه - : أمره ومشيئته . فكل نفس لا تموت إلا بأمره . ولا  
تموت إلا بإذنه .

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد . باب « من المؤمنين رجال » ج ٤ ص ٢٢

و « كان ، ناقصة . وقوله « أن تموت ، في محل رفع اسمها . وقوله « انفس ، تتعلق بمحذوف وقع خبرا لها . والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال . الأسباب . أى ما كان لها أن تموت في حالة من الأحوال أو لسبب من الأسباب إلا ما دونها لها منه - سبحانه - .

والباء في قوله « إلا بإذن الله » للمصاحبة .

وقوله « كتابا ، مفعول مطلق يؤكد لمضمون الجملة التي قبله ، وعامله مضمير والتقدير : كتب الله ذلك كتابا مؤجلا . أى له أجل معلوم لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وهو آت لا ريب فيه .

وقوله « مؤجلا ، صفة لقوله « كتابا ، .

ثم ذم - سبحانه - الذين يؤثرون متاع الدنيا على الآخرة ، فقال : « ومن يرد ثواب الدنيا ، نؤته منها أى من يرد بعمله ثواب الدنيا أى جزاءها وثمارها كالأموال والغنائم نؤته منها ما يشاء . أن نؤتيه ، ولا يكون له في الآخرة من نصيب .

وهذا تمريض بمن شغلوا بجمع الغنائم عن الجهاد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو بمن تركوا أما كتبهم التي وضعهم فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسارعوا إلى جمع حطام الدنيا ، فتنتج من ذلك هزيمة المسلمين في غزوة أحد .

ثم مدح - سبحانه - الذين يبتغون بأعمالهم ثواب الآخرة فقال : « ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، .

أى ومن يرد بعمله وجهاده ثواب الآخرة وما ادخره الله فيها لعباده المتقين من أجر جزيل نؤته منها ما يشاء من عطائنا الذي تشبهه النفوس ، وتقر له العيون .

وقوله « وسنجزى الشاكرين » تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، ووعد بالمزيد من عطاء الله لمن يشكره على نعمه ويثبت على شرعه .

ونفى عنهم - ثانيا - الضعف الذي هو ضد القوة ، وهو ينتج عن الوهن .  
ونفى عنهم ثالثا - الإستكاثرة وهي الرضا بالذل وبالخضوع للأعداء  
ليفعلوا بهم ما يريدون .

وقد نفى - سبحانه - هذه الأوصاف الثلاثة عن هؤلاء المؤمنين الصادقين  
مع أن واحدا منها يكفي نفيه لئنها متلازمة - وذلك لبيان قبح ما يقعون  
فيه من أضرارها فيما لو تمكن واحدا من هذه الأوصاف من نفوسهم .

وجاء ترتيب هذه الأوصاف في نهاية الدقة بحسب حصولها في الخارج .  
فإن الوهن الذي هو خور في العزيمة إذا تمكن من النفس أنتج الضعف الذي  
هو لون من الاستسلام والفشل ، ثم تكون بعدهما الاستكاثرة التي يكون معها  
الخضوع لكل مطالب الأعداء ، وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة في  
حياته كان الموت أكرم له من الحياة .

وقوله ، والله يحب الصابرين ، تذييل قصد به حرض المؤمنين على تحمل  
المكاره وعلى مقاساة الشدائد ، ومعاناة المكاره من أجل إعلاء دينهم حتى  
يفوزوا برضا الله ورعايته كما فاز أولئك الربيون الأتقياء الأوفياء .

أى : والله -- تعالى -- يحب الصابرين على آلام القتال ، ومصاعب  
الجهاد ، ومشاق الطاعات ، وتبعات التكاليف التي كلف الله - تعالى -  
بها عباده .

ثم أتبع - سبحانه - محاسنهم الفعلية ، ببيان محاسنهم القولية فقال - تعالى -  
وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا في أمرنا ،  
وثبت أقدامنا ، وإنصرنا على القوم الكافرين ، .

أى أن هؤلاء الأتقياء الأوفياء الصابرين ما كانت لهم من قول في  
مواطن القتال وفي عموم الأحوال إلا الصراعة إلى الله - تعالى - بثلاثه  
أمور :

أولها : حكاية القرآن عنهم في قوله : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا » .

أى : لأنهم يدعون الله - تعالى - بأن يغفر لهم ذنوبهم ما كان صغيرا منها وما كان كبيرا ، وأن يغفر لهم « إسرافهم في أمرهم » ، أى ما تجاوزوه من الحدود التى حددها لهم وأمرهم بعدم تجاوزها .

وثانيها : حكاية القرآن عنهم في قوله « وثبت أقدامنا ، أى اجعلنا ياربنا بمن يقبض لحرب أعدائك وقتالهم ، ولا تجعلنا بمن يولهم الأديار .

وثالثها : حكاية القرآن عنهم في قوله « وانصرنا على القوم الكافرين » أى اجعل النصر لنا ياربنا على أعدائك وأعدائنا الذين جحدوا وحسدوا نيتك ، وكذبوا نبينا ، وضلوا ضلالا بعيدا .

وتأمل معى - أخى القارىء - هذه الدعوات الكريمة ، تراها قد جمعت ما جمعت من صدق اليقين ، وحسن الترتيب .

فهم قد التمسوا - أولا - من خالقهم مغفرة ذنوبهم ، والتجاوز عما وقعوا فيه من أخطاء ، وهذا يدل على سلامة قلوبهم ، وتواضعهم . وإستصغار أعمالهم مهما عظمت أمام فضل الله ونعمه . ثم التمسوا منه - ثانيا - تثبيت أقدامهم عند لقاء الأعداء حتى لا يفروا من أمامهم . ثم التمسوا منه - ثالثا - النصر على الكافرين وهو غاية القتال ، لأن الانتصار عليهم يودى إلى منع وقوع الفتنة فى الأرض ، وإلى إعلاء كلمة الحق .

قال صاحب الكشاف : وقوله ، وما كان قولهم . . . الخ ، هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضما لها وإستصغارا . والدعاء بالإستغفار منها موقفا على طلب تثبيت الأقدام فى مواطن الحرب والنصرة على العدو ، ليكون صلهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع . وهو أقرب إلى الاستجابة (١) .

و دكان ، هنا ناقصة ، وقوله ، قولهم ، بالنصب خيرها . واسمها المصدر المتحصل من «أن» وما بعدها في قوله ، إلا أن قالوا . . . ، والاستثناء مفرغ .  
أى : ما كان قولهم في ذلك المقام وفي غيره من المواطن إلا قولهم لهذا الدعاء أى هو دأبهم ودينتهم .

ثم بين - سبحانه - الثمار التي ترتبت على هذا الدعاء الخاشع ، والإيمان الصادق ، والعمل الخالص لوجهه - سبحانه - فقال : فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين .  
والفاء في قوله ، فآتاهم ، لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

أى أن هؤلاء الذين آمنوا بالله حق الإيمان ، وجاهدوا في سبيله حق الجهاد ، لم يجيب الله - تعالى - دعائهم ، ولم يقبل بابه عن إجابة دعائهم ، وإنما أعطاهم الله - تعالى - ثواب - الدنيا من النصر والغنيمة وقر الأعداء ، وصلاح الحال . . .

كما أعطاهم حسن ثواب الآخرة بأن منحهم رضوانه ورحمته ومثوبته وإنما خص ثواب الآخرة بالحسن للتفنيه على عظمتها وفضله ومزيته ، وأنه هو المعتد به عنده - تعالى - ، لأنه غير زائل ، وغير مشوب ، بتفويض أو قلق .

وقوله ، والله يحب المحسنين ، تذييل مقدر لمضمون ما قبله ، فإن محبة الله - تعالى - للعبد مبدأ كل خير وسعادة .

وبذلك ترى هذه الآيات الكريمة قد قررت في مطلعها حقيقة ثابتة ، وهي أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - بشر من البشر . وأنه يموت كما يموت سائر البشر ، وأن رسالته لا تموت من بعده ؛ بل على أتباعه أن يسيروا على طريقته وأن يحملوا عبء تبليغ تعاليم الإسلام الذي جاء به من بعده ثم قررت بعد ذلك أن الأجل بيد الله ؛ وأن الحدز لا يمنع القدر ؛ وأن أحدا لن يموت

قبل انهاء أجله ، وما دام الامر كذلك فعلى المؤمنين أن يجاهدوا الكفار والمنافقين وأن يغلظوا عليهم ...

ثم ذكرت الناس بعد ذلك بما كان من اتباع الرسل السابقين من إيمان عميق ، وجهاد صادق ، وثبات في وجه الباطل ، ودعاء مخلص خاشع ... حتى يتأسى بهم في أفوالهم وأعمالهم كل ذى عقل سليم .

ثم ختمت هذه الآيات ببيان النتائج الطيبة التي منحها الله - تعالى - لعباده المؤمنين الصادقين في دنياهم وآخرتهم ، حتى يسارع الناس في كل زمان ومكان إلى الأعمال الصالحة التي تكون سببا في سعادتهم وعزتهم . ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين ، نهام فيه عن طاعة أعداء الله وأعدائهم ، وأمرهم بالتمسك بتعاليم دينهم ، وبشرهم بسوء عاقبة أعدائهم فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِئُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَالِمُ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبئسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) » .

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِئُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » ... شروع في زجر المؤمنين عن متابعة الكفار ببيان مضارها ، إثر ترغيبهم في الاقتداء بأنصار الأنبياء ببيان فضائله . وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه ، لإظهار الاعتناء بما في حيزه . ووصفهم بالإيمان لتذكيرهم بحال ينافي تلك الطاعة فيكون الزجر على أكل وجهه . والمراد من الذين كفروا إما المنافقون لأنهم هم الذين قالوا المؤمنون عند هزيمتهم في أحد : ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم ... وإما أبو سفيان وأصحابه وحينئذ فالمراد بإطاعتهم الاستكانة لهم وطلب الأمان منهم ... وإما اليهود والنصارى لأنهم هم الذين (٢٥ - سورة آل عمران)

كانوا يلقون الشبه في الدين ويقولون : لو كان محمد نبيا حقا لما غلبه أعداؤه . . . . . وإما سائر الكفار ، (١) .

فآية الكريمة تنهى المؤمنين عن طاعة الكفار ، لأن الكفر والإيمان قبيضان لا يجتمعان .

وجاء التعبير « بأن » الشرطية دون « إذا » ، لأن إذا التحقق الشرط والجزاء ، أما إن فإنها لانفيده التحقيق بل تنفيده الشك ، وهذا هو المناسب لحال المؤمنين لأن إيمانهم يردم عن طاعة الذين كفروا ويمنعهم من الوقوع في ذلك . والنداء متوجه لابتداء للمؤمنين المجاهدين الذين حضروا غزوة أحد ، وسماوا باسمعوا من أراجيف أعدائهم وأكاذيبهم . إلا أنه يندرج تحت مضمونه كل مؤمن في كل زمان أو مكان ، لأن الكافرين في كل العصور لا يريدون بالمؤمنين إلا خبالا ، ولا يتمنون لهم إلا الشرور والمصائب .

ثم بين - سبحانه - النتيجة السيئة التي تترتب على طاعة المؤمنين للكافرين فقال : « يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » .

أى : إن تطيعوهم يرجعواكم إلى ما كنتم عليه قبل الإسلام من ضلال وكفران ، أو يردوكم إلى الحالة التي كنتم عليها قبل مشروعية الجهاد وهي حالة الضعف والهوان التي رفعها الله عنكم بأن أذن لكم في مقاتلة أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم بغير حق .

وقوله « فتنقلبوا خاسرين » أى فترجعوا خاسرين لخيري الدنيا والآخرة ، أما خسران الدنيا فبسبب انقيادكم لهم ، واستسلامكم لمطالبتهم . . . . . وأما خسران الآخرة فبسبب ترككم لوصايا دينكم ، ومخالفتكم لأوامر خالقكم ، وتوجيهات نبيكم - صلى الله عليه وسلم - وكنى بذلك خسارة شنيعة .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد نهت المؤمنين عن طاعة الكافرين ،

ثم بينت لهم تيجتين سيئتين تترتان على هذه الطاعة، وهما: الرجوع إلى الضلال بعد الهدى، والخسران في الدنيا والآخرة.

والتعبير بقوله «فتنقلبوا...» يفيد أن إطاعة الكافرين يؤدي بالمؤمنين إلى انقلاب حالهم، وانتكاس أمرهم، وجعل أعلام أسفلهم... وفي ذلك ما فيه من التنفير عن إطاعة الكافرين والاستماع إلى وساوسهم.

ثم أمرهم - سبحانه - بطاعته والاعتقاد عليه والاستعانة به وحده فقال: «بل الله مولاكم وهو خير الناصرين».

وحرف «بل»، هنا للإضراب الانتقالي، لأنه - سبحانه - بعد أن حذر المؤمنين من إطاعة الكافرين وما يقرتب عليها من مضار، إنتقل إلى توجيههم إلى ما فيه عدتهم وكرامتهم وسعادتهم.

والمولى هنا بمعنى النصير والمعين، وهذا اللفظ لا يدل على النصرة والموف فقط، وإنما يدل على كمال المحبة والمودة والقرب، والنصرة تجيء ملازمة لهذه المعاني، لأنه من كان الله محبا له، كان - سبحانه - ناصرا له لا محالة.

والمعنى: إنى أناكم - أيها المؤمنون - عن إطاعة الكافرين. لأنهم ليسوا أواباء لكم فتطيعوهم؛ بل الله - تعالى - هو وليكم ومعينكم وهو خير الناصرين، لأنه هو الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ فأخلصوا له العبادة والطاعة:

ثم بشرهم - سبحانه - بأنه سيلقى الرعب والفرع في قلوب أعدائهم فقال - تعالى - : «سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا».

والرعب: الخوف والفرع. يقال رعبه رعبه أي خوفه. وأصله من المله. يقال: سيل رعب، إذا ملأ الأودية. ورعبت الحوض: ملأته. والسلطان: الحجة والبرهان وسميت الحجة سلطانا لقوتها وتفوذها: وأصل المادة يدل على الشدة والقوة. ومنها السليط للشديد. واللسان الطويل.

والمعنى : ستملاً لقلوب المشركين خوفاً وفضعاً ، بسبب إشرافهم مع الله - تعالى - آلهة لم ينزل الله بها حجة والمراد : أنه لا حجة لهم حتى ينزلها . قال الألوسي : قوله « ما لم ينزل به » أى بإشراكه ، أو بعبادته ، و « دماء نكرة موصوفة أو موصولة اسميه وليست مصدرية . و « سلطاناً » أى حجة والإتيان بها للإشارة بأن المتبع في باب التوحيد هو اليرهان السماوى دون الآراء والأهواء الباطلة ... و ذكر عدم إنزال الحجة مع استحالة تحققها من باب انتفاء المقيد لانتفاء قيده اللازم . أى : لا حجة حتى ينزلها ، فهو على حد قوله فى وصف مفازة :

لا تفزع الأرب أهواها ولا ترى الضب بها ينجم

إذ المراد : لا ضب بها حتى ينجم . فالمراد تقيهما جميعاً ... (١) .

فآية الكريمة قد بشرت المؤمنين بأن الله - تعالى - سيقى الرعب والفرع فى قلوب أعدائهم حتى لا يتجاسروا عليهم .

ومن مظاهر الرعب التى ألقاها الله - تعالى - فى قلوب المشركين ، أنهم بعد أن انتصروا على المسلمين فى غروة أحد ، كان فى قدرتهم أن يوغلوا فى مهاجتهم وقتالهم ؛ إلا أن الرعب صدمهم عن ذلك ...

ولقد حاولوا وهم فى طريقهم إلى مكة أن يهودوا للقضاء على المسلمين ، إلا أن الخوف داخل قلوبهم ، وجعل أحد زعمائهم وهو صفوان بن أمية يقول لهم : « يا أهل مكة لا ترجعوا لقتال القوم ، فإنى أرى أنه سيكون للقوم قتال خير الذى كان . »

قال الفخر الرازى ما ملخصه : قوله « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ... » ، اختلفوا فى أن هذا الوعد هل هو مختص بيوم أحد ، أو هو عام فى جميع الأوقات ؟

قال كثير من المفسرين: لأنه يختص بهذا اليوم ، وذلك لأن جميع الآيات المتقدمة إنما وردت في هذه الواقعة .

ثم القائلون بهذا القول ذكروا في كيفية إلقاء الرعب في قلوب المشركين في هذا اليوم وجهين : الأول : أن الكفار لما استولوا على المسلمين وهزمهم أوقع الله الرعب في قلوبهم فتركوهم وفروا منهم من غير سبب . . . والثاني : أن الكفار لما ذهبوا إلى مكة ، فلما كانوا في بعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئا ، قتلنا إلا كثرين منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون . إرجعوا حتى نستأصلهم بالكلية . فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم .

والقول الثاني : أن هذا الوعد غير مختص بيوم أحد ، بل هو عام . كأنه قيل : لأنه وإن وقعت لكم هذه الواقعة في يوم أحد ، إلا أن الله - تعالى - سيلقى الرعب منكم بعد ذلك في قلوب الكافرين حتى يقهر الكفار ، ويظهر دينكم على سائر الأديان .

وقد فعل ذلك حتى صار دين الإسلام قاهرا لجميع الأديان والملل .

ونظير هذه الآية قوله - صلى الله عليه وسلم - « نهرت بالرعب مسيرة شهر ، » (١) .

ثم حتم - سبحانه - الآية ببيان سوء عاقبة هؤلاء الكافرين فقال : « وما أومئ النار وبئس مئوى الظالمين ، » .

والمأوى : اسم مكان من أوى يأوى . وهو المسكان الذي يرجع إليه الشخص ، ويعود إليه .

والمئوى : اسم مكان - أيضا - يقال : ثوى بالمسكان وفيه يشوى ثواء | وثويا وأثوى به . إذا أطال الإقامة به والتزول فيه .

والمعنى: أن هؤلاء الكافرين سيلقى الله - تعالى - الرعب والفرزع في قلوبهم حتى لا يتجاسروا على المؤمنين، هذا في الدنيا، أما في الآخرة، فالمكان الذى يأوون إليه ويستقرون فيه هو النار، لا ماوى لهم غيرها، وبئس هذه النار موضع إقامة دائم لهم.

وقد أظهر - سبحانه - الإسم في موضع الإضمار، فلم يقل: وبئس النار مثوام، بل قال: «وبئس مثوى الظالمين»، للإشارة إلى أن هذا المآل الأليم إنما هو جزاء عادل لهم بسبب ظلمهم، إذ هم الذين ظلموا أنفسهم فأضلوا وصدوها عن الحق، فكانت نهايتهم تلك النهاية المهينة، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

وفى جعل هذه النار مثوام بعد جعلها مأوام. إشارة إلى خلودهم فيها، فإن المشوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث، وأما المأوى فهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان.

وقدم المأوى على المعوى لأن هذا هو الترتيب الوجودى فى الخارج، لأن الإنسان يأوى إلى المكان ثم يشوى فيه.

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد تهت المؤمنين عن إطاعة الكافرين وبيئت لهم النتائج الوخيمة التى تقرب على إطاعتهم، ثم دعوتهم إلى الاعتصام بدين الله، وبشرتهم بسوء عاقبه أعدائهم فى الدنيا والآخرة.

ثم ذكر الله - تعالى - المؤمنين بما حدث لهم فى غزوة أحد، وكيف أنهم إنصروا على أعدائهم فى أول المعركة، ثم كيف أنهم أصيبوا بالهزيمة بعد ذلك بسبب فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم لرسولهم - صلى الله عليه وسلم - ثم صور - سبحانه - أحوالهم فى هذه المعركة تصويرا بليغا مؤثرا، وحكى أقوال ضعاف الإيمان ورد عليها بما يدحضها. إستمع إلى القرآن الكريم يحكى كل ذلك فىقول:

« ولقد صدقكم الله وعده ، إذ تحشونهم بإذنه ، حتى إذا فسدتم  
وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من  
يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ،  
ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين (١٥٢) إذ تصمدون  
ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم ، فأنا بكم غما  
ينم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير  
بما تعملون (١٥٣) ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاما يغشى طائفة  
منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية  
يقولون هل لنا من الأمر من شيء ؟ قل إن الأمر كله لله ، يخفون  
في أنفسهم ما لا يبذون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قبلنا  
هأنذا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى  
مضاجعهم ، ولتبتلي الله ما في صدوركم ، وليحصى ما في قلوبكم والله  
عليم بذات الصدور (١٥٤) إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان  
إنما استزلمهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم إن الله  
غفورٌ حلِيمٌ (١٥٥) » .

قال القرطبي : قال محمد بن كعب القرظي : لما رجع رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - إلى المدينة بعد أحد ، وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض : من أين  
أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ١١٩ فنزل قوله - تعالى - . ولقد صدقكم  
الله وعده إذ تحشونهم بإذنه . . . الآية . . .

وذلك أنهم قتلوا صاحب نواة المشركين وسبعة نفر منهم بعده على اللواة

وكان الظفر لإبتداء المسلمين ، غير أنهم إشتغلوا بالغنيمة وترك بعض الرماة أيضا مرا كزهم طلبا للغنيمة ، فكان ذلك سبب الهزيمة .

وقد روى البخارى عن البراء بن عازب قال : لما كان يوم أحد ولقينا المشركين ، أجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أناسا من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم : لا تبرحوا من مكانكم . لأن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموم قد ظهر وأعيننا فلا تعينونا ، قال : فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتردن في الجبل - أى يسرعن الفرار - يرفعن عن سوقهم ، قد بدت خلاخلهن . فجعلوا يهولون - أى الرماة - بالغنيمة الغنيمة . فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير . أمهلوا . أما عهد إليكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألا تبرحوا أما كنتم ؟ فأبوا - ولا نطلقوا الجمع الغنائم - فلما أتوهم صرف الله وجوههم ، وقتل من المسلمين سبعون رجلا . . . (١) .

ومصدق الوعد معناه : تحقيقه والوفاء به ، إذ الصدق : مطابقة الخبر للواقع . والمراد بهذا الوعد ، ما وعد الله به المؤمنين من النصر والظفر في مثل قوله - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، (٢) وفي مثل قوله - تعالى - : سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب . ما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، (٣) .

وفي مثل قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - للرماة قبل أن تبدأ المعركة : لا تبرحوا أما كنتم فلن نزال غالين ما نبتم مكانكم ، . ومعنى : نحسونهم ، تقتلونهم قتلا شديدا يفقدون معه جسمهم وحركتهم يقال : حسه حسا إذا قتله . وحقيقته : أصاب حاسته بأفة فأبطلها ، يقال : كبده وفأده أى : أصاب كبده وفؤاده ومنه جراد محسوس ، وهو الذي قتله البرد ، أو مسته النار فأهلكته .

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٣٣ . - بتصرف يسير .

(٢) سورة محمد الآية ٧ (٣) سورة آل عمران الآية ١٥١

والمعنى : ولقد حقق الله - تعالى - لكم - أيها المؤمنون - ما وعدكم به من النصر على أعدائكم ، إذا أيدكم في أول معركة أحد بهونه وتأيبه - فصرتم تقتلون المشركين قتلا ذريعا شديدا بإذنه وتيسيره ورعايته . وكان حليفكم في أول المعركة .

و صدق ، يتعدى لاثنتين أحدهما بنفسه والآخر بحرف الجر تقول : صدقت زيدا في الحديث . وقد يتعدى بنفسه إلى المفعولين كما هنا ، إذ المفعول الأول ضمير المخاطبين ، والثاني قوله ، وعده .

وقوله ، إذ نحسونهم ، معمول لصدقكم . أي صدقكم في هذا الوقت وهو وقت قتالهم وقوله ، بإذنه ، متعلق بحذف لأنه حال من فاعل ، نحسونهم ، أي تقتلونهم ما ذرنا لكم في ذلك .

فأجلمة الكريمة تذكر المؤمنين بما كان من نصر الله - تعالى - لهم عندما أقبلوا على معركة أحد بقلوب مخلصه ، ونفوس ثابتة ، وعزيمة صادقة . . . ثم بين - سبحانه - أن ما أصابهم من هزيمة بعد ذلك كان بسبب فشلهم وتنازعهم فقال - تعالى - : حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . . . .

والفشل : بمعنى الجبن والضعف . يقال : فشل بفشل فهو فشل وفشل .

والتنازع : التخاصم والتخالف .

والمعنى : ولقد صدقكم الله وعده في النصر - أيها المؤمنون - عندما كنتم تقاتلون أعدائكم بإيمان صادق ، وإخلاص لله - تعالى - حتى إذا ضعفت نفوسكم ، وعجزتم عن مقاومة أهوائكم ، وتنازعتم فيما بينكم أتتبع الغنائم نجمعها أم تبقى في أماكننا التي حذرها الرسول - صلى الله عليه وسلم - لنا ، ومال أكثركم إلى طلب الغنائم مخالفا أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - من بعد ما أراكم الله في أول المعركة من نصر - مؤزر تحبونه وترجونه ، ومن مغائم تتطلعون إليها بلهفة وشوق . . .

حتى إذا فعلتم ذلك منع الله - تعالى - عنكم نصره ، ونحول نصركم إلى هزيمة وفقدتم أنفسكم وما جمعتموه من غنائم .

وهكذا نرى أن ما أصاب المسلمين في أحد من هزيمة كان بسبب فشل بعضهم وتنازعهم وعصيانهم أمر رسولهم - صلى الله عليه وسلم - وصدق الله إذ يقول : « وإتقوا فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة ، (١) » .

ولقد رتب الله - تعالى - ما حدث من بعض المؤمنين في غزوة أحد ترتيباً دقيقاً ، يتفق مع ما حصل منهم ، وذلك لأنهم حدث منهم - أولاً - الفشل بمعنى العجز النفسى عن الثبات والصبر ، ثم ترتب على ذلك أن تنازعوا فيما بينهم ونتج عن هذا التنازع أن ترك معظمهم مكانه ونزل إلى ميدان المعركة لجمع الغنائم ، ثم ترتب على كل ذلك معصيتهم لأمر رسولهم وقائدهم - صلى الله عليه وسلم - .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله « حتى إذا فعلتم... » حتى ، هذه فيها قولان أحدهما أنها حرف جر بمعنى « إلى » ، وفي متعلقها حينئذ ثلاثة أوجه . أحدها : أنها متعلقة بقوله : « تحسونهم » ، أى تقتلونهم إلى هذا الوقت . والثانى أنها متعلقة بـ « بصدقكم » ، أى صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم . والثالث : أنها متعلقة بمحذوف دل عليه السياق تقديره : دام لكم ذلك إلى وقت فشلكم .

والقول الثانى أنها حرف لإبتداء داخلة على الجملة الشرطية « وإذا ، على بابها من كونها شرطية ، والصحيح أن جوابها محذوف أى حتى إذا فعلتم وتنازعتم منع الله عنكم نصره ، (٢) » .

وقال الفخر الرازى : فإن قيل ما الفائدة فى قوله « من بعد ما أراكم ما تحبون » ؟

(١) سورة الأنفال الآية ٢٥

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٣٢٤ .

فالجواب عنه : أن المقصود منه التنبيه على عظم المعصية ، لأنهم لما شاهدوا أن الله - تعالى - أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، فلما أقدموا عليها لاجرم سلبهم الله ذلك الإكرام وأذاقهم وبال أمرهم ، (١) وقوله « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » ، تفصيل للتنازع الذي كان بين الرماة ، وبين بعض أفراد المسلمين الذين اشتركوا في هذه الفزوة .

أى : منكم - أيها المسلمون - من يريد الدنيا ومغانمها حتى حمله ذلك على ترك مكانه المخصص له مخالفا نصيحة قائدة ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ولو أن هذا البعض منكم خالف هواه ، وحارب مطامعه ، وأطاع أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - لتم لكم النصر ، ولاتتكم الدنيا بغنائمها وهي صاغرة . . .

ومنكم من يريد بجهاده و٦٠ له ثواب الآخرة ، وهم الذين أطاعوا أمر رسولهم - صلى الله عليه وسلم - وثبتوا إلى جانبه يدافعون عنه وعن عقيدتهم وعن أنفسهم دفاع الأبطال الصامدين ، وهؤلاء هم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم .

قال ابن جرير : قال ابن عباس : لما هزم الله المشركين يوم أحد ، قال الرماة : أدركوا الناس لا يسبقوكم إلى الغنائم ، فتكون لهم دونكم . وقال بعضهم : لا نريم حتى يأذن لنا النبي - صلى الله عليه وسلم - فنزلت : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » .

وقال ابن مسعود : ما علينا أن أحدا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحد ، (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٩ ص ٢٧ .

(٢) ابن جرير ج ٤ ص ١٣٠ .

وقوله : ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، عطف على جواب « إذا ، المقدر ، وما بينهما لإعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه .

والتقدير : منع الله نصره عنكم بسبب فشلكم وتنازعكم ومهصبتكم لئيبليكم ؛ ثم ردكم عنهم دون أن تنالوا ما تبتغون « ليبتليكم ، أى ليعاملكم الله - تعالى - معاملة من يمتحن غيره ، ليميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وليبتين لكم الصابر المخلص من غيره .

وجاء العطف بـ ثم في قوله : ثم صرفكم ، للاشعار بالتفاوت الكبير بين المقصد الأصلي الذى خرجوا من أجله وهو النصر والخصول على الغنيمة ، وبين النتيجة التى أتتوا إليها وهى العودة مقهورين .

وكان التعبير بكلمة « صرفكم » دون كلمة « هزمتهم » ، لأن ما حدث فى أحد لم يكن هزيمة وإن لم يكن نصراً ؛ لأن الهزيمة تقتضى أن يولى المسلمون الأدبار وأن يتحكم فيهم أعداؤهم ، وما حدث فى أحد لم يكن كذلك ، وإنما كان زيادة فى عدد الشهداء من المسلمين عن عدد القتلى من المشركين ، لأن بعض المسلمين خالفوا وصية نبيهم - صلى الله عليه وسلم - وتطلعوا إلى زهرة الدنيا وزينتها بطريقة تتعارض مع ما يقتضيه الإيمان الصادق ، فكان من الله - تعالى - التأديب لهم . . . وفى هذا التعبير « ثم صرفكم عنهم . . . » تسليية لهم عما أصابهم ، وتخفيف لمصابهم ، فكانه - سبحانه - يقول لهم : إن ما حدث فى أحد إنما هو نوع من الصرف عن الغاية التى من أجلها خرجتم لحكم من أهمها : تمييز الخبيث من الطيب ، وتربيتكم على تحمل المصائب والآلام ، وتأديبكم بالأدب المناسب حتى لا تعودوا مرة أخرى إلى مخالفة رسولكم - صلى الله عليه وسلم . ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يسمح لآلامهم ، وبذهب الحسرة من قلوبهم - تعالى - « ولقد عفا عنكم واقه ذر فضل على المؤمنين ، .

أى : ولقد عفا - سبحانه - عما صدر منكم تفضلا منه وكرما ، واقه تعالى هو صاحب الفضل المطلق الدائم على المؤمنين .

ولقد أكد - سبحانه - هذا العفو باللام وبقدو بالتعبير بالماضى ، ليفتح أمامهم طريق الأمل ، وليحفزهم على التوبة الصادقة ، والإيمان العميق ، حتى لا يياسوا من رحمة الله .

والتذييل بقوله : « والله ذو فضل على المؤمنين » ، مؤكد لمضمون ما قبله . قال الألوسى : إيدان بأن ذلك العفو ، ولو كان بعد التوبة ، بطريق التفضل لا الوجوب أى : شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو . أو فى جميع الأحوال أدبل لهم أو أدبل عليهم ، إذ الابتلاء أيضا رحمة ، (١) .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ذكرت المؤمنين بأن الله - تعالى - قد حقق وعدهم فى أول المعركة ، بأن سلطهم على المشركين يقتلونهم بتأييده ورعايته قتلا ذريعا ، فندا صدر من بعض المؤمنين الفشل والتنازع والعصيان . منع الله عنهم عونهم ، وصرفهم عن الغاية التى كانوا يتمنونها ليمتيز الحديث من الطيب ، ومع ذلك فقد عفا الله عما صدر منهم من أخطاء ، لأنه هو صاحب الفضل الدائم على المؤمنين .

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بما كان من بعضهم بعد أن اضطربت أحوالهم ، وجاءهم أعداؤهم من أمامهم ومن خلفهم بسبب ترك معظم الرماة لأماكنهم ، فقال - تعالى - : « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم » .

وقوله : « تصعدون » من الإصعاد وهو الذهاب فى صعيد الأرض والإبعاد فيه .

يقال : أصعد فى الأرض إذا أبعدها فى الذهاب وأمن فيه ، فهو صعد . قال القرطبي : الإصعاد : السير فى مستو عن الأرض وبطون الأودية والشعاف .

والصعود : الإرتفاع على الجبال والدرج .

وقوله « تلون » من لوى بمعنى عطف ومال ، وكثيراً ما يستعمل بمعنى وقف وانتظر ، لأن من شأن المنتظر أن يلوى عنقه .

وقوله « إذ تصعدون » متعلق بقوله « صرفكم » ، أو بقوله « ايبئليكم » ، أو بمحذوف تقديره اذكروا .

أى اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن كنتم مصعدين تهولون بسرعة في بطن الوادى بعد أن أختلت صفوفكم ، واضطرب جمعكم . وصرتم لا يعرج بعضكم على بعض ، ولا يلتفت أحدكم إلى غيره من شدة الحرب ، والحال أن رسولكم - صلى الله عليه وسلم - « يدعوكم في أخراكم » ، أى ينادىكم فى آخركم أو فى جماعتكم الأخرى أو من خلفكم يقال : جاء فلان فى آخر الناس وأخراهم إذا جاء خلفهم ، كما يقال : جاء فى أولهم وأولاهم .

والمراد أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو المنهزمين إلى الثبات وإلى ترك الفرار من الأعداء ، وإلى معاودة الهجوم عليهم ، وهو ثابت لم يتزعزع ومعه نفر من أصحابه .

قال ابن جرير : لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فجزمهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها ، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو الناس : « إلى عباد الله ! » فذكر الله صعودهم إلى الجبل ، ثم ذكر دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - إياهم فقال : « إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم » (١) .

فى هذه الجملة الكريمة تصوير بديع معجز لحال المسلمين عندما اضطربت صفوفهم فى غزوة أحد ، فهى تصور حالهم وهم مصعدون فى الوادى بدون تمهل أو تثبت ، وتصور حالهم وقد أخذ منهم الدهش مأخذه بحيث أصبح بعضهم

لا يلتفت إلى غيره أو يسمع له نداء ، أو يجيب له طلبا ، وتصور حال النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد ثبت كالطود الأشم بدون اضطراب أو جل ومعه صفوة من أصحابه ، وقد أخذ ينادى الفارين بقوله : « إلى عباد الله ، إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكرهه الجنة ،

وقوله - تعالى - فأنا بكم غمما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم .

بيان للنتيجة التي ترتبت على هذا الإضطراب ، وهو معطوف على قوله « صرفكم ، أو على قوله « تصعدون ولا تلون ، ولا يضر كونهما مضارعين في اللفظ لأن إذ المضافة إليهما صيرتهما ماضيين في المعنى .

وأصل الإنابة إعطاء الثواب ، وهو شيء يكون جزاء على عطاء أو فعل ، ولفظ الثواب لا يستعمل في الأعم الأغلب إلا في الخير والمراد به هنا العقوبة التي نزلت بهم . وسميت العقوبة التي نزلت بهم نوابا على سبيل الاستعارة التهكمية كما في قوله « فبشرهم بهذاب اليم ،

ويجوز أن يكون اللفظ مستعملا في حقيقته ، لأن لفظ الثواب في أصل اللغة معناه ما يعود على الفاعل من جزاء فعله ، سواء أكان خيرا أو شرا .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « فأنا بكم غمما بغم ، الغم في اللغة التغطية . يقال : غممت الشيء . أي غطيته : ويوم غم وإيلة غمة إذا كانا مظليين .

قال مجاهد وقتادة وغيرهما والغم الأول القتل والجراح والغم الثاني الإرجاف بمقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - . وقيل : الغم الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة . والثاني : إستعلاء المستركين عليهم . وعند ذلك قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم لا يملن علينا ،

والباء في « بغم ، على هذا بمعنى على . وقيل هي على باهما . والمعنى أنهم

غموا النبي - صلى الله عليه وسلم - بمخالفتهم إياه فأنابهم بذلك غموم بمن أصيب منهم . . . . . (١) .

ويجوز أن يكون الكلام مجرد التكثير أي جازاكم بغموم وأحزان كثيرة متصل بعضها ببعض بأن منع عنكم نصره ، وحرمكم الفئيمة . وأصابتكم الجراح الكثيرة ، وأشيع بينكم أن نبيكم قد قتل . . . وكل ذلك بسبب أنكم خالفتم وصية نبيكم - صلى الله عليه وسلم - ، وتغلب حب الدنيا وشهواتها على قلوب بعضكم ، فلم تخلصوا لله الجهاد ، فأصابكم ما أصابكم .

وقوله « لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، تهليل لقوله « ولقد عفا عنكم ، أي : ولقد عفا الله - تعالى - عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من غنائم ونصر ، ولا على ما أصابكم من جراح وآلام ، فإن عفو الله - تعالى - يذهب كل حزن ، ويمسح كل ألم .

ويرى صاحب الكشاف أن معنى « لكي لا تحزنوا . . . » لتتروا على تجرع الغموم ، فلا تحزنوا فيها بعد على فوات من المنافع ، ولا على مصيب من المضار .

ثم قال : ويجوز أن يكون الضمير في « فأنابكم ، للرسول . أي : فأساكم في الاغتمام - أي فصار أسوتكم - لأنه كما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرهما فقد غمه ما نزل بكم ، فأنابكم غما أي اغتم لاجلتم بسبب غم اغتمتموه لاجله ، ولم يثر بكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره ، وإنما فعل ذلك إيسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدد . (٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله « والله خبير بما تعملون ، أي : والله

(١) تفسير القرطبي - بتصرف وتلخيص - ج ٤ ص ٤٤٠ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٢٨ .

- تعالى - عليم بأعمالكم ونياتكم علما كاملا ، خبير بما إنطوت عليه نفوسكم ، فهو - سبحانه - لا تخفى عليه خافية مهما صغرت ، فاتقوه وراقبوه وإتبعوا ما كلفكم به لتتألوا الفوز والسعادة .

ثم ذكرهم - سبحانه - ببعض مظاهر لطفه بهم ورحمته لهم . حيث أنزل على طائفة منهم النعاس الذي أدخل الطمأنينة على قلوبهم ، وأزال الخوف والفرع من نفوسهم فقال - تعالى - : ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاس يغشى طائفة منكم . . والجملة الكريمة معطوفة على قوله « فأتاكم » . والأمانة - بفتحتين - مصدر كالأمن . يقال : أمن وأمانا وأمنة .

والنعاس : هو الفتور في أوائل النوم ، ومن شأنه أن يزيل عن الإنسان بعض متاعبه ولا يغيب صحابه ، ولذلك كان أمنة لهم ، لأنه لو كان نوما ثقيلًا لها جمعهم المشركون .

أى : ثم أنزل عليكم - أيها المؤمنون - بعد أن أصابكم من الهم والغم ما أصابكم ، أمانة كان مظهره نعاساً أضمانت معه نفوسكم ، وإستراحت معه أبدانكم من غير فرع ولا قلق ، وكان هذا الأمان والأطمئنان لطائفة معينة منكم أخلصت جهادها لله ؛ وخافت مقام ربها ونهت نفسها عن الهوى .

قال ابن كثير : يقول - تعالى - : «متنا على المؤمنين فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة وهو النعاس الذي غشيهم وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم ، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان ، كما قال في سورة الأنفال : « إذ ينشيكم النعاس أمنة منه » . فعن ابن مسعود قال : النعاس في القتال من الله ، وفي الصلاة من الشيطان ، :

وروى البخارى عن أبى طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيني من يدي مرارا ، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه ، (١) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٠٣

وقوله : نعاسا ، بدل من ، أمانة ، أو عطف بيان .

قال الفخر الرازي : وأهل أن ذلك النعاس فيه فوائد : أحدها : أن وقع على كافة المؤمنين لا على الخد المعتاد ، فكان ذلك معجزة للنبي - صلى الله عليه وسلم - . ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ومتى صاروا كذلك ازداد جدم في محاربة العدو ، ووثوقهم بأن الله منجز وعده .

وثانيها : أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال والنوم يقيد عود القوة والنشاط وإشتداد القوة والقدرة .

وثالثها : أن التكفار لما إشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله النوم على عين من بقي منهم لئلا يشاهدوا قتل أعزتهم فيشتد خوفهم .

ورابعها : أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم ، فبقاؤهم في النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أول الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم ، وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ، ويورثهم مزيد الوثوق بوعده الله (١)

هذا جانب مما أمتن الله به على المؤمنين من فضل ورعاية ، حيث أنزل عليهم النعاس في أعقاب ما أصابهم من هموم ليكون راحة لأبدانهم وأمانة لنفوسهم .

أما غير المؤمنين الصادقين فلم ينزل عليهم هذا النعاس ، بل بقوا في قلقهم وحيرتهم . وقد عبر الله - تعالى - عنهم بقوله : « وضاغفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » .

وقوله « أهمتهم أنفسهم » حملتهم على الهم ، والهم ما يهتم له الإنسان أو ما يحزنه ، يقال أهمنى الأمر أى أقلقنى وأزعجنى ، كما يقال : أهمنى الشيء أى جعلنى مهتما به إهتماما شديدا .

والمعنى : أن الله - تعالى - أنزل النعاس أمانا واطمئنانا للمؤمنين الصادقين

بعد أن أصابهم الغموم ، وهناك طائفة أخرى من الذين إشتقوا في غزوة أحد لم تكن صادقة في إيمانها ، لأنها كانت لايهمها شأن الإسلام إلتصر أو لإنهم ، ولأشأن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه؛ وإنما الذي كان يهمها هو شيء واحد وهو أمر نفسها وما يتعلق بذلك من الحصول على الغنائم ومتع الدنيا .

أو المعنى : أن هذه الطائفة قد أوقعت نفسها في الهم والحزن بسبب عدم إطمئنانها وعدم صبرها ، وجزعها المستمر .

وإلى هذين المعنيين أشار صاحب الكشاف بقوله : « قد أهمتهم أنفسهم ، أى ما بهم إلا هم أنفسهم ، لاهم الدين ولا هم الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين . وقد أوقعتهم أنفسهم وما حل بهم في الهموم والأشجان ، فهم في التشاكي والتباث ، (١) . »

والجملة الكريمة مستأنفة مسوقة لبيان حال ضعاف الإيمان ، بعد أن بين سبحانه - ما امتن به على أقوياء الإيمان -

وقوله ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، وصف آخر لسوء أخلاق هذه الطائفة التي ضعف إيمانها ، وصارت لايهمها إلا ما يتعلق بمنافعها الخاصة

أى أن هذه الطائفة لم تكثف بما إستولى عليها من طمع وجمع وحب لنفسها ، بل تجاوزت ذلك إلى سوء الظن بالله ، بأن توهمت بأن الله - تعالى - لن ينصر رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وأن الإسلام ليس ديننا حقا ، وأن المسلمين لن ينتصروا على المشركين بعد معركة أحد . . . إلى غير ذلك من الظنون الباطلة التي تتولد عند المرء الذى ضعف إيمانه ، وصار لايهمه إلا أمر نفسه .

وقوله « يظنون باقته . . . حال من الضمير المنصوب في « أهمتهم » أو لاستئناف على وجه البَيَّار لما قبله .

وقوله « غير الحق » مفعول مطلق وصف لمصدر محذوف ، أى يظنون باقته ظنا غير الحق الذى يجب أن يتحلى به المؤمنون ؛ إذ من شأن المؤمنين الصادقين أن يستسلموا لقدرة الله بعد أن يباشر الأسباب التى شرعها لهم ، وأن يصبروا على ما أصابهم وأن يوقفوا بأن ما أصابهم هو بتقدير الله وبحكمته وبارادته . وكل شيء عنده بمقدار .

وقوله « ظن الجاهلية » بدل أو عطف بيان مما قبله .

أى يظنون باقته شيئا هو من شأن أهل الجاهلية ، الذين يتوهمون أن الله لا ينصر رسله ، ولا يؤيد أوليائه ولا يهزم أعداءه .

ثم بين - سبحانه - ما صدر عنهم من كلام باطل بسبب ظنونهم السيئة فقال - تعالى - : « يقولون هل لنا من الأمر شيء . . . والاستفهام للانكار بمعنى النفي » وهم يريدون بهذا القول تبرئة نفوسهم من أن يكونوا سببا فيما أصاب المسلمين من آلام يوم أحد ، وأن الذين تسبوا في ذلك هم غيرهم :

أى : يقول بعضهم لبعض ليس لنا من الأمر شيء . فلما استأثروا من الهزيمة التى حدثت للمسلمين فى أحد ، لأننا لم يكن لنا رأى بطاع ولأن الله - تعالى - لو أراد نصر محمد - صلى الله عليه وسلم - لنصره . . .

وهذا القول قاله عبيد الله بن أبى سؤل حين أخبروه بمن استشهد من قبيلة الخزرج فى غزوة أحد .

وذلك أن عبد الله بن أبى لما استشاره النبى - صلى الله عليه وسلم - فى شأن الخروج لقتال المشركين فى أحد ، أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة إلا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - خرج اقتتال المشركين بناء على إلحاح بعض الصحابة .

فلما أخير ابن أبي بن قتيل من الخُزرج قال : هل لنا من الأمر شيء ؟  
يعنى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يقبل قوله حين أشار عليه بمسدم  
الخروج من المدينة .

وقد أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد على هؤلاء  
الظالمين بأقبح ظن السوء بقوله : « قل إن الأمر كله لله » .

أى قل لهم إن تقدير الأمور كلها لله - تعالى - وحده ، وإن العاقبة  
ستكون للمتقين ، إلا إنه - سبحانه - قد جعل لكل شيء - سبباً فمن أخلص  
قته فى جهاده وبأشرف الأسباب التى شرعها للنصر نصره الله - تعالى - ، ومن  
تطلع إلى الدنيا وزينتها وخالف أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أدبه الله  
- تعالى - بحجب نصره عنه حتى يفتى إلى رشده ، ويتوب توبة صادقة  
إلى ربه ، ويتخذ الوسائل التى شرعها الله - تعالى - للوصول إلى الفوز  
والظفر .

فالجملته الكريمة ، معترضة للرد عليهم فيما تقولوه من أباطيل .

ثم كشف - سبحانه - عما تخفيه نفوسهم من أمور سيئة فقال يخفون  
فى أنفسهم ما لا يريدون لك . يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قبلنا ههنا .  
أى : أن هؤلاء الذين أهمتهم أنفسهم ، والذين يظنون بالله غير الحق  
يخفون فى أنفسهم من الأقوال القبيحة . والظنون السيئة ، أو يقولون فيما بينهم  
بطريق الخفية ، ما لا يستطيعون إظهاره أمامك .

وهذه الجملة حال من الضمير فى قوله « يقولون هل لنا . » السابقة .

وقوله « يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قبلنا ههنا » بيان لبعض  
ما يخفون أو لما يقولونه فيما بينهم .

أى يقولون لو كان لنا من الأمر الماطاع أو المسموع شيء ما خرجنا من  
المدينة إلى هذا المكان الذى قتل فيه أقاربنا وعشائرننا .

فأنت ترى أن القرآن يحكى عنهم أنهم يريدون تهوية أنفسهم بما نزل بالمسلمين بأحد، وأنهم لو كان لهم رأى مطاع لبقوا في المدينة ولم يخرجوا منها لقتال المشركين، وأن التبعة في كل ما جرى في غزوة أحد يهملها النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الذين ألحوا عليه في الخروج لقتال المشركين خارج المدينة، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه لو كانوا على الحق لانتصروا...

قال ابن جرير: وذكر أن عن قال هذا القول - لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا - معتب بن قشير من بني عمرو بن عوف. فمن عبد الله بن الزبير عن الزبير قال، والله لئن لآسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني، ما أسمعه إلا كالحلم حين قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا، (١).

وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما يدفع أقوالهم الباطلة فقال: قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، .

وقوله «برز» من البروز وهو الخروج من المسكان الذي يستتر فيه الإنسان و«المضاجع» جمع مضجع وهو مكان النوم. والمراد به هنا المسكان الذي استشهد فيه من استشهد من المسلمين.

والمعنى: قل يا محمد هؤلاء الذين يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا أقربنا في هذا المسكان من جبل أحد. قل لهم لو كنتم في بيوتكم ومنازلكم بالمدينة ولم تخرجوا للقتال بجملتكم، لخرج لسبب من الأسباب الداعية إلى الخروج، الذين كتب عليهم القتل في اللوح المحفوظ إلى مضاجعهم أي أما كن قتلهم التي قدر الله لهم أن يقتلوا فيها، لأنه ما من نفس تموت إلا بإذن الله وبيارادته، ولن يستطيع أحد أن ينجو من قدر الله المحتوم، وقضائه النافذ، فإن الحذر لا يدفع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير.

وفي هذا الرد مبالغة في إبطال ما قاله هؤلاء الذين يظنون باقته الظنون السيئة حيث لم يقتصر - سبحانه - على تحقيق القتل نفسه متى قدره ، بل عين مكانه - أيضا - .

ثم بين - سبحانه - بعض الحكم من وراء ما حدث للمسلمين في أحد فقال : **د وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليحصن ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور .**

والابتلاء : الاختبار ، وهو هنا كناية عن أثره ، وهو إظهاره للناس ليعتبر قوى الإيمان من ضعفه .

والتحصين : تخلص الشيء مما يخاطبه مما فيه عيب له .

والجملة معطوفة على كلام سابق يفهم من السياق . والتقدير . نزل بكم ما نزل من الشدائد في أحد لتتعودوا تحمل الشدائد والمحن ، وليعلمكم - سبحانه - معاملة المختبر لنفوسكم ، فيظهر ما تنطوى عليه من خير أو شر ، حتى يتبين الخبيث من الطيب ، وليخلص ما في قلوبكم ويزيل ما عساه يعلق بها من أدران ، ويظهر ما يخاطبها من ظنون سيئة - فإن القلوب يخاطبها بحكم العادة وتزيين الشيطان ؛ واستيلاء الغفلة ، وحب الشهوات . ما يضاد ما أودع الله فيها من إيمان وإسلام وبر وتقوى .

فلتركت في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخاطبة . ولم تحصن من الآثام . فاقضت حكمة الله - تعالى - أن ينزل بها من المحن والبلاء ما يكون بالنسبة لها كالدواء الكريه لمن عرض له دواء .

وقوله  **والله عليم بذات الصدور ، أى عليم بأسرارها وضمائرها الخفية التي لا تفارقها ، فهو القائل إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، (١) . وهو القائل وإن تجهر بانقول فإنه يعلم السر وأخفى ، (٢) .**

(١) سورة آل عمران الآية ٥

(٢) سورة طه الآية ٧

ثم أخبر - سبحانه - عن الذين لم يثبتوا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم أحد ، وبين السبب في ذلك ، وفتح لهم باب عفوهم فقال : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم . »

قوله « تولوا » من التولى ويستعمل هذا اللفظ بمعنى الإقبال وبمعنى الإِدْبَار فإن كان متعديا بنفسه كان بمعنى الإقبال كما في قوله - تعالى - « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا ، وإذا كان متعديا بمن أو غير متعدي أصلا كان بمعنى الإعراض كما في الآية التي معنا . »

والتولى الذي وقع فيه من ذكرهم الله - تعالى - في الآية التي معنا يتناول الرماة الذين تركوا أماكنهم التي أمرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالبقاء فيها لحماية ظهور المسلمين . كما يتناول الذين لم يثبتوا بجانب النبي - صلى الله عليه وسلم - بل فروا إلى الجبل أو إلى غيره عندما اضطربت الصفوف . . . .

ولقد حكى لنا التاريخ أن هناك جماعة من المسلمين ثبتت إلى جانب النبي - صلى الله عليه وسلم - بدون وهن أو ضعف ، وقد أصيب من كان حوله أكثر من ثلاثين ، وكلهم كان يفتدى النبي - صلى الله عليه وسلم - بنفسه ويقول : وجهي لوجهك الفداء ، ونفسي لنفسك الفداء ، وعليك السلام غير مودع (١) .

ومعنى « استزلهم الشيطان » طلب لهم الزلل والخطيئة ، أو حملهم عليها بوسوسته لهم : « أن يخالفوا أمر رسول - صلى الله عليه وسلم - لهم بالشبات في مواقفهم التي عينها لهم . فكانت مخالفتهم لرسولهم وقادتهم طاعة للشيطان . فخرمهم الله تأييده وتقوية قلوبهم . »

قال الراغب : « استزله إذا تحرى رذته » ، وقوله - تعالى - « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، أي استجرهم الشيطان حتى زلوا : فإن

الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه ، والزلة في الأصل : استرسال الرجل من غير قصد ، (١) .

والمراد بالزلة هنا ما حدث منهم من مخالفة للرسول - صلى الله عليه وسلم - ترتب عليها هزيمتهم .

والمعنى : إن الذين تولوا منكم - يا معشر المؤمنين - عن القتال أو تركوا أما كنهم فلم يثبتوا فيها طلباً للغنيمة يوم التقيتم بالمشركين في معركة أجد ، وإنما استزلهم الشيطان ، أي طلب منهم الزلل والمعصية ، ودعاهم إليها بمكر منه وكان ذلك ببعض ما كسبوا ، أي بسبب بعض ما اكتسبوه من ذنوب ، لأن نفوسهم لم تتجه ، بكلماتها إلى الله ، فترتب على ذلك أن منعوا النصر والتأييد وقوة القلب والقبات .

قال ابن القيم : وكانت أعمالهم جنحاً عليهم ازداد بها عدوهم قوة . فإن الأعمال جنح للعبد ، وجند عليه . ولا بد للعبد في كل وقت من سرية من نفسه تهزمه أو تنصره . فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاوم بها ، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه .

فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير والشر ، والعبد لا يشعر ، أو يشعر ويتعاضى .

ففرار الإنسان من عدوه وهو يطيقه إنما هو يجند من عمله ، بعينه له الشيطان واستزله به ، (٢) .

ثم أخير - سبحانه - أنه قد عفا عن هؤلاء الزالين ؛ حتى تكون أمامهم الفرصة لتطهير نفوسهم . وبهئتها على التوبة الصادقة ، والإخلاص لله رب العالمين ، فقال - تعالى - ، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم ، .

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢١٤ :

(٢) تفسير القاسمي : تفسير سورة آل عمران ص ١٠١٣ .

أبى - ولقد عفا - سبحانه - عنهم اصدق توبتهم وندمهم على ما فرط منهم ، لأن فرارهم لم يكن عن نفاق ، بل كان عارضا عرض لهم عندما اضطربت الصفوف ، واختلطت الأصوات : ثم عادوا إلى صفوف الثابتين من المؤمنين ليكفوا معهم في قتال أعدائهم .

وقد أكد الله - تعالى - هذا العفو بلام التأكيد ، وبقد المفيدة للتحقيق ، وبوصفه - سبحانه - لذاته بالمغفرة ، فإن هذا الوصف يؤكد أن العفو شأن من شيوته ، وبوصفه - سبحانه - لذاته بالحلم ، فإن هذا الوصف يفيد أنه لا يعاجل عباده بالعقاب ، بل إن ما أصابهم من مصائب فهو بسبب ما اقترفوه من ذنوب وبهم - سبحانه - عن كثير .

وصدق الله إذ يقول : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، » (١) .

وقد أكد - سبحانه - شأن هذا العفو ، لتذهب عن نفوس هؤلاء الذين استزلمهم الشيطان حيرتها ، ولتنخلع عن الماضي ، ولتستقبل الحاضر والمستقبل بقلوب عامرة بالإيمان ، وبنفوس متغلبة على أهوائها مطيعة لتعاليم دينها .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت المؤمنين بعض الأسباب الظاهرة والخفية لما أصابهم في أحد ، وفتحت لهم باب التوبة لتطهير أنفسهم ، وأخبرتهم بعفو الله عنهم ، وفي ذلك ما فيه عن عظات وعبر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وبعد هذا الحديث الحكيم عن أحداث معركة أحد ، وعمائم المسلمين في أولها من نصر ، ثم عما جرى لهم بعد ذلك من اضطراب وتفرق بسبب مخالفة بعضهم لوصايا نبيهم - صلى الله عليه وسلم - ....

بعد كل ذلك وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهام فيه عن التشبه بالكافرين ،

وعن الاستماع إلى أباطيلهم ، وحضهم فيه على مواصلة الجهاد في سبيل الله ، حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وأخبرهم بأن الآجال بيد الله ، وأن موتهم من أجل الدفاع عن الحق أشرف لهم من الحياة الدنيلة ...

استمع إلى القرآن وهو يصور هذه المعاني بأسلوبه البليغ فيقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ، لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَمَّا قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ أَوْ مُتُّمْ لِمَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَمَّا مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَلِيَّ اللَّهُ تُحْشَرُونَ (١٥٨) » .

فقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ ... الخ » كلام مستأنف قصد به تحذير المؤمنين من التشبه بالكافرين ومن الاستماع إلى أقوالهم الذميمة .

والمراد بالذين كفروا : المنافقون كعبد الله بن أبي بن سلول وأشابهه من المنافقين الذين سبق للقرآن أن حكى عنهم أنهم قالوا : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا ... » .

ولأنما ذكرهم بصفة الكفر للتصريح بمباينة حالهم لحال المؤمنين ، وللتفجير عن مآثلهم ومسائرهم . وقيل المراد بهم جميع الكفار .

والمراد بإخوانهم : إخوانهم في الكفر والنفاق والمذهب أو في النسب وقوله « إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ، أَوْ سَافَرُوا فِيهَا لِلتَّجَارَةِ أَوْ غَيْرِهَا فَاتُوا » . وأصل الضرب : إيقاع شيء على شيء ، ثم استعمل في السير ؛ لما فيه من ضرب الأرض بالأرجل ، ثم صار حقيقة فيه .

وقوله : « غُزًى » جمع غاز كرا كع وركع ، وصائم وصوم ، ونائم ونوم

والمعنى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا  
بفزع وجزع من أجل إخوانهم الذين فقدوهم بسبب سفرهم للتجارة ، أو  
بسبب غزومهم في سبيل الله ...

قلوا على سبيل التفجع : لو كان هؤلاء الذين ماتوا في السفر أو الغزو  
مقيمين معنا ، وملازمين بيوتهم ، ولم يضربوا في الأرض ولم يفزوا فيها  
لبقوا أحياء ، ولما ماتوا أو قتلوا .

وقولهم هذا يدل على جبنهم وعجزهم ، كما يدل على ضعف عقولهم ، وعدم  
إيمانهم بقضاء الله وقدره ، إذ لو كانوا مؤمنين بقضاء الله وقدره لعلموا أن  
كل شيء عنده بمقدار ، وأن العاقل هو الذي يعمل ما يجب عليه بجد وإخلاص  
ثم يترك بهد ذلك النتائج لله يسيرها كيف يشاء .

وقولهم هذا بجانب ذلك يدل على سوء نيتهم ، وخبث طويبتهم ؛ لأنهم  
قصدوا به تضييق عزائم المجاهدين عن الجهاد ، وعن السعي في الأرض من  
أجل طلب الرزق الذي أحله الله .

والنهي في قوله - تعالى - « لا تكونوا كالذين كفروا ... » ، يشعر بالتفاوت  
الشديد بين المقامين : مقام الإيمان ومقام الكفران ، وأنه لا يليق بالمؤمن  
أن ينحدر إلى المنحدر الدون وهو التشبه بالكافرين ، بعد أن رفعه الله بالإيمان  
إلى أعلى عليين ، وفي هذا تقبيح للنهي عنه بأبلغ وجه . وبأدق تصوير .

واللام في قوله « لإخوانهم » ، يرى صاحب الكشاف أنها للتعليل فقد قال :  
قوله : « وقالوا لإخوانهم ، أى لأجل إخوانهم ، كقوله - تعالى -  
« وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ، (١) » .

وبجوز أن تكون اللام للدلالة على موضع الخطاب ، ويكون المعنى :  
لا تكونوا أيها المؤمنون كمؤلاة الذين كفروا وقالوا لإخوانهم الأحياء :

لو كان أولئك الذين فقدناهم ملازمين لبيوتهم ولم يضربوا في الأرض ولم يجاهدوا،  
لما أصابهم ما أصابهم من الموت أو القتل .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : فإن قيل إن قوله « قالوا لإخوانهم » يدل  
على الماضي ، وقوله « إذا ضربوا في الأرض » يدل على المستقبل فكيف  
الجمع بينهما ؟

فالجواب من وجوه : أولها أن قوله « قالوا » تقديره : يقولون ، فكأنه  
قيل : لا تكونوا كالذين كفروا ويقولون لإخوانهم كذا وكذا ...

ولما عبر عن المستقبل بلفظ الماضي للتأكيد والإشعار بأن جرمهم في تقرير  
الشبهة قد بلغ الغاية . وصار بسبب ذلك الجدل لأمر المستقبل كالكاثرين الواقع .

وثانيها : أن الكلام خرج على سبيل حكاية الحال الماضية . والمعنى  
أن إخوانهم إذا ضربوا في الأرض ، فالكافرون يقولون لو كانوا عندنا  
ما ماتوا وما قتلوا ، فن أخبر عنهم بعد ذلك فلا بد أن يقول : قالوا ...

وثالثها : قال « قطرب » كلمة « إذ » و « إذا » تجوز إقامة كل واحدة منهما  
مقام الأخرى وهو حسن ، لأنها إذا جازنا لإثبات اللغة بشعر مجهول ، فلأن  
يجوز إثباتها بالقرآن العظيم أولى ... (١) .

وقوله « أو كانوا غزى » معطوف على « ضربوا في الأرض » من عطف  
الخاص بعد العام ، لإعتناء به لأن الغزو هو المقصود في هذا المقام وما قبله  
توطئة له .

قالوا : على أنه قد يوجد الغزو بدون الضرب في الأرض ، بناء على أن المراد  
بالضرب في الأرض السفر البعيد ، فيكون على هذا بين الضرب في الأرض  
وبين الغزو عموم من وجه .

ولأننا لم يقل أو غزوا ، للإيدان باستمرار إتصافهم بعنوان كونهم غزاة ،  
أولا تقضاء ذلك ، أى كانوا غزاة فيما مضى .

وقوله ، لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، في محل نصب ، قول القول .  
ثم بين - سبحانه - ما ترتب على أقوالهم من عواقب سيئة فقال :  
« ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » .

والحسرة - كما يقول الراغب - هي غم الإنسان على ما فاته ، والندم عليه ، كأنه انحسر عنه الجمل الذي حمله على ما ارتكبه ، أو انحسرت قواه - أي انسلخت - من فرط الغم ، وأدركه إعياء عن تدارك ما فرط ... (١)  
فالحسرة هي الهم المضمنى الذى يلقى على النفس الحزن المستمر والألم الشديد .  
واللام في قوله « ليجعل ... » هي التي تسمى بلام العاقبة ، وهي متعلقة بقالوا  
أى قالوا ما قالوه لغرض من أغراضهم التي يتوهمون من ورائها منفعتهم ومضرة  
المؤمنين ، فكان عاقبة قولهم ومصيره إلى الحسرة والندامة . لأن المؤمنين  
الصادقين لن يلتفتوا إلى هذا القول ، بل سيمضون في طريق الجهاد الذي كتبه  
الله عليهم وسيكون النصر الذي وعدم الله إياهم حليفهم ، وبذلك يزداد الكافرون  
المنافقون حسرة على حسرتهم .

ويجوز أن تكون اللام للتعليل ويكون المعنى : أن الله - تعالى - طبع  
الكفار على هذه الأخلاق السيئة بسبب كفرهم وضلالهم ، لاجل أن يجعل الحسرة  
في قلوبهم ، والغم في نفوسهم ، والضللال بهذه الأقوال والأفعال في عقولهم .  
قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما متعلق ليجمع ؟ قلت : قالوا . أى قالوا  
ذلك واعتقدوه ليكون « حسرة في قلوبهم » . على أن اللام مثلها في « ليكون لهم  
عدوا وحزنا » . أو لا تكونوا بمعنى : لا تكونوا مثلهم في النطاق بذلك القول  
واعتقاده ، ليجمعه الله حسرة في قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم . فإن قلت :  
ما معنى إسناد الفعل إلى الله ؟ قلت : معناه أن الله - تعالى - عند اعتقادهم  
ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة في قلوبهم ، ويضيق صدورهم عقوبة  
لهم . . كما قال - تعالى - « ومن يرد أن يضلله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما  
يصعد في السماء » .

ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى ما دل عليه النبي ، أي لانكسروا مثلهم  
ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم ، لأن مخالفتهم فيما يقولون  
وبتقدون ومضادتهم عما يفهمهم ويفيظهم ، (١) .

والجعل هنا بمعنى التصيير . وقوله « حسرة » مفعول ثان له ، وقوله « في  
قلوبهم » متعلق بيجعل .

وذكر القلوب مع أن الحسرة لانكسرون لإلافيها ، لإرادة التمكن والإيدان  
بعدم الزوال .

وقوله « والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير » رد على قولهم الباطل  
أثر بيان سوء عاقبته ، وحض للمؤمنين على الجهاد في سبيل الله وترغيب لهم  
في العمل الصالح . أي أن الأرواح كلها بيد الله يقبضها متى شاء ، ويرسلها متى  
شاء . فالقعود في البيوت لا يطيل الأجال ، كما أن الخروج للجهاد في سبيل الله  
أو للسعي في طلب الرزق لا ينقصها ، ومادام الأمر كذلك فعلى العاقل أن يسارع  
إلى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، وأن يسعى في الأرض ذات الطول  
والعرض لياً كل من رزق الله ، وأن يباشر الأسباب التي شرعها الله بدون عجز  
أو كسل وإي علم أن الله مطلع على أعمال الناس وأقوالهم ، وسيجازيهم عليها  
يوم القيامة بما يستحقون من خير أو شر .

ثم رد الله - تعالى - على أولئك الكافرين برد آخر . فيه تهيئة  
للمؤمنين ، وترغيب لهم في الجهاد فقال : « ولئن قتلتم أيها المؤمنون وأنتم  
تجاهدون » في سبيل الله أو منكم ، على فراشكم بدون قتل بعد أن أدبتم رسالتكم  
في الحياة على أكمل وجه وأطعمتم ربكم فيها أمركم به أو نهاكم عنه لنلتنم « مغفرة  
من الله » - تعالى - لذنوبكم ، ولعظمتكم برحمته الواسعة التي تسعدكم .

وقوله « خير مما يجمعون » أي خير مما يجمعه الكفرة من متع الدنيا  
وشهواتها الزائلة ، بخلاف مغفرة الله ورحمته فإنهما باقيتان ولا كدر معهما

ولا تعب ولا قلق ، واللام في قوله ، ولئن قتلتم ، موطنه للقسم . أى : والله  
لئن قتلتم في سبيل الله أو متهم  
وقوله ، المغفرة من الله ورحمة ، جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف  
الدلالة جواب القسم عليه ووفائه بعنايه .  
ثم بين - سبحانه - أن مصير العباد جميعاً إليه وحده فقال . ولئن  
متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون .

أى ولئن متم - أيها المؤمنون - وأنتم في بيوتكم أو في أى مكان ،  
أو قتلتم بأيدي أعدائكم وأنتم تجاهدون في سبيل الله ، فعلى أى وجه من  
الوجه كان انقضاء حياتكم ، فإنكم إلى الله وحده جميعاً تعودون وتحشرون  
فيجازيكم على أعمالكم .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أبلغ الوان الترهيب  
في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنها قد بينت أن الحياة والموت بيد الله  
وحده ، وأنه سبحانه قد يكتب الحياة للمسافر والغازي مع إقتحامهما لموارد  
الحتوف ، وقد يميم المقيم والقاعد في بيته مع حيازته لأسباب السلامة .  
وأن الذين يموتون على الإيمان الحق ، أو يقتلون وهم يجاهدون في سبيل  
الله ، فإن لهم من مغفرة الله ورحمته ما هو خير مما يجتمع الكافرون من  
حطام الدنيا .

وأن جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم سيعودون إلى الله ليجازيهم على أعمالهم  
يوم الدين .

قال الفخر الرازي : واعلم أن في قوله ، لإلى الله تحشرون ، دقائق أحدها :  
أنه لم يقل : تحشرون إلى الله ، بل قال : لإلى الله تحشرون ، وهذا يفيد الحصر ،  
وهذا يدل على أنه لاحكام في ذلك اليوم ولا قانع ولا ضار إلا هو .  
وثانيها : أنه ذكر من أسماء الله هذا الاسم ، وهذا الاسم أعظم الاسماء ،  
وهو دال على كمال الرحمة ، وكمال القهر ، فهو دلالة على كمال الرحمة أعظم أنواع  
الوعد ؛ ولدلالة على كمال القهر أشد أنواع الوعيد .

وثالثها : أن قوله « تحشرون » ، فعل لم يسم فاعله ، مع أن فاعل ذلك نصر هو الله . وإنما لم يقع التصريح به ، لأنه - تعالى - هو العظيم الكبير نبي شهدت العقول بأنه هو الله الذي يبدى ويعيد ، ومنه الإنشاء والإعادة ، فكأن التصريح في مثل هذا الموضوع أدل على العظمة .

ورابعها أن قوله « تحشرون » ، خطاب مع الكل فهو يدل على أن جميع ماملين ، يحشرون إلى الله فيجتمع المظلوم مع الظالم ، والمقتول مع القاتل ، الله - تعالى - هو الذي يتولى الحكم بينهم . . . . . (١١) .

وقبل أن تتمم السورة حديثها مع الذين آمنوا عن أحداث غزوة أحد . يادار فيها من نصر وهزيمة ، وعن الأسباب الظاهرة والخفية لذلك . . . أخذت في بيان حال النبي - صلى الله عليه وسلم - وما كان عليه من قيادة حكيمة ، وأخلاق كريمة ، وأنه - عليه الصلاة والسلام - لم يقابل مخالفة المخالفين له والفارين عنه بالانتقام منهم ، وإنما قال لهم ، وإنما قابل ذلك بالحلم واللين والسياسة الرشيدة ، فقال - تعالى - :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفُضِّضُوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَابَ لَكُمْ وَإِنْ يَخَذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلُ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ يُظَاهَرُونَ (١٦١) أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانِ اللَّهِ كُنْ بَاءً بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئسَ المصير (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِصِيرَتِهِمَا يَعْلَمُونَ (١٦٣) »

لقد مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤) .

فلخطاب في قوله - تعالى - ، فيها رحمة من الله انت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ... الخ ، للنبي - صلى الله عليه وسلم - .  
والفاء لترتيب مضمون الكلام على ما ينوء عنه السياق من إستحقاق الفارين والمخالفين للامامة والتعنيف منه - صلى الله عليه وسلم - بمقتضى الجملة البشرية .

والباء هنا للسببية . ودعا ، مزيدة للتأكيد ولتقوية معنى الرحمة والنبوة ، من لان يلين لينا وليانا بمعنى الرفق والسهولة وسعة الخلق ، والفظ ، الغليظ الجاني في المعاشرة قولاً وفعلًا .

وأصل اللفظ - كما يقول الراغب - : ماء الكرش ، وهو مكروه شربه بمقتضى الطبع ولا يشرب إلا في أشد حالات الضرورة .

وغلظ القلب عبارة عن قسوته وقلة تأثره من الغلظة ضد الرقة ، وتفشأ عن هذه الغلظة الغلظة والجفاء .

والمعنى : فبسبب رحمة عظيمة فياضة منحك الله إياها يا محمد ، كنت لينا مع أتباعك في كل أحوالك ، ولكن بدون إفراط أو تفريط ، فقد وقفت من أخطائهم التي وقعوا فيها في غزوة أحد موقف القائد الحكيم الملمهم ، فلم تعنفهم على ما وقع منهم وأنت تراهم قد إستغرقهم الحزن والهم ... بل كنت لينا رفيقا بهم ...

وهكذا القائد الحكيم لا يكثر من لوم جنده على أخطائهم الماضية ، لأن كثرة اللوم والتعنيف قد تولد اليأس ، وإنما يلتفت إلى الماضي ليأخذ منه العبرة والعظة لحاضره ومستقبله ، ويفرس في نفوس الذين معه ما يحفز همهم ، ويشحن

عزيزتهم ويجعلهم ينظرون إلى حاضرهم ومستقبلهم بثقة واطمئنان وبصيرة مستنيرة . . .

وإن الشدة في غير موضعها تفرق ولا تجمع ، وتضعف ولا تقوى ، ولذا قال - تعالى - د لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، .

أى ولو كنت - يا محمد - كرهه الخلق ، خشن الجانب ، جافيا في أقوالك وأفعالك ، قامى القلب لا تتأثر لما يصيب أصحابك . . . لو كنت كذلك لانفضوا من حولك ، أى لتفرقوا عنك ، وتفرقوا منك ، ولم يسكنوا إليك فالجملة الكريمة تنفي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يكون فظا أو غليظا ، لأن د لو ، قدل على نفي الجواب لنفي الشرط . أى أنك لست - يا محمد فظا ولا غليظ القلب ولذلك التف أصحابك على حولك ، يفتدونك بارواحهم وبكل مرتخص وغال ، ويحبونك حبا يفوق حبهم لأنفسهم ولأولادهم ولآبائهم ولأحب الأشياء إليهم .

وقال - سبحانه - د لو كنت فظا غليظ القلب . . . ، أينفى عنه - صلى الله عليه وسلم - القسوة والغلظة في الظاهر والباطن ، إذ القسوة الظاهرية تبدو أكثر ما تبدو في المفاظ التي هي خشونة الجانب ، وجفاء الطبع ، والقسوة الباطنية تكون بسبب يبوسة القلب ، وغلظ النفس ، وعدم تأثرها بما يصيب غيرها . والرسول - صلى الله عليه وسلم - كان ميرا من كل ذلك ، ويكفى أن الله - تعالى - قد قال في وصفه : د لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، (١) .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : د لنى أرى صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الكتب المتقدمة . إنه ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيسة السيئة ، ولكن يعفو ويصمح ، (٢) .

(١) سورة لقوبة . الآية الاخيرة .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢٠

ولقد كان من أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - مداراة الناس إلا أن يكون في المداراة حق مضيق فمن عائشة رضيت الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله أمرني بمدارة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض ، (١) .

ثم أمر الله الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بما يترتب على الرفق والبشاشة فقال : « فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، » .

فالفاء هنا تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها . أي أنه يترتب على لين جانبك مع أصحابك ، ورحمتك بهم ، أن تعفو عنهم فيما وقعوا فيه من أخطاء تتعلق بشخصك ، أو ما وقعوا فيه من مخالفات أدت إلى هزيمتهم في أحد ، فقد كانت زلة منهم وقد أدبهم الله عليها .

وأن فلتمس من الله - تعالى - أن يغفر لهم ما فرط منهم ، إذ في إظهارك ذلك لهم تأكيد لعفوك عنهم ، وتشجيع لهم على الطاعة والاستجابة لأمرك . وأن تشاورهم في الأمر أي في أمر الحرب ونحوه مما تجرى فيه المشاورة في العادة من الأمور التي هم الأمة .

وقد جاءت هذه الأوامر للنبي - صلى الله عليه وسلم - على أحسن نسق ، وأحكم ترتيب ، لأن الله - تعالى - أمره أولاً بالعفو عنهم فيما يتعلق بمخافة نفسه ، فإذا ما انتهى إلى هذا المقام ، أمره بأن يستغفر لهم ما بينهم وبين الله - تعالى - لتزاح عنهم التبعات ، فإذا صاروا إلى هذه الدرجة ، أمره بأن يشاورهم في الأمر لأنهم قد أصبحوا أهلاً لهذه المشورة .

وقد تكلم العلماء كلاماً طويلاً عن حكم المشورة وعن معناها ، وعن فوائدها . فقد قال القرطبي ما ملخصه :

« والاستشارة مأخوذة من قول العرب : شرت الدابة وشورتها إذا علمت خبرها وحالها بجرى أو غيره . . . وقد يكون من قولهم شرت العسل واشترته إذا أخذته من موضعه . »

ثم قال : واختلف أهل التأويل في المعنى الذى أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يشاور فيه أصحابه فقالت طائفة : ذلك في مكائد الحروب ، وعند أهال العدو ، تطليياً لنفوسهم ورفداً لأقدارهم ، وإن كان الله - تعالى - قد ناه عن رأيهم بوحيه . . . . .

وقال آخرون : ذلك فيما لم يأنه فيه وحى . فقد قال الحسين : ما أمر الله تعالى - نبيه - بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما فى المشاورة الفضل ، ولتقتدى به أمته من بعده .

ثم قال : والشورى من قواعد الشريعة ، وعزائم الأحكام، والذى لا يستشير بل العلم والدين - والخبرة - فعزله واجب . وهذا مما لا خلاف فيه .  
وقد استشار النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه فى كثير من الأمور ، قال : المستشار مؤتمن ، وقال : مأنم من استشار ولا خاب من استخار ، قال : ما شقى قط عبد بمشورة وما سعد باستغناء . رأى .

وقال البخارى : وكانت الأئمة بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - يستشيرون أئمتنا من أهل العلم فى الأمور المباحة لياًخذوا بأسمائها . . . (١) .

وقال الفخر الرازى ما ملخصه : اتفقوا على أن كل ما نزل فيه وحى من عند الله لم يجوز للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يشاور فيه الأمة ، لأنه جاء النص بطل رأى والقياس ، فأما ما لا نص فيه فهل تجوز المشاورة فى جميع الأشياء أو لا ؟

قال بعضهم : هذا الأمر مخصوص بالمشاورة فى الحروب ، لأن الألف للإم فى لفظه ، الأمر ، تعود على المهود السابق وهو ما يتعلق بالحروب - إذ كلام فى غزوة أحد .

(١) تفسير الفرطى ج ٤ ص ٢٤٩ بتصرف وتلخيص

وقال آخرون : اللفظ عام خص منه ما نزل فيه وحى فتبقى حجته في الباقي وظاهر الأمر في قوله « وشاورهم ، لوجوب . وحمله الشافعي على الندب .. (١) »  
والحق أن الشورى أصل من أصول الحكم في الإسلام ، وقد استشار النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه في غزوات بدر وأحد والأحزاب وفي غير ذلك من الأمور التي تتعلق بمصالح المسلمين ، وسار على هذا المنهج السلف الصالح من هذه الأمة .

واقدم كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يكتب لعالمه بأمرهم بالتشاور ويتمثل لهم في كتبه بقول الشاعر :

خليلي ليس الرأي في صدر واحد      أشيرا على بالذي تزيان

وقدم تمدح الحكماء والشعراء بفضيلة الشورى وما يترتب عليها من خير ومنفعة ومن ذلك قول بشار بن برد :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن      برأي نصيح أو نصيحة حازم  
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة      فإن الخوافي قوة للقوادم

والحكام العقلاء المنصفون المتحرون للحق والعدل هم الذي يقبضون حكمهم على مبدأ الشورى . ولا يعادى الشورى من الحكماء إلا أحد اثنين : إما رجل قد أصيب بداء الغرور والثغالي ، فهو يتوهم أن قوله هو الحق الذي لا يخالطه باطل ، وأنه ليس محتاجا إلى مشورة غيره وإما رجل ظالم مستبد بجانب للحق ، فهو ينفذ ما يريد به بدون مشورة أحد لأنه يخشى إذا استشار غيره أن يطلع الناس على ظلمه وجوره وجوره .

هذا ومتى تمت المشورة على أحد الوجوه وأصلحها ، واستقرت الأمور على وجه معين ، فعلى العاقل أن يمضى على ما استقر عليه الرأي بدون تردد أو تخاذل ولذا قال - سبحانه - « فإذا عزمتم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين »

أى فإذا عقدت نيتك على إتمام الأمر وإمضائه بعد المشاورة السليمة وبعد أن تبين لك وجه السداد فيما يجب أن تسلكه فبادر بتنفيذ ما عقدت العزم على تنفيذه ، و د توكل على الله ، أى اعتمد عليه فى الوصول إلى غايتك ، فإن الله تعالى - يحب المعتمدين عليه ، المقوضين أمورهم إليه مع مباشرة الأسباب التى شرعها لهم لكي يصلوا إلى مطلوبهم .

فإنجزة السكينة تأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - وتأمر كل من يأتي له الخطاب بأن يبذل أقصى جهده لمعرفة ما هو صواب ، بأن يستشير أهل الخبرة كل فى مجال تخصصه ، فإذا ما استقر رأيه على وجهة نظر معينة - بعد أن درسها دراسة فاحصة واستشار العقلاء الأمناء فيها - فعليه أن يبادر إلى تنفيذها بدون تردد فإن التردد يضيع الأوقات ، والتأخر كثيرا ما يحول الحسنات إلى سيئات وعليه مع حسن الاستعداد أن يكون معتمدا على الله ، مظهرا المعجز أمام قدرته سبحانه - ، لأنه هو الخالق للأسباب والمسببات وهو القادر على تغييرها .

وكم من أناس اعتمدوا على قوتهم وحدها ، أو على مباشرتهم للأسباب وحدها دون أن يجهلوا للاعتماد على الله مكانا فى نفوسهم ، فكانت نتيجةهم الفشل والخذلان وكانت الهزيمة المنكرة المرة هى النتيجة التى اكتسبوا بسبب غرورهم وخبورهم وفسوقهم عن أمر الله . ورحم الله القائل .

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ولقد أكد الله - تعالى - وجوب التوكل عليه بعد ذلك فى قوله : **وإن ينصركم الله فلا غالب لكم . وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، ؟**

والمراد بالنصر هنا العون الذى يسوقه لعباده حتى ينتصروا على أعدائهم والمراد بالخذلان ترك العون . والخذول ، هو المتروك الذى لا يعا به .

يقال : خذلت الوحشية إذا أقامت على ولدها فى المرعى وترك

جوارحها .

والمعنى : إن يرد الله - تعالى - نصركم كما نصركم يوم بدر - فلا غالب لكم ، أى فإنه لا يوجد قوم يستطيعون قهركم ؛ لأن الله معكم ، ومن كان الله معه فلن يغلِبُه أحد من الخلق .

وإن يرد أن يخذلكم ويمنع عنكم عونه كما حدث لكم يوم أحد ، فلن يستطيع أحد أن ينصركم من بعد خذلانه ، لأنه لا يوجد أحد عنده قدرة يقف أمام قدرة الله - تعالى - ومشيئته .

والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفي ، أى لا أحد يستطيع نصركم إن أراد الله خذلانكم . وهو جواب للشرط الثانى .

وفيه لطف بالمؤمنين . حيث صرح لهم بعدم الغلبة فى الأول ، ولم يصرح لهم بأنهم لا ناصر لهم فى الثانى ، بل أتى به فى صورة الاستفهام وإن كان معناه نفياً ليكون أبلغ ، إذ فى مجيئه على هذه الصورة الاستفهامية توجيه لأنظار المخاطبين إلى البحث عن قوى تكون قدرته كافية للوقوف أمام إرادة الله - تعالى - . ولاشك أنهم لن يجدوه ، وعندئذ سيمتقدون عن يقين بأن الله وحده هو الكبير المتعال ، وأنه لا ناصر لهم سواه .

وقوله : وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، أى وعلى الله وحده لا على أحد سواه ، فليجمل المؤمنون اعتمادهم وانكالمهم ؛ لأن الذين يعتمدون على أى قوة سوى الله - تعالى - لن يصلوا إلى العاقبة الطيبة التى أعدّها - سبحانه - لعباده المتقين .

فآية الكريمة كلام مستأنف ، وقد سبق بطريق تلوين الخطاب ، تشرىفاً للمؤمنين لإيجاب التوكل عليه ، والترغيب فى طاعته التى تؤدى إلى النصر ، وتحذير لهم من معصيته التى تفضى إلى الخسران والخذلان .

ثم نهي - سبحانه - عن القلول ، ونزه النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فقال - تعالى - : « وما كان لنبي أن يغل ، من يغلل يأت بما غل يوم

القيامة ، وقوله «يغل» من الغلول . وهو الأخذ من الغنيمة خفية قبل قسمتها .  
يقال : غل فلان شيئاً من المغنم بغل غلولا إذا أخذه خفية . ويقال : أغل الجازر  
أو السالح إذا أبقى في الجلود شيئاً من اللحم على طريق الخفية .

وأصله من الغلل وهو دخول الماء في خلل الشجر خفية . والغلل : الحقد  
السكامن في الصدر وسميت هذه الخيانة غلولا ، لأنها تجرى في المال على خفاء  
من وجه لا يحل .

والمعنى : ماصح ولا استفهام لنبي من الأنبياء أن يخون في المغنم ، لأن  
الخيانة تتنافى مع مقام النبوة الذي هو أشرف المقامات ، ومن يغفل ، أى  
ومن يرتكب شيئاً من ذلك ، «يأت بما غل يوم القيامة» ، أى يأت بما غله يوم  
القيامة حاملاً إياه ليكون فضيحة له يوم الحشر ، وليؤخذ بإثم غلوله وخيانتة .  
وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه  
أبو داود والترمذى عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية «ما كان لنبي أن يغفل»  
في قطيفة حراء فقدت يوم بدر . فقال بعض الناس : لعل رسول الله - صلى  
الله عليه وسلم - أخذها ، وأكثروا في ذلك فأنزل الله الآية .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أيضاً أن المنافقين اتهموا  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشيء «فقد» ، فأنزل الله - تعالى - «وما كان  
لنبي أن يغفل» . . . . .

قال ابن كثير - بعد أن ساق هاتين الروایتين - : وهذا تنزيه له  
- صلى الله عليه وسلم - من جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة ، وقسمة الغنيمة  
وغير ذلك (١) .

وفي ورود هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن غزوة أحد ، حكمة

عظيمة ، وتأديب من الله للمؤمنين ، وتحذير لهم من الغلول ، ذلك أن الرماة الذين زكروا أما كنهم مخالفيين أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد دفعهم إلى ذلك خشيتهم من أن يفرد المقاتلون بالفنائم ، ففعلوا ما فعلوا . ولقد روى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال للرماة : أظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم (١) .

وقد نبى النبي - صلى الله عليه وسلم - في كثير من الأحاديث عن الغلول ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، ثم قال : لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك ، ولا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحة فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغك - لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها نفاة يقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاغ تخفق - أى ثياب - فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت - أى ذهب وفضة - فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك .

هذا ، وجمهور العلماء على أن المال يأتي بما غله يوم القيامة بعينه على سبيل الحقيقة لأن ظواهر النصوص من الكتاب والسنة تؤيد ذلك ، ولأنه لا موجب لصرف الألفاظ عن ظواهرها .

ومن العلماء من جعل الإتيان بالغلول يوم القيامة مجاز عن الإتيان بإيمانه  
تعبيراً بما غل عما لزمه من الإثم مجازاً

قال الفخر الرازي : واعلم أن هذا التأويل - المجازي - محتمل ، إلا أن  
الأصل المعتبر في علم القرآن أنه يجب إجراء اللفظ على الحقيقة ، إلا إذا قام  
دليل يمنع منه . وهنا لا مانع من هذا الظاهر فوجب إثباته ، (١) .

ومن المفسرين الذين حلوا الإتيان على ظاهره الإمام القرطبي فقد قال  
عند تفسيره لقوله - تعالى - ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ، أى يأتى به  
حاملاً له على ظهره ورقبته ، معذباً بحمله ونقله ، ومرعوباً بصوته ، وموحيماً  
بإظهار خيائته على رموس الإشهاد .

وقال بعد إيراده للحديث السابق الذى رواه مسلم عن أبى هريرة : قيل  
الخبر محمول على شهرة الأمر . أى يأتى يوم القيامة قد شرب الله أمره كما يشرب  
لوحمل بهيراً له رغاء أو فرساً له حمحة .

قلت . وهذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز والنشيه ، وإذا دار الكلام  
بين الحقيقة والمجاز فالحقيقة الأصل - كما في كتب الأصول - . وقد أخبر  
النبي - صلى الله عليه وسلم بالحقيقة ولا تعاطر بعد عروس ، (٢) :

ثم فيه - سبحانه - على العقوبة التى تستعمل بالخانن ، بعد أن بين ما سبنا له  
من فضيحة وخزى فقال . ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ، .

أى : ثم تعطى كل نفس يوم القيامة جزاء ما كسبت من خير أو شر وأقياً  
تماماً ، وهم لا يظلمون شيئاً . لأن الحاكم بينهم هو ربك الذى لا يظلم أحداً .  
وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها وقوله « ومن يغفل » ، وجاء المطف

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٩ ص ٧٣ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٥٧ .

بِئْسَ الْمَفِيدَةُ لِلتَّرَاخِي ، للإشعار بالتفاوت الشديد بين حمله ماغل وبين جزائه  
وسوء عاقبته يوم القيامة .

وقال - سبحانه - ثم توفي كل نفس . . . بصيغة العموم ، ولم يقل ثم  
ديوفى الغال مثلاً - لأن من فوائد ذكر هذا الجزاء بصيغة العموم ، والإعلام  
والأخبار للغال وغيره من جميع الكاسبين بأن كل إنسان سيجازى على عمله  
سواء أ كان خيراً أو شراً ، فيندرج الغال تحت هذا العموم أيضاً فكأنه  
قد ذكر مرتين .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : فإن قلت : هلا قيل : ثم  
يوفي ما كسب ليتصل به ؟ قلت : جى . بعام دخل تحته كل كاسب من الغال  
وغيره فأنصل به من حيث المعنى ، وهو أبلغ وأثبت ، لأنه إذا علم الغال  
أن كل كاسب خيراً أو شراً مجزى فوفى جزاءه ، علم أنه غير متخلص من  
بينهم مع عظم ما اكتسب (١) .

ثم أكد - سبحانه - نفي الظلم عن ذاته فقال : « أفمن اتبع رضوان الله ،  
بأن واطب على ما رضىه ، والتزم طاعته ، وترك كل ما نهى عنه من غلول  
وغيره ، كمن باء بسخط من الله ، أى كمن رجع بغضب عظيم عليه من الله  
بسبب غلولة وخيائته وارتكابها لما نهى الله عنه من أقوال وأفعال ؟

فآية الكريمة تفريع على قوله - تعالى - قبل ذلك « ثم توفي كل نفس  
ما كسبت وهم لا يظلمون ، وتأكد لبيان أنه لا يستوى المحسن والمسيء  
والأمين والخائن .

والاستفهام إنكارى بمعنى النفي ، أى لا يستوى من اتبع رضوان الله  
مع من باء بسخط منه .

وقد ساق - سبحانه - هذا الكلام الحكيم بصيغة الاستفهام الإنكارى ،  
للتفنيه على أن عدم المساواة بين المحسن والمسيء أمر بدهى واضح لا يختلف فيه

العقول والأفهام ، وأن أى إنسان عاقل لو سئل عن ذلك لأجاب بأنه لا يستوى من اتبع رضوان الله مع من رجع بسخط عظيم منه بسبب كفره أو فسقه وشيبه هذه الآية قوله - تعالى ، أفن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ، لا يستوون ،<sup>(١)</sup> .

وقوله ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض<sup>(٢)</sup> . . . ؟  
والفاء فى قوله ، أفن اتبع . . . ، للمطاف على عذوف والتقدير ؛ أمن اتقى فاتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ؟

ثم عقب - سبحانه - ذكر سخطه بذكر عقوبته فقال . . . وما واه جهنم وبئس المصير ، أى أن هذا الذى رجع بغضب عظيم عليه من الله تعالى - بسبب كفره أو فسوقه أو خيائته ، سيكون مثواه ومصيره إلى النار وبئس ذلك المصير الذى صار إليه وكان له مرجعاً ونهاية .

ثم بين - سبحانه - النتيجة التى ترتبت على عدم تساوى المحسن والمسيء فقال هم درجات عند الله ، واه بصير بما يعملون . . .

والضمير هم ، يعود على من ، فى قوله ، أفن اتبع رضوان الله . . . ، وفى قوله ، كمن باء بسخط من الله ، أى على الفريقين . وبعضهم جعل مرجعه إلى الفريق الأول فقط .

والدرجات : جمع درجة وهى الرتبة والمنزلة ، ومنه الدرج بمعنى السلم لأنه يصعد عليه درجة بعد درجة .

وأكثر ما تستعمل الدرجة فى القرآن فى المنزلة الرفيعة ، كما فى قوله - تعالى -  
وورفعنا بعضهم فوق بعض درجات<sup>(٣)</sup> . . . بخلاف الدركة فإنها تستعمل

(١) سورة السجدة . الآية ١٨

(٢) -سورة ص . الآية ٢٨ .

(٣) -سورة الزخرف الآية ٣٢

في عكس ذلك ، كما في قوله - تعالى - ، إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، (١) .

ولذا قال الراغب : الدرك كالدرج لكن الدرج يقال اعتبارا بالصعود ، والدرك اعتبارا بالحدور ، ولهذا قيل : درجات الجنة ودركات النار . ولتصور الحدور في النار سميت هاوية ... ، (٢) .

والمعنى : هم أى الاخيار الذين اتبعوا رضوان الله ، والاشرار الذين رجعوا بسخط منه متفاوتون في الثواب والعقاب على حسب أعمالهم كما تتفاوت الدرجات وإطلاق الدرجات على الفريقين من باب التغليب للأخيار على الأشرار والمراد : أن الذين اتبعوا رضوان الله يتفاوتون في الثواب الذى يمنحهم الله لإياه على حسب قوة إيمانهم ، وحسن أعمالهم .

كما أن الذين باءوا بسخط منه يتفاوتون في العقاب الذى ينزل بهم على حسب ما افتروه من شرور وآثام ، فمن أوغل في الشرور والآثام كان عقابه أشد من عقاب من لم يفعل فعله وهكذا .

والذين قالوا إن الضمير هم ، يعود على الفريق الأول فقط احتجوا بأن التعبير بالدرجات يستعمل في الغالب في الثواب ، وبأن الله قد أضاف هذه الدرجات لنفسه فدل ذلك على أن المقصود بقوله هم ، الذين اتبعوا رضوان الله ، وبأن هؤلاء الذين اتبعوا رضوان الله قد فضل الله بعضهم على بعض كما جاء في بعض الآيات ومنها قوله : ، انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، (٣) .

والذى نراه أن عودة الضمير هم ، على الفريقين أقرب إلى الحق ، لأن

(١) سورة النساء الآية ٤٥

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٦٧

(٣) سورة الإسراء الآية ٢١

تفاوت الدرجات موجود بين الأخبار كما أن تفاوت العقوبات موجود بين الأشرار، فالذين أدوا جميع ما كلفهم الله به من طاعات ليسوا كالذين اكتفوا بأداء الفرائض، والذين انحدروا في المهام إلى النهاية ليسوا كالذين وقعوا في بعضها.

وقوله «عند الله» أي في حكمه وعلمه وهو تشریف لهم والظرف متعلق بدرجات على المعنى، أو متعلق بمحذوف وقع صفة لها. أي درجات كائنة عند الله.

وقوله «والله بصير بما يعملون» أي مطلع على أعمال العباد صغيرها وكبيرها ظاهرها وخفيها، لا يغيب عنه شيء، وسيجازي كل إنسان بما يستحقه على حسب عمله، بمقتضى علمه الكامل، وعدله الذي لا ظلم معه.

وبعد أن نزه الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - عن الغلول وعن كل نقص، وبين أن الناس متفاوتون في الشواب والعقاب على حسب أعمالهم... بعد أن بين ذلك اتبناه ببيان فضله - سبحانه - على عباده في أن بعث فيهم رسولا منهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور فقال - تعالى - : «لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم...»

قال الرازي: قال الواحدي: المراد في كلام العرب معان. أحدها أنه الذي يسقط من السماء، وهو قوله: «وأنزلنا عليكم المن والسلوى». وثانيها: أن تمر بما أعطيت كما في قوله: «لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى». وثالثها: القطع كما في قوله: «وإن لك لأجرا غير ممنون»، ورابعها الإتمام والإحسان إلى من لا تطلب الجزاء منه - وهو المراد هنا - (١).

والمعنى: لقد أنعم الله على المؤمنين، وأحسن إليهم إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، أي بعث فيهم رسولا عظيم القدر، هو من العرب أنفسهم، وهم يعرفون حسبته ونسبه وشرفه وأمانته.

وعلى هذا المعنى يكون المراد بقوله « من أنفسهم ، أى من نفس العرب ، ويكون المراد بالمؤمنين مؤمنى العرب ، وقد بعثه الله عربيا مثاهم ، ليتمم كمنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع بتوجيهاته .

ويصح أن يكون معنى قوله « من أنفسهم ، أنه بشر مثل سائر البشر إلا أن الله - تعالى - وهبه النبوة والرسالة ، ليخرج الناس - العرب منهم وغير العربى - من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، وجعل رسالته عامة فقال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، .

وخص الله - تعالى - منته وفضله بالمؤمنين ؛ لأنهم هم الذين انتفعوا بنعمة الإسلام ؛ الذى لن يقبل الله ديننا سواه ، والذى جاء به محمد - عليه الصلاة والسلام - .

والجملة الكريمة جواب قسم محذوف ، والتقدير : والله لقد من الله على المؤمنين . . . . .

ثم بين - سبحانه - مظاهر هذه المنة والفضل ببعثة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال : « يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، . والتلاوة : هى القراءة المتتابعة المراتلة التى يكون بعضها تلو بعض .  
والتزكية : هى التطهير والتنقية .

أى لقد أعطى الله - تعالى - المؤمنين من النعم ما أعطى ، لأنه قد بعث فيهم رسولا من جنسهم يقرأ عليهم آيات الله التى أنزلها هدايتهم وسعادتهم ، ويزكيهم ، أى يطهرهم من الكفر والذنوب . أو يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين ظاهرين بما كانوا عليه من دنس الجاهلية ، والاعتقادات الفاسدة .

« ويعلمهم الكتاب ، بأن يبين لهم المقاصد التى من أجلها نزل القرآن الكريم ، ويشرح لهم أحكامه ، ويفسر لهم ما خفى عليهم من ألفاظه ومعانيه التى قد نختفى على مداركهم .

فتعليم الكتاب غير تلاوته ، لأن تلاوته قرأته من تلافه وما ، أما تعليمه  
ناه بيان أحكامه وما اشتمل عليه من تشریحات وآداب

ويعلمهم كذلك ، الحكمة ، أى الفقه فى الدين ومعرفة أسرارہ وحكمه  
قاصده لئى يكمل بها العلم بالكتاب .

بذه الآية الكريمة قد اشتملت على عدة صفات من الصفات الجالبة التى  
حبا الله - تعالى - لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

ثم بين - سبحانه - حال الناس قبل بعثة الرسول - صلى الله عليه وسلم -  
ال - وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين ، .

أى : إن حال الناس وخصوصا العرب أنهم كانوا قبل بعثة الرسول  
صلى الله عليه وسلم - لإيهم فى ضلال بين واضح لا يخفى أمره على أحد  
، ذوى العقول السليمة والأذواق المستقيمة .

وحقا لقد كان الناس قبل أن يبرغ نور الإسلام الذى جاء به - صلى الله  
يه وسلم - من عند ربه ، فى ضلال واضح ، وظلام دامس ، فهم من ناحية  
ببادة كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى ، ومن ناحية الأخلاق نفشت فيهم  
ذائل حتى صارت شيئا مألوفا ، ومن ناحية المعاملات كانوا لا يلتزمون  
لق والعدل فى كثير من شئونهم ...

والخلاصة أن الضلال والجهل وغير ذلك من الرذائل ، كانت قد استشرت  
العالم بصورة لا تخفى على عاقل .

فكان من رحمة الله بالناس ومنته عليهم أن أرسل فيهم نبيه - صلى الله  
يه وسلم - لى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان إلى نور  
ندياته والاستقامة والإيمان .

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن غزوة أحد ، فحكمت ماقاله ضعاف

الإيمان في أعقابها ، وردت عليهم بما يبطل عقالتهم ، وبما يزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم ، فقال - تعالى - :

« أولمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِيهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وما أصابكم يومَ التَّحِيّ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وليَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقَبْلَ لَهُمْ تَمَآلُؤًا قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمُ الْكُفَرُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ رَمَوْهُمُ رِمَاحَهُمْ ، لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَن أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) » .

فقوله - تعالى - : « أولمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِيهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا... الخ ، كلام مستأنف مسوق لإبطال بعض ما نشأ من الظنون الفاسدة ، لإثر إبطال بعض آخر تقدم الحديث عنه ، فإن من فرأى غزوة أحد أنها كشفت عن قوى الإيمان من ضعفه ، وميزت الخبيث من الطيب .

وإذا كان إنتصار المسلمين في بدر جعل كثيراً من المنافقين يدخلون في الإسلام طمعاً في الغنائم .. فإن عدم انتصارهم في أحد قد أظهر المنافقين على حقيقتهم ، ويسر للمؤمنين معرفتهم والحذر منهم .

والهمزة في قوله « أولمَّا... » ، للاستفهام الإنكارى التعجيبى . ود الواو ، للعطف على محذوف . ودلما ، ظرف بمعنى حين مضافة إلى ما بعدها مستعملة في الشرط . والمصيبة : أصلها في اللغة الرمية التي تصيب

الهدف ولا تخطفه ، ثم أطلقت على ما يصيب الإنسان في نفسه أو أهله أو ماله أو غير ذلك من مزار . وقوله « مثلها ، أي ضمها ، فإن مثل الشيء ما يساويه ، ومثليه ضمه .

والمعنى : أفعالكم ما فعلتم من أخطاء ، وحين أصابكم من المشركين يوم أحد نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك في بدر تعجبتم وقلتم « أنى هذا ، أى من أين لنا هذا القتل والخذلان ، ونحن مسلمون نقاتل في سبيل الله ، وفيما رسوله - صلى الله عليه وسلم ، وأعداؤنا الذين قتلوا منا من قتلوا مشركون يقاتلون في سبيل الطاغوت .

فالجملۃ الكريمة توبيخ لهم على ما قالوه ، لأنه ما كان ينبغي أن يصدر عنهم إذ هم قتلوا من المشركين في بدر سبعين من صناديدهم ، وأسروا منهم قريبا من هذا العدد ، وفي أحد كذلك كان لهم النصر في أول المعركة على المشركين ، وقتلوا منهم قريبا من عشرين إلا أنهم حين خالفوا وصية رسولهم - صلى الله عليه وسلم - وتطلعوا إلى الغنائم منع الله عنهم نصره ، فقتل المشركون منهم قريبا من سبعين .

وقوله « قد أصبتم مثلها ، في عمل رفع صفة « لمصيبة » . وفائدة هذا القول التنبيه على أن أمور الدنيا لا تبقى على حال واحدة ، وإن من شأن الحرب أن تكون سجالا ، إلا أن العاقبة جعلها الله للمتقين .

وقوله « قلتم أنى هذا ، هو موضع التوبيخ والتعجب من شأنهم ، لأن قولهم هذا يدل على أنهم لم يحسنوا وضع الأمور في نصابها ، حيث ظنوا أن النصر لا بد أن يكون حليفهم حتى ولو خالفوا أركانهم ورسولهم - صلى الله عليه وسلم ، ولذا فقد رد الله - تعالى - عليهم بما من شأنه أن يميد إليهم صوابهم ، وبما يعرفهم السبب الحقيقي في هزيمتهم فقال : « قل هو من عند أنفسكم » .

أى قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا ما قالوا : إن ما أصابكم فى أحد سببه  
أنتم لا غيركم .

فأنتم الذين أبيتم إلا الخروج مع أن النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد أن  
أشار عليكم بالبقاء فيها . وأنتم الذين خالفتم وصيته بترككم أما كنتم التى حددها  
لكم وأمركم بالثبات فيها . وأنتم الذين تعلمت أنفسم إلى الفنائم فاشتغلت بها  
وتركت النصيحة ، وأنتم الذين تفرقتم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
فى ساعة الشدة والعسرة . فلهذه المخالفات التى نبعت من أنفسم أصابكم  
ما أصابكم فى أحد ، وكان الأولى بكم أن تعرفوا ذلك وأن تعتبروا ، وأن  
تقلعوا عن هذا القول الذى لا يليق بالعقلاء ، إذ العاقل هو الذى يحاسب  
نفسه عندما يفاجئه المكروه ويعمل على تدارك أخصائه . ويقبل على حاضره  
ومستقبله بثبات وصبر ، مستفيدا بماضيه ، ومتعظا بما حدث له فيه .

وما أحوج الناس فى كل زمان ومكان إلى الأخذ بهذا الدرس ، فإن  
كثيرا منهم يقصرون فى حق الله وفى حق أنفسم وفى حق غيرهم ، ولا  
يباشرون الأسباب التى شرعها الله للوصول إلى النصر . . . بل يبنون حياتهم  
على العرور والإهمال ، فإذا ما أصابهم الهزيمة مسحوا عيوبهم فى القضاء  
والقدر ، أو فى غيرهم من الناس ، أو شدهوا الهول ما أصابهم - بسبب  
تقصيرهم - ثم قالوا : أنى هذا ؟ وما دروا - لجهلهم وغرورهم - أن الله  
- تعالى - قد جعل لكل شىء سببا فمن باشر أسباب النجاح ووصل إليها  
ياذن الله ، ومن أعرض عنها حرمه الله - تعالى - من عونته ورعايته .

ولقد أكد - سبحانه - قدرته على كل شىء . فقال : ( إن الله على كل  
شىء قدير ، أى إن الله - تعالى - قدرته فوق كل شىء ، فهو القدير على نصركم  
وعلى خذلانكم ، وبما أنكم قد خالفتم نبيكم - صلى الله عليه وسلم - فقد  
حرمكم الله نصره ، وقدر لكم الخذلان ، حتى تعتبروا ولا تعودوا إلى ما حدث  
من بعضكم فى غزوة أحد ، ولتذكروا دائما قوله - تعالى - وما أصابكم من

مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير، (١) .

ثم أكد - سبحانه - عموم قدرته وإرادته فقال : وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله ، وليعلم المؤمنين .

أى : وما أصابكم - أيها المؤمنون - من قتل وجراح وآلام يوم التقى جمعكم وجمع أعدائكم في أحد ، فيأذن الله ، أى فيأذنه ، إذ ما من شئ يقع في هذا الكون إلا يتقدير الله وعلمه . فعليكم أن تستسلموا لإرادة الله ، وأن تعودوا إلى أنفسكم لتهدبوا وتروضوها على تقوى الله وطاعته . حتى تكونوا أهلاً لنصرته وعونه

و ما ، موصولة بمعنى الذى فى محل رفع بالابتداء ، وجملة ما أصابكم ، صلة الموصول ، وقوله فيأذن الله ، هو الخبر . ودخلت الفاء فى الخبر لشبهه المبتدأ بالشروط . وقوله وليعلم المؤمنين ، بيان لبعض الأحكام التى من أجلها حدث ما حدث فى غزوة أحد .

والعلم هنا كناية عن الظهور والتقرر فى الخارج لما قدره - سبحانه - فى الأزل أى أراد الله أن يحدث ما حدث فى غزوة أحد ليظهر للناس ويميز لهم المؤمنين من غيرهم .

وقوله : وليعلم الذين نافقوا ، حكمة ثانية لما حدث فى غزوة أحد . أى : حدث ما حدث فى غزوة أحد ليعلم - سبحانه - المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية وظهور يتميز معه عند الناس كل فريق عن الآخر تميزاً ظاهراً .

إذ أن نصر المسلمين فى بدر فتح الطريق أمام المنافقين للتظاهر باعتناق الإسلام وعدم إنتصارهم فى أحد ، كشف عن هؤلاء المنافقين وأظهرهم

حقيقتهم ، فإن من شأن الشك دائد أنها تكشف عن معادن النفوس  
وحنايا القلوب .

ثم بين - سبحانه - بعض النصائح التي قيلت طوًلاء المناقشين حتى يقلعوا  
عن نفاقهم ، وحكى ما رد به المنافقون على الناصحين فقال : « وقيل لهم تعالوا  
قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم .. »

أى فعل - سبحانه - ما فعل في أحد ليميز المؤمنين من المنافقين الذين قيل  
لهم من النبي - صلى الله عليه وسلم - وهن بعض أصحابه : تعالوا معنا لنتقاتلوا  
في سبيل الله ، فإن لم تقاتلوا فادفعوا أى فانضموا إلى صفوف المقاتلين ، فيكثر  
عددهم بكم ، فإن كثرة العدد تزيد في خوف الأعداء .

أو المعنى : تعالوا معنا لنتقاتلوا من أجل إعلاء كلمة الله ، فإن لم تفعلوا ذلك  
لضعف إيمانكم ؛ واستيلاء الشهوات والأهواء على نفوسكم ، فلا أقل من أن  
تقاتلوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن مدينتكم طار الهزيمة .

أى إن لم تقاتلوا طلبا لمرضاة الله ، فقاتلوا دفاعا عن أوطانكم وعن دينكم  
قال الجمل : وهذه الجملة وهى قوله - تعالى - « وقيل لهم تعالوا ... » ، نحتمل  
وجهين . أحدهما أن تكون مستأنفة ، أخير الله أنهم مأمورون إما بالقتال  
وإما بالدفع أى تكثير سواد المسلمين - أى عددهم - والثانى . أن تكون  
معلوفة على « نفاقوا » فتكون داخلية في خبر الموصول . أى وليعلم الذين  
حصل منهم النفاق والقول المذكور وإنما لم يأت بحرف العطف بين تعالوا  
وقاتلوا . لأن المقصود أن تكون كل من الجملتين مقصودة بذاتها ، (١) .

وقوله « قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم » ، حكاية لردم القبيح على من نصحههم  
بالبقاء مع المجاهدين .

أى قال المنافقون - وهم عبد الله بن أبى وأتباعه - . لو تعلم أنكم تقاتلون  
حزنا لسرنا معكم ، ولكن الذى نعلمه هو أنكم ستذهبون إلى أحد ثم تعودون  
بدون قتال لآى سبب من الأسباب .

أو المعنى - كما يقول الزمخشري - . لو نعلم ما يصبح أن يسمى قتالا  
و لا تبعناكم ، يعنون أن ما أنتم فيه خطأ رأيكم وزللکم عن الصواب ليس  
بشوء ، ولا يقال لمثله قتال ، إنما هو إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، لأن رأى  
عبد الله بن أبى كان فى الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج (١) .

وقال ابن جرير . خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أحد فى  
ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة . انزل  
عندهم عبد الله بن أبى ابن سلول بثلك الناس وقال . أطاعهم - أى رسول الله  
- صلى الله عليه وسلم - شرج وعصاني . والله ما ندرى علام . نقتل أنفسنا  
ههنا أيها الناس ؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق والريب ،  
فاتبهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بنى سلمة - يقول لهم . يا قوم أذكركم  
الله أن تحذلو انبيكم رقومكم - وقالوا فى سبيل الله أو ادفعوا - فقالوا : لو نعلم  
أنكم تقاتلون ما أسلطناكم ، ولكننا لا نرى أن يكون قتال .

فلا استعصوا عليه ، وأبو إلا الانصراف عن المؤمنين قال لهم . أبعدكم  
الله يا أعداء الله فسيغنى الله رسوله عنكم ، ثم مضى مع رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - ، (٢) .

هذا هو موقف المنافقين فى غزوة أحد ، وهو موقف يدل على فساد  
قلوبهم ، وخبث نفوسهم ، وجبنهم عن لقاء الأعداء .

ولقد كان المؤمنون الصادقون على نقيض ذلك ، فلقد خرجوا مع رسول  
الله - صلى الله عليه وسلم - وثبتوا إلى جانبه فكانوا بمن قال الله فيهم : ومن المؤمنين

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٢٧ . (٢) تفسير ابن جرير ج ٤ ص ١٦٨

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا  
تبديلاً، ولقد حكى لنا التاريخ أن بعض المؤمنين الذين كانت لهم أعداءم التي  
تسقط عنهم الخروج للجهاد، كانوا يخرجون مع المجاهدين لتكثير عددهم .

فمن أنس بن مالك قال : رأيت يوم القادسية عبيد الله بن أم مكتوم  
- وكان رجلاً أعمى - وعليه درع يجر أطرافها ويده راية سوداء . فقيل له :  
أليس قد أنزل الله عذرك ؟ فقال : بلى ولما كنت أحب أن أكثر المسلمين بنفسى (١)  
هذا ، وقد أصدر - سبحانه - حكمه العادل على أولئك المنافقين فقال : هم  
للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله  
أعلم بما يكتمون .

أى هم يوم أن قالوا هذا القول الباطل قد بينوا حالهم ، وهتكوا أستارهم  
وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مؤمنون ، لأنهم قبل أن يقولوا : ولو تعلم  
قتالا لا نبئناكم ، كانوا يتظاهرون بالإيمان ، وما ظهرت منهم أمانة تؤذن  
بكفرهم ، فلما انحذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن  
الإيمان المظنون بهم واقربوا من الكفر .

أو المعنى : هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان ، لأن تقليدهم  
سواد المسلمين بالانحزال تقوية للشركين .

قال الجمل : وقوله دم ، مبتدأ ، وقوله وأقرب ، خبره ، وقوله للكفر ،  
وقوله للإيمان ، متعلقان بأقرب ، لأن أفضل التفضيل في قوة عاملين : فكأنه  
قيل : قربوا من الكفر وقربوا من الإيمان ، وقربهم للكفر في هذا اليوم  
أشد لوجود علامته وهي خذلانهم المؤمنين ، (٢) .

(١) تفسير الدرطبي ج ٤ ص ٢٦٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٣٢٤ بتصرف يسير

وقوله ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، جملة مستأنفة مبينة لحالهم مطلقا لا في ذلك اليوم لحسب .

أى أن هؤلاء القوم من صفاتهم الذميمة أنهم يقولون بألسنتهم قولاً يخالف ما انطوت عليه قلوبهم من كفر ، وما امتلأت به نفوسهم من بغضاء لكم - أيها المؤمنون - .

قال صاحب الكشاف : وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم ، وأن إيمانهم موجود في أفواههم معدوم في قلوبهم ، بخلاف صفة المؤمنين في مواطاة قلوبهم لأفواههم ، (١) .

وقوله ، واقه أعلم بما يكتنون ، تذييل قصد به زجرهم وتوعددهم بسوء المصير بسبب نفاقهم وخداعهم .

أى واقه - تعالى - أعلم منكم - أيها المؤمنون - بما يضمره هؤلاء المنافقون من كفر ومن كراهية لدينكم ، لأنه - سبحانه - يعلم ما ظهر وما خفى من أمورهم ، وقد كشف الله لكم أحوالهم لكي تحذروهم ، وسيحاسبهم يوم القيامة على أعمالهم ، وسينزل بهم ما يستحقونه من عذاب مهين .

ثم حكى - سبحانه - لنا آخر من أراجيفهم وأكاذيبهم التي قصدوا من ورائها الإساءة إلى المؤمنين ، والتشكيك في صدق تعاليم الإسلام فقال - تعالى - الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا . لو أطاعونا ما قتلوا ، .

أى أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بما ارتكبوه من جنائبات قبيل غزوة أحد وخلافتها . بل لأنهم بعد انتهاء المعركة قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم في المشرب والإنجاه : قالوا لهم وقد قعدوا عن القتال : لو أن هؤلاء الذين

استشهدوا في أحد أطاعونا وقمذرا معنا في المدينة لما أصابهم القتل ، ولكنهم خالفونا فكان مصيرهم إلى القتل .

ويجوز أن تكون اللام في قوله « لإخوانهم » للتعليل فيكون المعنى : أنهم قالوا من أجل لإخوانهم الذين استشهدوا في غزوة أحد ، لو أن هؤلاء الذين قتلوا أطاعونا ولم يفرجوا لبقوا معنا على قيد الحياة ، كما هو حالنا الآن ، ولكنهم لم يسمعوا إلى نصحننا وخرجوا للقتال فقتلوا .

وعلى كلا لتفسيرين فهو لهم هذا يدل على خبث نفوسهم ، وانطباع بصيرتهم ، وجهلهم بقدرة الله ونفاذ إرادته ، وشماطتهم فيما حل بالمسلمين من قتل وجراح يوم أحد .

ولذا فقد رد الله عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويدحض قلوبهم ، ويكشف عن جهلهم وسوء تفكيرهم فقال - تعالى - « قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ، ،

أى قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتهكم بمقولهم الفارغة : إذا كنتم تظنون أنكم دفعتم عن أنفسكم الموت بقعودكم في بيوتكم ، وامتناعكم عن الخروج للقتال ، إذا كنتم تظنون ذلك فادعوا ، أى ادفعوا عن أنفسكم الموت المكتوب عليكم ، والذي سيدرككم ولو كنتم في بروج مشيدة .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة الرد عليهم بما يبطل أقوالهم عن طريق الحس والمشاهدة . ذلك ببيان أن القعود عن الجهاد لا يطيل الحياة كما أن الخروج إلى ساحات القتال لا ينقص شيئا من الآجال . فحكم من مجاهد عاد من جهاده سالما . وكم من قاعد أتاه الموت وهو في عمر داره .

فزعهم هؤلاء المنافقين بأن أولئك الذين استشهدوا في أحد لو أطاعوهم ولم يخرجوا للقتال لما أصابهم القتل زعم باطل . وإلا فإن كانوا صادقين في هذا الزعم فلیدفعوا عن أنفسهم الموت الذي سينزل بهم حتما في الوقت الذي يشاؤه الله . ولا شك أنهم لن يستطيعوا دفعه فثبت كذبهم وافتراؤهم .

وقوله - تعالى ، الذين قالوا لإخوانهم . . . ، في محل نصب بدل من قوله  
و الذين نافقوا . . .

أو في محل رفع بدل من الضمير في قوله ، يسكتون ، فكأنه قيل  
واقه أعلم بما يكتم هؤلاء الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا . . .

وقوله ، وقعدوا ، حال من الضمير في ، قالوا ، بتقدير حرف قد أي قالوا  
ما قالوا والحال أنهم قد قعدوا عن القتال .

وجواب الشرط في قوله ، إن كنتم صادقين ، محذوف لدلالة ما قبله عليه  
وهو قوله ، فادرأوا عن أنفسكم الموت ، .

والتقدير : إن كنتم صادقين في زعمكم أن الذين قتلوا في أحد لو أطاعوكم  
وقعدوا كما قعدتم لما أصابهم القتل ، إن كنتم صادقين في هذا الزعم فادرأوا  
عن أنفسكم الموت عند حلوله .

قال الألوسي : والمراد أن ما ادعيتموه سببا للنجاة ليس بمستقيم ، ولو فرض  
استقامته فليس بمفيد . أما الأول : فلأن أسباب النجاة كثيرة : غاية أن القعود  
والنجاة وجدا معا وهو لا يدل على السببية .

وأما الثاني : فلأن المهروب عنه بالذات هو الموت الذي القتل أحد أسبابه  
فإن صح ما ذكرتم فادفعوا سائر أسبابه ، فإن أسباب الموت في إمكان المدافعة  
بالحيل وامتناعها سواء ، وأنفسكم أعز عليكم وأمرها أهم لديكم ، (١) .

وقال ابن القيم : وكان من الحكيم التي اشتملت عليها غزوة أحد ، أن تكلم  
المتأفقون بما في نفوسهم ، فسمعه المؤمنون ، وسمعوا رد الله عليهم ، وجوابه  
طم ، وعرفوا مراد النفاق . وما يؤول إليه ، كيف يحرم صاحبه سعادة  
الدنيا والآخرة .

فكم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة ، ونعمة على المؤمنين سابقة ،  
وكم فيها من تحذير وتخويف وإرشاد وتذية . وتعريف بأسباب الخير والشر  
ومآلها وعاقبتها (١) .

وبعد هذا الحديث المكاشف عن طبيعة المناققين وعن أحوالهم ، إنتقلت  
السورة الكريمة إلى الحديث عن الشهداء وفضلهم وما أعدده الله لهم من نعم  
مقيم فقال - تعالى - :

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ  
يَرْزُقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ  
لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ، أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)  
يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)  
الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا  
مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ  
جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)  
فَاتَّقُوا اللَّهَ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ  
وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ  
فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) » .

فقوله - تعالى - « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ . . . »  
كلام مستأنف ساقه الله - تعالى - لبيان أن القتل في سبيل الله الذي يحذره  
المناققون ويحذرون الناس منه ليس مما يحذر، بل هو أجل المطالب وأسناها،

إثر بيان أن الحذر لا يدفع القدر ، لأن من قدر الله له القتل لا يمكنه الاحتراز عنه ، ومن لم يقدر له ذلك لا خوف عليه منه .

فهذه الآيات الكريمة رد على شماتة المنافقين إثر الردود السابقة. وتحرير المؤمنين على القتال ، وتقرير الحقيقة الإسلامية ثابتة هي أن الاستشهاد في سبيل الله ليس فناء بل هو بقاء .

والخطاب في قوله « ولا تحسبن ، للنبي - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يتأني له الخطاب .

والحسبان : الظن ، والنهي بلا هنا منصب على هذا الظن ، أى أنها كم عن أن تظنوا أنهم أموات ، وفنون التوكيد في قوله « ولا تحسبن ، لتأكيد هذا النهى .

أى : لا تحسبن أيها الرسول الكريم ، أو أيها المؤمن أن الذين قتلوا في سبيل الله ، ومن أجل إعلان كلمته ، لا تحسبنهم أمواتا لا يحسون شيئا ولا يلتدون ولا يتنعمون ، بل هم أحياء عند ربهم ، يرزقون رزق الأحياء ، ويتنعمون بألوان النعم التي أسبغها الله عليهم ، جزاء لإخلاصهم وجهادهم وبذلهم أنفسهم في سبيل الله .

وقوله « الذين » مفعول أول لقوله : « تحسبن » وقوله « أمواتا » مفعول الثاني وقوله « أحياء » خبر لمبتدأ محذوف أى بل هم أحياء .

وقوله « عند ربهم » يصح أن يكون خبرا ثانيا للمبتدأ المقدر أو صفة لأحياء أو ظرفا له لأن المعنى : يحيون عند ربهم .

والمراد بالمندية هنا المجاز عن القرب والإكرام والتشريف ، أى هم أحياء مقربون عنده ، قد خصهم بالمنازل الرفيعة ، والدرجات العالية ، وليس المراد بها القرب الميكانيكي لاستحالة ذلك في حق الله - تعالى - .

وقوله ، يرزقون ، صفة لقوله ، أحياء ، أو حال من الضمير فيه أى يحيون مرزوقين .

هذا وقد وردت أحاديث متعددة تصرح بأن هذه الآيات الكريمة قد نزلت في شهداء أحد ، ويدخل في حكمهم كل شهيد في سبيل الله ، ومن هذه الأحاديث ما أخرجه أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لما أصيب لإخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش . فلما وجدوا حيب ما كلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ لإخواننا عنا أننا أحياء في الجنة نرزق لثلاث زهدوا في الجهاد ، ولا يشكوا عند الحرب . فقال الله - تعالى - : أنا أبلغهم عنكم . قال : فأنزل الله هؤلاء الآيات ، ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً . . . الخ الآيات .

وأخرج الترمذى وابن ماجه عن جابر بن عبد الله قال : لعيني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا جابر مالى أراك منكسباً مهتماً ، قلت يا رسول الله استشهد أبى - فى أحد - وترك عيالا وعليه دين . فقال : ألا أبشرك بما لقي الله - عز وجل - به أباك ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : إن الله أحيأ أباك وكله كفاحاً - أى مواجهة ليس بينهما حجاب - وما كلهم أحداً قط إلا من وراء حجاب ، فقال له يا عبيدى ممن أعصتكم . قال يارب فردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية . فقال الرب - تعالى - : لأنه قد سبق مني أنهم لإيها لا يرجعون . قال : يارب فأبلغ من ورائى فأنزل الله - تعالى - : ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً . . . الآية .

قال القرطبي - بعد أن ساق هذين الحديثين وغيرهما - ما ملخصه : فقد أخبر الله - تعالى - فى هذه الآيات عن الشهداء أنهم أحياء فى الجنة يرزقون . والذي عليه الكثيرون أن حياة الشهداء محققة . ثم منهم من يقول :

ترد إليهم الأرواح في قبورهم فينعمون ، كما يحيا الكفار في قبورهم فيعذبون .  
 وصار قوم إلى أن هذا مجاز ، والمعنى أنهم في حكم الله مستحقون للتنعم  
 في الجنة . وقال آخرون أرواحهم في أجواف طير خضر وأنهم يرزقون  
 في الجنة وبأكلون ويتنعمون . وهذا هو الصحيح من الأقوال ، لأن ما صح به  
 النقل فهو الواقع . وحديث ابن عباس - الذي سقناه قبل قليل - نص يرفع  
 الخلاف ... (١)

والذي نظمنا إليه النفس : أن الآية الكريمة تنبه على أن للشهداء مزية  
 خاصة تجعلهم يفضلون الموتى المعروفين لدى الناس ، وهي أنهم في حياة سارة ،  
 ونعيم لذيذ ، ورزق حسن عند ربهم . وهذه الحياة الممتازة ترفعهم عن أن  
 يقال عنهم كما يقال في غيرهم : أموات . وإن كان المعنى اللغوي للموت - بمعنى  
 مفارقة الروح للجسد في ظاهر الأمر - حاصلًا للشهداء كغيرهم من الموتى .

إلا أن هذه الحياة البرزخية التي أحياها الله بها عن الشهداء تؤمن بها كإذ كرها  
 الله - تعالى - ولا ندرك حقيقتها . إذ لا يمكن إدراكها إلا من طريق الوحي  
 فقد قال - تعالى - في آية أخرى : ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات  
 بل أحياء ولكن لا تشعرون ، أي ولسكن لا نحسون ولا تدركون حال  
 هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله بمشاعركم وحواسكم ؛ لأنها من شئون الغيب  
 التي لا طريق للعلم بها إلا الوحي .

ثم بين - سبحانه - ما هم فيه من مسرة وحبور فقال : « فرحين بما آتاهم  
 الله من فضله ، أي فرحين فرحا عظيما بعد انتفاطم من الدنيا ، بما أعطاهم الله  
 في حياتهم الجديدة من ضروب النعم المتعددة التي من بينها الثواب العظيم ،  
 والنعيم الدائم ؛ والسعادة التي ليس بعدها سعادة »

وقوله « فرحين ، بصح أن يكون حالا من الضمير في « يرزقون ،  
 أو من الضمير في « أحياء ، وقوله « من فضله ، متعلق بآتاهم .

و من ، يصح أن تكون للسببية أى الذى آتاهم متعصب عن فضله .  
 أو لابتداء الغاية وقوله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ،  
 معطوف على فرحين لتأويله بفرحون . أو هو حال من الضمير فى « فرحين »  
 وهم يستبشرون ...

وأصل الاستبشار : طلب الإشارة وهو الخبر السار الذى تظاهر آثاره  
 على البشارة إلا أن المراد به هنا السرور إستعمالاً للفظ فى لازم معناه .

أى : أن هؤلاء الشهداء فرحين بما آتاهم الله من فضله من شرف الشهادة ،  
 ومن الفوز برضا الله ، ويسرون بما تبين لهم من حسن مآل إخوانهم الذين  
 تركوهم من خلفهم على قيد الحياة ، لأن الأحياء عندما يموتون شهداء مثلهم  
 سينالون رضا الله وكرامته ، وسيظفرون بتلك الحياة الأبدية السكرية كما ظفروا  
 هم بها . فالمراد بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم : رفقاؤهم الذين كانوا يجاهدون  
 معهم فى الدنيا ولم يظفروا بالشهادة بعد ، لأنهم مازالوا على قيد الحياة .

وفى هذا دلالة على أن أرواح هؤلاء الشهداء قد منحها الله - تعالى -  
 من الكشف والصفاء ما جعلها تطلع على ما يسرها من أحوال الذين يومهم شأنهم  
 فى الدنيا .

وقيل : إن معنى « لم يلحقوا بهم » لم يدركوا فضلمهم ومنزلتهم .

وقوله « من خلفهم » متعلق بمحذوف حال من فاعل « يلحقوا » أى لم  
 يلحقوهم متخلفين عنهم باقين بعد فى الدنيا . أو متعلق بقوله « يلحقوا » ذاته  
 على معنى أنهم قد بقوا بعدهم وهؤلاء الشهداء قد تقدموهم .

وقوله « ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » بدل اشتمال من قوله « الذين  
 لم يلحقوا بهم » مبين لسكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم .

والمعنى : ويستبشرون بما تبين لهم من حال الذين تركوهم من خلفهم

في الدنيا من رفقاتهم المجاهدين ، وهو أنهم لاخوف عليهم في المستقبل ولا هم يحزنون على ما تركوه في الدنيا ، بل هم سيكونون آمنين مطمئنين بمدفراهم  
لدنيا وعندما يبعثون يوم القيامة .

ونفي عنهم الخوف والحزن . لأن الخوف يكون بسبب توقع المكروه  
انازل في المستقبل .

والحزن يكون بسبب فوات المنافع التي كانت موجودة في الماضي .  
بين - سبحانه - أنه لاخوف عليهم فيما سيأتهم من أحوال القيامة . ولا حزن  
لهم فيما فاتهم من متاع الدنيا .

وقوله « يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين »  
مستثناة مبين لما هم عليه من مرور يتعلق بذواتهم ، بعد أن بين - سبحانه -  
سرورهم بحال الذين لم يلحقوا بهم ،

والمعنى أن هؤلاء الشهداء يستبشرون أيضاً لأنفسهم بسبب ما أنعم الله  
عليهم به من نعم جزيلة . وبسبب ما تفضل به عليهم من زيادة للكرامة ،  
وهو المنزلة .

وهذا يدل على أن هؤلاء الشهداء لا يهتمون بشأن أنفسهم فقط ، وإنما  
يهتمون أيضاً بأحوال إخوانهم الذين تركوهم في الدنيا ، وفي ذلك ما فيه  
من صفاء نفوسهم . وطهارة قلوبهم ، حيث أحبوا الخير لغيرهم كما أحبوه  
لأنفسهم ، بل إن تقديم استبشارهم بحال إخوانهم على استبشارهم بما يتعلق  
أنفسهم يشعر بأن اهتمامهم بحال إخوانهم أشد من اهتمامهم بحال  
نفسهم .

ويرى بعضهم أن الضمير في قوله « يستبشرون بنعمة ... » يعود على  
لذين لم يلحقوا بهم . فتكون جملة « يستبشرون . » - حالاً من الذين لم يلحقوا  
(سورة آل عمران - ٢٩)

وعليه يكون المعنى أن هؤلاء الذين لم يلحقوا بهم لا خوف عليهم ولا حزن  
فهم مستبشرون بنعمة من الله وفضل . . . .

وقوله « وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » معطوف على « نعمة من الله  
وفضل » وهذا على قراءة الجمهور بفتح همزة أن على معنى وبأن . . .

والتقدير : يستبشرون بنعمة من الله وفضل وبأن الله - تعالى - لا يضيع  
أجر المؤمنين ، وإنما سيعطيهم النصر والعزة والكرامة جزاء جهادهم .

وقرأ الكسائي « وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين » بكسر همزة إن على  
الاستئناف والمقصود من الآية الكريمة بيان أن كل مؤمن يخاف مقام ربه  
ويتهى نفسه عن الهوى ، ويجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله فإن الله - تعالى -  
لا يضيع شيئاً من أجره ، بل يعطيه من الجزاء الحسن - بفضله وإحسانه -  
أكثر مما يستحق .

ثم مدح - سبحانه - المؤمنين الصادقين الذين لم تمنعهم جراحهم وآلامهم  
عن الاستجابة لأمر رسولهم - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - :  
« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم  
واقتوا أجر عظيم » .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : اعلم أن الله - تعالى - مدح المؤمنين على  
غزوتين تعرف لإحدهما : بغزوة حمراء الأسد ، والثانية : بغزوة بدر الصغرى .  
وكلاهما متصلة بغزوة أحد .

أما غزوة حمراء الأسد فهي المرادة من هذه الآية ، فإن الأصح في سبب  
نزولها أن أبا سفيان وأصحابه بعد أن انصرفوا من أحد وبلغوا الروحاء ،  
ندموا وقالوا : إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل فلم تركناهم ؟ بل الواجب  
أن نرجع ونستأصلهم ، فموا بالرجوع .

فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهب الكفار  
ويرهب من نفسه ومن أصحابه قوة . فندب أصحابه إلى الخروج في طلب

أبي سفيان وقال : لا أريد أن يخرج الآن معي إلا من كان معي في القتال  
- في أحد -

فخرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع قوم من أصحابه حتى بلغوا حمراء  
الأسد . وهي مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة .

فأتى الله الرعب في قلوب المشركين فانهزموا .

وروى أنه كان فيها من يحمل صاحبه على عنقه ساعة ، ثم كان المحمول  
يحمل الحامل ساعة أخرى . وكان كل ذلك لإثخان الجراح فيهم . وكان  
فيهم من يتوكأ على صاحبه ساعة ويتوكأ عليه صاحبه ساعة .

وقوله « استجابوا » بمعنى أجابوا . وقيل : استجابوا ، أصلها طلبوا  
الإجابة لأن الأصل في الاستفعال طلب الفعل . والقرح : الجراح الشديدة

والمعنى : أن الله - تعالى - لا يضيع أجر هؤلاء المؤمنين الصادقين ، الذين  
أجابوا داعي الله وأطاعوا رسوله ، بان خرجوا للجهاد في سبيل عقيدتهم  
بدون وهن أو ضعف أو استكانة مع ما بهم من جراح شديدة ، وآلام مبرحة .  
ثم بين - سبحانه - جزاءهم فقال : للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ،  
أى الذين أحسنوا منهم بأن أدوا جميع المأمورات ، واتقوا الله في كل أحوالهم ،  
بأن صانوا أنفسهم عن جميع المهنيات ، هؤلاء أجر عظيم لا يعلم كنهه إلا  
الله - تعالى - .

وقوله « الذين استجابوا ... » في موضع رفع على الابتداء وخبره قوله  
« للذين أحسنوا ... » ويجوز أن يكون في موضع جر على أنه صفة للمؤمنين  
في قوله : « وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين قال صاحب الكشاف : و « من »  
في قوله « للذين أحسنوا منهم » ، للتبيين مثلها في قوله - تعالى - وعد الله الذين  
آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجر عظيماً . لأن الذين استجابوا لله  
والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم .. » (١)

ثم مدحهم - سبحانه - على ثباتهم وشجاعتهم وحسن اعتمادهم على خالقهم - عز وجل - ، بعد أن مدحهم قبل ذلك على حسن إستجابتهم لله ورسوله فقال - تعالى - : الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : نزلت هذه الآية فى غزوة بدر الصغرى ، وذلك أن أبا سفيان لما عزم على الانصراف إلى مكة فى أعقاب غزوة أحد نادى . يا محمد موعدنا موسم بدر الصغرى فنقتتل بها إن شئت . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لعمر : قل له بيتنا وبينك ذلك إن شاء الله .

فلما حضر الأجل خرج أبو سفيان مع قومه حتى نزل بمر الظهران ، فالتقى الله الرعب فى قلبه ، فبدأ له أن يرجع . فالتقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمراً فقال له : يا نعيم : لانى وعدت محمداً أن تلتقى بموسم بدر ، وإن هذا عام جذب ولا يصلحنا إلا عام زرعى فيه الشجر ، ونشرب فيه اللبن . وقد بدأ لى أن أرجع . ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاد بذلك جرأة علينا ، فاذهب إلى المدينة فبسطهم ولك عندى عشرة من الإبل

فخرج نعيم إلى المدينة فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم : ما هذا بالرائى . أتوكم فى دياركم وقتلوا أكثركم فإن ذهبتم إليهم لم يرجع منكم أحد .

فوقع هذا الكلام فى قلوب قوم منهم . فلما رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك قال : والذي نفسى بيده لا أخرجن إليهم ولو وحدي ، .

ثم خرج - صلى الله عليه وسلم - فى جمع من أصحابه ، وذهبوا إلى أن وصلوا إلى بدر الصغرى - وهى ماء لبني كنانة وكانت موضع سوق لهم يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام - ولم يلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه أحداً من المشركين .

ووافقوا السوق وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا أدما  
زيبياً ، وربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين .  
أما أبو سفيان ومن معه فقد عادوا إلى مكة بعد أن وصلوا إلى مر  
ظهران (١) ...

وقيل إن الذين تابعهم أبو سفيان عند خروجه من مكة هم جماعة من بني  
بد القيس وقد قال لهم ما قاله لنعيم بن مسعود عندما أزمع العودة إلى مكة  
بد أن قذف الله الرعب في قلبه من لقاء المسلمين .

وعلى آية حال ففي سبب نزول هذه الآية والتي قبلها أقوال أخرى المفسرين  
كتفينا بما ذكرناه خشية الإطالة ...

وقوله ، الذين قال لهم الناس ، يدل من قوله ، الذين استجابوا لله  
الرسول ، أو صفة له : أو في محل نصب على المدح أى أمدح الذين قال لهم  
ناس . الخ .

والمراد بالموصول في الآيتين طائفة واحدة من المؤمنين وهم الذين لم  
نصم الجراح عن الخروج للقتال ، ولم يرهبهم قول من قال لهم بعد ذلك  
ن الناس قد جمعوا لكم .

والمراد من الناس الأول وهو قراه ، الذين قال لهم الناس ، جماعة بني  
بد القيس أو نعيم بن مسعود .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف قيل ، الناس ، إن كان نعيم هو  
شبط وحده ؟ قلت : قيل ذلك ؛ لأنه من جنس الناس كما يقال : فلان يركب  
ثيل ، ويلبس البرود وما له إلا فرس واحد ويرد فرد . أو لأنه حين قال

ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه ، ويصلون جناح كلامه ،  
ويذبون مثل تبيطه<sup>(١)</sup> .

والمراد من الناس الثاني وهو قوله : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم .  
أبو سفيان ومن معه . قال فيهما للعهد ، والناس الثاني غير الأول .

وقوله - تعالى - حكاية عن هؤلاء المشبطين : « إن الناس قد جمعوا  
لكم فاخشوهم ، أى إن أعدادكم المشركين قد جمعوا لكم جموعا كثيرة  
ليستأصلوكم ، فاخشوهم ولا تخرجوا لقتالهم .

وحذف مفعول « جمعوا » ، فلم يقل : جمعوا جيشا كبيرا أو جمعوا أنفسهم  
وعبدهم وأحلافهم وذلك ليذهب الخيال كل مذهب في مقدار ما جمعوا من  
رجال وسلاح وأموال ، ولكن هذا القول الذى صدر من هؤلاء المشبطين ،  
لم يلتفت إليه المؤمنون الصادقون المخلصون في جهادهم وفى اعتمادهم على  
خالقهم ، بل كانوا كما أخبر الله - تعالى - عنهم « فرادى إيماناً وقالوا :  
حسبنا الله ونعم الوكيل » .

أى أن هذا القول الذى قاله المشبطون ، زاد المؤمنين إيماناً على إيمانهم ،  
ويقينا على يقينهم ، وثباتاً على ثباتهم ، وجعلهم يقولون المرجفين بثقة  
واطمئنان : « حسبنا الله ، أى كافينا الله أمر أعدائنا ، ونعم الوكيل ، أى  
نعم النصير خالقنا - عز وجل - فهو الموكول إليه أمرنا ومصيرنا .

وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على قوة إيمانهم ، وشدة ثقتهم فى نصر الله  
- تعالى - لهم ، مهما كثر عدد أعدائهم ، ومهما تعددت مظاهر قوتهم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف رادهم نعم أو مقوله إيماناً ؟  
قلت : لما لم يسمعوا قوله وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد ، وأظهروا

حمية الإسلام كان ذلك أثبت ليقينهم ، وأقوى لاعتقادهم . كما يزداد الإيقان  
بتناصر الججج . ولأن خروجهم على أثر تهيئته إلى جهة العدو طاعة عظيمة ،  
والطاعات من جملة الإيمان ، لأن الإيمان إعتقاد وإقرار وعمل . وعن ابن عمر :  
قلنا يا رسول الله : إن الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم . يزيد حتى يدخل  
صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار . وعن عمر - رضى الله عنه -  
أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نزيد إيماناً . وعنه : لو وزن إيمان  
أبي بكر إيمان هذه الأمة لرجح به (١) .

وقال ابن كثير : روى البخارى عن ابن عباس : قال : «حسبنا الله  
ونعم الوكيل» ، قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى به في النار . وقالها  
محمد صلى الله عليه وسلم - حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم  
فاخشوهم .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - قال إذا وقعت في الأمر العظيم فقولوا : «حسبنا الله ونعم الوكيل» (٢) .

ثم حكى - سبحانه - ما تم لهؤلاء المجاهدين الذين خرجوا للقاء أعدائهم  
من عاقبة حسنة وعود حميد فقال - تعالى - : «فاتقبلوا بنعمة من الله وفضل  
لم يمسسهم سوء» ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم .

فإنهاء في قوله «فاتقبلوا بنعمة من الله وفضل» ،، للتعقيب ، وهى معطوفة  
على مقدر دل عليه السياق .

ومعنى «فاتقبلوا» هادوا ورجعوا .

والنعمة : هى العطاء الذى ينفع صاحبه . والفضل : الزيادة فى العطاء  
والنعمة .

(١) تفسير ج ١ ص ٤٤٢

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٣٠

والمعنى : أن هؤلاء المجاهدين الصادقين خرجوا للقاء أعدائهم بدون وهم أو ضيف أو استكناة فلم يجدوهم ، فرجعوا إلى ديارهم مصحوبين بـ « بنعمة » عظيمة « من الله » - تعالى - . إذ خذل أعداءهم ، وسلمهم من شرورهم ، ومصحوبين بفضل جليل منه - سبحانه - حيث أعانهم عليهم ربما وفيرا في تجارتهم ، وأجرأ جز بلا بسبب قوة إيمانهم ، وإخلاصهم في دينهم .

قال الآلوسى : روى البيهقي عن ابن عباس أن عيرأمرت في أيام الموسم - أي موسم بدر - فاشتراها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فربح مالا قسمه بين أصحابه فذلك الفضل .

وأخرج ابن جرير عن السدي قال : أعطى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين خرج في غزوة بدر الصغرى أصحابه دراهم ابتاعوا بها في الموسم ، فأصابوا تجارة - فربحوا فيها - (١) .

وقوله « بنعمة » في موضع الحال من الضمير في « فأنقلبوا » فتكون الباء لللباسة أو للمصاحبة فكأنه قيل : فأنقلبوا ملبسين بـ « بنعمة » أو مصاحبين لها . وقوله « من الله » متعلق بمحذوف صفة لـ « بنعمة » وهو مؤكد لفخامتها وأنها نعمة جزيلة لا يقدر قدرها .

وقوله « لم يمسه سوء » أي لم يصبهم أي أذى أو مكروه عند خروجهم وعودتهم .

والجمله في موضع الحال من فاعل « انقلبوا » أي رجعوا منعمين مبرئين من السوء والأذى .

وقوله « واتبعوا رضوان الله » معطوف على قوله « فأنقلبوا » . أي اتبعوا ما يرضى الله ويوصلهم إلى ثوابه ورحمته ، باستجابتهم لرسولهم - صلى الله عليه وسلم - وخروجهم للقاء أعدائهم بإيمان عميق ، وعزم وثيق .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أخبر عن هؤلاء المجاهدين المخلصين أنهم قد صحبهم في عودتهم أمور أربعة :

أولها النعمة العظيمة . وثانيها الفضل الجزيل ، وثالثها السلامة من السوء . ورابعها : إتباع رضوان الله .

وهذا كله قد منحه الله لهم جزاء لإخلاصهم ونباتهم على الحق الذي آمنوا به . ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ، والله ذو فضل عظيم .

أى والله - تعالى - صاحب الفضل العظيم الذى لا يحسده حصر ، ولا يحصيه عد هو الذى تفضل على هؤلاء المؤمنين الصادقين بما تفضل به من عطاء كريم . وثواب جزيل .

وفى هذا التذييل زيادة تبشير للمؤمنين برعاية الله لهم ، وزيادة تحبير للمتخلفين عن الجهاد فى سبيله - عز وجل - ، حيث حرموا أنفسهم عما قال به المؤمنون الصادقون .

ثم أمر الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يجعلوا خشيتهم وخوفهم منه وحده ، فقال - تعالى - : إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين .

فالخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين ، والإشارة بذلك إلى المشط بالذات أو بالواسطة .

وقوله ، إنما ، أداة حصر ، وذلك ، مبتدأ ، ود الشيطان ، خبره ، وقوله : ، يخوف أوليائه ، جملة مستأنفة بيينة لشيئنته .

وقيل إن ، ذلكم ، مبتدأ أول ، ود الشيطان ، مبتدأ ثان . وقوله ، يخوف أوليائه ، خبر للمبتدأ الثانى ، وهو وخيره خير للمبتدأ الأول .

والمراد بالشيطان إبليس لأنه علم بالغلبة عليه ولائه هو الذى يخوف بالوسوسة . وقيل المراد به أتباعه الذين دسهم لسكى يرهبوا المؤمنين من الكافرين وهم جماعة بنى عبد القيس أو نعيم بن مسعود الجاشمي .

لأنما ذلك المبط لكم عن لقاء أعدائكم هو الشيطان ، الذي يوسوس في قلوبكم بالشر بذاته ، أو بواسطة أتباعه الضالين ، ومن شأن المؤمنين الصادقين أنهم لا يتأثرون بهذه الوسوس الكاذبة ، وإنما الذين يتأثرون بهام ضعف الإيمان :  
وقوله ، يخوف أوليائه ، أى يخوف أوليائه المنافقين وضعفاء الإيمان ليقعدوا عن مقاومة المشركين ، أما أنتم أيها المؤمنون الصادقون فإنكم لن يقعدكم تخويفه ، لأن هذا التخويف لا أثر له في قلب من آمن بآفة حق الإيمان ، واتقاه حق تقاته .

وقيل إن معنى ، يخوف أوليائه ، يخوفكم بأوليائه فحذف المفعول الثانى وحذف الجار . كما في قوله ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، أى فإذا خفت عليه فرعون . فحذف المفعول . وكفى قوله ، لينذر يوم التلاق ، أى لينذركم بيوم التلاق .

وقيل إن المعنى : يخوفكم أوليائه فحذف المفعول الأول كما تقول : أعطيت الأموال . أى أعطيت القوم الأموال .

وقوله ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ، أى فلا تخافوا أوليائه الشيطان ، بل اجعلوا خوفكم منى وحدى ، إن كنتم مؤمنين حقا .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة تشجيعهم ؛ وتقويتهم ، وإلهاب شعورهم ، إذ الإيمان الحق يستلزم الخوف من الله دون أحد سواه .

والمراد بالنهى عن الخوف وهو أمر نفسى : النهى عن أسبابه التى من أهمها حب الدنيا وكرهية الموت . أى خذوا بأسباب القوة التى من أهمها التمسك بتقوى الله فإن ذلك يزيل الخوف من قلوبكم ،

وفى المقابلة بين النهى عن الخوف من أوليائه الشيطان ، وبين الأمر بأن يكون خوفهم من الله وحده ، فى هذه المقابلة إرشاد إلى العلاج الذى يزيل الخوف والفرع من نفوسهم . لأن الذى يجعل خشيته وخوفه من الله وحده

لن يستطيع الشيطان أو أولياؤه أن يبعده عن الطريق القويم وصدق الله إذ يقول: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان .

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد رفعت منازل الشهداء إلى أعلا الدرجات ، وصرحت بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون . . . كما أنفت ثناء مستطابا على الذين لبوا دعوة رسولهم - صلى الله عليه وسلم - حين دعاهم إلى الجهاد في سبيل الله ، ولم يمنهم عن إجابة دعوته ما بهم من جراح ، أو ما قاله لهم المرجفون من أقوال باطلة ، فرضى الله عنهم وأرضاهم .

ثم أخذ القرآن في تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - عما يراه من كفر الكافرين . وعناد المعاندين ، وفي بيان أن كفر الكافر إنما يعود عليه ضرره لا على غيره ، وأنه - سبحانه - يعلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وأن حكمته - سبحانه - تقتضى تمييز الحديث من الطيب ، فقال - تعالى - :

« وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنَبْضَرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ الْأَلْبَابَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَبْضَرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُطَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِعْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَسْذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيْ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) » .

الخطاب في قوله - تعالى - « ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر . . . »  
 للنبي - صلى الله عليه وسلم - والمقصود منه تسليته وإدخال الطمأنينة على قلبه،  
 حتى لا يتأثر بما يراه من كفر الكافرين ، ونفاق المنافقين ، ونسق الفاسقين .

أى : لا يحزنك ولا يثر في نفسك الحسرات يا محمد ، حال أولئك القوم  
 الذين « يسارعون في الكفر » ، أى يتوغلون فيه ، ويتمجلون في إظهاره وتأييده  
 والعمل به عند سنوح الفرص ، ويقعون فيه سر بعا من غير تريب أو تدبر  
 أو تفكير . والمقصود بالنبى عن الحزن النبى عن الاسترسال فيه وفى الأسباب  
 التى تؤدى إليه ، كأن يظن - صلى الله عليه وسلم - أن كثرة الضالين ستؤدى  
 إلى انتصارهم على المؤمنين .

وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف فقال : « يسارعون في الكفر »  
 يقعون فيه سر بعا ، ويرغبون فيه أشد رغبة . وهم الذين نافقوا من المتخلفين  
 وقيل : هم قوم ارتدوا عن الإسلام . فإن قلت : فما معنى قوله « ولا يحزنك »  
 ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من نافق وارتداد من ارتد ؟ قلت : معناه :  
 لا يحزنوك لخوف أن يضروك ويعينوا عليك . . . » (١) .

ولتضمن المسارعة معنى الوقوع تعدت بحرف « فى » دون حرف « إلى »  
 الشائع تعديتها بها كما فى قوله - تعالى - « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم . . . » .

وقوله « إنهم لن يضروا الله شيئا » ، تعليل للنهى عن أن يحزنه تسارعهم  
 فى الكفر أى : لا يحزنك يا محمد حال هؤلاء المارقين الذين يسارعون فى الكفر  
 وينتقلون فيه من دركة إلى دركة أقبح من سابقتها ، فإنهم مهما تبادوا فى كفرهم  
 وضلالهم ومحاولتهم لإضلال غيرهم ، فإنهم لن يضروا دين الله أو أوليائه  
 بشئ . من الضرر حتى ولو كان ضرراً يسيراً .

فى الكلام حذف مضاف والتقدير إنهم لن يضروا أولياء الله شيئا .

وفي هذا الخذف تشریف للمؤمنين الصادقين، وإشعار بأز مضادتهم بمنزلة مضارته - سبحانه - وفي الحديث القدسي : من عادى لي وليا فقد آذنته بحرب ،

ولقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - بمقتضى طبيعته البشرية ، وغيرته على دين الله - تعالى - يحزن لإعراض المعرضين عن الحق الذي جاء به ، ولقد حكي القرآن ذلك في كثير من آياته ، ومنه قوله - تعالى - ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ، (١) وقوله - تعالى - ، لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً (٢) .

فأراد - سبحانه - في هذه الآية الكريمة وأمثالها أن يزيل من نفس رسوله - صلى الله عليه وسلم - هذا الحزن الذي نتج عن كفر الكافرين ، وأن يطمئنه إلى أن العاقبة ستكون له ولأنبائه المؤمنين الصادقين .

وقوله يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ، إستئناف لبيان جزائهم على كفرهم في الآخرة ، بعد أن بين - سبحانه - عدم إضرارهم لأوليائهم في الدنيا .

أى : لا ينبغي لك يا محمد أن تحزن لمسارعة هؤلاء الضالين في الكفر ، فإنهم لن يضرُوا أوليائهم بشيء من الضرر ، ولأن كفرهم ليس مراغمة لله حتى تحزن ، وإنما هو بإرادته ؛ لأنه أراد ألا يكون لهم حظاً أو نصيب من الخير في الآخرة بسبب إستحبابهم العمى على الهدى . ولهم مع هذا الحرمان من الخير في الآخرة عذاب عظيم ، لا يعلم مقدار آلامه وشدته إلا الله تعالى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : لا يجعل الله لهم حظاً في الآخرة ، وأى فائدة في ذكر الإرادة ؟ قلت : فائدته الإشعار بأن الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصاً لم يبق معه صارف قط حين سارعوا

(١) - سورة فاطر الآية ٨

(٢) - سورة الكهف الآية ٩

في الكفر ، تنبيها على تماديهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه . - تو إن أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم ، (١) .

ثم أكد - سبحانه - هذا الحكم وقرره فقال : : إن الذين إشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ، ولهم عذاب أليم ، .

والاشتراء في الآية المكريمة بمعنى الاستبدال على سبيل الاستعارة التخييلية فقد شبه - سبحانه - المكافر الذي يترك الحق الواضح الذي قامت الأدلة على صحته ويختار بدله الضلال الذي قامت الأدلة على بطلانه ، بمن يكون في يده سلعة ثمينة جيدة فيتركها ويأخذ في مقابلها ساعة رديئة فاسدة .

والمعنى أن الذين إستبدلوا الكفر بالإيمان ، لن يضروا دين الله ولا رسوله ولا أوليائه بشئ من الضرر ، وإنما يضرون بفعلهم هذا أنفسهم ضروراً بليغاً ولهم في الآخرة عذاب مؤلم شديد الإبلام ، بسبب إشتراكهم الفنى على الرشد ، والكفر على الإيمان ، والشر على الخير .

ثم بين - سبحانه - أن ما يتمتع به الأشرار في الدنيا من متع إنما هو إستدراج لهم ، فقال - تعالى - : ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم . . . . .

وقوله : نملي لهم ، من الإملاء . وهو الإمهال والتخليط بين العامل والمعمل كيبلغ مداه .

يقال : أملى فلان لفرسه إذا أرخى له الطول ايرعى كيف شاء . . . . .

ويطلق الإملاء على طول المدة ورغد العيش .

والمعنى : : ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم ، بتطويل أعمارهم ، وإعطائهم الكثير من وسائل العيش الرغيد هو ، : خير لأنفسهم ، كلا ،

بل هو سبب للزيد من عذابهم ، لأننا « إنما نملئ لهم ليزدادوا إنما ، بكثرة إرتكابهم للمعاصي ، ولهم ، في الآخرة » عذاب مهين ، أى عذاب ينالهم بسببه الذل الذى ليس بعده ذل والهوان الذى يتصاغر معه كل هوان .

وقوله « ولا يحسبن ... إلخ ، عطف على قوله - تعالى - ، ولا يحزنك . ويكون النهى عن الظن متجها للذين كفروا ليعلموا سوء عاقبتهم .

ويكون مفعولا بحسب قد سد مسددها أن المصدرية وما بعدها و « ما » فى قوله « إنما نملئ لهم ، بحوز أن تكون مصدرية ، وأن تكون موصولة حذف عائدها . وقد كتبت متصلة بأن مع أن من حقا أن تكتب منفصلة عنها إتباعا للمصحف الإمام أى لا يحسبن الكافرون أن إملأنا لهم أو أن الذى فعله لهم من تأخير حياتهم ، وإتصا بهم فى الحروب فى بعض الأحيان هو خير لهم .

وقرأ حمزة « ولا تحسبن الذين كفروا ... فىكون الخطاب بالنهى متجها إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ويكون المفعول الأول لحسب هو « الذين كفروا » وقوله : « إنما نملئ لهم خير لأنفسهم ، بدل من الذين كفروا سادا مسد المفعول الثانى ؛ أو يكون هو المفعول الثانى .

والمعنى : لا تحسبن يا محمد ولا يحسبن أحد من أمتك أن إملأنا للذين كفروا هو خير لأنفسهم ، بل هو شر لهم ، لأننا ما أعطيناكم الكثير من وسائل العيش الرغيد إلا على سبيل الإستدراج ، وسنعاقبهم على ما إرتكبوه من آثام عقابا عسيرا .

وقوله « إنما نملئ لهم ليزدادوا إنما ... » إستئناف واقع موقع التعليل للنهى عن حسابان الإملاء خيرا للكافرين .

أى إنما نزيدهم من وسائل العيش الرغيد ليزدادوا آثاما بكثرة إرتكابهم للسيئات فتكون نتيجة ذلك أن نزيدهم من العذاب المهين الذى لا يستطيعون دفعه أو التهرب منه .

و «إنما» في قوله «إنما نملئ لهم...» أداة حصر مركبة من «إن» التي هي حرف توكيد ومن «ما» الزائدة الكافّة .

واللام في قوله «يزدادوا إنما» هي التي تسمى بلام العاقبة كما في قوله - تعالى - «فإن تقطع آل فرعون ليجكون لهم عدوا وحزنا» (١) .

أى إنما نملئ لهم فيزدادوا إنما . فلما كان ازدياد الإثم ناشئاً عن الإملاء كان كالعلة له . وكانت نتيجة هذا الإملاء أن وقعوا في العذاب المميين . وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - «ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون» (٢) .

وقوله - تعالى - «قدرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» وأملئ لهم أن كيدى متمين» (٣) .

ثم بين - سبحانه - بعض الحكم التي اشتملت عليها غزوة أحد فقال - تعالى - «ما كان الله ليجزر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب...»

وقوله ليجزر ، أى ليترك . والمراد بالمؤمنين : المخلصون الذين صدقوا في إيمانهم والمراد بقوله «على ما أنتم عليه» أى اختلاط المؤمنين بالمنافقين واستواؤهم في إجراء الأحكام .

ومعنى يميز يفصل . وقرئ . يميز أى يحدد ويبين .

والمراد بالخبيث : المنافق ومن على شاكلته من ضعاف الإيمان .

والمراد بالطيب : الصادق في إيمانه .

والمعنى : ليس من شأن الله - تعالى - ولا من حكمته وسنته في خلقه

(١) سورة القصص الآية ٨ .

(٢) سورة التوبة الآية ٨٥ .

(٣) سورة القلم الآيتان ٤٤ ؛ ٤٥ .

ن يترككم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه من الاثبات واختلاط المنافقين  
كم ، بل الذي من شأنه وسنته أن يتليكم ويمتحنكم بالوان المصائب والشدائد  
حتى يتميز المؤمن من المنافق ، وينفصل الأخيار عن الأشرار .

قال ابن كثير : أي لا بد أن يعقد سبباً من المحنة ، يظهر فيه وليه ويفضح  
ه عوره ، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر ، يعنى بذلك يوم أحد  
الذى امتحن الله به المؤمنين فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وضاعتهم  
له ولرسوله وهتك به أستار المنافقين ، فظهرت مخالفتهم ، ونكولهم عن الجهاد ،  
وخيانتهم لله ولرسوله . قال مجاهد : ميز بينهم يوم أحد . . . (١) .

وعبر - سبحانه - عن المؤمن بالطيب ، وعن المنافق بالخبث ، ليسجل على  
كل منهما ما يليق به من الأوصاف ، والإشعار بعله الحسك .

وقوله ، وما كان الله ليطلعنكم على الغيب ولكنه الله يحتي من رسوله ان  
يشاء ، معطوف على قوله ، ما كان الله ليذر . . .

والغيب : ضد المشاهد ، وهو كل ما غاب عن الخواص ولا يمكن معرفته  
إلا عن طريق الوحي من الله - تعالى - تلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - .  
واجتي : من الاجتباء بمعنى الاختيار والاصطفاء .

أي : وما كان الله - تعالى - ليطلع أحداً منكم - معشر المؤمنين -  
علم الغيوب الذي به تعرفون المؤمن من المنافق ، إذ علم ذلك له وحده . ولكنه  
- سبحانه - يصطفى من رسوله من يريد اصطفاؤه فيطلع على بعض الغيوب ،  
ذلك كما حدث لتيسكم - صلى الله عليه وسلم - فقد أطلعه - سبحانه - على  
بأدبره له اليهود حين هموا باغتياله ، وأطلعه على حال تلك المرأة التي أرسلها  
حاضب بن أبي بلتعمة برسالة إلى قريش لتخبرهم باسته ، إذ الرسول  
- صلى الله عليه وسلم - لخرهم ، وأطلعه على بعض أحوال المنافقين .

(١) - ان كثير ج ١ ص ٤٣٢ .

قال - تعالى - « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول . . . » ، وفي قوله - تعالى - « ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ، لإبذان بأن الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبية ، لا يتأتى إلا بمن رشحه الله - تعالى - لمنصب جليل ، تقاصرت عنه همم الأمم ، واصطفاه على الناس لإرشادهم .

ثم أمر الله - تعالى - عباده أن يثبتوا على الإيمان وبشرهم بالأجر العظيم إذا هم استمروا على ذلك فقال : « فأمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم . . »

أى : إذا علمتم أيها المؤمنون أن الله لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول (١) ، فإنه يجب عليكم أن تؤمنوا بالله - ورسله حق الإيمان ، وتتقوا المخالفة في الأمر والنهي ، فالكم في مقابلة ذلك من الله تعالى - ما لا يقادر قدره من الثواب العظيم ، والأجر الجزيل .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء مصير الذين يبخلون بنعم الله فلا يؤدون حقها ، ولا يقومون بشكرها فقال - تعالى - : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم . . . »

وقوله « يبخلون » ، من البخل وهو ضد الجود والسخاء ، ومعناه : أن يقبض الإنسان يده عن إعطاء الشيء لغيره ، وأن يحرص حرصاً شديداً على ما يملكه من مال أو علم أو غير ذلك .

ويرى جمهور المفسرين أن المراد بالبخل هنا البخل بالمال ، لأنه هو الذي يتفق مع السياق .

ويرى بعضهم أن المراد بالبخل هنا البخل بالعلم وكتابه ، وذلك لأن اليهود كتموا صفات النبي - صلى الله عليه وسلم - التي جاءت بها التوراة .  
والذي نراه أن ما عليه الجمهور هو الأرجح ، لأنه هو المتبادر من معنى الآية ، وهو المتفق مع سياق الكلام .

ولذا قال الألويسي : قوله - تعالى - « ولا يحسبن الذين يبخلون : » ، بيان لحال البخل وسوء عاقبته ، ونخطة لأهله في دعواهم خيرته حسب بيان حال الإيملاء .

وقيل : وجه الارتباط أنه - تعالى - لما بالغ في التحريض على بذل الأرواح في الجهاد وغيره ، شرع هنا في التحريض على بذل المال ، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل به . . . .

والمعنى : ولا يظنن أولئك الذين يبخلون بما أعطاهم الله من نعم وأموال أن يظلمهم به فيه خير لهم ، كلا ، بل إن يظلمهم هذا فيه شر عظيم لهم .  
والنهي عن الحسبان بأن البخل فيه خير في قوله « ولا يحسبن الذين يبخلون . . . » يدل على النفي المؤكد .

أى لا يصح لهم أن يظنوا بأية حال من الأحوال أن ذلك البخل فيه خير لهم ، بل الحقيقة أن فيه شراً كبيراً لهم .

وفي قوله « بما آتاهم الله ، إشعار بسوء صنيمهم ، وخبث نفوسهم ، حيث يخلوا بشيء ليس وليد علمهم واجتهادهم ، وإنما هذا الشيء منحه الله - تعالى - لهم بفضلته وجوده ، فكان الأولى لهم أن يشكروه على ما أعطى ، وأن يبذلوا بما أعطاهم في سبيله .

والضمير « هو » ، يعود على البخل المستفاد من قوله « يبخلون » .  
ويرى الزمخشري أنه ضمير فصل لتأكيد نفي الظن في التحيرية .  
وفي إعادة الضمير ، وذكر الجملة الإسمية في قوله « بل هو شر لهم » تأكيد

لمعنى الشر فى البخل ، وأنه لاخير من ورائه قط ، فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم . . . » .

ثم بين - سبحانه - المصدر المؤمل لأولئك البخلاء فقال - تعالى - « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » .

وقوله « سيطوقون » مشتق من الطوق . وهو ما يلبس من أسفل الرقبة . أى نجعل أمهاتهم أطواقا حول رقابهم ، وأغلالا حول أجسادهم ، فيعذبون هذا بما ألبما بحملها .

وجهور المفسرين على أن الكلام على ظاهره ، وأن عذاب هؤلاء البخلاء بنعم الله ، سيكون نوعا من العذاب الأخرى المحسوس . وقد أيد للقرطبي هذا الاتجاه فقال :

« وهذه الآية نزلت فى البخل بالمال والإنفاق فى سبيل الله وأداء الزكاة المفروضة ذهب إلى هذا جماعة من المتأولين ، منهم : ابن مسعود وابن عباس وأبو وائل . . . » .

قالوا : ومعنى « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » ، هو الذى ورد فى الحديث عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلزمتيه - أى شذقيه - ثم يقول له : أنا مالك أنا كنزك . ثم تلا هذه الآية : « ولا يحسن للدين يبخلون بما آتاهم الله من فضله . . . » (١) .

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٩١ وللشجاع : الثيبان الذكر الذى يقوم على ذئبه و انت الراجل والفارس والأقرع : هو الذى يكون أملس الجلد كثير اللحم . والزبيبتان الذئكتان والسوداران فوق عينيه .

ويرى بعض العلماء أن هذا الوعيد على سبيل التمثيل ، وأن الظاهر غير مراد ومعنى قوله ، سيطوقون ما بخلوا به . . . عند هذا البهض ؛ أى : سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة عقوبة لهم ، فلا يأتون لأنهم ليس في قدرتهم ذلك .

أو المعنى : سيلزمون وبال ما بخلوا به ازوم الطوق ، ويتحملون وزر ذلك يوم القيامة .

فالآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى الخود والسخاء من أجل إعلاء كلمة الله ، وتتوعد البخلاء بأقصى ألوان الوعيد وأفظعها . وتبين أن كل مافى هذا الكون إنما هو ملك لله - تعالى - وحده ، فهو المعطى وهو المانع ، ولذا قال - تعالى - : « والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير » .

والميراث : مصدر كالمعاد . وأصله موراث فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . والمراد به ما توارث .

والمعنى : أن الله - تعالى - وحده لا لأحد غيره مافى السموات والأرض بما يتوارثه أهلها من مال وغيره ، فما بال هؤلاء القوم يبخلون عليه بما يملكه ، ولا ينفقونه في سبيله . وعلى هذا يكون الكلام جار على حقيقته ولا مجاز فيه .

ويصح أن يكون المعنى : أن الله - تعالى - يرث من هؤلاء مافى أيديهم بما بخلوا به من مال وغيره وينتقل منهم إليه حين يموتهم ويفنهم ، وتبقى الحسرة والندامة عليهم . وعلى هذا يكون الكلام على سبيل المجاز .

قال الزجاج : أى أن الله - تعالى - يفتى أهلها . فيفتيان بما فيها ، فليس لأحد فيها ملك . فخرطوا بما يملكون ؛ لأنهم يحملون ما يرجع إلى الإنسان ميراثا ، ملكا له .

وقوله « والله بما تعملون خبير » ، تذييل قصد به حضمهم على الإنفاق ، ونهيهم عن البخل . أى أن الله - تعالى - خبير ومطلع على ما يصدر عنكم من سخاء

أو يجل أو غيرهما، وسيجازى الذين أساؤا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ساقَت ألوانا من التسليبة للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولاتباعه، وبشرتهم بأن العاقبة ستكون لهم، وفضحت المنافقين وهتك ما استروا به من رياء وخداع، وبينت أن من سنن الله في خلقه أن يتلى عباده بشتى ألوان البلاء ليتميز الخبيث من الطيب، وأنه سبحانه يعلى للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وأن البخلاء بما آتاهم الله من فضله ستكون عاقبتهم شرا، وهصيرهم إلى العذاب الأليم .

ثم أخذت السورة الكريمة - بعد أن فضحت المنافقين - في الحديث عن بعض رذائل أهل الكتاب، وفي التحذير من شرورهم، وفي بيان طبيعة هذه الحياة وما تحمله من بلاء واختبار فقال - تعالى - :

«لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا الْأَتْوَينَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقْرَانِ تَأْكُلُهُ النَّارُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ الْأَجْرَ كُلَّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ الْعُرُورِ (١٨٥) لَتَبْلُوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ آوَأْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا

أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتنقوا فإن ذلك من عزم الأمور (١٨٦)  
 وإذا أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه  
 فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون (١٨٧)  
 لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا  
 فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم (١٨٨) .

قال ابن كثير: عن ابن عباس قال: لما نزل قوله - تعالى - « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » ، قالت اليهود : يا محمد !! افتقر ربك فسأل عباده القرض ، فأنزل الله هذه الآية .

وروى محمد بن إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس ، فوجد من يهود ناساً كثيرة - اجتمعوا على رجل منهم يقال له « فنحاص » ، وكان من علماءهم وأخبارهم ، ومعه خبر يقال له « أشيع » . فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، نجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إينا لفقير ، ما تضرع إلينا ، وإنما عنه لأغنياء . ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا .

ففضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله . . . فذهب فنحاص إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال يا محمد : أبصر ما صنع بي صاحبك .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر ؟

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن عدو الله قال قولا عظيما . يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء . فلما قال ذلك غضبت له مما قال فضربت وجهه .

فحدد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك . فأزل الله فيما قال فنحاص :  
و لقد سمع الله قول الذين قالوا ... (١) .

والمعنى : لقد سمع الله - تعالى - قول أولئك اليهود الذين نطقوا بالزور والفحش فزعموا أن الله - تعالى - فقير وهم أغنياء .

والمقصود من هذا السماع لازمه وهو العلم والإحاطة بما يقولون من قبائح ، ثم محاسبتهم على ما تفوهوا به من أقوال ، وما ارتكبوه من أعمال ، وما قبلتهم على جرائمهم بالعقاب المهيمن الذي يستحقونه .

وقوله : سنكتب ما قالوا ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، أى سنسجل عليهم في صحائف أعمالهم قولهم هذا ، كما سنسجل عليهم قتلهم أنبياء الله بغير حق ، فالأسناد مجازى والكتابة حقيقية .

أو المعنى : سنحفظه في علمنا ولا نهمله ، وسنعاقبهم بما يستحقون من عقوبات ، فيكون الإسناد حقيقة والكتابة مجازا .

والسين للتأكيد ، أى إن يفوتنا أبدا تدوينه وإثباته ، بل سنسجله عليهم ونعاقبهم عليه عقابا ألما بسبب أقوالهم القبيحة ، وأعمالهم المنكرة .

وقد قرن - سبحانه - قولهم المنكر هذا ، بفعل شنيع من أفعال أسلافهم ، وهو قتلهم الأنبياء بغير حق ؛ وذلك لإثبات أصالتهم في الشر ، وإستهانتهم بالحقوق الدينية ، وللتنبية على أن قولهم هذا ليس أول جريمة ارتكبوها ، ومعصية إستباحوها ، فقد سبق لآسلافهم أن قتلوا الأنبياء بغير حق ، والإشعار بأن هاتين الجريمتين من نوع واحد ، وهو التجرد على الله - تعالى - ، فقتل الأنبياء هو تعدد على أمناء الله في الأرض الذين اختارهم لتبليغ رسالاته . وقولهم

« إن الله فقير... هو تطاول على ذات الله ؛ وكذب عليه ، ووصف له بما لا يليق به - سبحانه - وهذا كله يسكتون قد عتوا عتوا كبيرا ، وضلوا ضللا بعيدا

وأضاف - سبحانه - القتل إلى المعاصرين للعلم - النبوي من اليهود ؛ مع أنه حدث من أسلافهم لأن هؤلاء المعاصرين كانوا راضين بفعل أسلافهم ولم يشكروه وإن لم يسكوتوا قد باثروه ، ومن رضى بجرمة قد فعلها غيره فكأنما قد فعلها هو .

وفي الحديث الشريف : إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها . ومن غاب عنها فرضاها كان كمن شهدها .

ووصف - سبحانه - قتلهم للأنبياء بأنه « غير حق ، مع أن هذا الإجماع لا يكون بحق أبدا ، للإشارة إلى شناعة أفعالهم ، وضخامة شرورهم ، وأنهم لحبث نفوسهم ، وقسوة قلوبهم لا يبالون أن كان فعلهم في موضعه أم في غيره وموضعه . ثم صرح - سبحانه - بالعقوبة بعد أن كفى عنها فقال - : « ونقول ذوقوا الحريق ، أي : سنجازيهم بما فعلوا ، ونلقى بهم في جهنم ، مخاطبين لإبام بقولنا : ذوقوا عذاب تلك النار المحرقة التي كنتم بها تكذبون .

ففي الآية الكريمة إيجاز بالحذف دل عليه سياق الكلام .

والذوق حقيقة إدراك المطعومات . والأصل فيه أن يكون في أمر مرغوب في ذوقه وطلبه ، والتعبير به هنا عن ذوق العذاب هولون من النهك عليهم ، والاستهزاء بهم كما في قوله - تعالى - « فيشرهم بعذاب أليم » .

ثم صرح - سبحانه - بأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بوقوعهم في العذاب المحرق فقال : « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

أي : ذلك العذاب الشديد الذي حاق بكم - أيها اليهود - بسبب ما قدمته أيديكم من عمل سيء ، وما انطلقت به أفواهكم من قول مذكور ، فقد اقتضت حكمته وعدالته ألا يعذب إلا من يستحق العذاب ، وأنه - سبحانه - لا يظلم

عباده متقال ذرة . وامنم الإشارة « ذلك » يعود إلى العذاب المحقق المنزل منزلة المحسوس المشاهد . والمراد بالأيدى : الأنفس ، والتعبير بالأيدى عن الأنفس من قبيل التعبير بالجزء عن الكل .

وخصت الأيدى بالذكر ، للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته ، ولأن أكثر الأفعال يكون عن طريق البطش بالأيدى ، ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به ، والانصال بذاته ،

قال الألوسي ما ملخصه :

وقوله « وأن الله ليس بظلام للعبيد » عطف على قوله « بما قدمت أيديكم فهو داخل تحت حكم بآء السببية ، وسببته للعذاب من حيث إن نفي الظلم يستلزم العدل المقتضى لإثابة المحسن ومعاقبة المسيء ...

وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في صورة المبالغة في الظلم . . . . . وقيل إن صيغة « ظلام » للنسب كعطار أي : لا ينسب إليه الظلم أصلاً . . . . .<sup>(١)</sup>

ثم ذكر - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل اليهود فقال . « الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقرآن تأكله النار . . . »

وقوله « الذين قالوا إن ... الخ » في محل نصب بتقدير أعنى . أو في محل رفع بتقديرهم الذين قالوا . . . . . ويجوز أن يكون في محل جر على البدلية من قوله « الذين قالوا إن الله فقير . . . . . »

والمراد بالموصول جماعة من اليهود منهم كعب بن الأشرف ، وفنحاص بن عازوراء ، وحبي بن أخطب . . . وغيرهم ، فقد ذكر جماعة من المفسرين أنهم أتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - وقالوا له هذا القول وهو : « إن الله عهد إلينا ... الخ » :

و د القربان ، هو ما يتقرب به إلى الله من نعم أو غير ذلك من القربات .  
 والمعنى : أن عذابنا الأليم سيصيب أولئك اليهود الذين قالوا : إن الله فقير  
 ونحن أغنياء ، والذين قالوا إن الله أمرنا في التوراة وأوصانا بأن لا نصدق  
 ونعترف لرسول يدعى الرسالة إلينا من قبل الله - تعالى - حتى يأيننا بقربان  
 يتقرب به إلى الله ، فتنزل مار من السماء فتأكل هذا القربان ، فإذا فعل ذلك  
 كان صادقا في رسالته .

ومقصدم من وراء هذا القول الذي حكاه القرآن عنهم ، أو يظهر أو أمم  
 الناس بمظهر المحافظين على عهد الله ، وأنهم ماتركوا الإيمان بالنبي - صلى الله  
 عليه وسلم - حسدا له ، وإنما تركوا الإيمان به ، لأنه لم يأت بالمعجزات التي  
 أتى بها الأنبياء السابقون ، فهم معذورون إذا لم يؤمنوا به لأنه ليس نبيا  
 صادقا - فزعمهم - :

ولا شك أن قولهم هذا ظاهر البطلان ، لأن الإتيان بالقربان إذا كان  
 معجزة لرسول لا يستلزم أن يكون معجزة لسلك رسول ، إذ أن آيات الله في  
 إثبات رسالات رسله متعددة النواحي ، مختلفة المناهج ، وكون هذا الإتيان  
 بالقربان الذي تأكله النار معجزة لبعض الرسل لا يستدعي أن يكون معجزة  
 لجميعهم ولذا فقد أمر الله - تعالى - رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم -  
 أن يرد عليهم بما يبطل قولهم فقال : « قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات  
 وبالذي قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين » .

أى : قل لهم يا محمد « قد جاءكم رسل من قبلي ، كثير عددهم « بالبينات ،  
 أى بالحجج الواضحة ، وبالمعجزات الساطعة الدالة على صدقهم » وبالذي قلتم  
 أى وجاءكم هؤلاء الرسل بالقربان الذي تأكله النار « فلم قتلتموهم ، بعد أن  
 جاءوكم بتلك المعجزات التاهرة « إن كنتم صادقين » في دعواكم أنكم تتبعون  
 الحق . وتطيعون الرسل متى أتوكم بما يشهد بصدقهم ؟

فاجلثة الكريمة ترد على هؤلاء اليهود بأبلغ الوجوه التي تثبت كذبهم وبما يدهون

لأن قتلهم الأنبياء بعد أن جاءهم بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم، دليل على أن هؤلاء اليهود قد بلغوا منتهى الجحود والظلم والعدوان، وأزدعواهم أن لإيمانهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - متوقف على مجيئهم بالقرآن الذي نأكله النار دعوى كاذبة، لأن من جاءهم بالقرآن كان جزاؤه قتل منهم .

قال الفخر الرازي : وقد بين الله بهذه الدلائل أنهم يطلبون هذه المعجزة على سبيل الاسترشاد ، وإنما على سبيل التعمت ، وذلك لأن أسلافهم طلبوا هذه المعجز من الأنبياء المتقين مثل : زكريا ويحيى وعيسى ، فلما أظهروا لهم هذا المعجز سعوا في قتلهم بعد أن قابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وذلك يدل على أن مطالبتهم كانت على سبيل التعمت إذ لولم يكن الأمر كذلك لما سعوا في قتلهم . وتأخر اليهود راضون بفعل متقدميهم . وهذا يقتضى كونهم متعمتين - أيضا - في مطالبتهم ، ولهذا لم يجبههم الله فيها : (١) .

« فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك . جاءوا بالبينات والزبر والكتابات المنيرة . »

والبينات : جمع بيئة وهي الآيات المبينة للحق ، والأدلة التي يستشهد بها الرسول على أنه صادق فيما يبلغه عن ربه .

والزبر : جمع زبور - كالرسول والرسل - وهو الكتاب المقصور على على الحكم من زبرته بمعنى حسنته .

وخص الزبور بالكتاب الذي أنزله الله على داود - عليه السلام - : قال - تعالى - « وآتينا داود زبوراً ، . »

وقيل الزبر اسم للمواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته . والمعنى فإن كذلك هؤلاء اليهود يا محمد بعدد آلى قام الدليل على صدقك وعلى كذبهم وتعمتهم وجحودهم ، فلا تبتئس ولا تحزن ، فإن الأنبياء من قبلك

قد قرأوا بالتكذيب من أقوامهم بعد أن جاءهم بالدلائل الواضحة الدالة على صدقهم وبعد أن جاءهم بالزبر ، أى بالكتب الموحى بها من الله - تعالى - لوعظ الناس وزجرهم ، وبعد أن جاءهم بالكتاب المنير أى بالكتاب الواضح المستنير المشتمل على سعادة الناس فى دنياهم وآخرتهم .

فآية الكريمة مسوقة على سبيل التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - والتخفيف عنه مما يلقاه من الجاحدين والمكذابين .

ثم بين - سبحانه - أن مرد الخلق جميعاً إلى الله ، وأن كل نفس مهما طال عمرها لا بد أن يصيبها الموت ، وأن الدار الباقية لأنها هى الدار الآخرة التى سيحاسب الناس فيها على أعمالهم فقال - تعالى - : كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، .

قال ابن كثير : ويخبر - تعالى - إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت ، كقوله - تعالى - كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، .

فهو - تعالى - وحده الحى الذى لا يموت والجن والإنس يموتون ، وكذلك الملائكة وحملة العرش ، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخرها كما كان أولاً . وهذه الآية فيها تمزية لجميع الناس ، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت . . . . .

وقوله ذائقة الموت ، من الذوق وحقيقته إدراك الطعم ، والمراد به هنا حدوث الموت لكل نفس .

وعبر عن حدوث الموت لكل نفس وذوقه ، للإشارة إلى أنه عند ذوق المذاق إما ما المراد يستتبعه من عذاب ، وأما حلواً هنيئاً بسبب ما يكون بعد من أجر وثواب .

واسم ذوق الموت إلى النفس ولم يستند إلى الشخص لأن الممس روح

والشخص جزءان جسم ونفس ، والنفس هي التي تبقى بعد مفارقتها للجسد ،  
فهو التي تذوق الموت كما ذاق الحياة الدنيا .

وقوله : وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، أي : وإنما تعطون جزاء  
أعمالكم وأفعالكم يوم القيامة . يوم يقوم الناس لرب العالمين ليحاسبهم على  
أعمالهم ، فيجازى الذين أساءوا بما عملوا . ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

قال صاحب الكشف : فإن قلت كيف أتصل قوله - تعالى - : وإنما  
توفون أجوركم يوم القيامة ، بما قبله ؟ قلت : لإصاله به على معنى أن كل من  
يموتون ، ولا بد لكم من الموت ، ولا توفون أجوركم على طاعتكم ومعصيتكم  
عقيب موتكم ، وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور .

فإن قلت : فهذا يوم نفى ما يروى من أن القبر روضة من رياض الجنة أو  
حفرة من حفر النار ؟ قلت : كلمة التوفية تزيل هذا الوم ، لأن المعنى أن توفية  
الأجور وتكليفها يكون في ذلك اليوم ، وما يكون قبل ذلك فهو بعض  
الأجور ، (١) .

وقال الفخر الرازي : بين - سبحانه - أن تمام الأجر والثواب لا يصل  
إلى المكلف إلا يوم القيامة ، لأن كل منفعة تصل إلى المكلف في الدنيا فهي  
مكفرة بالغموم والهموم وبخوف الإنقطاع والزوال ، والأجر التام والثواب  
الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة ، لأن هناك يحصل السرور بلاغم ،  
والأمن بلا خوف ، والذمة بلا ألم ، والسعادة بلا خوف الإنقطاع . . .

وكذا القول في العقاب ، فإنه لا يحصل في الدنيا ألم خالص عن شوائب  
الذمة ، بل يمتزج به راحت ونخيفات ، وإنما الألم التام الخالص الباقي هو  
الذي يكون يوم القيامة ، (٢) .

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ٣٤٥ بتصرف يسير .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٩ ص ١٣٧ .

ثم قال - تعالى - « فن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » .  
 الزحزحة عن النار : هي التنحية عنها ، وعدم الإقتراب منها . والفعل  
 زحزح مضاعف الفعل زحَّه عن المكان إذا جذب به وأبعده عنه بمجطة وسرعة .  
 والمعنى : أن كل نفس سيدير كما الموت لا محالة ، وأن الناس سيحاسبون  
 على أعمالهم يوم القيامة ، فمن كانت نتيجة حسابها الإبعاد عن النار ، والنجاة  
 من سعيرها ، فقد فاز فوزا عظيما ، وأدرك البغية التي ليس بعدها بغية .  
 والفاء في قوله « فن زحزح » للتفريع على قوله « توفون أجوركم » .  
 رجع - سبحانه - بين « زحزح عن النار وأدخل الجنة » مع أن في الثاني  
 غنية عن الأول ، للاشعار بأن دخول الجنة يشتمل على نعمتين عظيمتين  
 وهما : النجاة من النار ، والتلذذ بنعيم الجنة .

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه  
 وسلم - : موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، أفرء وإن شئتم فن  
 زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، (١) .  
 وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله - صلى الله عليه  
 وسلم - : من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو  
 يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ، (٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .  
 والمتاع : هو ما يتمتع به الإنسان ويتفجع به بما يباع ويشترى .  
 والغرور - بهم الغين - مصدر غره أى خدعه وأطمعه بالباطل .  
 أى : ليست هذه الحياة الدنيا التي نعيش فيها ، ونستمتع بلذاتها ومتافها .  
 إلا متاعا يستمتع به المغتر بها ، الذي لا يفكر في أى شئ سواها ، ثم يحاسب

على ذلك حساباً عسيراً يوم القيامة ، أما الذي يأخذ من متاعها بالطريقة التي أمر الله - تعالى - بها ، فإنه يكون من السعداء في دنياهم وآخرتهم .

قال صاحب الكشف : شه - سبحانه - الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويفرحون بشتره ، ثم يقين له فساد و رداؤه . والشيطان هو المداس الفرور . وعن سعيد بن جبير : إنما هذا لمن آثرها على الآخرة ، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ ، (١) .

فألاية الكريمة ترغيب للمؤمنين في الطاعة ، وتذكير للمصاة من المعصية ، وتذكير للجميع بأن مرجعهم إلى الله إن عاجلاً أو آجلاً ، وسيلقى كل إنسان جزاءه على عمله ، وأن السعادة الحقة لمن نال رضا الله يوم يلقاه .

ثم بين - سبحانه - للمؤمنين أنهم سيتعرضون في المستقبل للحن والآلام كما تعرضوا لذلك في أيامهم الماضية ، وأن من الواجب عليهم أن يتقبلوا ذلك بهزيمة صادقة ، وصبر جميل فقال - تعالى - : « لتبلون في أموالكم وأنفسكم . ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ... » .

وقوله ، لتبلون ، جواب قسم محذوف أي : واقه لتبلون أي لتخبرن . والمراد لتعاملن معاملة المختبر والممتحن ايظهر ما عندكم من الثبات على الحق ، ومن التمسك بمكارم الأخلاق ، فإن المصائب محك الرجال .

وإنما أخبرهم - سبحانه - بما سيقع لهم من بلاء ، ليوظفوا أنفسهم على إحتياله عند وقوعه ، وليستعدوا لتلقيه من غير فزع أو جزع ، فإن الشدة المتوقعة يسهل لإحتياله ، أما الشدة التي تقع من غير توقع فإنها يصعب لإحتياله والمعنى : لتبلون - أي المؤمنون - ولتخبرن د في أموالكم ، بما يصيبها

من الآفات ، وبما تطلقون به من إنفاق في سبيل إعلاء كلمة الله ، ولتختبرن أيضاً في أنفسكم ، بسبب ما يصيبكم من جراح وآلام من قبل أعدائكم ، وبسبب ما تتعرضون له من حروب ومتاعب وشدائد ، وفضلاً عن ذلك فإنكم لتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، وهم اليهود والنصارى ، ومن الذين أشركوا ، وهم كفار العرب ، لتسمعن من هؤلاء جميعاً ، أذى كثيراً ، كالظلم في دينكم ، والاسهتزاز بعقيدتكم ، والسخرية من شريعتكم والاستخفاف بالتعاليم التي أناكم بها فبيكم ، والتغنى فيما يضركم .

وقدرت - سبحانه - ما يصيب المؤمنين ترتيباً تدريجياً ، فبتدأ بأذى ألوان البلاء وهو الإصابة في المال ، فإنها مع شدتها وقسوتها على الإنسان إلا أنها أهون من الإصابة في النفس لأنها أعلى من المال ، ثم ختم ألوان الإبتلاء ببيان الدرجة العليا منه وهي التي تخصص بالإصابة في الدين ، وقد عبر عنها بقوله : ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً .

وإنما كانت الإصابة في الدين أعلى أنواع البلاء ، لأن المؤمن الصادق يهون عليه ما له ؛ وتهون عليه نفسه ، ولكنه لا يهون عليه دينه ، ويسهل عليه أن يتحمل الأذى في ما له ونفسه ولكن ليس من السهل عليه أن يؤذى في دينه . . .

ولقد كان أبو بكر الصديق مشهوراً بليته ورفته . ولكنه مع ذلك - لقوة إيمانه - لم يحتمل من فتن خاص ، اليهودي أن يصف الخالق - عز وجل - بأنه فقير ، بل ما كان من الصديق إلا أن شج وجهه فتمحاص عند ما قال ذلك القول الباطل .

وقد جمع - سبحانه - بين أهل الكتاب وبين المشركين في عداوتهم وإبذائهم للمؤمنين ، الإشمار بأن الكفر ملة واحدة ، وأن العالم بالكتاب (٣١ - سورة آل عمران)

والجاهل به يستويان في معاداتهم للحق ، لأن الصناد إذا استولى على القلوب زاد الجاهلين جهلا وحمقا ، وزاد العالمين حقدا وحمدا .

ثم أرشد . سبحانه - المؤمنين إلى الصلاح الذي يهين على التغلب على هذا البلاء فقال : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

أى : وإن تصبروا على تلك الشدائد ، وتقابلوها بضبط النفس ، وقوة الاحتمال . « وتتقوا ، الله في كل ما أمركم به ونهاكم عنه ، تنالوا رضاه - سبحانه - وتنجوا من كيد أعدائكم .

والإشارة في قوله « فإن ذلك من عزم الأمور » ، تعود إلى المذكور ضمنا من الصبر والتقوى ، أى فإن صبركم وتقواكم من الأمور التي يجب أن يسير عليها كل عاقل ، لأنها تؤدى إلى النجاح والظفر .

وقوله « فإن ذلك من عزم الأمور » ، دليل جواب الشرط . والتقدير : وإن تصبروا وتتقوا تنالوا ثواب أهل العزم فإن ذلك من عزم الأمور .

فألاية المكريمة لإستئناف مسوق لإيقاظ المؤمنين ، وتنبههم إلى سنة من سنن الحياة ، وهى أن أهل الحق لا بد من أن يتعرضوا للإبتلاء والامتحان ، فطليهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل كل ذلك ، لأن ضعفاء العزيمة ليسوا أهلا لبلوغ النصر .

ولقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - أن قوة الإيمان وشدة البلاء متلازمان ، فقد روى الترمذى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت يا رسول الله ، أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة لبّتى على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة .

ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل الكتاب فقال : **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه .**

الميثاق : هو العهد الموثق المؤكد . وقد أخذ - سبحانه - العهد على الذين أوتوا الكتاب بأمرين : أولها بيان ما في الكتاب من أحكام وأخبار . وثانيهما : عدم كتمان شيء مما في هذا الكتاب .

والمعنى : وأذكر أيها المخاطب وقت أن أخذ الله العهد المؤكد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يبينوا جميع ما في الكتاب من أحكام وأخبار وبشارات بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وألا يكتموا شيئاً من ذلك ، لأن كتمانهم للحق سيؤدى إلى سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة .

والضمير في قوله **لتبيننه** ، يعود إلى الكتاب المشتمل على الأخبار والشرائع والأحكام والبشارات الخاصة بمبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - .

أى لتبين ما في هذا الكتاب الذى بين أيديكم من أحكام وشرائع وأخبار وبشارات . وقيل الضمير يعود إلى الميثاق ، ويسكون المراد من العهد الذى وثقه الله عليهم هو تعاليمه وشرعه ونوره .

وقوله **ولا تكتمونه** ، عطف على **لتبيننه** ، وإنما لم يؤكد بالنون لكونه منفيًا . وجمع - سبحانه - بين أمرهم المؤكد بالبيان وبين نهيهم عن الكتمان مبالغة في إيجاب ما أمروا به حتى لا يقصروا في إظهار ما في الكتاب من حقائق وحتى لا ياجأوا إلى كتمان هذه الحقائق أو تحريفها .

ولكن أهل الكتاب - ولا سيما العلماء منهم - نقضوا عهودهم مع الله - تعالى - ؛ وقد حكى - سبحانه - ذلك في قوله : **فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون .**

النبد : الطرح والترك والإهمال .

أى أن أهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد الموثقة بأن يبينوا ما فى الكتاب ولا يكتبوا شيئاً منه ، لم يكونوا أوفياءً بعهدهم ، بل لأنهم نبذوا ما عاهد الله عليه ، وطرحوه وراء ظهورهم بإستهانة وعدم إعتداد . وأخذوا فى مقابل هذا النبذ والطرح والإهمال شيئاً حقيراً من متاع الدنيا وحطامها ، فبئس الفعل فعلهم .

والتعبير عنهم بقوله « فنبتذوه وراء ظهورهم » كناية عن إستهانتهم بالنبذ وإعراضهم عنه بالسلبية ، وإهمالهم له إهمالاً تاماً ، لأن من شأن الشيء المنبذ أن يهمل ويترك ، كما أن من شأن الشيء الذى هو محل إهتمام أن يحرس ويجعل نصب العين .

والضمير فى قوله « فنبتذوه » يعود على الميثاق بإعتبار أنه موضع الحديث إبتداءً .

ويصح أن يعود إلى الكتاب ، لأن الميثاق هو الشرائع والأحكام والكتاب وعاقبها ، فنبتذ الكتاب نبذ للعهد .

والمراد « بالثمن القليل » ما أخذوه من أموال ومتاع دنيوى من غيرهم فى مقابل عدم بيانهم لما فى الكتاب من حقائق ، وكتبتهم لذلك إرضاء للشهوات وللأهواء الباطلة .

وليس وصف الثمن بالقلة من الأوصاف المخصصة للنكرات ، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل فى مقابل تبذير لكتاب الله وعهوده ، إذ لا يكون هذا الثمن المحصل الا قليلاً وان بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - تعالى - .

وقوله « فبئس ما يشترون » أى بئس شيئاً يشترونه ذلك الثمن .

فإنكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ، وجملة يشترونه صفته ، والمخصوص بالذم محذوف

وقيل « ما ، مصدرية فاعل بمس ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى بمس شراؤهم هذا الشراء لاستحقاقهم به العذاب الآليم .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب إظهار الحق ، وتحريم كتمانها . . . .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : وكفى به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس ، وألا يكتموا منه شيئا لقرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطبيب لنفوسهم ، واستجلاب لمسارهم ، أو لجر منفعة وحطام دنيا ، أو لتقية ، أو لبخل بالعلم وغيره من أن ينسب إلى غيرهم . وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : من كتم علما عن أهله أجم بلجام من نار ، وعن علي - رضى الله عنه - قال : ما أخذا الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا ، (١) .

وقال ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة : هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، وأن ينورهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعهوه ، فسكتموا ذلك وتموضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوى السخيف ، فبذت الصفقة صفقتهم ، وبشت البيعة بيعتهم . وفي هذا تحذير للعلماء من أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم . ويدلك بهم مسلكهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، ولا يسكتموا منه شيئا . . . ، (٢) .

ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل الكتاب المتعددة ،

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٤٦ بتصرف يسير .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٢٦

وهي أنهم يحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا ، ويفرحون بما أتوا ، وبين سوء عاقبتهم بسبب تلك الأخلاق القبيحة فقال : ولاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم .

والخطاب في قوله ، لاتحسبن ، موجه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يصلح له الخطاب .

والنهي موجه إلى حسابان أن يكون في هؤلاء الأشرار خير .

أى أن الله - تعالى - ينهى نبيه - صلى الله عليه وسلم - نهيا مؤكدا عن أن يظن خيرا في هؤلاء الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا .

والمفازة ، مصدر ميمي بمعنى الفوز . وقيل هي اسم مكان أى محل فوز ونجاة .

والمعنى . لاتظن يا محمد أن هؤلاء الأشرار ، الذين يفرحون بما أتوا ، أى يفرحون بما فعلوا من بيعهم الدين بالدنيا واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير ، والذين يحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا ، أى يحبون أن يمدحهم الناس على ما لم يفعلوه من الوفاء بالعهود ، ومن إظهار الحق وعدم كتمانها ، فإنهم فعلوا الشرور والآثام ، ثم لم يحاولوا أن يستروا ما اقترفوه من آثام ، بل يطلبون من الناس أن يمدحهم على ما ارتكبوه من منكرات ، فهم بمن قال الله فيهم ، أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا .

لاتحسبن هؤلاء الأشرار بمفازة من العذاب : أى بمنجاة منه ، بل لهم عذاب مؤلم أشد الإيلام بسبب ما اجتروه من سيئات .

وقوله ، الذين يفرحون ... ، هو المفعول الأول لتحسب ، والمفعول الثانى محذوف والتقدير : لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا موفقين أو مهتدين ، أو صالحين .

وحذف هذا المفعول الثانى لدلالة ما بعده عليه وهو قوله « فلا تحسبنهم بمفازة... » ولتذهب النفس كل مذهب فيما يتناسب مع الوصف الذى وصفهم به - سبحانه - ، وهو أنهم يفعلون القبيح ويحبون أن يحمدهم الناس عليه .  
وقوله « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » بيان لسوء عاقبتهم بسبب أفعالهم السيئة وهو تأكيد لقوله « لا تحسبن... » .

قال الزجاج : جرت عادة العرب أنهم إذا طالت القصة أو الكلام أعادوا لفظ حسب وما أشبهه ، للإعلام بأن الذى جرى متصل بالكلام الأول ومتصل به : فتقول . لا تظن زيدا إذا جاء وكلك بكذا وكذا فلا تظنه صادقا . فيفيد لا تظن توكيذا وتوضيحا ، (١) .

والتعبير عن النجاة من العذاب الأليم بقوله - تعالى - « بمفازة » للإشعار بأن ألقى ما يكون لهم من فوز أن ينجوا من العذاب الأليم ، ولكنهم ان ينجوا منه أبدا ، ولذا أكد - سبحانه - عدم نجاتهم بقوله « ولهم عذاب أليم » .  
فذكر - سبحانه - عذابهم الأليم بالسلب والإيجاب ، فنفى أول أنهم بمنجاة منه . وأخير ثانيا أنهم واقعون فيه .

هذا . وقد ذكر كثير من العلماء أن هذه الآية الكريمة نزلت فى شأن أخبار اليهود فقد روى الشيخان والترمذى والنسائى وغيرهم عن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف أن مروان قال لبوابه رافع : اذهب يارافع إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل امرئ منافرح بها أوتى وأحب أن يحمدها لم يفعل لعندين جميعا . فقال ابن عباس : ما لكم وهذه ، إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب ثم تلا ابن عباس : « ولذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب . . . . » إلى قوله « ولهم عذاب أليم » وقال ابن عباس : سألهم النبى - صلى الله عليه وسلم - عن شئ فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، ثم خرجوا وقد أروه أن قد أخبروه

بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أنوا من كتبهم إياه  
ما سألهم عنه . .

وذكر بعض العلماء أن هذه الآية نزلت في شأن المنافقين ، فقد روى البخاري  
عن أبي سعيد الخدري أن رجلا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله  
- صلى الله عليه وسلم - إلى الغزو وتخلفوا عنه ، فرحوا بمقدم خلاف  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فإذا قدم رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - من الغزو ، إعتذروا إليه وحلفوا وأجبروا أن يحمدوا بما لم يفعلوا  
فنزلت « لا تحسبن الذين يفرحون ... » (١) .

قال العلماء : ولا منافاة بين الروايتين ، لأن الآية عامة في جميع ما ذكر .  
وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد حدثتنا عن جملة من ردائل أهل الكتاب ،  
فقد حكى قولهم « إن الله فقير ونحن أغنياء » ، وحكى قولهم لن تؤمن لرسول  
حتى يأيننا بقربان تأكله النار ، ووصفتهم بكنعان الحق ونبذهم وراء ظهورهم ،  
كما وصفتهم بأنهم يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وردت  
على أكاذيبهم بما يدحضها ، وأنذرتهم بسوء مصيرهم ، وسأقت للمؤمنين من  
ألوان النسبية ما يخفف عنهم مصابهم ، ويجعلهم يسرون في هذه الحياة بعزم  
ثابت ، وهمة عالية ، ونفس مطمئنة .

ثم ختم - سبحانه - سورة آل عمران بالحديث عن مظاهر قدرته .  
وأدلة وحدانيته . وبشر أصحاب العقول السليمة الذين يعتصرون ويتعظون  
ويتفكرون ويكثرن من ذكره برضوانه وجنته . وأمر عباده بالألّا يفترقوا  
بها عليه الكافرون من سلطان وجاه فإنه - سبحانه - قد جعل العاقبة  
للتقين ، كما أمرهم بالصبر والمصابرة والمرابطة ومداومة خشيته فقال - تعالى - :

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ج ١ ص ١٠١ باب « لا تحسبن الذين يفرحون  
بما أنوا ... » .

« وَهُوَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (١٨٩)  
 إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِّأُولِي  
 الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ  
 وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا  
 سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ  
 أُخْرِيتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي  
 لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا  
 وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبَّهُمْ أَنِّي  
 لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ،  
 فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَأُودُوا فِي سَبِيلِي ، وَقَاتَلُوا  
 وَقُتِلُوا ، لَا كُفِّرُنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
 الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ (١٩٥) لَا يَغْرُبُكَ  
 تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ  
 وَيَبْسُ الْمُهَادِ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ  
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ  
 لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ  
 إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لَهُ لَا يَسْتُرُونَ آيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا  
 قَلِيلًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) .

قوله - تعالى - : والله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير ، أى له وحده - سبحانه - ملك السموات والأرض بما فيهما ، فهو وحده صاحب السلطان القاهر في هذا العالم يتصرف فيه كيفما يشاء ويختار : لإيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، وتعذيبا وإثابة ، وهو - سبحانه - على كل شيء قدير ، لا يعجزه أمر ، ولا يدفع عقابه دافع ، ولا يمنع عقابه مانع ، فعليكم أيها الناس أن تطيعوه وأن تحذروا غضبه ونقمته .

وبعد أن بين - سبحانه - أن ملك السموات والأرض بقبضته ، أشار - سبحانه - إلى ما فيهما من عبر وعظات فقال : إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبصار .

أى : إن في إيجاد السموات والأرض على هذا النحو البديع ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب وبحار وزروع وأشجار ... وفي إيجاد الليل والنهار على تلك الحالة المتعاقبة ، وفي اختلافهما طولاً وقصراً .. في كل ذلك لأمارات واضحة ، وأدلة ساطعة ، لأصحاب العقول السليمة على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وباهر حكمته .

وصدرت الجملة الكريمة بحرف « إن » للاهتمام بالخبر ، وللاعتناء بتحقيق مضمون الجملة .

أى إن في إيجاد السموات والأرض وإنشائها على ما هما عليه من العجائب ، وما اشتملتا عليه من البدائع ، وفي اختلاف الليل والنهار .. إن في كل ذلك من العبر والعظات ما يحمل كل عاقل على الاعتراف بوحدانية الله ، وكمال قدرته وحكمته .

والمراد بأولى الأبصار : أصحاب العقول السليمة ، والأفكار المستقيمة ، لأن لب الشيء هو خلاصته وصفوته .

ولقد قال الزمخشري في صفة أولى الآليات : « الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار ، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطرة . وفي الحكيم : املأ عينيك من زينة هذه السكواكب ، وأجلهما في جملة هذه العجائب ، متفكراً في قدرة مقدرها ، متدبراً في حكمة مدبرها ، قبل أن يسافر بك القدر ، ويحال بينك وبين النظر » (١) .

هذا ، وقد أورد المفسرون كثيراً من الآثار في فضل هذه الآيات العشر التي اختتمت بها سورة آل عمران ، ومن ذلك قول ابن كثير - رحمه الله - :

وقد ثبت أن رسول الله . صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل للتجهد . فقد روى البخاري - رحمه الله - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : بت عند خالتي سيمومة ، فتحدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أهله ساعة ثم رقد : فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : « إن في خلق السموات والأرض ..... الآيات » . ثم قام فتوضأ واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة . ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح .

وروى مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج ذات ليلة بعدما مضى شطر من الليل فنظر إلى السماء وتلا هذه الآية ، « إن في خلق السموات والأرض ... » إلى آخر السورة .

ثم قال : اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وعن يميني نوراً . وعن شمالي نوراً ، ومن بين يدي نوراً ، ومن خلفي نوراً ، ومن فوقي نوراً ، ومن تحتي نوراً ، وأعظم لي نوراً يوم القيامة . .

وروى ابن مردويه عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة - رضي الله عنها - فدخلنا عليها وبيننا حجاب . . . فقال

لها ابن عمر: أخبرنا بأعجب ما رأيتيه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فبكت وقالت: كل أمره كان عجيباً !! أتاني في ليلتي حتى مس جلده جسدني ثم قال: يا عائشة: ذريني أعبد لربى - عز وجل ، قالت: فقلت والله إنى لأحب قربك وإنى أحب أن تعبد ربك .

فقام إلى القرية فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى ... حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال: وبحك يا بلال !! وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله على فى هذه الليلة: { إن فى خلق السموات والأرض ألخ الآيات .

ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، (١) .

ثم وصف - سبحانه - أولى الألباب بصفات كريمة فقال: الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ...

فقوله ، الذين يذكرون ... ألخ ، فى موضع جر على أنه نعت لأولى الألباب . ويجوز أن يكون فى موضع رفع أو نصب على المدح .

أى: إن فى خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار ، لايات واضحات على وحدانيته وقدرته ، لأصحاب العقول السليمة ، الذين من صفاتهم أنهم يذكرون الله ، أى يستحضرون عظمته فى قلوبهم ، ويكثرون من تسبيحه وتمجيدِه بالسننهم ، ويدأبون على ذلك فى جميع أحوالهم ، فهم يذكرونه قائمين ، ويذكرونه قاعدين ، ويذكرونه وهم على جنوبهم فالمراد بقوله ، قياماً وقعوداً على جنوبهم ، أن ذكرهم لله - تعالى - بقلوبهم والسننهم يستغرق عامة أحوالهم .

وقوله ، قياماً وقعوداً ، منصوبان على الحالية من ضمير الفاعل فى قوله :

• يذكرون ، •

وقوله «وعلى جنوبيهم» متعلق بمحذوف معطوف على الحال أى: وكائنين على جنوبيهم أى مضطجعين .

ثم وصفهم - سبحانه - بوصف آخر فقال : «وتتفكرون في خلق السموات والأرض، أى أن من صفات هؤلاء العباد أصحاب العقول المليمه أنهم يكثرون من ذكر الله - تعالى - ، ولا يكثفون بذلك ، بل يضيفون إلى هذا الذكر التدبر والتفكير في هذا الكون وما فيه من جمال الصنعة ، وبديع المخلوقات ، ليصلوا من وراء ذلك إلى الإيمان العميق ، والإذعان التام . والاعتراف الكامل بوحداية الله . وعظيم قدرته ...»

فإن من شأن الأخيار من الناس أنهم يتفكرون في مخلوقات الله وما فيها من عجائب المصنوعات . وغرائب المبتدعات . ليداهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه - فيعلموا أن لهذا الكون قادراً مدبراً حكماً . لأن عظم آثاره وأفعاله . تدل على عظم خالقها .

ولقد ذكر العلماء كثيراً من الأقوال التي تحض على التفكير السليم . وعلى التدبر في عجائب صنع الله . ومن ذلك قول سليمان الداراني : لمنى أخرج من بيتي فما يقع بهرى على شئ إلا رأيت لله على فيه نعمة . ولى فيه هبة ، وقال الحسن البهرى : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وقال الفخر الرازى : دلائل التوحيد محصورة في قسمين : دلائل الآفاق . ودلائل الأنفس . ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم . كما قال - تعالى - : «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ...»

ولما كان الأمر كذلك . لا جرم أمر في هذه الآية بالتفكير في خلق السموات والأرض . لأن دلائلها أعجب . وشواهدا أعظم ...» (١) .

وقد ويخ - سبحانه - الذين يرون العبر فلا يعتبرون . وتامر أمامهم العظات

فلا يتعظون ولا يفتكرون فقال - تعالى - دو كئأى من آية فى السموات والأرض يعمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ، ثم حكى - سبحانه - ثمرات ذكرهم لله وتفكيرهم فى خلقه فقال :  
« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار ، » .

أى أنهم بعد أن أذعنت قلوبهم للحق ، ونطقت ألسنتهم بالقول الحسن ، وتفكرت عقولهم فى بدائع صنع الله تفكيراً سليماً ، استشعروا عظمة الله استشعاراً ملك عليهم جوارحهم ، فرفعوا أكف الضراعة إلى الله بقولهم :

باربنا إنك ما خلقت هذا الخلق البديع العظيم الشأن عبثاً ، أو عارياً من الحكمة ، أو خالياً من المصلحة ، « وسبحانك ، أى نزهك تنزيهاً تاماً عن كل ما لا يليق بك ، فقلنا عذاب النار ، أى فوقنا للعمل بما يرضيك ، وأبعدنا عن عذاب النار . »

وقوله « ربنا ما خلقت هذا باطلا . . . إلخ ، جملة واقعة موقع الحال على تقدير قوله : أى يتفكرون قائلين ربنا . . . لأن هذا الكلام أريد به حكاية قولهم بدليل ما بعده من الدعاء . »

وقوله : باطلا صفة لمصدر محذوف أى خلقاً باطلاً ، أو حال من المفعول والمعنى باربنا ما خلقت هذا الخلق العظيم الشأن عارياً عن الحكمة ، خالياً من المصلحة ، بل خلقته مشتملاً على حكم جلييلة ، منتظماً لمصالح عظيمة .

وكان نداؤهم لخالقهم - عز وجل - بلفظ « ربنا ، اعترافاً منهم بأنه هو مربهم وخالقهم فن حقه عليهم أن يفرده بالعبادة والخضوع . »

وسبحان اسم مصدر بمعنى التسييح أى التزيه ، وهو مفعول بفعل مضمّر لا يكاد يستعمل معه أى تنزهت ذاتك وتقدسيت عن كل ما لا يليق وجى بقاء التعقيب فى حكاية قولهم « فقلنا عذاب النار ، لأنه ترتب على اعتقادهم بأنه

سبحانه - لم يخلق هذا السكون عبثاً أن هناك ثواباً وعقاباً ، فسألوا الله - تعالى أن يجعلهم من أهل الجنة لا من أهل النار .

وقوله - تعالى - حكاية عنهم « ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتنا ، في مقام التعليل اضراعتهم بأن يبعدم عن النار .

أى : أبعدنا ياربنا عن عذاب النار ، فإنك من تدخله النار تكون قد أخزيتنا أى أهنته وفضحتته على رءوس الأشهاد .

والخزى : مصدر خزى يخزى بمعنى ذل وهان بمرأى من الناس . وفي هذا التعليل مبالغة في تعظيم أمر العقاب بالنار ، وإلحاح في طلب النجاة منها ، لأن من سأل ربه حاجة ، إذا شرح عظيمها وقوتها ، كان رجاؤه في القبول أشد ، وإخلاصه أتم ، وشعوره بالعطاء أقوى .

وقوله « وما للظالمين من أنصار ، أى ليس لهم ناصر ينصرهم من عقاب الله - تعالى - أو يخلصهم مما وقعوا فيه من بلا .

و « من ، للدلالة على استغراق النقي . أى لا ناصر لهم أيا كان هذا الناصر : وفي ذلك إشارة إلى انفراد الله - تعالى - بالسلطان وتفاذ الإرادة .

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان ضراعتهم يدل على قوة إيمانهم فقال - تعالى - « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى بالإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا . . . »

أى أنهم يقولون على سبيل الضراعة والخضوع لله رب العالمين : ياربنا إننا سمعنا منادياً ينادى أى داعياً يدعو إلى الإيمان وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - فاستجبنا لدعوته . وآمنا بما دعانا إليه بدون تردد أو تسويق .

وفي وصفه - صلى الله عليه وسلم - بالمنادى . دلالة على كمال اعتناؤه بشأن دعوته التي يدعو إليها . وأنه حريص على تبليغها للناس تبليغاً تاماً .

قال صاحب الكشاف فإن قلت : فأى فائدة في الجمع بين « المنادى ، و « ينادى ، ؟ قلت : ذكر النداء مطلقاً ، ثم مقيداً بالإيمان . تفخيلاً للشأن المنادى ؛

لأنه لا منادى أعظم من منادى للإيمان . ونحوه قولك : مررت بهاد يهدى للإسلام . وذلك أن المنادى إذا أطلق ذهب الوم إلى مناد للحرب ، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع . وكذلك الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأى وغير ذلك .

فاذا قلت : بنادى للإيمان ، ويهدى للإسلام ، فقد رفعت من شأن المنادى والهادى ونفيمته (١) .

و « أن ، فى قوله « أن آمنوا » ، تفسيره لنا فى فعل « ينادى » ، من معنى القول دون حروفه . وجىء بفاء التعقيب فى قوله - تعالى - جكاة عنهم - « فأمنوا » ؛ للدلالة على المبادرة والسبق ، إلى الإيمان ، وأنهم قد أقبلوا على الداعى إلى الله بسرعة وامتنال ، وفى ذلك دلالة على سلامة فطرتهم ، وبدعم عن المكابرة والعدا .

ثم حكى - سبحانه - مطلبهم فقال : « ربنا فاعفر لنا ذنوبنا . وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » .

أى نسألك يا ربنا بعد أن آمننا بنبيك ، واستجبنا للحق الذى جاء به ، أن تغفر لنا ذنوبنا بأن تسترها وتعفو عنها ، وأن تكفر عنا سيئاتنا بأن تزيلها وتمحوها وتحولها إلى حسنات أو بأن تحشرنا مع الأبرار أى مع عبادك الصالحين المستقيمين الأخيار . إذ الأبرار جمع بر وهـ والشخص الكثير الطاعة الخالق - تعالى - .

فأنت تراءم قد طلبوا من خالقهم ثلاثة أمور ، غفران الذنوب ، وتكفير السيئات . والوفاة مع الأبرار الأخيار ، وهى مطالب تدل على قوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وزهدهم فى متع الحياة الدنيا .

وقد جمعوا فى طلبهم بين غفران الذنوب وتكفير السيئات ، لأن السيئة

عصيان فيه إساءة ، والذنب عصيان فيه تقصير وتباؤ عن فعل الخير ، والغفران والتكفير كلاهما فيه معنى الستر والنقطية ، إلا أن الغفران يتضمن معنى عدم العقاب ، والتكفير يتضمن ذهاب أثر السيئة .

ومعنى وفاتهم مع الأبرار ، أن يموتوا على حالة البر والطاعة بأن تلازمهم تلك الحالة إلى الممات ، وألا يحصل منهم ارتداد على أدبارهم ، بل يستمروا على الطاعة استمرارا تاما .

وبذلك يكونون في صحبة الأبرار وفي جملتهم .

ثم حكى القرآن أنهم ترقوا فانتقلوا من طلب الغفران إلى طلب الثواب الجزيل ، والعطاء الحسن فقال - تعالى - حكاية عنهم « ربنا وآتنا على رسلك ولا تحزننا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد ، » .

أى نسألك يا ربنا أن تعطينا وتمنحنا بعد وفاتنا ، وحين قيامنا من قبورنا يوم القيامة ، وما وعدتنا به من ثواب في مقابل تصديقنا لرسلك ، وطاعتنا لهم ، واستجابتنا لأوامرهم ونواهيهم ، ولا تحزننا يوم القيامة ، أى ولا تذلنا أو تفضحنا يوم المحشر على رؤوس الأشهاد . إنك لا تخلف الميعاد ، أى إنك - سبحانه - لا تخلف وعدك الذى وعده لهبادك الصالحين .

فهم قد جعلوا هذا الدعاء وهو طلب الثواب الجزيل يوم القيامة ، ختاماً لدعواتهم ؛ لشعورهم بهفواتهم وبتقصيرهم أمام فضل الله ونعمه .

والمراد بقولهم « ما وعدتنا ، الثواب والعطاء البكائن منه - سبحانه - » و « ما ، موصولة أى آتنا الذى وعدتنا به أو وعدتنا لياه .

وقوله « على رسلك ، فيه مضاف محذوف أى آتنا ما وعدتنا على السنة رسلك من ثواب . أو آتنا ما وعدتنا على تصديق رسلك والإيمان بهم من جزاء حسن .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد و الله

لا يخلف الميعاد ؟

قلت : معناه طلب التوفيق فيما يحفظه عليهم أسباب إنجاز الميعاد . أو هو من باب الملجأ إلى الله والخضوع له ، كما كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يستغفرون مع علمهم بأنهم مغفور لهم ، بقصدون بذلك التذلل لربهم ، والتضرع إليه والملجأ الذي هو سبب العبودية ، (١) .

تلك هي الدعوات الخاشعات التي حكاها - سبحانه - عن أصحاب العقول السليمة ، وهم يتضرعون بها إلى خالقهم - عز وجل - فإذا كانت نتيجةها ؟ .

لقد كانت نتيجة دعواتهم ، أن أجاب الله لهم سؤالهم وحقق لهم مطلوبهم فقال - تعالى - : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض . . . ١١٠٠ . »

قال الحسن البصري : « ما زالوا يقولون ربنا حتى استجاب لهم » .

وقال جعفر الصادق : « من حزه أمر فقال خمس مرات ( ربنا ) أنجاه الله ما يخاف ، وأعطاه ما أراد . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : إقرأوا إن شئتم قوله - تعالى - « الذين يذكرون الله قياما . . . إلخ ، فإن هؤلاء الأ خيار قد نادوا ربهم خمس مرات فأجاب الله لهم دعاهم . »

ودلت الفاء في قوله « فاستجاب » على سرعة الإجابة ، لأن الفاء للتعقيب ، فهم لأنهم دعوا الله بقلب سليم ، أجاب لهم دعاهم بدون إبطاء .

واستجاب هنا بمعنى أجاب عند جمهور العلماء ؛ إذ السين والتاء لتأكيد ، مثل استوقد واستخلص .

وقال بعضهم : أن استجاب أخص من أجاب ، لأن استجاب يقال لمن قبيل ما دعى إليه ، وأجاب أعم فيقال لمن أجاب بالقبول وبالرد .

والمعنى : أن الله - تعالى - قد بشر هؤلاء الأختيار برضاه عنهم ، بأن أخبرهم بأنه قد أجاب لهم دعاءهم ، وأنه - سبحانه - لا يضيع عمل عامل منهم ، بل سيجازيهم بالجزاء الأوفى ، وسيمنحهم من الثواب فوق ما عملوا لأنه هو الكريم الوهاب ، ولن يفرق في عطائه بين ذكر وأنثى ، لأن الذكر من الأثني والأثني من الذكر وقد خلقهم جميعا من نفس واحدة .

وفي التعبير باللفظ السامى ، بهم ، لإشارة إلى أن الذى سيجزئهم هو خالقهم ومربيهم والمنعم عليهم ، والرحيم بهم .

ومعنى ، لا أضيع عمل منكم ، لا أزيل نواب عمل أى عامل منكم ، بل أكافئه عليه بما يستحقه ، وأعطيه من ثوابى ورحمتى ما يشرح صدره ، ويدخل البهجة والسرور على نفسه .

وقوله ، من ذكر أو أنثى ، بيان لعامل وتأكيد لعمومه ، أى لا أضيع عمل أى شخص عامل سواء أكان هذا العامل ذكرا أم أنثى .

ومعنى ، بعضكم من بعض ، أن الذكر من الأثني والأثني من الذكر ، كلكم بنو آدم وهذه جملة معترضة مبينة لسبب ثركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده من أجر جزاء أعمالهم الصالحة .

وروى الترمذى عن أم سلمة قالت : يا رسول الله ، لا أسمع الله - تعالى - ذكر النساء فى الهجرة ، فأنزل الله - تعالى - ، فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ...

ثم بين - سبحانه - الأعمال الصالحة التى استحق بها هؤلاء الأبرار حسن الثواب منه - سبحانه - فقال ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيل ، وقاتلوا وقتلوا ، لا كفرن عنهم سيئاتهم . . . . .

أى : فالذين هاجروا بأن تركوا أوطانهم التى أحبوا إلى أماكن أخرى من أجل إعلاء كلمة الله ، وأخرجوا من ديارهم ، فراراً بدينهم من ظلم

الظالمين ، واعتداء المعتدين ، وأوذوا في سبيل ، أى تحملوا الأذى والاضطهاد في سبيل الحق الذى آمنوا به ، وقاتلوا ، أعداء الله ، وقتلوا ، وهم يجاهدون من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل . . . .

هؤلاء الذين فعلوا كل ذلك ، وعدم الله - تعالى - بالأجر العظيم فقال : لا كفرن عنهم سيئاتهم ، أى لا يحون عنهم ما ارتكبوه من سيئات ، ولا سترنا عليهم حتى نعتبر نسيا منسيا ، ولأدخلناهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، أى تجري من تحت قصورها الأنهار التى فيها العسل المصفى ، وفيها ما تشبیه الأنفس وتلد الأعين .

وقوله ، ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ، أى لأنبيئهم ثواباً عظيماً من عندى ، والله - تعالى - عنده حسن الجزاء لمن آمن وعمل صالحاً .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد منح هؤلاء الأختيار ذلك الأجر الجزيل ؛ لأنهم قد هاجروا من الأرض التى أحبوا إلى غيرها من أجل إعلاء كلمة الله ، وأخرجوا منها مضطرين لا مختارين فراراً بدينهم ، ولقد ذكر المؤرخون أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما خرج من مكة مهاجراً التفت إليها وقال : يا مكة والله لأنت أحب بلاد الله إلى ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت . .

ولأنهم قد تحملوا ما تحملوا من الأذى في سبيل الله ، ولأنهم قد جاهدوا أعداء الله وأعداءهم حتى استشهدوا وهم يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله .

وقوله ، فالذين هاجروا . . . مبتدأ ، وهو تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له ، والتفخيم لشأنه . . . وخبره قوله ، لا كفرن عنهم سيئاتهم . . .

وقوله ، وأخرجوا من ديارهم ، مطوف على هاجروا . . . وجمع بينهما للإشعار بأنهم قد تركوا أوطانهم تارة باختيارهم ليبحثوا عن مكان أفضل لنفاه

دعوتهم ، وانتشار الحق الذي اعتنقوه ، وتارة بغير اختيارهم بل تركوها  
بجبرين ومضطرين بعد أن الجأهم أهداؤهم إلى الخروج منها بسبب ما نالهم منهم  
من ظلم واعتداء .

وقوله « وأوذوا في سبيلي ، معطوف على ما قبله . والمراد من الإيذاء ما هو  
أعم من أن يكون بالإخراج من الديار ، أو غير ذلك مما كان يصيب المؤمنين  
من جهة المشركين .

وجمع - سبحانه - بين قوله « وقاتلوا وقتلوا ، الإشارة إلى أن للقسمين  
ثوابا وأنهم لن يصيبهم إلا لإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة وقوله « لا كفرن  
عنهم سيئاتهم ، جواب قسم محذوف . أى والله لا كفرن عنهم سيئاتهم .

وقدم - سبحانه - تكفير سيئاتهم على إدخالهم الجنة ، لأن التخلية -  
كما يقولون - مقدمة على التولية ، فهو أولا طهرهم من الذنوب والآثام ونقام  
منها ، ثم أدخلهم بعد ذلك جنته . وأعطاهم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،  
ولا خطر على قلب بشر .

وقوله « ثوابا .. ، مصدر مؤكد لما قبله ، لأن المعنى لأثيبنهم على ما عملوه  
ثوابا عظيما .

وقوله « من عند الله ، صفة لقوله « ثوابا ، وهو وصف مؤكد ؛ لأن  
الثواب لا يكون إلا من عنده - تعالى - ، ولكنه صرح به - سبحانه -  
تعظيما للثواب ، وتفخيما لشأنه .

وقوله « والله عنده حسن الثواب ، تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

وقد ختم - سبحانه - الآية بهذه الجملة الكريمة ، لبيان اختصاصه بالثواب  
الحسن ، كأن كل جزاء للأعمال في الدنيا لا يعد حسناً ، بجوار ما أعده  
- سبحانه - في الآخرة لعباده المتقين .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد دعت المؤمنين إلى الإكثار من ذكر الله ، وإلى التفكير السليم في عجائب صنعه ، وسأقت لنا ألواناً من الدعوات الطيبات الخاشعات التي نضرع بها الأخيار إلى خالقهم ، ويبعث لنا الثواب الجزيل ، والعتاء العظيم الذي منحه الله لهم في مقابل إيمانهم الصادق ، وعلمهم الصالح ، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأنه لا يرد دعاء الأبرار من عباده .

وبعد أن بشر - سبحانه - عباده المؤمنين الصادقين بهذا الثواب الحسن ، نهمهم عن الاغترار بما عليه الكافرون من قوة وسطوة ومتاع دينوي فقال - تعالى - : لا يفرنك قلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد .

يفرنك : من الغرور وهو الإطماع في أمر محبوب على نية هدم وقوعه . أو إظهار الأمر المضر في صورة الأمر النافع . وهو مشتق من الفرقة - بكسر الفين - وهي الغفلة . ويقال : رجل فر إذا كان يتخذه لمن خادعه .

والتقلب في البلاد : التصرف فيها على جهة السيطرة والغلبة ونفوذ الإرادة .

والمتاع : الشيء الذي يتمتع الإنسان به لمدة معينة والمعنى : لا يصح أن يُتخذ أحد بما عليه الكافرون من تقلب في البلاد ومن تصرفهم فيها تصرف الحاكم المسيطر عليها ، المستغل لثرواتها وخيراتهما ، فإن تصرفهم هذا إن يستمر طويلاً ، بل سيبقى مدة قليلة يتمتعون فيها بما بين أيديهم ثم يزول عنهم كل شيء . وسوف يعودون إلى خانقهم فيعذبهم العذاب الأكبر على ظلمهم وبغيهم وكفرهم .

والخطاب في قوله « لا يفرنك » للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، أو لكل من يتأق له الخطاب . وهو نهي للمؤمنين عن أن يغترون بما عليه الكافرون من جاه ونفوذ وسلطان ونحوه ...

وليس من مقتضى الذم أن يكون قد وقع المنهى عنه ، فإن الإنسان قد ينهى عن شيء لم يقع منه لتحذيره من الوقوع فيه في الحال أو الآل .

ولذا روى عن قتادة أنه قال : « واقه ماغروا نبي الله حتى قبضه الله إليه » .

ولقد قال صاحب الكشاف في الجواب على أن النهى موجه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - : فإن قلت : كيف يعتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذلك حتى ينهى عن الاغترار به ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما : أن مدره القوم ومتقدمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه بمقام خطابهم جميعا فكأنه قيل : لا يغرنكم .

والثاني : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان غير مغرور بحالهم أكد ما كان عليه وثبت ما كان على التزامه كقوله ، ولا تكونون من المشركين (١) . وقوله « متاع » خير لمبتدأ محذوف أي هو متاع ، وقوله « قليل » صفة لمتاع . ووصف بأنه قليل لقصر مدته ، وإكواؤه متعة فانية زائلة ، بخلاف ما أعدده الله للمتقين من نعيم في الآخرة فإنه دائم لا يزول .

وجاء العطف « بهم » ، في قوله « ثم ماواهم جهنم وبئس المهاد » ، الإشعار بالتفاوت الكبير بين حالهم في الدنيا وما هم فيه من متاع زائل ، وبين ما سبنا لهم في الآخرة من عذاب دائم لا ينقطع .

أي أنهم يتمتعون بهذه المتع العاجلة لفترة فائلة « ثم ماواهم » ، أي مكانهم الذي يأرون إليه ويستقرون فيه « جهنم » ، التي لا يحيط الوصف بشدة عذابها « وبئس المهاد » ، أي بئس ما مهدوا لأنفسهم وفرشوا جهنم . وفيه إشارة إلى أن مصيرهم إلى جهنم هم الذين كانوا سببا فيه بكفرهم واستحبابهم العمى على الهدى .

وفي هذا تعزية للمؤمنين ، وتسلية لهم عما يرونه من غنى وجاه وسلطان

للمشركين ، وتحريص الأختيار على أن يجعلوا مهمم الأكبر في العمل الصالح الذي يوصلهم إلى رضوان الله الباقي . ففي الحديث الشريف أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم لإصبعه في اليم ، فلينظر به يرجع » .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين أثر بيانه لسوء عاقبة الكافرين فقال : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . . . . »

وافتححت الآية الكريمة بحرف « لكن » ، الذي معناه الاستدراك ، لأن مضمونها ضد الكلام الذي قبلها ، وليكن تكون هناك مقابلة بين عاقبة المشركين الفجار وبين عاقبة المؤمنين الأختيار .

والمعنى . هذا هو شأن الكافرين يتقلبون في البلاد لفترة قصيرة من الزمان هي مدة حياتهم في هذه الدنيا الفانية ثم يتركون كل شيء عند موتهم ليلاقوا مصيرهم المحتوم وهو عذاب جهنم الذي لا ينقطع . . . . لكن الذين اتقوا ربهم وخافوا مقامه ونهوا أنفسهم عن الهوى ليسوا كذلك ، فقد أعد الله لهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار المائئة بأنواع المشارب الطيبة اللذيذة ، وهم خالدون في تلك الجنات خلودا أبدا لا تقطاع له ولا ذوال . . . فآين مصير أولئك الأشرار من مصير هؤلاء الأختيار ؟ .

فآلية الكريمة بيان لسكالم حسن حال المؤمنين ، إثر بيان سوء عاقبة الكافرين .

ثم قال - تعالى - : « نزلنا من عند الله وما عند الله خير للأبرار » .

والنزل : ما يعد للنزيل والضيف لإكرامه والحفاوة به من طعام وشراب وغيرهما . وهو منصوب على أنه حال من « جنات » ، لتخصيصها بالوصف ، والعامل فيه ما في الظرف من معنى الاستقرار .

أى لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها حالة كون هذه الجنات منزلا مبيتا لهم من عند الله - تعالى - على سبيل الإكرام لهم ، والتشريف لمنزلتهم .

وقوله ، وما عند الله خير للأبرار ، أى ما عند الله من نعيم مقيم لعباده  
الملتقين خير مما يتقلب فيه الكافرون من المتاع القليل الزائل .

ثم بين - سبحانه - أن أهل الكتاب ليسوا سواء ، بل منهم الأشرار ومنهم  
الأخيار ، وقد بين - سبحانه - هنا صفات الأخيار منهم فقال : ( وإن من أهل  
الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل لإيكم وما أنزل لإيهم خاشعين له لا يشترون  
بآيات الله ثمنا قليلا . . . ) .

أى : وإن من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى لفريقا يؤمن بالله ،  
إيمانا حقا منزها عن الإشراك بكل مظاهره ، ويؤمن بما أنزل لإيكم ، من  
القرآن الكريم على لسان نبيكم محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ويؤمن بحقيقته ما  
أنزل لإيهم ، من التوراة والإنجيل ولا يزالون مع هذا الإيمان العميق وخاشعين  
له ، أى خاضعين له - سبحانه - خائفين من عقابه ، طالبين لرضاه لا يشترون  
بآيات الله ثمنا قليلا ، أى لا يبيعون آيات الله أو حقيقة من حقائق دينهم فى  
نظير ثمن هو من أعراض الدنيا الفانية ، لأن هذا الثمن المأخوذ قليل  
حتى ولو بلغ القناطر المقتطرة من الذهب والفضة .

فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصفهم بخمس صفات كريمة ، تدل على  
صفاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم ، وفي هذا إنصاف من القرآن الكريم للمهتدين  
من أهل الكتاب .

وقد ذكر القرآن ما يشبه هذه الآية فى كثير من سورة ، ومن ذلك قوله  
- تعالى - : « ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء  
الليل وهم يسجدون . . . » .

وقوله - تعالى - « منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

وقدم - سبحانه - إيمانهم بالقرآن على إيمانهم بما أنزل عليهم ، لأن القرآن  
هو المهيمن على الكتب السماوية والأمين عليها ، فوافقته منها فهو حق

وما خالفه فهو باطل وقوله «خاشعين لله» حال من فاعل «يؤمن» وجمع حملا على المعنى .

ثم بين - سبحانه - جرائم الطيب بعد بيان صفاتهم الكريمة فقال: «أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب» .

أى أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة لهم أجرهم الجزيل في مقابل أعمالهم الصالحة ، وأفعالهم الحميدة .

وقوله «إن الله سريع الحساب» كناية عن كمال علمه بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق ، وأنه يوفىها لكل عامل على ما ينبغي وقد ما ينبغي .

ويجوز أن يكون كناية عن قرب إنجاز ما وعد من الأجر ، فإن سرعة الحساب تستدعى سرعة الجزاء ، فكأنه قيل : لهم أجرهم عند ربهم عن قريب ، لأن الله - تعالى - سريع الحساب والجزاء .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بنداؤه جامع للمؤمنين ، دعاهم فيه إلى الصبر والمصابرة والمراعاة والتقوى فقال : «يا أيها الذين آمنوا اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون» .

والصبر معناه : حبس النفس عن أهوائها وشهواتها ، وترويضها على تحمل المكاره وتمويدها على أداء الطاعات .

والمصابرة : هى المفاصلة بالصبر ، بأن يكون المؤمن أشد صبراً من عدوه . ورابطوا من المراقبة وهى القيام على الثغور الإسلامية لحمايتها من الأعداء ، فهى استعداد ودفاع وحماية لديار الإسلام من مهاجمة الأعداء .

والمعنى : «يا أيها الذين آمنوا اصبروا ، على طاعة الله وعلى تحمل المكاره والآلام برضا لا سخط معه ؛ فإن الصبر جماع الفضائل ، وأساس النجاح والظفر ، وصابروا ، أى قابلوا صبر أعدائكم بصبر أشد منه وأقوى فى كل موطن من المواطن التى تستلزم الصبر وتقتضيه .

قال صاحب الكشاف : «وصابروا ، أعداء الله فى الجهاد ، أى غالبوم

في الصبر على شدة الحرب ، ولا تكونوا أقل منهم صبرا وثباتا ، فالمصابرة باب الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدة وصوبته (١) .  
 ورابطوا ، أى أقيموا على رابطة الغزوة في نحر العدو بالقرصد له ، والاستعداد لمبارته وكونوا دائماً على حذر منه حتى لا يفاجئكم بما تكرهون .  
 ولقد كان كثير من السلف الصالح يرابطون في سبيل الله نصف العام ، ويطلبون قوتهم بالعمل في النصف الآخر .

ولقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث التي وردت في فضل الرابطة من أجل حماية ديار الإسلام ، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، » .

وروى مسلم في صحيحه عن سلمان الفارسي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان ، » (٢) .  
 وبعضهم جعل المراد بالرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة ، مستدلاً بالحديث الذي رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة . فذلكم الرباط ، » .

قال القرطبي - بعد أن ساق هذا الحديث - : والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة في سبيل الله . وأصلها من ربط الخيل ، ثم سمي كل ملازم لشئ من ثغور المسلمين ، رابطاً فارساً كان أو راجلاً . واللفظ مأخوذ من الربط . وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - « فذلكم الرباط ، » إنما هو تعبيه بالرباط في سبيل الله ، (٣) .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٤٤

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٥٤

(٣) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٢٣

وَمَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنْ الْمُرَابِطَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ حِمَايَةِ الدِّيَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ . وَأَنَّ الصَّالِحِينَ الْأَخْيَارَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا لَا يَنْقَطِعُونَ عَنْهَا ، وَمَا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا كَتَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ - وَهُوَ يَرَابِطُ بِطَرَسُوسَ - إِلَىٰ صَدِيقِهِ الْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضَ - رَكَانَ الْفَضِيلِ مَهْتَكِفًا بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلت أنك في العبادة تلعب
من كان يخطب خده بدموعه	فنهجورنا بدمائنا نتخضب
أو كان يتمخ خيله في باطل	غفولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبرنا	ريح السنايك والغبار الأطيب
ولقد أنا من مقال فيينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يسترى غبار خيل الله في	أقف أمرى وذخان نار تلعب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد يميت لا يكذب

فلما قرأ الفضيل هذه الآيات بكى وقال : صدق عبد الله . .

وقوله « واتقوا الله لعلكم تفلحون » ، أى اتقوا الله بأن تصونوا أنفسكم عن محارمه وعن مخالفة أمره ، رجاء أن يكتب لكم الفوز بالنصر في الدنيا ، والثواب الحسن في الآخرة .

وبعد : فهذه سورة آل عمران ، وهذا تفسير مفصل لما اشتملت عليه من توجيهات نافعة ، وعظات بليغة ، وآداب عالية ، وتشريعات سامية ، وتربية رشيدة ، وعبادات قوية ، وحجج ثابتة الحق وتدحض الباطل . . .  
واقه نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ونافعاً لعباده . . .  
والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الدكتور  
محمد سيد طنطاوى  
مفتى الديار المصرية

١٨ من رمضان سنة ١٤٠٧ هـ  
١٥ من مايو سنة ١٩٨٧ م

## فهرس إجمالى لتفسير «سورة آل عمران»

رقم الصفحة	رقمها	الآية المفسرة
٥		تمريف بسورة آل عمران .....
٢٠	١	السم .....
٢١	٢	الله لا إله إلا هو .....
٢٢	٢	زل عليك الكتاب .....
٢٥	٤	من قبل هدى للناس .....
٢٨	٥	إن الله لا يخفى عليه شيء .....
٣١	٦	هو الذى يصوركم .....
٣٤	٧	هو الذى أنزل عليك الكتاب .....
٤٧	٨	ربنا لا نزغ قلوبنا .....
٤٨	٩	ربنا إنك جامع للناس .....
٥٠	١٠	إن الذين كفروا .....
٥١	١١	كذب آل فرعون .....
٥٣	١٢	قل لاذين كفروا .....
٦٠	١٣	قد كان لكم آية فى اثنين .....
٦١	١٤	زين للناس حب الشهوات .....
٦٢	١٥	قل أؤنبشكم بخير من ذلكم .....
٦٨	١٦	الذين يقولون ربنا .....
٧٢	١٧	الصابرين والصادقين .....
٧٣	١٨	شهد الله أنه لا إله إلا هو .....
٧٦	١٩	إن الدين عند الله الإسلام .....
٨٢	٢٠	فإن حاجوك فقل .....
٨٢	٢١	إن الدين يكله رون .....
٨٦	٢٢	أولئك الذين حبطت .....
٨٧	٢٣	لم تر إلى الذين أتوا .....
٩١	٢٤	ذلك بأنهم قالوا .....
٩٢	٢٥	فكيف إذا جئناهم .....

رقم الصفحة	رقمها	الآية المفسرة
٩٣	٢٦	قل اللهم مالك الملك .....
٩٦	٢٧	توَجَّعَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ .....
٩٩	٢٨	لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ ...
١٠٥	٢٩	قُلْ إِنْ تَحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ ...
١٠٧	٣٠	يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ .....
١٠٩	٣١	قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ .....
١١٠	٣٢	قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .....
١١١	٣٢	إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ .....
١١٢	٣٤	ذَرِيَّةً بِمِثْلِهَا مِنْ بَعْضِ .....
١١٤	٣٥	إِذْ قَالَتْ امْرَأَةٌ عَمْرَانُ .....
١١٧	٣٦	فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ .....
١٢١	٣٧	فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ .....
١٢٢	٣٨	هَذَاكَ دَعَا زَكَرِيَّا .....
١٢٣	٣٩	فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ .....
١٢٦	٤٠	قَالَ رَبِّ أُنْزِلْ لِي .....
١٣٠	٤١	قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً .....
١٣٤	٤٢	وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ .....
١٣٥	٤٣	يَا مَرْيَمُ اقْنُصِي لِرَبِّكِ .....
١٣٧	٤٤	ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ .....
١٣٩	٤٥	وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ .....
١٤١	٤٦	وَبِكَلِمَةٍ نَفَخْنَا فِيكِ الْمَهْدَ .....
١٤٦	٤٧	قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ .....
١٤٧	٤٨	وَيَعْلَمُ السَّكَّابُ .....
١٤٩	٤٩	وَوَسَّوْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ .....
١٥٢	٥٠	وَمَصَدَقْنَا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ .....
١٥٥	٥١	إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ .....
١٥٦	٥٢	فَلَمَّا أَحْسَسَ عَيْسَى .....
١٥٨	٥٣	رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ .....
١٥٩	٥٤	وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ .....

رقم الصفحة	رقبها	الآية المسمرة
١٦١	٥٥	إذ قال الله بأعيسى . . . .
١٦٢	٥٦	فأما الذين كفروا . . . .
١٦٥	٥٧	وأما الذين آمنوا وعملوا . . . .
١٦٦	٥٨	ذلك تتلوه عليك . . . .
١٦٧	٥٩	إن مثل عيسى عند الله . . . .
١٦٨	٦٠	الحق من ربك فلا . . . .
١٦٩	٦١	فمن حاجك فيه من بعد . . . .
١٧١	٦٢	إن هذا هو القصص . . . .
١٧٥	٦٣	فإن تولوا فإن الله . . . .
١٧٦	٦٤	قل يا أهل الكتاب تعالوا . . . .
١٧٧	٦٥	يا أهل الكتاب لم تحاجون . . . .
١٧٩	٦٦	ها أنتم هؤلاء حاجبتم . . . .
١٨٠	٦٧	ما كان إبراهيم يهودياً . . . .
١٨٢	٦٨	إن أولى الناس بإبراهيم . . . .
١٨٣	٦٩	ودت طائفة من أهل الكتاب . . . .
١٨٤	٧٠	يا أهل الكتاب لم تكفرون . . . .
١٨٥	٧١	يا أهل الكتاب لم تابسون . . . .
١٨٧	٧٢	وقالت طائفة من أهل الكتاب . . . .
١٨٨	٧٣	ولا تؤمنوا إلا لمن تبع . . . .
١٩٥	٧٤	يخص برحمة من يشاء . . . .
١٩٦	٧٥	ومن أهل الكتاب . . . .
٢٠١	٧٦	بلى من أوفى بعهده . . . .
٢٠٢	٧٧	إن الذين يشترون . . . .
٢٠٧	٧٨	وإن منهم لفريقاً . . . .
٢١٠	٧٩	ما كان ليشر أن . . . .
٢١٢	٨٠	ولا يأمركم أن تتخذوا . . . .
٢١٥	٨١	وإذا أخذ الله ميثاق . . . .
٢١٩	٨٢	فمن تولى بعد ذلك . . . .
٢٢٠	٨٣	انتهر دين الله يبغون . . . .

رقم الصفحة	رقمها	الآية المفردة
٢٢٣	٨٤	قل آتينا بالله وما أنزل إلينا .....
٢٢٤	٨٥	ومن يتبع غير الإسلام .....
٢٢٦	٨٦	كيف يهدي الله قوما .....
٢٢٨	٨٧	أولئك جزاؤم أن عليهم .....
٢٢٩	٨٨	خالدين فيها لا يخفف .....
٢٣٢	٨٩	إلا الذين تابوا .....
٢٣٢	٩٠	إن الذين كفروا بعد .....
٢٣٣	٩١	إن الذين كفروا وماتوا .....
٢٣٩	٩٢	أن تناولوا البر حق .....
٢٤٠	٩٣	كل الطعام كان حلالا .....
٢٤١	٩٤	لئن افتري على الله .....
٢٤٤	٩٥	قل صدق الله فابصروا .....
٢٤٥	٩٦	إن أول بيت وضع للناس .....
٢٤٧	٩٧	فيه آيات بينات .....
٢٥٤	٩٨	قل يا أهل الكتاب لم تكفرون .....
٢٥٥	٩٩	قل يا أهل الكتاب لم تصدون .....
٢٥٦	١٠٠	بأبها الذين آمنوا إن تطهروا .....
٢٥٨	١٠١	وكيف تكفرون وأنتم .....
٢٦٠	١٠٢	بأبها الذين آمنوا اتقوا .....
٢٦١	١٠٣	واعصموا بحبل الله .....
٢٦٣	١٠٤	ولذلكن منكم أمة .....
٢٧١	١٠٥	ولا تكونوا كالذين .....
٢٧٣	١٠٦	يوم تبيض وجوه .....
٢٧٤	١٠٧	وأما الذين ابيضت .....
٢٧٥	١٠٨	تلك آيات الله .....
٢٧٨	١٠٩	ولله مافی السموات ومافی الأرض .....
٢٨١	١١٠	كنتم خير أمة أخرجت .....
٢٨٣	١١١	لئن يضروكم إلا أذى .....
٢٩١	١١٢	ضربت عليهم الذلة .....
٢٩٩	١١٣	لهوا سواها .....

رقم الصفحة	رقمها	الآية المفردة
٣٠١	١١٤	يؤمنون بالله واليوم الآخر . . . .
٣٠٣	١١٥	وما يفعلوا من خير . . . .
٣٠٥	١١٦	إن الذين كفروا . . . .
٣٠٧	١١٧	مثل ما ينفقون في . . . .
٣١١	١١٨	يأبىها الذين آمنوا لاتتخذوا . . . .
٣١٤	١١٩	هأنتم أولاء تحبونهم . . . .
٣١٦	١٢٠	إن تمسك حسنة . . . .
٣١٩	١٢١	وإذ غدوت من أهلك . . . .
٣٢١	١٢٢	إذ همت طائفتان . . . .
٣٢٤	١٢٣	ولقد نصركم الله بيذر . . . .
٣٢٦	١٢٤	إذ تقول المؤمنين . . . .
٣٢٧	١٢٥	بلى إن تمبروا . . . .
٣٣٤	١٢٦	وما جعله الله إلا بشراى لكم . . . .
٣٣٧	١٢٧	ليقطع طرفا من . . . .
٣٤٠	١٢٨	ليس لك من الأمر شيء . . . .
٣٤١	١٢٩	والله مافى السموات ومافى الأرض . . . .
٣٤٢	١٣٠	يأبىها الذين آمنوا لانأكلوا . . . .
٣٤٦	١٣١	واقفوا النار التي . . . .
٣٤٧	١٣٢	وأطيعوا الله والرسول . . . .
٣٤٨	١٣٣	وسارعوا إلى مفرة . . . .
٣٥١	١٣٤	الذين ينفقون . . . .
٣٥٢	١٣٥	والذين إذا قتلوا . . . .
٣٥٦	١٣٦	أولئك جزاؤهم مفرة . . . .
٣٥٧	١٣٧	قد خلت من قبلكم . . . .
٣٥٩	١٣٨	هذا بيان لقناس . . . .
٣٦٠	١٣٩	ولا تنهوا ولا تحزنوا . . . .
٣٦٣	١٤٠	إن بمسككم فسرح . . . .
٣٦٨	١٤١	وليجبض الله الذين آمنوا . . . .
٣٧٠	١٤٢	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة . . . .
٣٧١	١٤٣	واقدر كنتم عنون للوث . . . .

رقم الصفحة	رقمها	الآية المفسرة
٣٧٤	١٤٤	وما محمد إلا رسول . . . .
٣٧٨	١٤٥	وما كان لنفس أن تموت . . . .
٣٧٩	١٤٦	وكاين من نبي قاتل معه . . . .
٣٨١	١٤٧	وما كان قولهم . . . .
٣٨٢	١٤٨	فإنآ نام الله ثواب الدنيا . . . .
٣٨٥	١٤٩	بأيها الذين آمنوا إن . . . .
٣٨٦	١٥٠	بل الله مولاكم . . . .
٣٨٧	١٥١	سنلقى في قلوب . . . .
٣٩١	١٥٢	ولقد صدقكم الله . . . .
٣٩٧	١٥٣	إذ تصمدون ولا . . . .
٤٠١	١٥٤	ثم أنزل عليكم من بعد الغم . . . .
٤٠٨	١٥٥	إن الدين نولوا منكم . . . .
٤١١	١٥٦	بأيها الذين آمنوا . . . .
٤١٣	١٥٧	وإن قتلتم في سبيل الله . . . .
٤١٥	١٥٨	وإن تم أو قتلتم . . . .
٤١٨	١٥٩	فبأرحمة من الله . . . .
٤٢٢	١٦٠	إن ينصركم الله . . . .
٤٢٤	١٦١	وما كان لنبي أن ينفل . . . .
٤٢٦	١٦٢	أفمن اتبع رضوان الله . . . .
٤٢٩	١٦٣	هم درجات عند الله . . . .
٤٣١	١٦٤	أنقذ من الله على المؤمنين . . . .
٤٣٣	١٦٥	أولما أصابتكم مصيبة . . . .
٤٣٥	١٦٦	وما أصابكم يوم التقى . . . .
٤٣٩	١٦٧	وليعلم الدين نائفوا . . . .
٤٤٢	١٦٨	الذين قالوا لإخوانهم . . . .
٤٤٤	١٦٩	ولا تحسبن الذين قتلوا . . . .
٤٤٦	١٧٠	فرحين بما آتاهم الله . . . .
٤٤٨	١٧١	يستبشرون بنعمة . . . .
٤٥١	١٧٢	الذين استجابوا . . . .
٤٥٢	١٧٣	الذين قالوا لهم للناس . . . .

رقم الصفحة	رقمها	الآية المفسرة
٤٥٥	١٧٤	فانقلبوا بنعمة من الله . . . .
٤٥٧	١٧٥	إعنا ذلكم الشيطان . . . .
٤٥٩	١٧٦	ولا يحزنك الذين . . . .
٤٦٠	١٧٧	إن الذين اشتروا . . . .
٤٦٢	١٧٨	ولا يحسبن الذين كذبوا . . . .
٤٦٤	١٧٩	ما كان الله ليذر . . . .
٤٦٦	١٨٠	ولا يحسبن الذين يبخلون . . . .
٤٧٠	١٨١	لقد سمع الله قول . . . .
٤٧٢	١٨٢	ذلك بما قدمت . . . .
٤٧٤	١٨٣	الذين قالوا إن الله . . . .
٤٧٦	١٨٤	فإن كذبوك فقد . . . .
٤٧٨	١٨٥	كل نفس ذائقة الموت . . . .
٤٨٠	١٨٦	لنيسلون في أموالكم . . . .
٤٨٢	١٨٧	وإذا أخذ الله ميثاق . . . .
٤٨٤	١٨٨	لأتحسبن للذين يفرحون . . . .
٤٨٩	١٨٩	ولله ملك السموات . . . .
٤٩٠	١٩٠	إن في خلق السموات . . . .
٤٩٢	١٩١	الذين يذكرون الله . . . .
٤٩٤	١٩٢	ربنا إنك من تدخل . . . .
٤٩٥	١٩٣	ربنا إنا سمعنا مناديا . . . .
٤٩٦	١٩٤	ربنا وآتانا ما وعدتنا . . . .
٤٩٧	١٩٥	فاستجاب لهم ربهم . . . .
٥٠٢	١٩٦	لا يميزك قلب . . . .
٥٠٣	١٩٧	متاع قليل ثم ما أوام . . . .
٥٠٤	١٩٨	لسكن الذين اتقوا ربهم . . . .
٥٠٥	١٩٩	وإن من أهل الكتاب . . . .
٥٠٦	٢٠٠	بأبصارهم آمنوا أصبروا . . . .

رقم الإيداع ٧٧/٢٦٥٥



رقم الإبداع ٧٧/٣٦٥٥

